جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين

المولى محمد مهدي النراقي



الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

جامع السعادات

(الجزء الأول)

جامع السعادات

للشيخ الجليل احد اعلام المجتهدين

المولى محمد مهدي النراقي (قدس سره)

(الجزء الأول)

انتشارات اسماعيليان

نراقی، مهدی بن ابی ذر، ۱۱۲۸-۱۲۰۹ق.

جامع السعادات / مؤلف محمد مهدی النراقی.-

قم: انتشارات اسماعیلیان، ۱۳۷۹.

۲ج.

(ج.۱)ISBN 964-6397-20-4-.(دوره)ISBN 964-6397-19-0

(ج.۲)ISBN 964-6397-21-2

فهرستنویسی بر اساس اطلاعات فیپا.

چاپ قبلی: دارالتفسیر، ۱۳۷۵.

کتابنامه.

۱.اخلاق اسلامی. الف.عنوان.

۲ج٤ن/BP۲٤۷/۷/۷ ۲۹۷/٦۱

۱۳۷۹

۷۹-۳۵۸٤م

کتابخانه ملی ایران

اسم الكتاب:	جامع السعادات (ج ۱)	عدد المطبوع :	۱۰۰۰ مجلد
المؤلف :	الشيخ الجليل محمد مهدی النراقی	القطع:	وزيری
الناشر:	اسماعیلیان ۷۷٤٤۲۱۲-۰۲۵۱	عدد الصفحات:	٥۲۸ صفحة
تاريخ النشر:	۱٤۲۸ هـ. ق - ۱۳۸٦ هـ. ش	شابك مجلد الاوّل:	۹٦٤-٦۳۹۷-۲۰-٤
الطبعة :	السابعة	شابك الدورة:	۹٦٤-٦۳۹۷-۱۹-۰
المطبعة:	سرور	سعر المجلدين:	٥٥۰۰ تومان

﴿ نبذه عن حياة الناشر ﴾

الشيخ الحاج سيف الله اسماعيليان«رحمه الله»

ولد في مدينة دهاقان التابعة لمحافظة اصبهان سنة ١٣٤٤ هـ. ق حيث نشأ فيها نشأته الاولىٰ، ثم هاجر الىٰ الغري«النجف الاشرف» وهو في الخامسة والعشرين من عمره، واقام فيها سنوات عديدة، مشتغلاً في مختلف الاعمال، حتى وفقه الله تعالىٰ للعمل في نشر الكتب وبيعها، ففتح مكتبة صغيرة في «قيصرية علي آغا» ثم اتّسع مجال عملهاستطاع ان ينشأ مكتبة كبيرة بجانب مدرسة آية الله البروجردى العلمية واصبح بعد ذلك من أوجه الكتبيّين في النشر والتوزيع، وكانت مكتبته مزدحمة بطلاب العلوم الدينية والعلماء والفضلاء.

إعتقل الشيخ اسماعيليان«رحمه الله» بواسطة السلطات العراقية في ذلك الوقت ثم سجن في «قصر النهاية» لمدة تسعة عشر شهراً. فتخلص منه بأعجوبة ومعجزة الهية. فكان من المحتّم أن يعدم وقد تمّ إجراء هذا الحكم بإجباره علىٰ ابتلاع أقراصٍ سامّةٍ كادت أن تودّي بحياته، إلاّ أن الآجال بيد الله العزيز القدير. وتم الإفراج عنه سنة ١٣٩٠هق فيها إتجّه الىٰ قم المقدسة واتخذها مقاماً له، فابتدأ عمله ثانيةً

واستطاع بفضل جهده ومثابرته أن ينشأ مطبعة كبيرة اشتهرت فيمابعد بطبع ونشر آثار الشيعة وعلومهم، وبرز عطائه الثر يوماً بعد يوم حتىٰ ظهر من وجهاء الناشرين زكياً في عمله، واسع الصّدر في معاشرته مع الناس، كريماً في التعامل، خاصة مع الناشئين من طلاب الحوزات العلمية الذين لم يتمكنوا من شراء الكتب لقلة ذات اليد، فكان«رحمه الله» يقسّط لهم مبالغ الكتب ليتمكنوا من تسديدها ولو خلال فتراتٍ طويلة ثم قام الشيخ اسماعيليان«رحمه الله» طوال فترة عمله في النجف الاشرف وقم المقدسة بطبع ونشر آثار الزعيم الاسلامي الراحل الامام الخمينى«قدس سره» حيث كان احد الموالين والمخلصين لسماحته. بصورة شاملة يمكن أن نقول إن المجموعة الكبيرة من الكتب العلمية المهمة التي كانت تعدّ من دعائم‌الفكرالاسلامى والشيعي، طبعت ونشرت علىٰ يد هذا الرجل الاسلامى المجاهدمن تلك الكتب:

«تفسير الميزان»، «تفسير البرهان»، «تفسيرنورالثقلين»، «مستمسك العروة الوثقى»، «الذريعة الى تصانيف الشيعة»، «تحرير الوسيلة»، «مستدرک الوسائل»، «القواعد الفقهية»، «جامع المدارك»، « «فقه القرآن» و «لوامع صاحبقرانى»، «المكاسب المحرمة»، «كتاب البيع»، «الرسائل»، «الخلل فى الصلوة»، «الطهارة»، «مجمع‌الرجال»، «ايضاح الفوائد»، «جامع السعادات»، «نهاية الاحكام»، «شرايع الاسلام»، «التكامل فى الاسلام»، «شرح نهج البلاغة ابن ابى‌الحديد»، «معارف و معاريف»،....

عاش «رحمه الله» حتىٰ نهاية عمره في قم المقدسة باذلاً جهده الكبير في بث واشعاع الفكرالاسلامى، متفانياً في حبّ آل الرسول«عليهم السلام»، حتىٰ وافاه الأجل في الثانى عشر من شهر شوال سنة ١٤١٩ هـ. ق ملبياً دعوة ربّه وكان مدفنه في مقبرة «شيخان» بقم المقدسة. «تغمده الله بواسع رحمته واسكنه فسيح جناته»

و السلام عليكم ورحمة الله

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطاهرين واللعن على اعدائهم اجمعين الى يوم الدين.

وبعد، فإنّ من اهم ما يجب على المؤمنين فى زماننا هذا حفظ عقائد المؤمنين، وتشييد مباني شريعة سيد المرسلين ﷺ بانتهاج المناهج المختلفة، والصور المتصورة، ومنها القاء المحاضرات الدينية الاخلاقية فى المساجد والمحافل خالية من الاغراض الفاسدة الدنيوية، لحفظ الجيل المعاصر عن الانغمار فى المفاسد الاخلاقية.

ومنها: تاليف الكتب المقنعة فى مباحث الاصول والفروع الدينية وبث الكتب الاخلاقية المنبعثة من تراجم الوحى الالهية بلسان الحجج الطاهرة، غير مستندة الى كلمات غير سديدة مخبوءة فى افواه الفلاسفة والعرفاء، بل لابد ان تكون كلها متخذة من الاحاديث الصحيحة الامامية.

ومنها: التحقيق لآثار القدماءمن اعيان العلماء الحقة الاثني عشرية الموضوعة فى الاخلاق، ونشرها فى الافاق بلُغات مختلفة فى نواحى شتّى فى حلة قشيبة يرغب الناس اليها، خالية من الاغلاط المطبعية، والخلل من الامور الفنية.

لأن الافكار الخرافية والانغماس فيها قد بلغت غايتها بل الى منتهاها، لرسوخ الفكرة الغربية الأثيمة واللادينية الشرقية الشيوعية، وكذا رسوخ لفكرة الالتقاطية بين الشباب المعاصر، وجمع كثير من المسلمين فى قوالب الاخبارية والاصولية فى الجامعات والحوزات، وترويج هذه الفكرة لا يحصل الا بالمساعي الملعونة والخبيثه للاجانب والمستعمرين فى جل البلاد الاسلامية وعليه فمن اهتّم للدفاع عن هذه الفكرة باى وجه يمكن كان فى الصف الاول للمجاهدة والدفاع عن الاسلام

والایمان.

ومن اهم الکتب المؤلفة فی الاخلاق جامع السعادات، تالیف العلم العلامة المجتهد العادل الربانی المولی مهدی بن ابی ذر النراقی اصلاً والکاشانی سلفاً والنجفی مرقداً، أطاب الله الثراه وجعل الجنة مثواه، ولما اراد الوجیه الخیّر صدیقنا المعظم الحاج سیف الله اسماعیلیان تجدید طبعها مع الملاحظات الفنیة، سألنی ان اکتب وجیزة مختصرة حول المؤلف والمؤلف فاجبت سؤله وشرعت فی المقصود بعون الملک المعبود

(المؤلف)

هو العلامة الجامع لفنون العلوم الدینیة النقلیّة والعقلیة، المولی مهدی بن ابی ذر النراقی الکاشانی طاب ثراه، ولد فی سنة ۱۱۲۸ ه‍. ق تقریباً علی احتساب الثقة العلامة المظفر فی مقدمة المطبوعة، ونشأ فی بلده ومسقط رأسه، واخذ الاولیات عند علماء البلدة، وسافر بعد ذلک الی اصفهان وکربلاء المقدسة.

وفاته: قال السید الامین ﷺ بانه توفی فی سینة ۱۲۰۹ ه‍. ق کما ذکره العلامة المظفر فی المقدمة المطبوعة فلاحظ ذلک.

مدة عمره الشریف: قال السید حسن الزنوزی المعاصر للمترجم فی کتابه ریاض الجنة التی کانت مخطوطة فی سالف الزمان وصارت بحمد الله مطبوعة فی المکتبة العامة للسید شهاب الدین المرعشی فی قم المقدسة: ان عمر النراقی ﷺ حین الاجل ۶۳ سنة، فتکون سنة ولادته ۱۱۴۶ه‍ ق، ولا یساعد هذا الکلام مع ما هو المعروف فی التراجم من انه تتلمذ علی المحقق المولی اسماعیل الخاجوئی ﷺ مدة ثلاثین سنة لانه یکون عمره الشریف من حین الولادة الی زمن استاذه الخاجوئی ۲۷ سنة وهذا غیر صحیح، واما اذا قلنا بان تاریخ ولادته سنة ۱۱۲۸ ه‍. ق، والوفاة

المتفق عليها الكل فيكون عمره ٨١ سنة على الاقل وترتفع الاشكال رأساً.

(حياته العلمية)

قد شرع شيخنا المترجم فى زوايا الخمول فى المدارس والحجرات والبيوت وعكف عليها سنين عديده، كما هو العادة لعشرات الآلاف من امثال المترجم من طلبة العلوم الدينية، خامل الذكر، فقير الحال، منزوياً عن الحكام والامراء والناس ولا يعرفه احد الا المشتغلين من اقرانه، الذين لا يهمهم من شأنه الا انه طالب كاحد الطلاب فى الجامعة العلمية.

وبطبيعة الحال لا تسجّل تواريخ هذه الفترة، وكذلك الامر لكل طالب علوم الا اذا بلغ درجة يرجع اليه الطلاب فى التدريس، او الناس للتقليد، او لنشر مؤلفاته فى الأعصار والأمصار، وبهذه الامور تظهر معرفة حياة العالم، تظهر آثاره العلمية ومكانته الاجتماعية، ويلمع اسمه فى الأوساط العلمية والحوزات الدينية.

(اساتذة المؤلف)

ان المؤلف العظيم قد حضر عدةً من العلماء المحقين فى اصفهان وكربلاء وعمدة استفادتة فى ايران تنسب الى المحقق العظيم المولى اسماعيل الخاجوئى ﷺ الذى سكن اصفهان ومات ودفن فيها، وقد ذكروا ان الشيخ العالم المولى اسماعيل لم ينتقل من اصفهان الى بلد اخر الا فى الفتنة المفجعة الافغانية التى هتكت النواميس واتلفت الاموال والاعراض وقتلت جمعاً غفيراً من اعيان العلماء والسادة، والسلاطين الصفوية المؤمنة الموسوية بمالم تحدّث التواريخ عن مثلها.

وقرأ المترجم على الخاجوئى الفقه والاصول والفلسفة، لانه كان ايضاً من

الفلاسفة المعروفين الذين ينتهى عصرهم الى زمن المحقق المولىٰ صدر الدين الشيرازى، ودرس ايضاً على العالمين الكبيرين الشيخ محمد بن العالم الاوحد الحاج محمد زمان الكاشانى والشيخ محمد مهدى الهرندى ﷺ.

وبعد مدة انتقل الى كربلاء المقدسة وحضر العلامة الوحيد البهبهانى ﷺ والفقيه المحدث صاحب الحدائق الناضرة الشيخ يوسف البحرانى(١) والعلامة الشيخ مهدى الفتونى العاملى(٢) واساتذة المترجم المعظم كلهم خيرة علماء ذلك العصر الذهبى والاسف من زماننا هذا لقلة امثال هولاء الاجلة، وكثرة الجهلة المنغمرين فى بحور الظلمة والضلالة، أعاذناالله منهم.

(رجوعه الى كاشان)

رجع المترجم الجليل بعد قضاء وتره الى بلدة كاشان واستقر فيها وراجعت اليه جميع الطبقات من العوام والخواص، واسس هناك مركزاً علمياً تشد اليه الرحال، واستمرت بعده المراكزالعلمية فى ايران.

---

(١) هو العلامة المحدث المحقق الشيخ يوسف بن احمد الرازى البحرانى من فقهاء الامة وعلمائهم. ولد فى ماحوز فى سنة ١١٠٧ وتوفى فى كربلاء المقدسة فى سنة ١١٨٦ وله مؤلفات قيمة منها الحدائق الناضرة فى فقه العترة الطاهرة، والسلاسل الحديد فى رد ابن ابى الحديد، والكشكول البحرانى ولؤلؤة البحرين فى تراجم علماء بحرين وقد صلى عليه الوحيد البهبهانى ﷺ ودفن فى الحائر الشريف.

(٢) هو الشيخ الصالح مهدى بن بهاءالدين محمد بن على الفتونى النباطى العاملى ولد فى لبنان النباطيه. ونشأ بها فى بيت العلم والشرف والوجاهة، هاجر الى العراق فى اوائل سنى جور الجائر احمد باشا الجزار على الشيعة فى جبل عامل واقام فى النجف وجعلها دار سكناه الدائمى واكمل دراسته بها واصبح يعد من العلماء العاملين ثم صار استاذ العلماء الاساطين توفى حدود سنة ١١٨٣هـ ق . اعقب الشيخ احمد. لاحظ معارف الرجال لحرزالدين ج٣: ٧٩

(زيارته العتبات العاليات)

ان التواريخ والسير لم تسجّل سنة رجوع المترجم النراقى ﵀ الى العراق، ولكن الظاهر من القرائن انه وقعت هذه الرحلة فى سنة ١٢٠٩ وما يقاربها، ويساعده فى تلك الرحلة ابنه العالم العلامة المولى احمد ﵀ وبقى بعد وفات والده فى العراق ليدرس عند الاعلام كالسيد مهدى الطباطبائى بحر العلوم ﵀ والشيخ الفقيه النبيه كاشف الغطاء وغيرهما.

(وفات المترجم)

توفى العالم الكبير المترجم العظيم فى سنة ١٢٠٩هـ ق . حينما زار العتبات العاليات ودفن فى الغرى الشريف فى الايوان الذهبى ،كما اتفق عليه المؤلفان كالأعيان والروضات وغيرها.

(ثناء العلماء عليه)

قال السيد صاحب الروضات ﵀ كان من اركان علمائنا المتأخرين، واعيان فضلائنا المتبحرين، مصنفاً فى اكثر فنون العلم والكمال، مسلماً فى الفقه والحكمة والاصول والاعداد والاشكال[١]

ونقل صاحب الاعيان السيد محسن العاملى ﵀ نص كلمات السيد صاحب الروضات ﵀ مع الزيادة التى نقلت عن ولده العلامة المولى احمد النراقى ﵀ الخ[٢]

وقال الزنوزى المعاصر له فى رياض الجنة: عالم كامل، فاضل صالح جليل، محقق مدقق عادل، حافظ متبحر، فقيه حكيم متكلم، مهندس معاصر، ما هر فى اكثر

---

(١) روضات الجنات ج٧: ٢٠٠.

(٢) اعيان الشيعه ج١٠: ١٤٣.

الفنون الاسلامية وغيرها من سائر الملل والاديان، جليل القدر عظيم الشأن، صاحب الاخلاق الكريمة والطريقة المرضية، وله مؤلفات كثيرة، تتلمذ على كثير من العلماء منهم، الاديب المتبحر المهندس الميرزا محمد الطبيب الاصفهانی الخ وقال المولیٰ حبيب الله الشريف الكاشانی ﴿﴾: العارج اعلى المراقی الحاج الملا مهدی بن ابی ذر بن الحاج محمد النراقی، كان عالماً عيلوماً، محققاً مدققاً، استاذ الكل فی الكل، جامعاً لجميع العلوم العقلية، ماهراً حاذقاً فی العلوم الشرعية، كاشفاً عن اسرار دقائق لم يطلع عليها من قبله الخ(١).

وقد بلغ المحقق المولی حبيب الله فی مدحه غايته وذكر مؤلفاته الفقهية والاصولية، والحكمية، فلاحظ ذلك.

والعجيب من العلامة المورخ الرجالی الشيخ محمد حرز الدين النجفی انه لم يعقد باباً فی كتابه معارف الرجال فی ترجمة المحقق المؤمیٰ اليه وابنه المحقق النراقی الثانی صاحب المستند والفوائد، ولا ادری ای السبب فی عدم الذكر، مع انه قد اتی بتراجم جمعٍ غفير من الافاضل الذين لم يبلغو الی بعض المراتب العلمية بالنسبة الی المحقق الجليل والحبر الكبير المولیٰ مهدی بن ابی ذر النراقی الكاشانی وابنه العلم الاوحد، والمحقق الفرد، صاحب المستند والعوائد الملااحمد النراقی الكاشانی تغمده‌الله فی بحور رحمته، ولعله قد غفل وتسامح نعوذ بالله منها ولعله وجه قد خفي علينا والله العالم بحقائق الامور.

ونحصل من كلمات الاعلام: ان المحققالنراقی وابنه العلامة المولی احمد نحريران من النحارير من علماء الشيعة وقد ترجم لهما كثيراً من ارباب التراجم وحيث لا يسعنا المجال لذكر كلماتهم قد اكتفيت الی هنا.

---

(١) لباب اللقاب: ٩٢.

(مؤلفاته)

ولا يخفى ان للمحقق النراقى ﷺ مؤلفات شتّى فى الفقه والاصول والحكمة والكلام ذكرها السيد محسن الامين العاملى طاب مضجعه فى الاعيان واليك اسمائها

منها: ١ ـ معتمد الشيعة فى احكام الشريعة. ٢ ـ لوامع الاحكام فى فقه شريعة الاسلام ينقل عنه ولده الشيخ احمد فى المستند والعوائد كثيراً. وفى مستدركات الوسائل ان اللوامع ينبع عن فضله وتبحره فى انواع العلوم. ٣ ـ التحفة الرضوية فى المسائل الدينية. ٤ ـ التجريد فى اصول الفقه. ٥ ـ كتاب فارسى فى اصول الدين. ٦ ـ انيس التاجرين فى مسائل التجارة. ٧ ـ مشكلات العلوم بمنزلة الكشكول. ٨ ـ جامع السعادات فى الاخلاق مطبوع. ٩ ـ رسالة فى العبادات. ١٠ ـ مناسک الحج. ١١ ـ رسالة الحساب[١].

اما المؤَلَّف: اعنى جامع السعادات فهو مؤلف منيف فى الاخلاق الدينية والبحث عنها، والبيان لدفع الصفات الرذيلة، ودفع النفس الامارة وتربيتها بالرياضات الشرعية.

وقد قال العلامة المكرم فى شتى العلوم الاسلامية الشيخ محمد رضا المظفر فى مقدمة على جامع السعادات:

وفى نظرى ان قيمة (جامع السعادات) فى الروح المؤمنة التى تقرأها فى ثناياه اكثر بكثير من قيمته العلمية ـ الى ان قال ـ وهذا هو السر فى اقبال الناس عليه وفى شهرته... والكتاب نفسه يكشف لنا عن نفسية المؤلف، وماكان عليه من خلق عال وايمان صادق.

(١) اعيان الشيعة ج ١٠: ١٤٣.

وقد طبع هذا الكتاب مراراً فى ايران والعراق، منها الطبعة الحجرية المطبوعة بايران سنة ١٣١٢. ومنها الطبعة التى يملكها الخطيب السيد جواد شبّر.

وله النسختان المخطوطتان، ذكرهما العلامة المظفر نقلاً عن العالم الكبير المحقق الحاج آقا بزرگ الطهرانى ﷺ.

وقد طبع فى قم المقدسة فى السنوات الاخيرة برعاية الوجيه الخيّر الناشر الحاج سيف‌الله اسماعيليان حفظه الله تعالي، ولما أراد تجديد طبعه قد تصدىٰ صهره الشريف الفاضل محمد على خرد الدهاقانى، نجل العالم العلامة الثقة العدل الآية الربانى الشيخ محمد حسين الدهاقانى أطاب الله ثراه وجعل الجنة مثواه لإصلاح الاغلاط المطبعية واخراج مصادر الايات الإلهية وقد سعى سعياً بليغاً، شكر الله سعيه، مع انه كان بالجدير اخراج المصادر الروائية، والاقوال التى نقلها المؤلف من فطاحل الاخلاقيين، كالغزالى وغيره، وقد اكد على مأمول والده المحترم الشاب الموفق الفاضل الشيخ حسن اسماعيليان سلمه الله تعالى صاحب دارالتفسير للطباعة والنشر كتابة مقدمة وجيزه حول المؤلف والمؤلف فاجزت ما اراد وشرعت فى تنسيق المطالب واخراجها من المصادر وسميتها بمختصر الكلمات فى ترجمة صاحب جامع السعادات، والحمد لله رب العالمين والسموات والارضين وصلى الله على محمد وآله اجمعين واللعن على اعدائهم اجمعين الى يوم الدين.

ليلة ٩ رمضان المبارك ١٤١٧هـ ق

حرره العبد محمد رضا البانى الكاشانى عفى عنه

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي خلق الانسان، وجعله أفضل انواع الاكوان، وصيره نسخة لما أو جده من عوالم الامكان، اظهر فيه عجائب قدرته القاهرة. وابرز فيه غرائب عظمته الباهرة، ربط به الناسوت باللاهوت، واودع فيه حقائق الملك والملكوت، خمّر طينته من الظلمات والنور، وركّب فيه دواعي الخير والشرور، عجنه من المواد المتخالفة، وجمع فيه القوى والاوصاف المتناقضة، ثم ندبه إلى تهذيبها بالتقويم والتعديل، وحثه على تحسينها بعد ما سهل له السبيل، والصلاة على نبينا الذي أوتي جوامع الحكم، وبعث لتتميم محاسن الاخلاق والشيم، وعلى آله مصابيح الظلم، ومفاتيح ابواب السعادة والكرم صلى الله عليه وعليهم وسلم.

أما بعد فيقول طالب السعادة الحقيقية (مهدى بن أبي ذر النراقى) بصَّره الله بعيوب نفسه، وجعل يومه خيراً من أمسه: إنه لا ريب في ان الغاية من وضع النواميس والاديان، وبعثة المصطفين من عظماء الانسان، هو سوق الناس من مراتع البهائم والشياطين، وايصالهم إلى روضات العليين، وردعهم عن مشاركة أسراء ذل الناسوت، ومصاحبة قرناء جب الطاغوت إلى مجاورة سكان صقع الملكوت، ومرافقة قطان قدس الجبروت، ولا يتيسر ذلك إلا بالتخلى عن ذمائم الاخلاق ورذائلها، والتحلى بشرائف الصفات وفضائلها. فيجب على كل عاقل ان يأخذ اهبته، ويبذل همته في تطهير قلبه عن اوساخ الطبيعة وارجاسها، وتغسيل نفسه عن اقذار الجسمية وانجاسها قبل ان يتيه في بيداء الشقاق، ويهوى في مهاوى الضلالة والهلاكة، ويصرف جده ويجتهد جهده في استخلاص نفسه عن لصوص القوى

الامارة مادام الاختيار بيده، إذ لا تنفعه الندامة والحسرة في غده.

ثم لا ريب في ان التزكية موقوفة على معرفة مهلكات الصفات ومنجياتها، والعلم باسبابها ومعالجاتها، وهذا هو الحكمة الحقة التي مدح الله اهلها، ولم يرخّص لأحد جهلها، وهي الموجبة للحياة الحقيقة، والسعادة السرمدية، والتارك لها على شفا جرف الهلكات، وربما احرقته نيران الشهوات.

وقد كان السلف من الحكماء يبالغون في نشرها وتدوينها، وجمعها وتبيينها، على ما ادت إليه قوة انظارهم، وأدركوه بقرائحهم وأفكارهم. ولما جاءت الشريعة النبوية «على صادعها الف صلاة وتحية» حثت على تحسين الاخلاق وتهذيبها، وبينت دقائقها وتفصيلها بحيث اضمحل في جنبها ما قرره اساطين الحكمة والعرفان، وغيرهم من أهل الملل والاديان، إلا انه لما كان ماورد منها منتشراً في موارد مختلفة، ومتفرقا في مواضع متعددة، تعسّر ان يحيط به الجلّ فلا بد من ضبطه في موضع واحد ليسهل تناوله للكل، فجمعت في هذا الكتاب خلاصة ما ورد من الشريعة الحقة، مع زبدة ما أو رده أهل العرفان والحكمة على نهج تقرّ به اعين الطالبين، وتسر به افئدة الراغبين.

ونذكر أولا بعض المقدمات النافعة في المطلوب، ثم نشير إلى اقسام الاخلاق، ومبادئها من القوى ونضبطها باجناسها وانواعها ونتائجها وثمراتها، ثم إلى المعالجة الكلية لذمائم الاخلاق والجزئية لكل خلق مذموم: مما له اسم مشهور، وما ينشأ عنه من الافعال المذمومة، وفي تلوه نذكر ضده المحمود، وما يدل على فضله عقلا ونقلا، لأن العلم بفضيلة كل خلق والمداومة على آثاره أقوى علاج لازالة ضده، ولا نتابع القوم من تقديم الرذائل بأسرها على الفضائل، بل نذكر أو لا ما يتعلق بالقوة العقلية من الفضائل والرذائل على النحو المذكور، ثُم ما يتعلق بالغضبية، ثم ما يتعلق بالشهوية، ثم ما يتعلق باثنتين منها أو ثلاث، لأن ذلك ادخل في ضبط الاخلاق،

ومعرفة أضدادها، والعلم بمبادئها واجناسها، وهو من أهم الامور لطالبى هذا الفن.

وما تعرضت لتدبير المنزل وسياسة المدن، لان غرضنا في هذا الكتاب انما هو مجرد اصلاح النفس، وتهذيب الاخلاق، وسميته بـ«جامع السعادات» ورتبته على ثلاثة ابواب.

الباب الاوّل

في المقدمات

انقسام حقيقة الانسان وحالاته بالاعتبار - تجرد النفس وبقاؤها - التذاذ النفس وتألمها - فضائل الاخلاق ورذائلها - الاخلاق الذميمة تحجب عن المعارف - حصول الملكات بتضاعف الاعمال - العمل نفس الجزاء - القول بتجسد الاعمال والملكات - المضادة بين الدنيا والآخرة - للجبلة والمزاج دخل في جودة الملكات ورداءتها - حقيقة الخلق وماهية الملائكة - الاقوال في تبدل الاخلاق والملكات - شرف علم الاخلاق - تعريف النفس واساميها باختلاف الاعتبارات - في الاشارة إلى اعتبار مدافعة القوى الاربع - انقهار النفس بتسخير القوة العالية - اختلاف الصفات يوجب اختلاف النفوس - ائتلاف حقيقة الانسان من الجهات المتقابلة - حقيقة الخير والسعادة - والجمع بين الاقوال المختلفة فيها - شرائط حصول السعادة - غاية ما يمكن الوصول إليه من السعادة - تقسيم اللذات والآلام - اللذة في الحقيقة هي العقلية دون الحسية - ايقاظ فيه موعظة ونصيحة - التنبيه على ان الفائت لايتدارك.

فصل

(انقسام حقيقة الانسان وحالاته بالاعتبار)

اعلم ان الانسان منقسم إلى سر وعلن وروح وبدن ولكل منهما منافيات وملائمات، وآلام ولذات، ومهلكات ومنجيات.

ومنافيات البدن وآلامه هي الامراض الجسمانية وملائماته هي الصحة واللذات الجسمانية. والمتكفل لبيان تفاصيل هذه الامراض ومعالجاتها هو علم الطب. ومنافيات الروح وآلامه هي رذائل الاخلاق التي تهلكه وتشقيه، وصحته رجوعه إلى فضائلها التي تسعده وتنجيه وتوصله إلى مجاورة أهل الله ومقربيه. والمتكفل لبيان هذه الرذائل ومعالجاتها هو (علم الأخلاق).

ثم ان البدن مادى فان، والروح مجرد باق، فان اتصف بشرائف الصفات كان في البهجة والسعادة أبداً، وان اتصف برذائلها كان في العذاب والشقاوة مخلداً، ولا بد لنا من الاشارة إلى تجرده وبقائه بعد خراب البدن ترغيباً للطالبين على السعى في تزكيته وحفظه عن الشقاوة الأبدية.

فصل

(في تجرد النفس وبقائها)

لا ريب في تجرد النفس وبقائها بعد مفارقتها عن البدن. أما الأول (والمراد به عدم كونها جسما وجسمانية) فيدل عليه وجوه:

(منها) ان كل جسم لا يقبل صوراً واشكالا كثيرة لزوال كل صورة أو شكل فيه بطريان مثله، والنفس تقبل الصور المتعددة المختلفة من المحسوسات والمعقولات من دون ان تزول الأولى بورود الأخرى، بل كلما قبلت صورة ازدادت قوتها على قبول الاخرى، ولذلك تزيد القوة على ادراك الاشياء بالرياضيات الفكرية وكثرة

النظر، فثبت عدم كونها جسما.

(ومنها) ان حصول الابعاد الثلاثة للجسم لا يتصور إلا بان يصير طويلا عريضاً عميقاً وحصول الألوان والطعوم والروائح له لا يتصور إلا بان يصير ذا لون وطعم ورائحة وهي تحصل للنفس وقوتها الوهمية بالادراك من غير ان تصير كذلك، وايضاً حصول بعضها للجسم يمنع من حصول مقابله له، ولا يمنع ذلك في النفس بل تقبلها كلها في آن واحد على السواء.

(ومنها) ان النفس تلتذ بما لا يلائم الجسم من الامور الالهية والمعارف الحقيقية، ولا تميل إلى اللذات الجسمية والخيالية والوهمية، بل تحنّ أبداً إلى الابتهاجات العقلية الصرفة التي ليس في الجسم وقواه فيها نصيب، وهذا أوضح دليل على أنها غيرهما، إذ لا ريب في ان ما يحصل لبعض النفوس الصافية عن شوائب الطبيعة من البهجة والسرور بادراك العلوم الحقة الكلية والذوات المجردة النورية القدسية، وبالمناجاة والعبادة والمواظبة على الأذكار في الخلوات مع صفاء النيات لا مدخلية للجسم فيها وقواه الخيالية والوهمية وغيرهما، إذ النفس قد تغفل في تلك الحالة عنها بالكلية، وربما استغرقت بحيث لا تشعر بالبدن ولا تدرى ان لها بدناً فكأنها منخلعة عنه، فهذا يدل على انها من عالم آخر غير عالم الجسم وقواه، إذ التذاذهما منحصر بالملائمات الجزئية التي تدركها الحواس الظاهرة والباطنة.

(ومنها) ان النفس تدرك الصور الكلية المجردة فتكون محلا لها، ولا ريب في ان المادى لا يكون محلا للمجرد اذ كل مادى ذو وضع قابل للانقسام، وكون المحل ذا وضع قابل للانقسام يستلزم ان يكون حاله أيضاً كذلك كما ثبت في محله، والمجرد لا يمكن أَن يكونَ كذلك وإلا خرج عن حقيقته، فالنفس لا تكون مادية وإذا لم تكن مادية كانت مجردة لعدم الواسطة.

(ومنها) ان القوى الجسمية الباطنية لا تكتسب العلوم إلا من طريق الحواس

الظاهرة اذ ما لم يدرك الشيء بها لم تتمكن الحواس الباطنة ان تدركه وهذا وجداني وضروري. والنفس قد تدرك ما لا طريق لشيء من الحواس إلى ادراكه كالأمور المجردة والمعاني البسيطة الكلية، وأسباب الاتفاقات والاختلافات التي بين المحسوسات، والضرورة العقلية قاضية بانه لا مدخلية لشيء من الحواس في إدراك شيء من ذلك.

وأيضاً تحكم بانه لا واسطة بين النقيضين، وهذا الحكم غير ماخوذ من مبادىء حسية اذ لو كان مأخوذاً منها لم يكن قياساً أولياً، فمثله مأخوذ من المبادىء الشريفة العالية التي تبنى عليها القياسات الصحيحة.

وأيضاً هي حاكمة على الحس في صدقه وكذبه وقد تخطّئه في أفعاله وتردّ عليه أحكامه كتخطئته للبصر فيما يراه أصغر مما هو عليه في الواقع أو بالعكس، وفيما يراه مستديراً وهو مربع، أو مكسوراً وهو صحيح، أو معوجا وهو مستقيم، أو منكوساً وهو منتصب، أو مختلفا في وضعه الواقعي، وفي رؤيته للاشياء المتحركة على الاستدارة كالحلقة والطوق، وكتخطئته للسمع فيما يدركه في المواضع الصقيلة المستديرة عند الصدى، وللذوق في ادراكه الحلو مراً ومثله، كذا الحال في الشم واللمس، ولا ريب في ان تخطئة النفس الحواس في هذه الادراكات وحكمها بما هو المطابق للواقع انما يكون مسبوقا بالعلم الذي لا يكون مأخوذاً من الحس، لأن الحاكم على الشيء أعلى رتبة منه فلا يكون علمه الذي هو مناط الحكم مأخوذاً عنه.

ومما يؤكد ذلك انها عالمة بذاتها وبكونها مدركة لمعقولاتها. ومعلوم ان هذا العلم مأخوذ من جوهرها دون مبادىء أخر.

(ومنها) انا نشاهد ان البدن وقواه يضعفان في افعالهما وآثارهما، والنفس تقوى في ادراكاتها وصفاتها، كما في سن الكهولة، أو يكونان قويين في الافعال مع كونها

ضعيفة فيها كما في سن الشباب، فلو كانت جسما أو جسمانية لكانت تابعة لهما في الضعف والقوة.

(فان قلت) الادراك وسائر الصفات الكمالية للنفس يضعف أو يختل بضعف البدن أو اختلاله كما نشاهد في المشايخ والمرضى وتجردها ينافى ذلك.

(قلنا) الضعف أو الاختلال انما يحدث في الادراك والافعال المتعلقة بالقوى الجسمية، وأما ما يحصل للنفس بجوهرها أو بواسطة القوى الجسمية بعد صيرورته ملكة لها فلا يحصل فيه اختلال وضعف، بل يصير ظهوره أشد وتأثيره أقوى.

وأما الثانى أعنى بقاءها بعد المفارقة عن البدن فالدليل عليه بعد ثبوت تجردها ان المجرد لا يتطرق إليه الفساد لانه حقيقة والحقيقة لا تبيد كما صرح به المعلم الأول وغيره، ووجهه ظاهر.

فصل

(في بيان تلذذ النفس وتألمها)

إذا عرفت تجرد النفس وبقاءها أبداً، فاعلم انها إما ملتذة متنعمة دائما أو معذبة متألمة كذلك. والتذاذها يتوقف على كمالها الذي يخصها، ولما كانت لها قوتان النظرية والعملية، فكمال القوة النظرية الاحاطة بحقائق الموجودات بمراتبها والاطلاع على الجزئيات غير المتناهية بادراك كلياتها. والترقى منه إلى معرفة المطلوب الحقيقى وغاية الكل حتى يصل إلى مقام التوحيد ويتخلص عن وساوس الشيطان ويطمئن قلبه بنور العرفان. وهذا الكمال هو الحكمة النظرية.

وكمال القوة العملية التخلى عن الصفات الردية والتحلى بالأخلاق المرضية ثم الترقى منه إلى تطهير السر وتخليته عما سوى الله سبحانه. وهذا هو الحكمة العملية التي يشتمل هذا الكتاب على بيانها.

وكمال القوة النظرية بمنزلة الصورة وكمال القوة العملية بمنزلة المادة، فلا يتم أحدهما بدون الآخر، ومن حصل له الكمالان صار بانفراده عالماً صغيراً مشابهاً للعالم الكبير، وهو الإنسان التام الكامل الذي تلألأ قلبه بانوار الشهود وبه تتم دائرة الوجود.

فصل
(في فضائل الأخلاق ورذائلها)

فضائل الأخلاق من المنجيات الموصلة إلى السعادة الأبدية، ورذائلها من المهلكات الموجبة للشقاوة السرمدية، فالتخلى عن الثانية والتحلى بالأولى من أهم الواجبات. والوصول إلى الحياة الحقيقية بدونهما من المحالات، فيجب على كل عاقل أن يجتهد في اكتساب فضائل الأخلاق التي هي الأوساط[١] المثبتة من صاحب الشريعة والاجتناب عن رذائلها التي هي الأطراف، ولو قصّر أدركته الهلاكة الأبدية، إذ كما ان الجنين لو خرج عن طاعة ملك الأرحام المتوسط في الخلق لم يخرج إلى الدنيا سوياً سميعاً بصيراً ناطقاً، كذلك من خرج عن طاعة نبى الأحكام المتوسط في الخلق لم يخرج إلى عالم الآخرة كذلك.

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٢].

ثم ما لم تحصل التخلية لم تحصل التحلية ولم تستعد النفس للفيوضات القدسية، كما ان المرآة ما لم تذهب الكدورات عنها لم تستعد لارتسام الصور فيها، والبدن ما لم تزل عنه العلة لم تتصور له افاضة الصحة، والثوب ما لم يُنقّ عن الأوساخ

(١) اشارة إلى ان الفضيلة وسط بين رذيلتين وقد دعى الشارع إلى تحصيل الوسط بقوله ﷺ: (خير الامور اواسطها) وسيأتى شرح المعنى من الوسط والطرفين.

(٢) الاسراء، الآية: ٧٢.

لم يقبل لوناً من الألوان، فالمواظبة على الطاعات الظاهرة لا تنفع ما لم تتطهر النفس من الصفات المذمومة كالكبر والحسد والرياء، وطلب الرياسة والعلى وإرادة السوء للأقران والشركاء، وطلب الشهرة في البلاد وفي العباد، وأى فائدة في تزيين الظواهر مع اهمال البواطن.

ومَثَلُ من يواظب على الطاعات الظاهرة ويترك تفقد قلبه كبئر الحش[١] ظاهرها جص وباطنها نتن، وكقبور الموتى ظاهرها مزينة وباطنها جيفة، أو كبيت مظلم وضع السراج على ظاهره فاستنار ظاهره وباطنه مظلم، أو كرجل زرع زرعا فنبت ونبت معه حشيش يفسده فامر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه عن أصله فاخذ يجز رأسه ويقطعه فلا يزال يقوى أصله وينبت، فان الأخلاق المذمومة في القلب هي مغارس المعاصى فمن لم يطهر قلبه منها لم تتم له الطاعات الظاهرة، أو كمريض به جرب وقد أُمر بالطلاء ليزيل ما على ظهره ويشرب الدواء ليقلع مادته من باطنه فقنع بالطلاء وترك الدواء متناولا ما يزيد في المادة فلا يزال يطلى الظاهر والجرب يتفجر من المادة التي في الباطن.

ثم إذا تخلت عن مساوىء الأخلاق وتحلت بمعاليها على الترتيب العلمى استعدت لقبول الفيض من رب الأرباب، ولم يبق لشدة القرب بينهما حجاب، فترتسم فيها صور الموجودات على ما هي عليها، على سبيل الكلية، أى بحدودها ولوازمها الذاتية لامتناع إحاطتها بالجزئيات من حيث الجزئية، لعدم تناهيها، وان علمت في ضمن الكليات لعدم خروجها عنها، وحينئذ يصير[٢] موجوداً تاماً ابدى

---

(١) الحش بالفتح أو الضم ثم التشديد و الفتح اكثر من الضم: المخرج و موضع الحاجة و اصله من الحش بمعنى البستان، لانهم كانوا يتغوطون فى البساتين، فلما اتخذوا الكنيف اطلقوا عليها الاسم مجازاً، فالمراد هنا من بئر الحش خزانة الكنيف.

(٢) تذكير الضمير باعتبار ارادة الانسان لانه صاحب النفس بل هو هى.

الوجود سرمدي البقاء، فائزاً بالرتبة العليا، والسعادة القصوى، قابلا للخلافة الإلهية، والرئاسة المعنوية، فيصل إلى اللذات الحقيقية، والإبتهاجات العقلية التي ما رأتها عيون الاعيان، ولم تتصورها عوالى الأذهان.

فصل
(الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف)

الأخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الإلهية، والنفحات القدسية إذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس فما لم يرتفع عنها لم تتضح لها جلية الحال اتضاحا، كيف والقلوب كالأوانى فإذا كانت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء، فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها معرفة الله وحبه وانسه، وإلى ذلك أشار النبى ﷺ بقوله: «لولا ان الشياطين يحرمون إلى قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض»، فبقدر ما تتطهر القلوب عن هذه الخبائث تتحاذى شطر الحق الأول[١] وتلألأ فيها حقائقه كما أشار إليه ﷺ: «ان لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها»، فان التعرض لها إنما هو بتطهير القلوب عن الكدورات الحاصلة عن الأخلاق الردية[٢] فكل اقبال على طاعة واعراض عن سيئة يوجب جلاء ونوراً للقلب يستعد به لافاضة علم يقيني، ولذا قال سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٣].

وقال النبى ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم». فالقلب إذا صفى عن الكدورات الطبيعية بالكلية يظهر له من المزايا الإلهية والافاضات

---

(١) المراد من الحق الأول هو الله تبارك وتعالى فكما ان الحق صفة له كذلك الأول فهو صفة بعد صفة.

(٢) المراد من النفحات هي الافاضات المعنوية لا النسمات كما وردت بالمعنى الثانى في بعض الأخبار.

(٣) العنكبوت، الآية: ٦٩.

الرحمانية ما لا يمكن لأعاظم العلماء كما قال سيد الرسل: «إن لى مع الله حالات لا يحتملها ملك مقرب ولا نبى مرسل».

وكل سالك إلى الله إنما يعرف من الألطاف الإلهية والنفحات الغيبية ما ظهر له على قدر استعداده، وأما ما فوقه فلا يحيط بحقيقته علماً لكن قد يصدّق به إيماناً بالغيب كما انا نؤمن بالنبوة وخواصها ونصدّق بوجودهما ولا نعرف حقيقتهما كما لا يعرف الجنين حال الطفل والطفل حال المميز والمميز من العوام حال العلماء والعلماء حال الأنبياء والأولياء.

فالرحمة الإلهية بحكم العناية الأزلية مبذولة على الكل غير مضنون بها على أحد، لكن حصولها موقوف على تصقيل مرآة القلب وتصفيتها عن الخبائث الطبيعية، ومع تراكم صدأها الحاصل منها لا يمكن أن يتجلى فيها شيء من الحقائق، فلا تحجب الأنوار العلمية والأسرار الربوبية عن قلب من القلوب لبخل من جهة المنعم تعالى شأنه عن ذلك، بل الإحتجاب إنما هو من جهة القلب لكدورته وخبثه واشتغاله بما يضاد ذلك.

ثم ما يظهر للقلب من العلوم لطهارته وصفاء جوهره هو العلم الحقيقى النورانى الذي لا يقبل الشك وله غاية الظهور والإنجلاء لاستفادته من الأنوار الإلهية والإلهامات الحقة الربانية، وهو المراد بقوله عليه السلام: «إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء»، وإليه أشار مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «ان من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه»، (إلى أن قال): «قد خلع سرابيل الشهوات، وتخلى من الهموم إلا هما واحداً انفرد به، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح ابواب الهدى ومغاليق ابواب الردى، قد ابصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره، وقطع غماره[1]،

---

(١) غمرة الشيء شدته ومزدحمه، جمعه غمرات وغمار وغمر ومنه غمرات الموت أى مكارهه وشدائده.

واستمسك من العرى باوثقها ومن الجبال بأمتنها فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس». وفي كلام آخر له عليه السلام: «قد أحيى قلبه وأمات نفسه، حتى دُقّ جليله[١] ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فابان له الطريق وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الاقامة، وثبتت رجلاه لطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه».

وقال عليه السلام في وصف الراسخين من العلماء: «هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بابدان أرواحها معلقة بالمحل الاعلى».

وبالجملة: ما لم يحصل للقلب التزكية لم يحصل له هذا القسم من المعرفة إذ العلم الحقيقى عبادة القلب وقربة السر، وكما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الظاهر إلا بعد تطهيره من النجاسة الظاهرة فكذلك لا تصح عبادة الباطن إلا بعد تطهيره من النجاسة الباطنية التي هي رذائل الأخلاق وخبائث الصفات، كيف وفيضان انوار العلوم على القلوب انما هو بواسطة الملائكة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب»، فإذا كان بيت القلب مشحوناً بالصفات الخبيثة التي هي كلاب نابحة لم تدخل فيه الملائكة القادسة والحكم بثبوت النجاسة الظاهرة للمشرك، مع كونه مغسول الثوب نظيف البدن، انما هو لسراية نجاسته الباطنية، فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «بنى الدين على النظافة»، يتناول زوال النجاستين. وما ورد من أن الطهور نصف الايمان المراد به طهارة الباطن عن خبائث الأخلاق، وكان النصف الآخر تحليته بشرائف الصفات وعمارته بوظائف الطاعات.

وبما ذكر ظهر ان العلم الذي يحصل من طريق المجادلات الكلامية

---

(١) الجليل: الكبير في الحجم.

والاستدلالات الفكرية، من دون تصقيل لجوهر النفس، لا يخلو عن الكدرة والظلمة، ولا يستحق اسم اليقين الحقيقى الذي يحصل للنفوس الصافية، فما يظنه كثير من أهل التعلق بقاذورات الدنيا انهم على حقيقة اليقين في معرفة الله سبحانه خلاف الواقع، لان اليقين الحقيقى يلزمه «روح»[١] ونور وبهجة وسرور، وعدم الالتفات إلى ما سوى الله، والاستغراق في ابحر عظمة الله، وليس شيء من ذلك حاصلا لهم، فما ظنوه يقيناً إما تصديق مشوب بالشبهة، أو اعتقاد جازم لم تحصل له نورانية وجلاء وظهور وضياء، لكدرة قلوبهم الحاصلة من خبائث الصفات.

والسر في ذلك ان منشأ العلم ومناطه هو التجرد كما بين في مقامه، فكلما تزداد النفس تجرداً تزداد ايماناً ويقيناً، ولا ريب في انه ما لم ترتفع عنها أستار السيئات وحجب الخطيئات لم يحصل لها التجرد الذي هو مناط حقيقة اليقين فلابد من المجاهدة العظيمة في التزكية والتحلية حتى تنفتح ابواب الهداية وتتضح سبل المعرفة كما قال سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢].

فصل

(ان العمل نفس الجزاء)

كل نفس في بدء الخلقة خالية عن الملكات باسرها، وإنما تتحقق كل ملكة بتكرر الافاعيل والآثار الخاصة به[٣] بيان ذلك ان كل قول أو فعل مادام وجوده في

---

(١) هذه الكلمة غير موجودة في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى.

(٢) العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٣) هكذا وجدت في النسخة المطبوعة ونسختنا الخطية والاصح «بها» وان كانت الكلمة غير موجودة في نسخة خطية اخرى.

الأكوان الحسية لا حظّ له من الثبات لان الدنيا دار التجدد والزوال، ولكنه يحصل منه أثر في النفس، فإذا تكرر استحكم الأثر فصار ملكة راسخة مثاله الحرارة التي تحدث في الفحم فانها ضعيفة أولا وإذا اشتدت تجمرت ثم استضاءت، ثم صارت صورة نارية محرقة لما قارنها مضيئة لما قابلها، وكذلك الأحوال النفسانية إذا تضاعفت قوتها صارت ملكات راسخة وصوراً باطنة تكون مبادىء للآثار المختصة بها، فالنفوس الانسانية في أوائل الفطرة كصحائف خالية من النقوش والصور تقبل كل خلق بسهولة، وإذا استحكمت فيها الأخلاق تعسر قبولها لاضدادها، ولذلك سهل تعليم الأطفال وتأديبهم وتنقيش نفسهم بكل صورة وصفة ويتعسر أو يتعذر تعليم الرجال البالغين وردهم عن الصفات الحاصلة لهم لاستحكامها ورسوخها.

ثم لا خلاف في أن هذه الملكات وافعالها اللازمة لها إن كانت فاضلة كانت موجبة للالتذاذ والبهجة ومرافقة الملائكة والأخيار، وان كانت ردية كانت مقتضية للالم والعذاب ومصاحبة الشياطين والاشرار، وإنما الخلاف في كيفية ايجابها للثواب أو العذاب، فمن قال ان الجزاء مغاير للعمل قال ان كل ملكة وفعل يصير منشأ لترتب ثواب أو عقاب مغاير له بفعل الله سبحانه على التفصيل الوارد في الشريعة.

ومن قال ان العمل نفس الجزاء قال ان الهيئات النفسانية اشتدت وصارت ملكة تصير متمثلة ومتصورة في عالم الباطن والملكوت بصورة يناسبها، إذ كل شيء يظهر في كل عالم بصورة خاصة، فان العلم في عالم اليقظة امر عرضى يدرك بالعقل أو الوهم وفي عالم النوم يظهر بصورة اللبن، فالظاهر في العالمين شيء واحد وهو العلم لكنه تجلى في كل عالم بصورة، والسرور يظهر في عالم النوم بصورة البكاء، ومنه يظهر انه قد يسرك في عالم ما يسوءك في عالم آخر، فاللذات الجسمانية التي تسرك في هذا العالم تظهر في دار الجزاء بصورة تسوءك وتؤذيك، وتركها وتحمل مشاق العبادات والطاعات والصبر على المصائب والبليات يسرك في عالم الآخرة مع كونها

مؤذية في هذا العالم.

ثم القائل بهذا المذهب قد يطلق على هذه الصورة اسم الملك ان كانت من فضائل الأخلاق أو فواضل الأعمال واسم الشيطان ان كانت من اضدادها وقد يطلق على الأولى اسم الغلمان والحور وأمثالهما، وعلى الثانية اسم الحيات والعقارب واشباههما، ولا فرق بين الاطلاقين في المعنى، وإنما الاختلاف في الاسم.

وهذا المذهب يرجع إلى القول بتجسد الأعمال بصورة مأنوسة مفرّحة أو صورة موحشة معذبة، وقد ورد بذلك أخبار كثيرة، منها: ما روى اصحابنا عن قيس بن عاصم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: «يا قيس إن مع العز ذلاً ومع الحياة موتاً ومع الدنيا آخرة، وإن لكل شيء رقيباً وعلى كل شيء حسيباً، وإن لكل أجل كتاباً، وانه لا بد لك من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت، فان كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيما ألأمك، ثم لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه ولا تسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً، فانه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك». ومنها: ما استفاض من قولهم عليهم السلام: «ان من فعل كذا خلق الله تعالى ملكا يستغفر له إلى يوم القيامة». ومنها ما ورد: «ان الجنة قيعان وغراسها سبحان الله». ومنها ما روى: «ان الكافر خلق من ذنب المؤمن». ومنها قولهم: «المرء مرهون بعمله». ومنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة انما يجرى في بطنه نار جهنم». ويدل عليه قوله سبحانه:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَـٰفِرِينَ﴾[(١)].

وربما كان في قوله تعالى: **﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَاكُـنتُمْ تَـعْمَلُونَ﴾**[(٢)]، وقوله تعالى:

(١) التوبة، الآية: ٤٩.

(٢) يس، الآية: ٥٤.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١]، إشارة إليه حيث قال عز وجل (ما كنتم) ولم يقل بما كنتم.

وقال فيثاغورس الحكيم: «ستعارض لك في أفعالك وأقوالك وأفكارك[٢] وسيظهر لك من كل حركة فكرية أو قولية أو عملية صورة روحانية، فان كانت الحركة غضبية أو شهوية صارت مادة لشيطان يؤذيك في حياتك ويحجبك عن ملاقاة النور بعد وفاتك، وان كانت الحركة عقلية صارت ملكا تلتذ بمنادمته في دنياك وتهتدى به في أخراك إلى جوار الله وكرامته» انتهى.

وهذه الكلمات صريحة في أن مواد الأشخاص الأخروية هي التصورات الباطنية والنيّات القلبية والملكات النفسية المتصورة بصور روحانية وجودها وجود إدراكي، والانسان إذا انقطع تعلقه عن هذه الدار وحان وقت مسافرته إلى دار القرار وخلص عن شواغل الدنيا الدنية وكشف عن بصره غشاوة الطبيعة، فوقع بصره على وجه ذاته والتفت إلى صفحة باطنه وصحيفة نفسه ولوح قلبه وهو المراد بقوله سبحانه:

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٤]، صار ادراكه فعلاً وعلمه عيناً وسره عياناً، فيشاهد ثمرات أفكاره وأعماله، ويرى نتائج انظاره وافعاله ويطلع على جزاء حسناته وسيئاته، ويحضر عنده جميع حركاته وسكناته، ويدرك حقيقة قوله سبحانه:

﴿وَكُلَّ إِنْسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَيٰهُ مَنْشُورًا

(١) الطور، الآية: ١٦.

(٢) هكذا وجدنا العبارة فى النسخة الخطية والمطبوعة ولا يخفى ما فيها من الاجمال.

(٣) التكوير، الآية: ١٠.

(٤) ق، الآية: ٢٢.

ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[(١)].

فمن كان في غفلة عن أحوال نفسه ومضيعاً لساعات يومه وأمسه يقول:

﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَـٰهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[(٢)]. **﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾**[(٣)].

وقد أيد هذا المذهب أعني صيرورة الملكات صوراً روحانية باقية أبد الدهر موجبة للبهجة والالتذاذ والتوحش والتألم، بانه لو لم تكن تلك الملكات والنيات باقية ابداً لم يكن للخلود في الجنة أو النار وجه صحيح، إذ لو كان المقتضى للثواب أو للعذاب نفس العمل والقول، وهما زائلان لزم بقاء المسبب مع زوال السبب وهو باطل، وكيف يجوز للحكيم أن يعذب عباده أبد الدهر لأجل المعصية في زمان قصير، فاذاً منشأ الخلود هو الثبات في النيات والرسوخ في الملكات، ومع ذلك فمن يعمل مثقال ذرة من الخير أو الشر يرى أثره في صحيفة نفسه أو في صحيفة أعلى وأرفع من ذاته أبداً كما قال سبحانه:

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾[(٤)].

والسر فيه ان الأمر الذي يبقى مع النفس إلى حين مفارقتها من الدنيا ولم يرتفع عنها في دار التكليف يبقى معها أبداً ولا يرتفع عنها أصلا لعدم تجدد ما يوجب إزالته بعد مفارقته عن عالم التكليف.

ثم الظاهر ان هذا المذهب ـ عند من قال به من أهل الشرائع ـ بيان لكيفية

---

(١) الاسراء، الآية: ١٣ ـ ١٤.

(٢) الكهف، الآية: ٤٩.

(٣) آل عمران، الآية: ٣٠.

(٤) عبس، الآية: ١٣ ـ ١٥.

الثواب والعقاب الروحانيين مع اذعانه بالجنة والنار الجسمانيين، إذ لو كان مراده قصر اللذة والثواب والألم والعقاب والجنات والقصور والغلمان والحور والنار والجحيم والزقوم والضريع وساير ما ورد في الشريعة القادسة من امور القيامة على ما ذكر فهو مخالف لضرورة الدين.

﴿تنبيه﴾ الدنيا والآخرة متضادتان، وكل ما يقرب العبد إلى احداهما يبعد عن الأخرى وبالعكس، كما دلت عليه البراهين الحكمية والشواهد الذوقية والأدلة السمعية، فكل ملكة أو حركة أو قول أو فعل يقرب العبد إلى دار الطبيعة والغرور يبعده عن عالم البهجة والسرور، وبالعكس، فأسوأ الناس حالا من لم يعرف حقيقة الدنيا والآخرة وتضادهما ولم يخف سوء العاقبة وأفنى عمره في طلب الدنيا واصلاح أمر المعاش وقصر سعيه على جر المنفعة لبدنه من نيل شهوة أو بلوغ لذة أو اكتساب ترفع، ورئاسة أو جمع المال من غير تصور لما يصل إليه من فائدته، كما هو عادة اكثر ابناء الدنيا، ولم يعرف غير هذه الامور من المعارف الحقيقية والفضائل الخلقية والأعمال الصالحة المقربة إلى عالم البقاء فكأنه يعلم خلوده في الدنيا، ولا يرجو بعد الموت ثواب عمل، ولا جزاء فعل، ولا يعتقد بما يرجوه المؤمنون ويؤمله المتقون من الخير الدائم، واللذات المخالفة لهذه اللذات الفانية التي يشارك فيها السباع والبهائم، فإذا أدركه الموت مات على حسرة وندامة آيساً من رحمة الله قائلا:

﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[1].

أعاذنا الله تعالى من سوء الخاتمة ووفقنا لتحصيل السعادة الدائمة.

---

(١) الزمر، الآية: ٥٦.

فصل

(تأثير المزاج على الأخلاق)

للمزاج مدخلية تامة في الصفات: فبعض الأمزجة في أصل الخلقة مستعد لبعض الأخلاق، وبعضها مقتض لخلافه، فانا نقطع بان بعض الأشخاص بحسب جبلته، ولو خلي عن الأسباب الخارجية، بحيث يغضب ويخاف ويحزن بادنى سبب، ويضحك بادنى تعجب، وبعضهم بخلاف ذلك. وقد يكون اعتدال القوى فطرياً بحيث يبلغ الانسان كامل العقل، فاضل الأخلاق غالبة قوته العاقلة على قوتى الغضب والشهوة، كما في الأنبياء والأئمة عليهم السلام. وقد يكون مجاوزتها عن الوسط كذلك بحيث يبلغ ناقص العقل ردى الصفات مغلوبة عاقلته تحت سلطان الغضب والشهوة، كما في بعض الناس.

إلا أن الحق ـكما يأتى ـامكان زوالها بالمعالجات المقررة في علم الأخلاق، فيجب السعي في إزالة نقائضها وتحصيل فضائلها. وعجباً لأقوام يبالغون في اعادة الصحة الجسمانية الفانية، ولا يجتهدون في تحصيل الصحة الروحانية الباقية، يطيعون قول الطبيب المجوسى في شرب الأشياء الكريهة ومزاولة الأعمال القبيحة، لأجل صحة زائلة، ولا يطيعون امر الطبيب الإلهى لتحصيل السعادة الدائمة.

وبقاء النفس على النقصان إما لعدم صرفها إلى طلب المقصود لملابسة العوائق والموانع، أو مزاولة النقيض لتمكن موجبه، أو لكثرة اشتغالها بالشواغل المحسوسة، أو لضعف القوة العاقلة، فان لم تدركها العناية الإلهية فلا يزال يتزايد النقصان ويبعد عن الكمال الذي خلق لأجله، إلى ان تدركها الهلاكة الأبدية والشقاوة السرمدية، نعوذ بالله من ذلك، وإن ادركته الرحمة الأزلية، فيصرف همه في ازالة النقائص، واكتساب الفضائل، فلا يزال يتصاعد من مرتبة من الكمال إلى فوقها، حتى يصير من أهل مشاهدة الجلال والجمال، ويتشرف بجوار الرب المتعال، ويصل إلى السرور

الحقيقى، الذي لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وإلى قرة الاعين التي يشير اليها في قوله سبحانه:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[١].

فصل

(تأثير التربية على الأخلاق)

الخلق عبارة عن «ملكة للنفس مقتضية لصدور الأفعال بسهولة من دون احتياج إلى فكر وروية»[٢] والملكة: كيفية نفسانية بطيئة الزوال. وبالقيد الاخير خرج الحال لأنها كيفية نفسانية سريعة الزوال، وسبب وجود الخلق إما المزاج كمامر، أو العادة بان يفعل فعلا بالروية، أو التكلف ويصبر عليه إلى أن يصير ملكة له ويصدر عنه بسهولة وان كان مخالفاً لمقتضى المزاج.

واختلف الأوائل في امكان ازالة الأخلاق وعدمه، وثالث الأقوال أن بعضها طبيعي يمتنع زواله وبعضها غير طبيعي حاصل من اسباب خارجة يمكن زواله. ورجح المتأخرون الأول وقالوا: ليس شيء من الأخلاق طبيعياً ولا مخالفاً للطبيعة، بل النفس بالنظر إلى ذاتها قابلة للاتصاف بكل من طرفى التضاد، إما بسهولة ان كان موافقاً للمزاج، أو بعسر ان كان مخالفاً له، فاختلاف الناس في الأخلاق لاختلافهم في الاختيار والمزاولة لاسباب خارجة.

(حجة القول الأول) أن كل خُلق قابل للتغيير وكل قابل للتغيير ليس طبيعياً فينتج لا شيء من الخلق بطبيعي والكبرى بديهية، والصغرى وجدانية، فانا نجد أن

(١) السجدة، الآية: ١٧.

(٢) ما بين القوس في الموضع غير موجود في نسختنا الخطية لكنه موجود في نسخة خطية اخرى وفي المطبوعة.

الشرير يصير بمصاحبته الخيّر خيراً، والخيّر بمجالسته الشرير شريراً. ونرى أن التأديب «في السياسات»[١] فيه أثر عظيم في زوال الأخلاق، ولولاه لم يكن لقوة الروية فائدة وبطلت التأديبات والسياسات ولغت الشرائع والديانات، ولما قال الله سبحانه: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيٰهَا**﴾[٢]، ولما قال النبي ﷺ: «حسنوا اخلاقكم»، ولما قال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ورد: بمنع كلية الصغرى فانا نشاهد ان بعض الأخلاق في بعض الأشخاص غير قابل للتبديل (لا) سيما ما يتعلق بالقوة النظريه، كالحدس والتحفظ، وجودة الذهن، وحسن التعقل، ومقابلاتها كما هو معلوم من حال بعض الطلبة، فانه لا ينجح سعيهم في التبديل مع مبالغتهم في المجاهدة.

وما قيل: من لزوم تعطل القوة المميزة وبطلان التأديب والسياسات مردود: بان هذا اللزوم إذا لم يكن شيء من الأخلاق قابلا للتغيير، وأما مع قبول بعضها أو اكثرها له فلا يلزم شيء مما ذكر، ولو كان عدم قبول بعض الأخلاق التغيير موجباً لبطلان علم الشرائع والأخلاق لكان عدم قبول بعض الأمراض للصحة مقتضياً لبطلان علم الطب، مع انا نعلم بديهة ان بعض الأمراض لا يقبل العلاج.

و(**حجة القول الثانى**) ان الأخلاق باسرها تابعة للمزاج، والمزاج لا يتبدل، واختلاف مزاج شخص واحد في مراتب سنّه لا ينافى ذلك، لجواز تابعيتها لجميع مراتب عرض المزاج، وأيد ذلك بقوله ﷺ:

(الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم الاسلام) وبقوله ﷺ: (إذا سمعتم ان جبلا زال عن مكانه فصدقوه، وإذا سمعتم برجل زال

---

(١) ما بين القوس في الموضع غير موجود في نسختنا الخطية لكنه موجود في نسخة خطية اخرى وفي المطبوعة.

(٢) الشمس، الآية: ٩.

عن خلقه فلا تصدقوه، فانه سيعود إلى ما جبل عليه).

و(**الجواب**) ان توابع المزاج من المقتضيات التي يمكن زوالها لا من اللوازم التي يمتنع انفكاكها، لما ثبت في الحكمة من أن النفوس الانسانية متفقة في الحقيقة، وفي بدو فطرتها خالية عن جميع الأخلاق والأحوال كما هو شأن العقل الهيولائى. ثم ما يحصل لها منهما إما من مقتضيات الاختيار والعادة أو استعدادات الأبدان والأمزجة، والمقتضى ما يمكن زواله كالبرودة للماء، لا ما يمتنع انفكاكه كالزوجية للأربعة والخبر الأول لا يفيد المطلوب بوجه. والثانى مع عدم ثبوته عندنا يدل على خلاف مطلوبهم، لان قوله: (سيعود إلى ما جبل عليه) يفيد امكان ازالة الخلق بالأسباب الخارجية من التأديب والنصائح وغيرهما، وبعد إزالته بها يعود بارتفاعها كبرودة الماء التي تزول ببعض الأسباب وتعود بعد زوال السبب، فلو دام على حفظ الأسباب وابقائها لم يحصل العود أصلا.

وإذ ثبت بطلان القولين الأولين فالحق القول بالتفصيل، يعنى قبول بعض الأخلاق بل اكثرها بالنسبة إلى الاكثر التبديل للحس والعيان، ولبطلان السياسات والشرائع لولاه ولامكان تغير خلق البهائم، إذ ينتقل الصيد من التوحش إلى الأنس والفرس من الجماح إلى الانقياد والكلب من الهراشة إلى التأدب، فكيف لا يمكن في حق الانسان، وعدم قبول بعضها بالنسبة إلى البعض له، للمشاهدة والتجربة، وهذا البعض مما لا يكون التعلّق التكليف كالأخلاق المتعلقة بالقوة العقلية من الذكاء والحفظ وحسن التعقل وغيرها. والتصفح يعطى اختلاف الأشخاص والأخلاق في الازالة والاتصاف بالضد بالامكان والتعذر والسهولة والتعسر وبالتقليل والرفع بالمرة، ولذا لو تصفحت أشخاص العالم لم تجد شخصين متشابهين في جميع الأخلاق، كما لا تجد اثنين متماثلين في الصورة. ويشير إلى ذلك قوله ﷺ: «اعملو فكل ميسّر لما خلق له».

وقال ارسطاطاليس: «يمكن صيرورة الاشرار اخياراً بالتأديب إلا أن هذا ليس كلياً، فانه ربما أثر في بعضهم بالزوال وفي بعضهم بالتقليل وربما لم يؤثر أصلا».

ثم المراد من التغيير ليس رفع الغضب والشهوة مثلا واماطتهما بالكلية فان ذلك محال لانهما مخلوقتان لفائدة ضرورية في الجبلة، إذ لو انقطع الغضب عن الانسان بالكلية لم يدفع عن نفسه ما يهلكه ويؤذيه وامتنع جهاد الكفار، ولو انعدم عنه شهوة الطعام لم تبق حياته، ولو بطل عنه شهوة الوقاع بالمرة لضاع النسل، بل المراد ردهما من الافراط والتفريط إلى الوسط فالمطلوب في صفة الغضب خلو النفس عن الجبن والتهور، والاتصاف بحس الحمية، وهو ان يحصل إذا استحسن حصوله شرعاً وعقلا، ولا يحصل إذا استحسن عدمه كذلك. وكذا الحال في صفة الشهوة.

ولا ريب في أن رد بعض الموجودات الناقصة من القوى وغيرها إذا وجدت فيه قوة الكمال إلى كماله ممكن إذا كان له شرط يرتبط باختيار العبد، فكما أن النواة يمكن أن تصير نخلا بالتربية، لوجود قوة النخلية فيه، وتوقف فعليتها على شرط التربية التي بيد العبد، فكذلك يمكن تعديل قوتى الغضب والشهوة بالرياضة والمجاهدة، لوجود قوة التعديل فيهما، وتوقف فعليتهما على شرط ارتبط باختيار العبد أعني الرياضة والمجاهدة، وإن لم يمكن لنا قلعهما بالكلية، كما لا يمكن لنا اعدام شيء من الموجودات، ولا ايجاد شيء من المعدومات.

ثم شرائط الرد تختلف بالنسبة إلى الأشخاص والأخلاق، ولذا نرى ان التبديل يختلف باختلاف مراتب السياسات والتأديب، فيمكن ان لا يرتفع مذموم خُلق بمرتبة من التأديب، ويرتفع بمرتبة منه فوقها، والأسهل قبولاً لكل خُلق الأطفال لخلو نفوسهم عن الأضداد المانعة من القبول، فيجب على الآباء تأديبهم بالآداب الجميلة، وصونهم عن ارتكاب الأعمال القبيحة، حتى تعتاد نفوسهم بترك الرذائل، وارتكاب الفضائل، والمؤدب الأول هو الناموس الإلهي، والثاني أو لو الأذهان

القويمة من أهل المعارف الحقة، فيجب تقييد من يراد تأديبه بالنواميس الربانية أولا، وتنبيهه بالحكم والمواعظ ثانياً.

فصل

(شرف علم الاخلاق لشرف موضوعه وغايته)

لما عرفت أن الحياة الحقيقية للانسان تتوقف على تهذيب الأخلاق الممكن بالمعالجات المقررة في هذه الصناعة، تعرف انها أشرف العلوم وانفعها لان شرف كل علم انما بشرف موضوعه أو غايته، فشرف صناعة الطب على صناعة الدباغة بقدر شرف بدن الانسان واصلاحه على جلود البهائم، وموضوع هذا العلم هو النفس الناطقة التي هي حقيقة الانسان ولبّه، وهو أشرف الأنواع الكونية كما برهن عليه في العلوم العقلية، وغايته اكمال وإيصاله من أول افق الانسان إلى آخره، ولكونه ذا عرض عريض متصلا أوله بأفق البهائم وآخره بأفق الملائكة، لا يكاد أن يوجد التفاوت الذي بين اشخاص هذا النوع في افراد سائر الأنواع، فان فيه أخس الموجودات ومنه اشرف الكائنات كما قيل:

ولم أرَ أمثال الرجال تفاوتت لدى المجد حتى عُدّ الف بواحد

وبالفارسية:

اى نقد أصل وفرع ندانم چه گوهرى كز آسمان بلندتر واز خاك كمترى

وإلى ذلك التفاوت يشير قول سيد الرسل ﷺ: «إني وزِنتُ بأمتي فرجحت بهم» ولا ريب في أن هذا التفاوت لأجل الاختلاف في الأخلاق والصفات، لاشتراك الكل في الجسمية ولواحقها.

وهذا العلم هو الباعث للوصول إلى أعلى مراتبهما، وبه تتم الانسانية، ويعرج من حضيض البهيمية إلى ذرى الرتب الملكية، وأي صناعة أشرف مما يوصل أخس

الموجودات إلى أشرفها، ولذلك كان السلف من الحكماء لا يطلقون العلم حقيقة إلا عليه، ويسمونه بالاكسير الأعظم، وكان أول تعاليمهم، ويبالغون في تدوينه وتعليمه، والبحث عن اجماله وتفصيله، ويعتقدون ان المتعلم ما لم يهذب أخلاقه لا تنفعه سائر العلوم.

وكما أن البدن الذي ليس بالنقى كلما غذوته فقد زدته شراً، فكذلك النفس التي ليست نقية عن ذمائم الأخلاق لا يزيده تعلم العلوم إلا فساداً. ولذا ترى اكثر المتشبهين بزى العلماء اسوأ حالا من العوام مائلين عن وظائف الايمان والاسلام، إما لشدة حرصهم على جمع المال، غافلين عن حقيقة المآل، أو لغلبة حبهم الجاه والمنصب، ظناً منهم انه ترويج للدين والمذهب، أو لوقوعهم في الضلالة والحيرة لكثرة الشك والشبهة، أو لشوقهم إلى المراء والجدال في اندية الرجال، اظهاراً لتفوقهم على الأقران والأمثال، أو لاطلاق ألسنتهم على الآباء المعنوية من أكابر العلماء وأعاظم الحكماء، ولعدم تعبدهم برسوم الشرع والملة، ظناً منهم أنه مقتضى قواعد الحكمة، ولم يعلموا أن الحكمة الحقيقية ما أعطته النواميس الإلهية والشرائع النبوية، فكأنهم لم يعلموا أن العلم بدون العمل ضلال، ولم يتفطنوا قول نبيهم ﷺ: «قصم ظهرى رجلان، عالم متهتك، وجاهل متنسك»، ولم يتذكروا قوله ﷺ: «البلاهة أدنى إلى الاخلاص من فطانة بتراء»، وكل ذلك ليس إلا لعدم سعيهم في تهذيب الأخلاق وتحسينها وعدم الامتثال لقوله سبحانه:

﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[1].

(١) البقرة، الآية: ١٨٩.

فصل
(النفس واسماؤها وقواها الأربع)

ما عرفت من تجرد النفس انما هو التجرد في الذات دون الفعل لافتقارها فعلا إلى الجسم والآلة، فحدّها أنها جوهر ملكوتى يستخدم البدن في حاجاته، وهو حقيقة الانسان وذاته، والأعضاء والقوى آلاته التي يتوقف فعله عليها، وله اسماء مختلفة بحسب اختلاف الاعتبارات، فيسمى (روحاً) لتوقف حياة البدن عليه و(عقلا) لادراكه المعقولات و(قلباً) لتقلبه في الخواطر، وقد تستعمل هذه الألفاظ في معان اخرى تعرف بالقرائن.

وله قوى أربع: قوة عقلية ملكية، وقوة غضبية سبعية، وقوة شهوية بهيمية، وقوة وهمية شيطانية. و(**الأولى**) شأنها إدراك حقائق الأمور، والتمييز بين الخيرات والشرور، والأمر بالأفعال الجميلة، والنهى عن الصفات الذميمة و(**الثانية**) موجبة لصدور أفعال السباع من الغضب والبغضاء، والتوثب على الناس بانواع الأذى. و(**الثالثة**) لا يصدر عنها إلا أفعال البهائم من عبودية الفرج والبطن، والحرص على الجماع والأكل. و(**الرابعة**) شأنها استنباط وجوه المكر والحيل، والتوصل إلى الأغراض بالتلبيس والخدع.

والفائدة في وجود القوة الشهوية بقاء البدن الذي هو آلة تحصيل كمال النفس، وفي وجود الغضبية أن يكسر سورة الشهوية والشيطانية، ويقهرهما عند انغمارهما في الخداع والشهوات، واصرارهما عليهما، لانهما لتمردهما لا تطيعان العاقلة بسهولة، بخلاف الغضبية فانهما تطيعانها وتتأدبان بتأديبها بسهولة.

ولذا قال افلاطون في صفة السبعية والبهيمية: «أما هذه أى السبعية فهى بمنزلة الذهب في اللين والانعطاف، وأما تلك أى البهيمية فهى بمنزلة الحديد في الكثافة والامتناع»، وقال ايضاً: «ما أصعب أن يصير الخائض في الشهوات فاضلا، فمن

لا تطيعه الواهمة والشهوية في إيثار الوسط فليستعن بالقوة الغضبية المهيجة للغيرة، والحمية حتى يقهرهما»، فلو لم يمتثلا مع الاستعانة فان لم تحصل له ندامة بعد ارتكاب مقتضاهما دل على غلبتهما على العاقلة ومقهوريتها عنهما، وحينئذ لا يرجى صلاحه، وإلا فالإصلاح ممكن فليجتهد فيه ولا ييأس من روح الله، فان سبل الخيرات مفتوحة، وأبواب الرحمة الإلهية غير مسدودة.

﴿وَالَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[١].

والفائدة في القوة الوهمية إدراك المعانى الجزئية، واستنباط الحيل والدقائق التي يتوصل بها إلى المقاصد الصحيحة.

وبيان ذلك أن الواهمة والخيال والمتخيلة ثلاث قوى متباينة، ومباينة للقوى الثلاث الأُوَل، وشأن الاولى ادراك المعانى الجزئية، وشأن الثانية إدراك الصور، وشأن الثالثة التركيب والتفصيل بينهما. وكل من مدركاتها إما مطابق للواقع، أو مخترع من عند انفسها من غير تحقق له في نفس الأمر ايضاً، وإما من مقتضيات العقل والشريعة، ومن الوسائل إلى المقاصد الصحيحة، أو من دواعى الشيطان وما يقتضيه الغضب والشهوة، وعلى الأول يكون وجودها خيراً وكمالا، وان كان وجودها على الثانى شراً وفساداً. والحال في جميع القوى كذلك.

هذا وقيل: ما ورد في القرآن من النفس المطمئنة واللوامة والأمارة بالسوء، اشارة إلى القوى الثلاث اعنى العاقلة والسبعية والبهيمية.

والحق انها أوصاف ثلاثة للنفس بحسب اختلاف أحوالها، فإذا غلبت قوتها العاقلة على الثلاث الأخر، وصارت منقادة لها مقهورة منها، وزال اضطرابها الحاصل من مدافعتها سميت «مطمئنة»، لسكونها حينئذ تحت الأوامر والنواهى، وميلها إلى

---

(١) العنكبوت، الآية: ٦٩.

ملائماتها التي تقتضي جبلتها، وإذا لم تتم غلبتها وكان بينها تنازع وتدافع، وكلما صارت مغلوبة عنها بارتكاب المعاصي حصلت للنفس لوم وندامة سميت «لوامة». وإذا صارت مغلوبة منها مذعنة لها من دون دفاع سميت «امارة بالسوء» لانه لما اضمحلت قوتها العاقلة واذعنت للقوى الشيطانية من دون مدافعة، فكأنما هي الآمرة بالسوء.

ثم مَثلُ اجتماع هذه القوى في الانسان كمثل اجتماع ملك، أو حكيم وكلب وخنزير وشيطان في مربط واحد. وكان بينها منازعة، وأيها صار غالباً كان الحكم له، ولم يظهر من الأفعال والصفات إلا ما تقتضيه جبلته، فكان إهاب الانسان وعاء اجتمع فيه هذه الاربع، فالملك أو الحكيم هو القوة العاقلة، والكلب هو القوة الغضبية، فان الكلب ليس كلباً ومذموماً للونه وصورته بل لروح معنى الكلبية والسبعية اعنى الضراوة والتكلب على الناس بالعقر والجرح، والقوة الغضبية موجبة لذلك، فمن غلب فيه هذه القوة هو الكلب حقيقة، وان اطلق عليه اسم الانسان مجازاً، والخنزير هو القوة الشهوية، والشيطان هو القوة الوهمية، والتقريب فيهما كما ذكر، والنفس لا تزال محل تنازع هذه القوى وتدافعها إلى أن يغلب احداها، فالغضبية تدعوه إلى الظلم والإيذاء، والعداوة والبغضاء، والبهيمية تدعوه إلى المنكر والفواحش، والحرص على المآكل والمناكح، والشيطانية تهيّج غضب السبعية وشهوة البهيمية، وتزيد[1] فعلهما، وتغرى احداهما بالاخرى، والعقل شأنه ان يدفع غيظ السبعية بتسليط الشهوية عليها، ويكسر سورة الشهوية بتسليط السبعية عليها، ويرد كيد الشيطان ومكره بالكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة، ونورانيته الباهرة، فان غلب على الكل بجعلها مقهورة تحت سياسته غير مقدمة على فعل إلا باشارته جرى

(١) وفي نسختنا الخطية هكذا: «تزين».

الكل على المنهج الوسط، وظهر العدل في مملكة البدن، وان لم يغلب عليها وعجز عن قهرها قهروه واستخدموه فلا يزال الكلب في العقر والإيذاء، والخنزير في المنكر والفحشاء، والشيطان في استنباط الحيل، وتدقيق الفكر في وجوه المكر والخدع، ليرضى الكلب ويشبع الخنزير، فلا يزال في عبادة كلب عقور، أو خنزير هلوع أو شيطان عنود، فتدركه الهلاكة الأبدية، والشقاوة السرمدية، إن لم تغثه العناية الإلهية، والرحمة الأزلية.

وقد يمثل اجتماع هذه القوى في الانسان براكب بهيمة طالب للصيد يكون معه كلب وعين من قطاع الطريق، فالراكب هو العقل، والبهيمة هي الشهوة، والكلب هو الغضب، والعين هو القوة الوهمية التي هي من جواسيس الشيطان، فان كان الكل تحت سياسة الراكب فعل ما يصلح للكل ونال ما بصدده، وان كانت الغلبة والحكم للبهيمة أو الكلب لهلك الراكب بذهابه معهما فيما لا يصلح له من التلال والوهاد، واقتحامه في موارد الهلكات، وان كان الكل تحت نهى العين وامره، وافتتنوا بخدعه ومكره لأضلهم بتلبيسه عن سواء السبيل حتى يوصلهم إلى أيدى السارقين.

وكذلك لو كانت القوى باسرها تحت اشارة العقل وقهرها وغلب عليها وقعت لانقيادها له المسالمة والممازجة بين الكل، وصار الجميع كالواحد، لأن المؤثر والمدبر حينئذ ليس إلا قوة واحدة تستعمل كلا منها في المواضع اللائقة والأوقات المناسبة، فيصدر عن كل منها ما خُلق لأجله، على ما ينبغي من القدر والوقت والكيفية، فتصلح النفس وقواها.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيٰهَا﴾[1].

ولو لم يغلب العقل حصل التدافع والتجاذب بينه وبين سائر القوى، ويتزايد

---

(١) الشمس، الآية: ٩.

ذلك إلى أن يؤدى إلى انحلال الآلة والقوة لو يصير العقل مغلوباً فتهلك النفس وقواها.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيٰهَا﴾[١].

﴿تتميم﴾ لما تبين أن للنفس اربع قوى متخالفة، ولها قوى اخر ايضاً كما تبين في العلم الطبيعي، فبحسب غلبة بعض هذه القوى على بعض يحصل في النفس اختلاف عظيم، والاختلاف في النفوس انما هو باختلاف صفاتها الحاصلة من غلبة بعض قواها المتخالفة. إذ هي في بدو فطرتها خالية عن جميع الأخلاق والملكات، وليس لها فعلية، بل هي محض القوة، ولذا ليس لها قوام بذاتها وإنما تتقوم بالبدن، ثم بتوسط قواها تكتسب العلوم والأخلاق، وترتسم بالصور والأعمال إلى أن تتقوم بها، وتصل إلى ما خلقت لأجله.

ولما كانت قواها متخالفة متنازعة فما لم يغلب احداها لم تدخل النفس في عالمه[٢] الذي تخصه فلا تزال من تنازعها معركة للآثار المختلفة والأحكام المتباينة إلى أن يغلب احداها فتظهر في النفس آثاره ويدخل في عالمه الخاص.

ولما كانت القوة العاقلة من سنخ الملائكة، والواهمة من حزب الأبالسة والغضبية من افق السباع، والشهوية من عالم البهائم، فبحسب غلبة واحدة منها تكون النفس إما ملكاً أو شيطاناً أو كلباً أو خنزيراً، فلو كانت الغلبة والسلطنة لقهرهما العقل ظهر في مملكة النفس احكامه وآثاره، وانتظمت احوالها، ولو كانت لغيره من القوى ظهر فيها آثاره فتهلك النفس ويختل معاشها ومعادها.

ثم المنشأ للتنازع والتجاذب والبقاء في نفس الانسانية انما هو قوتها العقلية لأن التدافع انما بينها وبين سائر القوى، فليس في نفوس سائر الحيوانات لفقدانها العاقلة

(١) الشمس، الآية: ١٠.

(٢) في نسختنا الخطية هكذا: «في علله التي تخصها».

تنازع و تجاذب وان اختلفت في غلبة ما فيها من القوى، فان الغلبة في الشياطين للواهمة، وفي السباع للغضب، وفي البهائم للشهوة، وأما الملائكة فتنحصر قوتها بالعاقلة فليس فيها سائر القوى فلا يتحقق فيها تدافع وتنازع. فالجامع لعوالم الكل هو الانسان وهو المخصوص من بين المخلوقات بالصفات المتقابلة، ولذلك صار مظهراً للأسماء المتقابلة الإلهية، وقابلا للخلافة الربانية، وقائماً بعمارة عالمى الصورة والمعنى.

والملائكة وان كانوا مخصوصين بالجنة الروحانية ولوازمها من الاشراقات العلمية، وتوابعها من اللذات العقلية، إلا انه ليس لهم جهة جسمانية ولوازمها والأجسام الفلكية وان كانت لها نفوس ناطقة على قواعد الحكمة إلا أنها خالية عن الطبائع المختلفة، والكيفيات المتباينة، وليس لها في المدارج المتخالفة، والمراتب المتفاوتة، ولا تقلّب في أطوار النقص والكمال، ولا تحول في جميع التقاليب والأحوال، بخلاف الانسان فانه محيط بجميع المراتب المختلفة، وسائر في الأطوار المتباينة من الجمادية والنباتية والحيوانية والملكية، وله الترقى عن جميع تلك المراتب بأن تتحقق له مرتبة مشاهدة الوحدة الصرفة فيتجاوز عن افق الملائكة، فهو النسخة الجامعة لحقائق الملك والملكوت، والمعجون المركب من عالمى الأمر والخلق، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله خص الملك بالعقل دون الشهوة والغضب، وخص الحيوانات بهما دونه وشرّف الانسان باعطاء الجميع، فان انقادت شهوته وغضبه لعقله صار أفضل من الملائكة لوصوله إلى هذه المرتبة مع وجود المنازع والملائكة ليس لهم مزاحم».

وصل

قد ظهر بما ذكر أن الانسان ذوجنبة روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة

والملائكة القادسة، وذوجنبة جسمانية يشابه بها السباع والأنعام، فبالجزء الجسمانى أقيم في هذا العالم الحسى مدة قصيرة، وبالجزء الروحانى ينتقل إلى العالم العلوى، ويقيم فيه أبداً في مصاحبة الأرواح القدسية، بشرط ألّا يتحرك بقواه نحو كمالاتها الخاصة، حتى يغلب الجزء الروحانى على الجسمانى، وينفض عن نفسه كدورات الطبيعة، وتظهر فيه آثار الروحانيات من العلم بحقائق الأشياء والانس بالله تعالى والحب له والتحلى بفضائل الصفات. وحينئذ يقوم بغلبة روحانيته بين الملأ الأعلى يستمد منهم لطائف الحكمة، ويستنير بالنور الإلهى ويزيد ذلك بحسب رفع العلائق الجسمية، حتى إذا ارتفعت عنه حجب الغواسق الطبيعية بأسرها، وازيلت عنه استار العوائق الهيولانية برمتها، خلى عن جميع الآلام والحسرات، وكان ابداً مسروراً بذاته، مغتبطاً بحاله، مبتهجاً بما يرد عليه من فيوضات النور الأول، ولا يُسرّ إلا بتلك اللذات، ولا يغتبط إلا بها، ولا يهش إلا باظهار الحكمة الحقة بين أهلها، ولا يرتاح إلا بمن ناسبه وأحب الاقتباس منه، ولا يبالى بمفارقة الدنيا وما فيها، ويرى جسمه وماله وجميع خيرات الدنيا وبالاً وكلاً عليه إلا ما هو ضرورى يحتاج إليه بدنه الذي يفتقر إليه في تحصيل كماله، ويحن أبداً إلى مصاحبة الذوات النورية، ولا يفعل إلا ما أراد الله تعالى منه، ولا يتعرض إلا لما يقربه اليه، ولا يخالفه في متابعة الشهوات الردية، ولا ينخدع بخدائع الطبيعة، ولا يلتفت إلى شيء يعوقه عن سعادته، ولا يحزن على فقد محبوب، ولا فوت مطلوب، وإذا صفى من الأمور الطبيعية بالكلية زالت عنه العوارض النفسانية، والخواطر الشيطانية بأسرها، وفنى عنه إرادته المتعلقة بالأمور. وحينئذ يمتلى من المعارف الإلهية، والشوق الإلهى والبهجة الإلهية، والشعار الإلهى، وتتقرر الحقائق في عقله كتقرر القضايا الأولية فيه، بل يكون علمه بها أشد إشراقاً وظهوراً من علمه بها. وإذا بلغ هذه الغاية فقد استعد للوصول إلى المرتبة القصوى، ومجاورة الملأ الأعلى، فيصل إلى ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على

قلب بشر، ويفوز بما اشير إليه في الكتاب الإلهى بقوله:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[١].

فصل

(الأقوال في الخير والسعادة والتوفيق بينها)

اعلم ان الغاية في تهذيب النفس عن الرذائل وتكميلها بالفضائل هو الوصول إلى الخير والسعادة. والسلف من الحكماء قالوا: إن ﴿الخير﴾ على قسمين مطلق ومضاف، والمطلق هو المقصود من ايجاد الكل، إذ الكل يتشوقه وهو غاية الغايات، والمضاف ما يتوصل به إلى المطلق. و﴿السعادة﴾ هو وصول كل شخص بحركته الإرادية النفسانية إلى كماله الكامن في جبلته. وعلى هذا فالفرق بين الخير والسعادة أن الخير لا يختلف بالنسبة إلى الأشخاص والسعادة تختلف بالقياس اليهم.

ثم الظاهر من كلام ارسطاطاليس أن الخير المطلق هو الكمالات النفسية والمضاف ما يكون معدّاً لتحصيلها كالتعلم والصحة، أو نافعاً فيه كالمكنة والثروة.

وأما السعادة فعند الأقدمين من الحكماء راجعة إلى النفوس فقط، وقالوا ليس للبدن فيها حظ، فحصروها في الأخلاق الفاضلة، واحتجوا على ذلك بأن حقيقة الانسان هي النفس الناطقة والبدن آلة لها، فلا يكون ما يعد كمالا له سعادة للانسان. وعند المتأخرين منهم كأرسطو ومن تابعه راجعة إلى الشخص حيث التركيب، سواء تعلقت بنفسه أو بدنه، لأن كل ما يلائم جزءاً من شخص معين فهو سعادة جزئية بالنسبة اليه، مع انه يتعسر صدور الأفعال الجميلة بدون اليسار، وكثرة الأعوان والأنصار، والبخت المسعود، وغير ذلك مما لا يرجع إلى النفس، ولذا قسموا

(١) السجدة، الآية: ١٧.

السعادة إلى ما يتعلق بالبدن من حيث هو كالصحة واعتدال المزاج، وإلى ما يتوصل به إلى افشاء العوارف، ومثله مما يوجب استحقاق المدح كالمال وكثرة الأعوان، وإلى ما يوجب حسن الحديث وشيوع المحمدة، وإلى ما يتعلق بانجاح المقاصد والأغراض على مقتضى الأمل، وإلى ما يرجع إلى النفس من الحكمة والأخلاق المرضية. وقالوا كمال السعادة لا يحصل بدون هذه الخمسة، وبقدر النقصان فيها تنقص. قالوا وفوق ذلك سعادة محضة لا تدانيها سعادة، وهو ما يفيض الله سبحانه على بعض عباده من المواهب، والاشراقات العلمية، والابتهاجات العقلية بدون سبب ظاهر.

ثم الأقدمون لذهابهم إلى نفى السعادة للبدن صرحوا بأن السعادة العظمى لا تحصل للنفس ما دامت متعلقة بالبدن، وملوثة بالكدورات الطبيعية، والشواغل المادية، بل حصولها موقوف عنها، لأن السعادة الطلقة لا تحصيل لها ما لم تصر مشرقة بالاشراقات العقلية، ومضيئة بالأنوار الإلهية، بحيث يطلق عليها اسم التام، وذلك موقوف على تخليصها التام عن الظلمة الهيولانية، والقصورات المادية.

وأما المعلم الأول واتباعه فقالوا إن السعادة العظمى تحصل للنفس مع تعلقها بالبدن أيضاً، لبداهة حصولها لمن استجمع الفضائل بأسرها، واشتغل بتكميل غيره. وما أقبح أن يقال مثله ناقص وإذا مات يصير تاماً، فالسعادة لها مراتب، ويحصل للنفس الترقى في مدارجها بالمجاهدة إلى أن تصل إلى أقصاها وحينئذ يحصل تمامها وإن كان قبل المفارقة، وتكون باقية بعدها ايضاً.

ثم المتأخرون عن الطائفتين من حكماء الاسلام قالوا ان السعادة في الأحياء لا تتم إلا باجتماع ما يتعلق بالروح والبدن، وأدناها ان تغلب السعادة البدنية على النفسية بالفعل، إلا أن الشوق إلى الثانية، والحرص على اكتسابها يكون أغلب، وأقصاها أن تكون الفعلية والشوق كلاهما في الثانية أكثر، إلا انه قد يقع الالتفات إلى

هذا العالم وتنظيم أموره بالعرض.

وأما في الأموات فيختص بما يتعلق بالنفس فقط لاستغنائهم عن الامور البدنية، فتختص السعادة فيهم بالملكات الفاضلة، والعلوم الحقة اليقينية، والوصول إلى مشاهدة جمال الأبد، ومعاينة جلال السرمد. وقالوا إن الاولى لشوبها بالزخارف الحسية، والكدورات الطبيعية ناقصة كدرة، وأما الثانية فلخلوها عنها تامة صافية، لأن المتصف بها يكون أبداً مستنيراً بالأنوار الإلهية، مستضيئاً بالأضواء العقلية، مستهتراً(١) بذكر الله وانسه، مستغرقاً في بحر عظمته وقدسه، وليس له التفات إلى ما سوى ذلك، ولا يتصور له تحسر على فقد لذة أو محبوب، ولا شوق إلى طلب شيء مرغوب، ولا رغبة إلى أمر من الامور، ولا رهبة من وقوع محذور، بل يكون منصرفاً بجزئه العقلى مقصوراً همه على الامور الإلهية من دون التفات إلى غيرها.

وهذا القول ترجيح لطريقة المعلم الأول من حيث اثبات سعادة للبدن، ولطريقة الأقدمين من حيث نفى حصول السعادة العظمى للنفس ما دامت متعلقة بالبدن. وهو ﴿الحق المختار﴾ عندنا، إذ لا ريب في كون ما هو وصلة إلى السعادة المطلقة سعادة اضافية. ومعلوم أن غرض القائل يكون متعلقات الأبدان كالصحة والمال والأعوان سعادة انها سعادة إذا جعلت آلة لتحصيل السعادة الحقيقية لا مطلقاً، إذ لا يقول عاقل إن الصحة الجسمية، والحطام الدنيوى سعادة، ولو جعلت وسيلة إلى اكتساب سخط الله وعقابه، وحاجبة عن الوصول إلى دار كرامته وثوابه. وكذا لا ريب في أن النفس مادامت متعلقة بالبدن مقيدة في سجن الطبيعة لا يحصل لها العقل الفعلى، ولا تنكشف لها الحقائق كما هي عليه انكشافا تاماً، ولا تصل إلى حقيقة ما يترتب على العلم والعمل من الابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية. ولو

---

(١) مستهتراً به على بناء اسم المفعول أى مولع به.

حصلت لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون في آن واحد ويمر كالبرق الخاطف.

هذا وقد ظهر من كلمات الجميع أن حقيقة الخير والسعادة ليست إلا المعارف الحقة، والأخلاق الطيبة، والأمر وإن كان كذلك من حيث ان حقيقتهما ما يكون مطلوباً لذاته، وباقياً مع النفس أبداً وهما كذلك، إلا انه لا ريب في ان ما يترتب عليهما من حب الله وانسه، والابتهاجات العقلائية، واللذات الروحانية مغاير لهما من حيث الإعتبار، وان لم ينفك عنهما، ومطلوبيته لذاته أشد وأقوى، فهو باسم الخير والسعادة أولى وأحرى، وإن كان الجميع خيراً وسعادة. وبذلك يحصل الجمع بين أقوال أرباب النظر والاستدلال، وأصحاب الكشف والحال، واخوان الظاهر من أهل المقال، حيث ذهبت (الفرقة الاولى) إلى ان حقيقة السعادة هو العقل والعلم، و(الثانية) إلى انها العشق، و(الثالثة) إلى انها الزهد، و ترك الدنيا.

فصل

(لاتحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائما)

لا تحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائماً، فلا تحصل باصلاحها بعضاً دون بعض، ووقتاً دون وقت، كما ان الصحة الجسمية، وتدبير المنزل، وسياسة المدن لا تحصل إلا باصلاح جميع الأعضاء والأشخاص والطوائف في جميع الأوقات، فالسعيد المطلق من أصلح جميع صفاته وأفعاله على وجه الثبوت والدوام بحيث لا يغيره تغير الأحوال والأزمان، فلا يزول صبره بحدوث المصائب والفتن، ولا شكره بورود النوائب والمحن، ولا يقينه بكثرة الشبهات، ولا رضاه بأعظم النكبات، ولا احسانه بالاساءة، ولا صداقته بالعداوة. وبالجملة: لا يحصل التفاوت في حاله، ولو ورد عليه ما ورد على ايوب النبي عليه السلام أو على برناس

الحكيم، لشهامة ذاته، ورسوخ أخلاقه وصفاته، وعدم مبالاته بعوارض الطبيعة، وابتهاجه بنورانيته وملكاته الشريفة. بل السعيد الواقعى لتجرده وتعاليه عن الجسمانيات خارج عن تصرف الطبائع الفلكية، متعال عن تأثير الكواكب والاجرام الأثيرية فلا يتأثر عن سعدها ونحسها، ولا ينفعل عن قمرها وشمسها. أهل التسبيح والتقديس لا يبالون بالتثليث والتسديس، وربما بلغ تجردهم وقوة نفوسهم مرتبة تحصل لهم ملكة الاقتدار على التصرف في مواد الكائنات، ولو في الأفلاك وما فيها، كما حصل لفخر الأنبياء وسيد الأوصياء صلوات الله عليهما وآلهما من شق القمر وردّ الشمس.

وقد ظهر مما ذكر ان من يجزع بورود المصائب الدنيوية، ويضطرب من الكدورات الطبيعية، ويدخل نفسه في معرض شماتة الأعداء وترحم الأحباء، خارج عن زمرة السعداء، لضعف غريزته وغلبة الجبن على طبيعته، وعدم نيله بعد إلى الابتهاجات التي تدفع عن النفس امثال ذلك.

ومثله لو تكلف الصبر والرضا وتشبه ظاهراً بالسعداء لكان في الباطن متألماً مضطرباً، وهذا ليس سعادة لأن السعادة الواقعية انما هو صيرورة الأخلاق الفاضلة ملكات راسخة بحيث لا تغيرها المغيرات ظاهراً وباطناً. بلغنا الله وجميع الطالبين إلى هذا المقام الشريف.

وصل

(غاية السعادة التشبه بالمبدأ)

صرح الحكماء بأن غاية المراتب للسعادة أن يتشبه الانسان في صفاته بالمبدأ: بأن يصدر عنه الجميل لكونه جميلا، لا لغرض آخر من جلب منفعة، أو دفع مضرة، وإنما يتحقق ذلك إذا صارت حقيقته المعبر عنها بالعقل الإلهى والنفس الناطقة خيراً

محضاً، بأن يتطهر عن جميع الخبائث الجسمانية، والأقذار الحيوانية، ولا يحوم حوله شيء من العوارض الطبيعية، والخواطر النفسانية، ويمتلىء من الأنوار الإلهية، والمعارف الحقيقية، ويتيقن بالحقائق الحقة الواقعية، ويصير عقلاً محضاً بحيث يصير جميع معقولاته كالقضايا الأولية، بل يصير ظهورها أشد، وانكشافها أتم، وحينئذ يكون له اسوة حسنة بالله سبحانه، في صدور الأفعال وتصير إلهية أى شبيهة بأفعال الله سبحانه في أنه لصرافة حسنه يقتضى الحسن، ولمحوضة جماله يصدر عنه الجميل من دون داع خارجى، فتكون ذاته غاية فعله، وفعله غرضه بعينه، وكلما يصدر عنه بالذات وبالقصد الأول فانما يصدر لأجل ذاته، وذات الفعل وان ترشحت منه الفوائد الكثيرة على الغير بالقصد الثانى وبالعرض. قالوا وإذا بلغ الانسان هذه المرتبة فقد فاز بالبهجة الإلهية، واللذة الحقيقية الذاتية، فيشمئز طبعه من اللذات الحسية الحيوانية، لأن من أدرك اللذة الحقيقية علم انها لذّة ذاتية، والحسية ليست لذة بالحقيقة لتصرمها ودثورها وكونها دفع ألم.

وأنت خبير بأن هذا التصريح محل تأمل لمخالفته ظواهر الشرع فتأمل.

فصل

(بإزاء كل واحدة من القوى الأربع لذة وألم)

لمّا عرفت أن القوى في الانسان اربع: قوة نظرية عقلية، وقوة وهمية خيالية، وقوة سبعية غضبية، وقوة بهيمية شهوية ـ فاعلم انه بأزاء كل واحدة منها لذة وألم، لأن اللذة ادراك الملائم، والألم ادراك غير الملائم، فلكل من الغرائز المدركة لذة هو نيله مقتضى طبعه الذي خلق لأجله، وألم هو ادراكه خلاف مقتضى طبعه:

﴿**فغريزة العقل**﴾ لمّا خلقت لمعرفة حقائق الأمور، فلذتها في المعرفة والعلم، وألمها في الجهل، و﴿**غريزة الغضب**﴾ لمّا خلقت للتشفى والانتقام فلذتها في الغلبة

التي يقتضيها طبعها وألمها في عدمها، و﴿غريزة الشهوة﴾ لمّا خلقت لتحصيل الغذاء الذي به قوام البدن، فلذتها في نيل الغذاء، وألمها في عدم نيله، وهكذا في غيرها، فاللذات والآلام أيضاً على أربعة أقسام: العقلية والخيالية والغضبية والبهيمية.

فاللذة العقلية كالانبساط[1] الحاصل من معرفة الأشياء الكلية وادراك الذوات المجردة النورية، والألم العقلى كالانقباض الحاصل من الجهل. واللذة الخيالية كالفرح الحاصل من ادراك الصور والمعانى الجزئية الملائمة، والألم الخيالى كإدراك غير الملائمة منها. واللذة المتعلقة بالقوة الغضبية كالانبساط الحاصل من الغلبة ونيل المناصب والرياسات، والألم المتعلق بها كالانقباض الحاصل من المغلوبية والعزل والمرؤسية. واللذة البهيمية هي المدركة من الأكل والجماع وأمثالهما، والألم البهيمى ما يدرك من الجوع والعطش والحر والبرد وأشباهها. وهذه اللذات والآلام تصل إلى النفس وهي الملتذة والمتألمة حقيقة إلا أن كلا منها يصل اليها بواسطة القوة التي تتعلق بها. والفرق بين الكل ظاهر.

وربما يشتبه بين ما يتعلق بالوهم والخيال وما يتعلق بالقوة الغضبية من حيث اشتراكهما في الترتب على التخيل.

ويدفع الاشتباه بأن ما يتعلق بالغضبية وإن توقف على التخيل إلا أن المتأثر بالإلتذاذ والتألم بعد التخيل هو الغضبية وبواسطتها تتأثر النفس، ففى هذا النوع من اللذة والألم تتأثر الغضبية ثم تتأثر النفس.

وأما ما يتعلق بالوهم والخيال فالمتأثر بالالتذاذ والتألم هاتان القوتان ويصل التأثر منهما إلى النفس من دون توسط القوة الغضبية.

ومما يوضح الفرق أن الالتذاذ والتألم الخياليين لا يتوقفان على وجود غلبة

---

(١) وفي النسخة المخطوطة عندنا «الابتهاج».

ومغلوبية مثلا في الخارج، وأما الغضبيان فيتوقفان عليهما.

ثم أقوى اللذات هي العقلية لكونها فعلية ذاتية غير زائلة باختلاف الأحوال، وغيرها من اللذات الحسية انفعالية عرضية منفعلة زائلة، وهي في مبدأ الحال مرغوبة عند الطبيعة، وتتزايد بتزايد القوة الحيوانية، وتتضعف بضعفها إلى أن تنتفى بالمرة، ويظهر قبحها عند العقل، وأما العقلية فهى في البداية منتفية، لأن إدراكها لا يحصل إلا للنفوس الزكية المتحلية بالأخلاق المرضية، وبعد حصولها يظهر حسنها وشرفها، وتتزايد بتزايد القوة العقلية، إلى أن ينتهى إلى أقصى المراتب، ولا يكون نقص ولا زوال.

والعجب ممن ظن انحصار اللذة في الحسية وجعلها غاية كمال الانسان وسعادته القصوى. والمتشرعون منهم قصّروا اللذات الآخرة على الجنة والحور والغلمان وأمثالها، وآلامها على النار والعقارب والحيات وأشباهها، وجعلوا الوصول إلى الاولى والخلاص عن الثانية غاية لزهدهم وعبادتهم، وكأنهم لم يعلموا أن هذه عبادة الأُجراء والعبيد، تركوا قليل المشتهيات ليصلوا إلى كثيرها. وليت شعرى أن ذلك كيف يدل على الكمال الحقيقى والقرب من الله سبحانه! ولا أدرى أن الباكى خوفاً من النار وشوقاً إلى اللذات الجسمية المطلوبة للنفس البهيمية كيف يعد من أهل التقرب إلى الله سبحانه ويستحق التعظيم ويوصف بعلو الرتبة! وكأنهم لم يدركوا الابتهاجات الروحانية، ولا لذة المعرفة بالله وحبه وانسه ولم يسمعوا قول سيد الموحدين[(١)] عليه السلام: «إلهى ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك».

وبالجملة: لا ريب في أن الانسان في اللذة الجسمية يشارك الخنافس والديدان

(١) المعنى به هو أمير المؤمنين على عليه الصلاة والسلام.

والهمج من الحيوان، وإنما يشابه الملائكة في البصيرة الباطنة والأخلاق الفاضلة، وكيف يرتضى العاقل أن يجعل النفس الناطقة الشريفة خادمة للنفس البهيمية الخسيسة.

والعجب من هؤلاء الجماعة[١] مع هذا الاعتقاد يعظمون من يتنزه عن الشهوات الحيوانية ويستهين باللذات الحسية ويتخضعون له ويعدون أنفسهم أشقياء بالنسبة اليه، ويذعنون أنه أقرب الناس إلى الله سبحانه وأعلى رتبة منهم بتنزهه عن الشهوات الطبيعية، وقد إتفق كلهم على تنزه مبدع الكل وتعاليه عنها مستدلّين بلزوم النقص فيه لولاه، وكل ذلك يناقض رأيهم الأول.

والسر فيه أنهم وإن ذهبوا إلى هذا الرأى الفاسد إلا أنه لما كانت غريزة العقل فيهم بعد موجودة، وإن كانت ضعيفة، فيرى ما هو كمال حقيقى لجوهرها كمالا، ويحكم بنورانيتها الذاتية، على كون ما هو فضيلة في الواقع فضيلة، وما هو رذيلة في نفس الأمر رذيلة، فيضطرهم إلى إكرام أهل التنزه عن الشهوات، والاستهانة بالمكبين عليها.

ومما يدل على قبح اللذات الحيوانية أن أهلها يكتمونها ويخفون ارتكابها ويستحيون عن إظهارها، وإذا وصفوا بذلك تتغير وجوههم، كما هو ظاهر من وصف الرجل بكثرة الأكل والجماع، مع أن الجميل على الاطلاق يحسن إذاعته، وصاحبه يحب أن يظهره ويوصف به، هذا مع أن البديهة حاكمة بأن هذه اللذات ليست لذات حقيقية، بل هي دفع آلام حادثة للبدن[٢] فان ما يتخيل لذة عند الأكل والجماع إنما

(١) المراد هم الذين حصروا اللذات في الحسية والكلام كله في هذا الرأى.

(٢) الحق أن كل لذة بدنية ونفسية إنما هي إشباع شهوة أو غريزة تتطلب الاشباع، حتى طلب المعارف والعلم إنما هو لاشباع غريزة حب الاستطلاع، إلا أن طلب العلم لا يصل إلى حد الاشباع ابداً، ولذا ☜

هو راحة من ألم الجوع ولذع المنى ولذا لا يلتذ الشبعان من الأكل، ومعلوم أن الراحة من الألم ليس كمالا وخيراً، إذ الكمال الحقيقى والخير المطلق ما يكون كمالا وخيراً أبداً.

إيقاظ
(فيه موعظة ونصيحة)

لما عرفت أن الانسان في اللذة العقلية يشارك الملائكة، وفي غيرها من الحسية المتعلقة بالقوى الثلاث، أعنى السبعية والبهيمية والشيطانية، يشارك السباع والبهائم والشياطين ـ فاعلم أن من غلبت عليه إحدى اللذات الأربع كانت مشاركته لما ينسب إليه أكثر حتى إذا صارت الغلبة تامة لكان هو هو.

فانظر يا حبيبى أين تضع نفسك، فان الغلبة لو كانت لقوتك الشهوية حتى يكون أكثر همك إلى الشهوات الحيوانية كالأكل والشرب والجماع وسائر النزوات البهيمية، كنت واحداً من البهائم. وإن كانت لقوتك الغضبية حتى يكون جلُّ ميلك إلى المناصب والرياسات الردية، وإيذاء الناس بالضرب والشتم، وباقى الحركات السبعية، نزلت منزلة السباع. وإن كانت لقوتك الشيطانية حتى يكون غالب سعيك في استنباط وجوه المكر والحيل للوصول إلى مقتضيات قوتى الشهوة والغضب بأنواع الخداع والتلبيسات الوهمية دخلت في حزب الأبالسة. وإن كانت لقوتك العقلية حتى يكون جدّك مقصوراً على «أخذ»[1] المعارف الإلهية واقتفاء[2]

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب مال». وليست كذلك الغريزة الجنسية وغريزة حب الأكل وأمثالهما فانها تصل إلى حد الاشباع فتكتفى.

(١) لم توجد في نسختنا الخطية ولكنها موجودة في نسخة خطية اخرى وفي المطبوعة.

(٢) فى نسختنا الخطية هكذا: «و اقتناء».

الفضائل الخلقية عرجت إلى افق الملائكة القادسة. فمن كان عاقلا غير عدو لنفسه وجب عليه أن يصرف جلّ همه في تحصيل السعادة العلمية والعملية، وإزالة النقائص الكامنة في نفسه، وليقتصر على الامور الشهوانية، واللذات الجسمانية بقدر الضرورة، بأن يكتفى من الغذاء بما يحفظ اعتدال مزاجه وقوام حياته، ولا يكون قصده منه الالتذاذ، بل سدّ الضرورة ودفع الالم، ولا يضيع وقته في تحصيل أزيد من ذلك، فان تجاوز عنه فبقدر ما يحفظ رتبته، ولا يوجب مهانته وذلته، ومن اللباس بقدر ما يستر العورة، ويدفع الحر والبرد، فان تجاوز عن ذلك فبقدر ما لا يؤدى إلى حقارته، ولا يوجب السقوط بين أقرانه وأهل طبقته، ومن الجماع بقدر ما يحفظ نوعه، ويبقى نسله، وإن تعدى فبقدر ما لا يخرجه عن السنة، وليحذر عن الانهماك في مقتضيات قوّتى الشهوة والغضب، لأنه يوجب الشقاوة الدائمة والهلاكة السرمدية. فالله الله في نفوسكم معاشر الاخوان ادركوها قبل أن تغرقوا في بحار المهالك، وتنبهوا عن نوم الغفلة قبل أن تنسد عليكم السبل والمهالك، وبادروا إلى تحصيل السعادات قبل أن تستحكم فيكم الملكات المهلكة، والعادات المفسدة، فان إزالة الرذائل بعد استحكامها في غاية الصعوبة والمجاهدة مع أحزاب الشياطين بعد الكبر قلما يفيد الأثر، والغلبة على النفس الأمارة بعد ضعف الهرم في غاية الاشكال، إلا أنه في أى حال لا ينبغى أن تيأسوا من روح الله، فاجتهدوا بقدر القوة والاستطاعة، فانه خير من التمادى في الباطل، فلعل الله يدرككم بعظيم رحمته.

ولقد قال الشيخ[١] الفاضل احمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه وهو

(١) هو الحكيم الأعظم والفيلسوف الاكبر «أبو على احمد بن محمد» بن يعقوب ابن مسكوية الخازن، «الرازى» الأصل والاصفهانى المسكن والخاتمة كان من أعيان العلماء وأركان الحكماء معاصراً للشيخ أبى على بن سينا. صحب الوزير المهلبى في أيام شبابه وكان من خاصته إلى أن اتصل بصحبة «عضد

﴿

الاستاذ في علم الأخلاق، واقدم الاسلاميين في تدوينه: «إني تنبهت عن نوم الغفله بعد الكبر واستحكام العادة، فتوجهت إلى فطام نفسى عن رذائل الملكات، وجاهدت جهاداً عظيما حتى وفقنى الله لإستخلاصها عما يهلكها، فلا ييأس أحد من رحمة الله، فان النجاة لكل طالب مرجوة، وأبواب الإفاضة أبداً مفتوحة». فبادروا إخواني إلى تهذيب نفوسكم قبل أن يصير الرئيس مرؤساً، والعقل مقهوراً، فيفسد جوهركم، وتمسخ حقيقتكم، ويدرككم الانتكاس في الخُلق الذي هو خروج عن افق الانسان، ودخول في زمرة البهائم والسباع والشياطين، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله العصمة من الخسران الذي لا نهاية له. وقد شبّه الحكماء من أهمل سياسة نفسه الغافلة بمن له ياقوتة شريفة حمراء، فرماها في نار مضطرمة فيحرقها، حتى تصير كلساً[١] لا منفعة فيها.

﴿تتميم﴾ ولا تظنن أن ما يفوت عن النفس من الصفاء والبهجة لأجل ما يعتريها من الكدرة الحاصلة من معصية من المعاصي يمكن تداركه، فان ذلك محال، إذ غاية الأمر أن تتبع تلك المعصية، بحسنة تمحي آثارها، وتعيد النفس إلىٰ ما كانت عليه

الدولة» البويهى فصار من كبار ندمائه ورسله إلى نظرائه، ثم اختص بالوزير «ابن العميد» وابنه «أبى الفتح». له مؤلفات كثيرة، بعضها في الحكمة ومنه كتاب «الفوز الاكبر» وكتاب «الفوز الاصغر» و«جاويدان خرد» بالفارسية في الحكمة وهو يقرب من خمسة آلاف بيت، وبعضها في التأريخ ومنه «تجارب الامم»، وبعضها في الأخلاق ومنه كتاب «الطهارة» المشهور وهو الذي قصده «المصنف ﷺ» هنا لأنه أول كتاب صنف في علم الأخلاق، وقد مدحه استاذ البشر وأعلم أهل البدو والحضر الحجة الأعظم الفيلسوف المحقق الخواجة «نصير الدين الطوسى» ﷺ بأبيات. وكان ﷺ من علمائنا الامامية قدس الله أسرارهم وقبره بـ(اصفهان) على باب (درب جناد) وقد اشتهر ان السيد (الداماد) الذي كان من أعاظم علمائنا وأكابر حكمائنا كان كلما اجتاز يقف على قبره ويقرأ الفاتحة. (الترجمة عن الكنى والألقاب للمحدث الشهير الحاج شيخ «عباس القمى» قدس سره مع تصرف يسير منا).

(١) الكلس ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما ويتخذ منها باحراقها.

قبل تلك المعصية فلا تزداد بتلك الحسنة إشراقاً وسعادة، ولو جاء بها من دون سيئة لزاد بها نور القلب وبهجته، وحصلت له درجة في الجنة، ولما تقدمت السيئة سقطت هذه الفائدة وانحصرت فائدتها في مجرد عود القلب إلى ما كان عليه قبلها، وهذا نقصان لا حيلة لجبره، ومثال ذلك أن المرآة التي تدنست بالخبث والصدأ إذا مسحت بالمصقلة وإن زال به هذا الخبث، إلا أنه لا تزيد به جلاء وصفاء، بخلاف ما إذا لم تتدنس أصلا، فان التصقيل يزيدها صفاء وجلاء، وإلى ما ذكر أشار النبى ﷺ بقوله: «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً».

الباب الثاني

(في بيان أقسام الأخلاقي وتفصيل القول فيها)

﴿وفيه فصول﴾

أجناس الفضائل الأربعة والأقوال في حقيقة العدالة ـ حقيقة العدالة انقياد العقل العملى للعقل النظرى ولوازم الأقوال في العدالة ـ العقل النظرى هو المدرك للفضائل والرذائل ـ دفع اشكال في تقسيم الحكمة ـ تحقيق الوسط والأطراف ـ أجناس الرذائل وأنواعها ـ الفرق بين الفضيلة والرذيلة ـ العدالة أشرف الفضائل ـ اصلاح النفس قبل اصلاح الغير وأشرف وجوه العدالة عدالة السلطان ـ لا حاجة إلى العدالة مع رابطة المحبة ـ التكميل الصناعى لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعى.

فصل

(أجناس الفضائل الأربع والأقوال في حقيقة العدالة)

قد تبين في العلم الطبيعى أن للنفس الناطقة قوّتين: «أولـيها»: قوة الادراك و«ثانيتهما»: قوة التحريك، ولكل منهما شعبتان: (الشعبة الأولى) للاولى العقل

النظرى، وهو مبدأ التأثر عن المبادىء العالية بقبول الصور العلمية، و(الشعبة الثانية) لها العقل العملى، وهو مبدأ تحريك البدن في الأعمال الجزئية بالروية[١]. وهذه الشعبة من حيث تعلقها بقوتى الشهوة والغضب مبدأ «لحدوث»[٢] بعض الكيفيات الموجبة لفعل أو انفعال، كالخجل والضحك والبكاء وغير ذلك، ومن حيث استعمالها الوهم والمتخيلة مبدأ لاستنباط الآراء والصنائع الجزئية، ومن حيث نسبتها بالعقل وحصول الازدواج بينهما سبب لحصول الآراء الكلية المتعلقة بالأعمال كحسن الصدق، وقبح الكذب، ونظائرهما. (الشعبة الأولى) للثانية قوة الغضب وهي مبدأ دفع غير الملائم على وجه الغلبة، و(الشبعة الثانية) لها قوة الشهوة وهي مبدأ جلب الملائم.

ثم إذا كانت القوة الأولى غالبة على سائر القوى ولم تنفعل عنها، بل كانت هي مقهورة عنها مطيعة لها فيما تأمرها به وتنهاها عنه، كان تصرف كل منها على وجه الاعتدال، وانتظمت أمور النشأة الانسانية، وحصل تسالم القوى الأربع وتمازجها، فتهذب كل واحد منها، ويحصل له ما يخصه من الفضيلة، فيحصل من تهذيب العاقلة العلم وتتبعه الحكمة، ومن تهذيب العاملة العدالة، ومن تهذيب الغضبية الحلم وتتبعه الشجاعة، ومن تهذيب الشهوية العفة وتتبعه السخاوة، وعلى هذا تكون العدالة كمالا للقوة العملية.

(بطريق آخر)

قيل: إن النفس لما كانت ذات قوى أربع: العاقلة والعاملة والشهوية والغضبية،

---

(١) إذا كان العقل العملى مبدأ لتحريك البدن فهو قوة تحريك لا قوة ادراك وفي الحقيقة أن غرضهم من العقل العملى هو ادراك ما ينبغى ان يعمل.

(٢) وفي النسخة المخطوطة عندنا «الحصول».

فان كانت حركاتها على وجه الاعتدال، وكانت الثلاث الاخير مطيعة للاولى، واقتصرت من الأفعال على ما تعين لها، حصلت أولا فضائل ثلاث هي الحكمة والعفة والشجاعة، ثم يحصل من حصولها المترتب على تسالم القوى الاربع، وانقهار الثلاث تحت الأولى حالة متشابهة هي كمال القوى الأربع وتمامها، وهي العدالة. وعلى هذا لا تكون العدالة كمالاً للقوة العملية فقط، بل تكون كمالا للقوى بأسرها.

وعلى الطريقين تكون أجناس الفضائل أربعاً: «الحكمة» وهي معرفة حقائق الموجودات على ما هي عليه والموجودات إن لم يكن وجودها بقدرتنا واختيارنا فالعلم المتعلق بها هو الحكمة النظرية، وإن كان وجودها بقدرتنا واختيارنا فالعلم المتعلق بها هو الحكمة العملية. و«العفة» هي انقياد القوة الشهوية للعاقلة فيما تأمرها به وتنهاها عنه حتى تكتسب الحرية، وتتخلص عن اسر عبودية الهوى. و«الشجاعة» وهي اطاعة القوة الغضبية للعاقلة في الإقدام على الامور الهائلة، وعدم اضطرابها بالخوض فيما يقتضيه رأيها حتى يكون فعلها ممدوحاً، وصبرها محموداً. وتفسير هذه الفضائل الثلاث لايتفاوت بالنظر إلى الطريقين.

وأما «العدالة» فتفسيرها على الطريق الاول هو انقياد العقل العملى للقوة العاقلة وتبعيته لها في جميع تصرفاته، أو ضبطه الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع الذي يحكم العقل أيضاً بوجوب اطاعته، أو سياسة قوتى الغضب والشهوة، وحملها على مقتضى الحكمة، وضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاه. وإلى هذا يرجع تعريف الغزالى «إنها حالة للنفس وقوة بها يسوس الغضب والشهوة، ويحملهما على مقتضى الحكمة، ويضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها» إذ المراد من الحالة والقوة هنا قوة الاستعلاء التي للعقل العملى لا نفس القوة العملية.

وتفسيرها على الطريق الثانى هو ائتلاف جميع القوى، واتفاقها على امتثالها

للعاقلة، بحيث يرتفع التخالف والتجاذب، وتحصل لكل منها فضيلته المختصة به. ولا ريب في أن اتفاق جميع القوى وائتلافها هو كمال لجميعها لا للقوة العملية فقط.

أللهم إلا أن يقال إن الائتلاف إنما يتحقق باستعمال كل من القوى على الوجه اللائق، واستعمال كل قوة ولو كانت قوة نظرية إنما يكون من القوة العملية، لأن شأنها تصريف القوى في المحال اللائقة على وجه الاعتدال، وبدونها لا يتحقق صدور فعل عن قوة.

ثم العدالة على الطريق الأول تكون أمراً بسيطاً مستلزمة للملكات الثلاث أعنى الحكمة والعفة والشجاعة، وعلى الثانى تحتمل البساطة والتركيب على الظاهر، وإن كانت البساطة أقرب نظراً إلى أن الاعتدال الخلقى بمنزلة الاعتدال المزاجى الحاصل من ازدواج العناصر المتخالفة، وقد برهن في أصول الحكمة أن المزاج كيفية بسيطة.

وتفصيل الكلام في المقام أنه إذا حصلت الملكات الثلاث حصل للعقل العملى قوة الاستعلاء والتدبير على جميع القوى، بحيث كانت الجميع منقادة له، واستعمل كلا منها على ما يقتضيه رأيه، فان جعلت العدالة عبارة عن نفس هذه القوة، أو نفس تدبير التصرف في البدن وامور المنزل والبلد، دون الملكات الثلاث كانت العدالة بسيطة وكانت كمالا للعقل العملى فقط، وان جعلت نفس الملكات كانت مركبة، وحينئذ لا يناسب جعلها فضيلة على حدة معدودة في إعداد الفضائل، لأن جميع الأقسام لا يكون قسما منها، وليس الإئتلاف والامتزاج هيئة وحدانية عارضة للملكات الثلاث حتى تكون شيئاً على حدة و نوعاً مركباً.

ثم على الطريقين يتحقق التلازم بين العدالة والملكات الثلاث إلا انه على الطريق الأول تكون العدالة علة، والملكات الثلاث معلولة، وعلى الطريق الثانى ينعكس ذلك لتوقف حصول العدالة على وجود تلك الملكات وامتزاجها، فهى

أجزاء للعدالة أو بمنزلتها.

تكملة
(العدالة انقياد العقل العملى للعقل النظرى)

الحق أن حقيقة العدالة هو التفسير الأول المذكور في الطريق الأول، أعنى انقياد العقل العملى للقوة العاقلة، وسائر التفاسير المذكورة في الطريقين لازمة له، إذ الانقياد المذكور يلزمه اتفاق القوى وقوة الاستعلاء والسياسة للعقل العملى على قوتى الغضب والشهوة، أو نفس سياسته إياهما وضبطهما تحت إشارة العقل النظرى، وأمثال ذلك، وعلى هذه التفاسير اللازمة للأول يلزم أن تكون العدالة جامعة لجميع الفضائل، ويتحقق معناها في كل فضيلة حتى تكون فرداً لها.

وتحقيق المقام أن انقياد العقل العملى للعاقلة يستلزم ضبط قوتى الغضب والشهوة تحت إشارة العقل، وسياسته إياهما، واستعلائه عليهما. وهذا يستلزم اتفاق جميع القوى وامتزاجها. فجميع الفضائل الصادرة عن قوتى الغضب والشهوة، بل عن العاقلة أيضاً، إنما تكون بتوسط العقل العملى وضبطه إياها، إلا أن ذلك لا يوجب كونها كمالاً له حتى يعد من فضائله ووجهه ظاهر، ولاكون الضبط المذكور عدالة.

فالحق أن حقيقة العدالة هو مجرد انقياد العاملة للعاقلة، ومثل الضبط والاستعلاء والسياسة من لوازمه، والفضائل الصادرة عن القوى الأخرى بتوسط العقل العملى إنما تندرج تحت لازم العدالة، لا عينها، فمن أدرج جميع الفضائل تحت العدالة نظره إلى اعتبار ما يلزمها، ومن لم يدرجه تحتها نظره إلى عدم اعتباره. وعلى هذا لا بأس بأن يقال إن للعدالة اطلاقين **(أحدهما)** العدالة بالمعنى الأخص و**(ثانيهما)** العدالة بالمعنى الأعم.

ثم إن القوم ذكروا لكل واحد من الفضائل الأربع أنواعاً، فكما أدرجوا تحت كل

من الحكمة والعفة والشجاعة أنواعاً، فكذا أدرجوا تحت العدالة أيضاً أنواعاً كالوفاء والصداقة والعبادة وغيرها.

وأنت ـ بعد ما علمت أن العدالة بالتفسير الأول هو انقياد العاملة للعاقلة في استعمال نفس العاقلة وقوتى الغضب والشهوة ـ تعلم أن الفضائل بأسرها إنما تحصل باستعمال العاملة القوى الثلاث، فكل فضيلة إنما تتعلق حقيقتها باحدى الثلاث، وإن كان حصولها بتوسط العاملة وضبطها الثلاث، إذ كون الاستعمال والضبط منها لا يقتضى استناد ما يحصل من الفضائل باستعمالها اليها مع صدورها حقيقة عن سائر القوى. وكذا لا يقتضى استناد ما يحصل من الرذائل لعدم انقيادها للعاقله اليها. ومعلوم أنه لايترتب على مجرد انقيادها أو عدمه لها فضائل ورذائل لم يكن لها تعلق بالثلاث أصلاً، إذ كل فضيلة ورذيلة إما متعلق بالقوة العقلية، أو بقوتى الغضب والشهوة بتوسط العاملة، وليس لها في نفسها فضيلة ورذيلة على حدة كما لا يخفى. مع أنه لو كان الاستعمال والضبط منشأ لاستناد ما يحصل من الفضائل اليها لزم أن تستند اليها جميع الفضائل، فكان اللازم ادخال جميع الفضائل تحت العدالة. وكذا الحال على تفسير العدالة بالطريق الثانى كما ظهر.

وعلى هذا فيلزم من عدهم بعض الفضائل من أنواع العدالة دون بعض آخر تخصيص بلا مخصص، فالفضائل التي جعلوها أنواعاً مندرجة تحت العدالة بعضها من أنواع الشجاعة أو لوازمها، وبعضها من أنواع العفة أو آثارها، وإن كان للعاملة من حيث التوسط مدخلية في حصول الجميع. فنحن لا نتابع القوم، ونجرى على مقتضى النظر من جعل أنواع الفضائل والرذائل وأصنافها ونتائجها متعلقة بالقوى الثلاث دون العقل العملى، وإدخال جميعها تحت أجناسها على ما ينبغى من دون إدخال شيء منها تحت العدالة وضدها.

ثم إن الرذائل والفضائل مع مدخلية القوة العملية فيها بالاستعمال، إما متعلقة

بمجرد احدى القوى الثلاث، أو باثنتين منها، أو بالثلاث. ومثال المتعلق باحداها ظاهر كالجهل والعلم المتعلقين بالعاقلة، والغضب والحلم المتعلقين بالقوة الغضبية، والحرص والقناعة المتعلقين بالقوة الشهوية، وأما ما يتعلق باثنتين منها أو الثلاث، فاما أن يكون له أصناف يتعلق بعضها ببعض وبعضها ببعض آخر، كحب الجاه أعني طلب المنزلة في القلوب:فانه إن كان المقصود منه الاستيلاء على الخلق والتفوق عليهم، كان من رذائل قوة الغضب. وإن كان المقصود منه طلب المال ليتوسل به إلى شهوة البطن والفرج، كان من رذائل قوة الشهوة، وكذا الحسد أعني تمنى زوال النعمة عن الغير: إن كان باعثه العداوة كان من رذائل القوة الغضبية. وإن كان باعثه مجرد وصول النعمة إليه كان من رذائل القوة الشهوية. أو يكون للثلاث أو الاثنتين مدخلية بالاشتراك في نوع الفضيلة والرذيلة أو بعض أصنافه، كالحسد الذي باعثه العداوة، وتوقع وصول النعمة إليه معاً، وكالغرور وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، وتمييل النفس إليه بخدعة من الشيطان، فان النفس إن كانت مائلة بالطبع إلى شيء من مقتضيات الشهوة، واعتقدت جهلا كونه خيراً لها كان ذلك من رذائل قوتى العاقلة والشهوة وان كانت مائله الى شيء من مقتضيات قوة الغضب و اعتقدت جهلا كونه خيراً لها كان ذلك من زذائل قوتى العاقلة والغضب، وإن كانت مائلة إلى شيء من مقتضياتهما معاً مع اعتقادها كونه خيراً لها كان من رذائل الثلاث معاً.

ثم مرادنا من تعلق صفة بالقوى المتعددة وكونها معدودة من رذائلها أو فضائلها أن يكون لكل منها تأثير في حدوثها وايجادها، أي يكون من جملة عللها الفاعلة الموجدة، بحيث لو قطع النظر عن فعل واحدة منها لم تتحقق هذه الصفة، فان الغرور يتحقق بالميل والاعتقاد، بمعنى أن كلا منهما مؤثر في ايجاده وإحداثه، ولو لم يكن الاعتقاد المتعلق بالعاقلة والميل المتعلق بالشهوة والغضب لم يوجد غرور. فلو كانت مدخلية قوة في صفة بمجرد الباعثية، أي كانت باعثة لقوة اخرى على ايجاد هذه

الصفة وإحداثها، بحيث أمكن تحقق هذه الصفة مع قطع النظر عن هذه القوة بباعث آخر لم يكن متعلقة بها، ولم نعدها من رذائلها أو فضائلها، بل كانت متعلقة بالقوة الأخرى التي هي مباشرة لإحداثها وايجادها، مثل الغضب الحاصل من فقد شيء من مقتضيات شهوة البطن والفرج، وإن كان باعثه قوة الشهوة إلا انه ليس لقوة الشهوة وفعلها شركة في إحداثه وايجاده، بل الإحداث إنما هو من القوة الغضبية، ومدخلية الشهوية انما هو بتحريكها وتهييجها الغضبية للإحداث والايجاد، ولا ريب في أن للعاقلة هذه الباعثية في صدور اكثر الصفات مع عدم عدها من رذائلها «أو فضائلها»[١].

وإذا عرفت ذلك فاعلم انا نذكر اولا ما يتعلق بالعاقلة من الرذائل والفضائل، ثم ما يتعلق بالقوة الغضبية منهما، ثم ما يتعلق بالشهوية منهما، ثم ما يتعلق بهما أو الثلاث.

وصل

(العقل النظرى هو المدرك للفضائل والرذائل)

اعلم أن كل واحد من العقل العملى والعقل النظرى رئيس مطلق من وجه، أما «**الأول**» فمن حيث إن استعمال جميع القوى حتى العاقلة على النحو الأصلح موكول اليه، وأما «**الثانى**» فمن حيث إن السعادة القصوى وغاية الغايات أعنى التحلى بحقائق الموجودات مستندة اليه، وأيضاً ادراك ما هو الخير والصلاح من شأنه فهو المرشد والدليل للعقل العملى في تصرفاته.

وقيل: إن ادراك فضائل الأعمال ورذائلها من شأن العقل العملى، كما صرّح به الشيخ في الشفاء بقوله: «إن كمال العقل العملى استنباط الآراء الكلية في الفضائل

(١) لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى وفي المطبوعة.

والرذائل من الأعمال على وجه الابتناء على المشهورات المطابقة في الواقع للبرهان، وتحقيق ذلك البرهان متعلق بكمال القوة النظرية».

والحق ان مطلق الادراك والارشاد إنما هو من العقل النظرى فهو بمنزلة المشير الناصح، والعقل العملى بمنزلة المنفّذ الممضى لاشاراته وما ينفذ فيه الاشارة فهو قوة الغضب والشهوة.

دفع الاشكال
(في تقسيم الحكمة)

ان قيل: إن القوم قسموا الحكمة أولا إلى النظرية والعملية، ثم قسموا العملية إلى ثلاثة أقسام: واحد منها علم الأخلاق المشتمل على الفضائل الأربع التي احداها الحكمة، فيلزم أن تكون الحكمة قسما من نفسها.

قلنا: الحكمة التي هي المقسم هو العلم بأعيان الموجودات، سواء كانت لموجودات إلهية أى واقعة بقدرة البارى سبحانه، أو موجودات انسانية أى واقعة بقدرتنا واختيارنا، ولما كان هذا العلم أعنى الحكمة التي هي المقسم قسما من الموجودات بالمعنى الثانى، فلا بأس بالبحث عنه في علم الأخلاق، فان غاية ما يلزم أن تكون الحكمة موضوعاً لمسألة هي جزؤها بان يجعل عنواناً فيها ويحمل عليها كونها ملكة محمودة، أو طريق اكتسابها كذا.

وبالجملة: لا مانع من أن يجعل علم يبحث فيه عن احوال الموجودات موضوعاً لمسألة، ويبحث عنه فيه باثبات صفة له لأجل انه أيضاً الموجودات كما انه في العلم الأعلى الذي يبحث فيه عن الموجودات من حيث وجودها، يبحث عن نفس العلم لكونه من الموجودات، ويجعل موضوعاً لمسألة من مسائله، ولا يلزم من هذا كون الشيء جزءاً لنفسه. وأيضاً نقول كما أن الحكمة العملية قسم من مطلق

الحكمة لتعلق العمل بالنظر، فكذا المطلق قسم منها لتعلق النظر بالعمل، وحينئذ كما أن العدالة من الحكمة باعتبار فكذا الحكمة من العدالة باعتبار آخر، فتختلف الحيثية ولا يلزم محذور.

وقيل: في الجواب إن المراد من الحكمة التي هي احدى الفضائل الأربع استعمال العقل على الوجه الأصلح، وحينئذ فلا يرد اشكال أصلا لعدم كون الحكمة بهذا المعنى عين المقسم لأنها جزء له. وفيه أن الحكمة بهذا المعنى هي العدالة على ما تقرر، مع أن العدالة أيضاً إحدى الفضائل الأربع.

﴿تنبيه﴾ قد صرح علماء الأخلاق بان صاحب الفضائل الأربع لا يستحق المدح ما لم تتعد فضائلها إلى الغير، ولذا لا يسمى صاحب ملكة السخاء بدون البذل سخياً بل منافقاً، ولا صاحب ملكة الشجاعة بدون ظهور آثارها شجاعاً بل غيوراً، ولا صاحب ملكة الحكمة بدونها حكيما بل مستبصراً.

والظاهر ان المراد باستحقاق المدح هو حكم العقل بوجوب المدح، فان من تعدى أثره يرجى نفعه، ويخاف ضره، فيحكم العقل بلزوم مدحه جلباً للنفع، أو دفعاً للضرر، وأما من لا يرجى خيره وشره فلا يحكم العقل بوجوب مدحه وإن بلغ في الكمال ما بلغ.

فصل
(تحقيق الوسط والأطراف)

لا ريب في أنه بازاء كل فضيلة رذيلة هي ضدها، ولمّا عرفت أن أجناس الفضائل أربعة فاجناس الرذائل ايضاً في بادى النظر أربعة: الجهل، وهو ضد الحكمة، والجبن، وهو ضد الشجاعة، والشره وهو ضد العفة، والجور، وهو ضد العدالة. وعند التحقيق يظهر أن لكل فضيلة حداً معيناً، والتجاوز عنه بالافراط أو

التفريط يؤدى إلى الرذيلة، فالفضائل بمنزلة الأوساط، والرذائل بمثابة الأطراف، والوسط واحد معين لا يقبل التعدد، والأطراف غير متناهية عدداً. فالفضيلة بمثابة مركز الدائرة، والرذائل بمثابة سائر النقاط المفروضة من المركز إلى المحيط، فان المركز نقطة معينة، مع كونه ابعد النقاط من المحيط، وسائر النقاط المفروضة من جوانبه غير متناهية، مع أن كلا منها أقرب منه من طرف اليه.

فعلى هذا يكون بازاء كل فضيلة رذائل غير متناهية، لأن الوسط محدود معين، والأطراف غير محدودة، وتكون الفضيلة في غاية البعد عن الرذيلة التي هي نهاية الرذائل، ويكون كل منها أقرب منها إلى النهاية[١]، ومجرد الإنحراف عن الفضيلة من أيّ طرف اتفق يوجب الوقوع في رذيلة. والثبات على الفضيلة والاستقامة في سلوك طريقها بمنزلة الحركة على الخط المستقيم، وارتكاب الرذيلة كالإنحراف عنه، ولا ريب في أن الخط المستقيم هو أقصر الخطوط الواصلة بين النقطتين، وهو لا يكون إلا واحداً، وأما الخطوط المنحنية بينهما فغير متناهية، فالاستقامة في طريق الفضيلة وملازمتها في على نهج واحد، والانحراف عنه تكون له مناهج غير متناهية، ولذلك غلبت دواعى الشر على بواعث الخير.

ويظهر مما ذكر أن وجدان الوسط الحقيقى صعب، والثبات عليه بعد الوجدان أصعب لأن الاستقامة على جادة الاعتدال في غاية الاشكال، وهذا معنى قول الحكماء «اصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها، ولزوم الصوب[٢] بعد ذلك حتى لا يخطيها أسر» ولذلك لمّا أُمِرَ فخر الرسل بالاستقامة في قوله تعالى:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[٣].

---

(١) أى ان كلا من الرذائل أقرب من الفضيلة إلى النهاية.

(٢) الصواب: يقال فلان مستقيم الصوب إذا لم يزغ عن قصده يميناً وشمالا.

(٣) هود، الآية: ١١٢.

قال شيبتنى سورة هود ﷺ، إذ وجدان الوسط الحقيقى فيما بين الأطراف الغير المتناهية المتقابلة مشكل، والثبات عليه بعد الوجدان اشكل.

وقال (المحقق الطوسى) وجماعة: «إن ما ورد في اشارات النواميس من ان الصراط المستقيم أدق من الشعر، وأحد من السيف اشارة إلى هذا المعنى» وغير خفى بأن هذا التأويل جرأة على الشريعة القويمة، وهتك لأستار السنة الكريمة، والواجب الإذعان بظاهر ما ورد من أمور الآخرة، نعم يمكن ان يقال كمامر: إن الأمور الاخروية التي حصل بها الوعد والوعيد كلها أمور محققة ثابتة على ما اخبر به، الا انها صور للأخلاق، والصفات المكتسبة في هذه النشأة قد ظهرت بتلك الصور في دار العقبى بحسب المرتبة، إذ ظهورات الأشياء مختلفة بحسب اختلاف المراتب والنشآت، فمواد ما يؤذى ويريح من الصور في موطن المعاد انما هو الأخلاق والنيات المكتسبة في هذه النشأة. وهذا المذهب مما استقر عليه آراء اساطين الحكمة والعرفان، وذكرنا الظواهر الدالة عليه من الآيات والأخبار، واشرنا إلى حقيقة الحال فيه. وفي هذا فالصراط المستقيم الممدود كالجسر على الجحيم صورة لتوسط الأخلاق، والجحيم صورة لأطرافها، فمن ثبت قدمه على الوسط هنا لم يزل عن الصراط هناك ووصل إلى الجنة التي وعدها الله المتقين، ومن مال إلى الأطراف هنا سقط هناك في جهنّم التي احاطت بالكافرين.

ثم الوسط إما حقيقى وهو ما تكون نسبته إلى الطرفين على السواء كالأربعة بالنسبة إلى الاثنين والستة، وهذا كالمعتدل الحقيقى الذي انكر الاطباء وجوده، أو اضافي وهو اقرب ما يمكن تحققه للنوع أو الشخص إلى الحقيقى، ويتحقق به كمالهما «اللائق بحالهما»(١) وان لم يصل اليه، فالتسمية بالوسط انما هو بالنسبة إلى

---

(١) غير موجودة في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى وفي المطبوعة.

الأطراف التي هي أبعد من الحقيقى بالاضافة اليه. وهذا كالاعتدالات النوعية والشخصية التي اثبتها الاطباء، فان المراد منها الاعتدالات التي يمكن تحققها للأنواع والأشخاص، وهو القدر الذي يليق بكل نوع أو شخص أن يكون عليه، وان لم يكن اعتدالاً حقيقياً بمعنى تساوى الأجزاء البسيطة العنصرية وتكافؤها في القوة والأقربية إلى الحقيقى بالنسبة إلى سائر الاطراف سمى اضافياً.

ثم الوسط المعتبر هنا هو الاضافى لتعذر وجدان الحقيقى والثبات عليه، ولذا تختلف الفضيلة باختلاف الأشخاص والاحوال والأزمان، فربما كانت مرتبة من الوسط الاضافى فضيلة بالنظر إلى شخص أو حال أو وقت، ورذيلة بالنسبة إلى غيره.

وتوضيح الكلام انه لا ريب في ان الوسط الحقيقى في الأخلاق لكونه في حكم نقطة غير منقسمة لا يمكن وجدانه ولا الثبات عليه، ولذا ترى من هو متصف بفضيلة من الفضائل لا يمكن الحكم بكون تلك الفضيلة «هي الوسط الحقيقى، إلا انه لما كانت تلك الفضيلة»[1] قريبة إليه ولا يمكن وجود الأقرب منها إليه له، يحكم بكونها وسطاً اضافياً لأقربيتها إليه بالنسبة إلى سائر المراتب فالاعتدال الاضافى له عرض، وسطه الاعتدال الحقيقى، وطرفاه طرفا الافراط والتفريط، إلا انه ما لم يخرج عن هذين الطرفين يكون اعتدالاً اضافياً، وكلما كان اقرب إلى الحقيقى كان أكمل وأقوى، وإذا خرج عنهما دخل في الرذيلة.

لا يقال: على هذا ينبغى أن يكون الاعتدال الطبى في المزاج أيضاً كذلك أى له عرض وسطه الاعتدال الحقيقى وطرفاه خارجان عن الاعتدال الطبى، حتى انه كلما قرب إلى الحقيقى صار الطبى أقوى وأكمل مع انه ليس الأمر كذلك، إذ القياس يقتضى الخروج عن الاعتدال الطبى، أو ضعفه لقربه إلى الحقيقى.

---

(١) هذه العبارة بتمامها لم توجد في نسختنا الخطية.

«بيان ذلك» ان الاعتدال الحقيقى في المزاج أن تكون أجزاء العناصر متكافئة القوة، والاعتدال الطبى في نوع الانسان أو شخص من اشخاصه ان تكون الأجزاء الحارة مثلاً من عشرة إلى اثنى عشرة، والباردة من ثمانية إلى تسعة، واليابسة من سبعة إلى ثمانية، والرطبه من ستة إلى سبعة، فإذا كانت الأجزاء الحارة ستة، والباردة خمسة، واليابسة أربعة، والرطبة ثلاثة، كانت خارجة عن الاعتدال الطبى، مع صيرورته أقرب إلى الحقيقى، بل إذا فرضت تكافؤ أجزاء العناصر الاربعة حتى حصل نفس الاعتدال الحقيقى خرجت أيضاً عنه، فلا يكون الحقيقى وسط الطبى حتى انه كلما يصير إليه أقرب يكون أقوى وأكمل.

لأنا نقول نحن لا ندعى: أن الحقيقى وسط الطبى بل هو أمر مغاير له، والحقيقى في طرفه الخارج، فان له طرفين: **«احدهما»** أن تصير الاجزاء أقرب في التساوى مما كان للطبى إلى أن يبلغ إلى الحقيقى، و**«الثانى»** أن يصير أبعد فيه مما كان له إلى غير النهاية، إلا أن بعض مراتب الطرفين التي منها الاعتدال الحقيقى غير ممكن الوقوع فتأمل.

فان قيل: ان الوسط المعتبر هنا إن كان اضافياً، لكان له عرض كعرض المزاج، فلا يناسب وصفه بالحدة والدقة، قلنا: كما في عرض المزاج مرتبة هي أفضل المراتب وأقربها إلى الاعتدال الحقيقى، كذلك في عرض الوسط للملكات مرتبة هي أفضل المراتب وأقربها إلى الحقيقى، وهي المطلوبة بالذات، ولا ريب في أن خصوص هذه ليس لها عرض واسعة، فلا بأس بوصفها بالدقة والحدة، وأما سائر المراتب المعدودة من الوسط وان لم تكن خالية عن شوائب الإفراط والتفريط، إلا أنه لما كان لها قرب محدود إلى المرتبة المطلوبة بحيث يصدق معه كون النوع أو الشخص باقياً على كماله اللائق به عدت من الأوساط والفضائل، كما ان غير الأقرب إلى الاعتدال الحقيقى من مراتب عرض المزاج يعد من الاعتدال: لكون النوع أو

الشخص معه باقياً محفوظاً بحيث لا يظهر خلل بين في أفعاله وإن لم يخل عن الانحراف، ولو وصف هذه المراتب أيضاً بالحدة والدقة مع سعتها فوجهه أن وجدانها والثبات عليها لا يخلو أيضاً من صعوبة.

فصل
(أجناس الرذائل وأنواعها)

قد ظهر مما ذكر انه بازاء كل فضيلة رذائل غير متناهية من طرفى الإفراط والتفريط، وليس لكل منها اسم معين ولا يمكن عد الجميع وليس على صاحب الصناعة حصر مثلها، لأن وظيفته بيان الأصول والقوانين الكلية، لا إحصاء الأعداد الجزئية.

والقانون اللازم بيانه هو أن الانحراف عن الوسط إما إلى طرف الإفراط أو إلى طرف التفريط، فيكون بازاء كل فضيلة جنسان من الرذيلة، ولما كانت أجناس الفضائل أربعة فتكون أجناس الرذائل ثمانية (اثنان) بازاء الحكمة «الجربزة والبله»: و(**الأول**) في طرف الإفراط وهو استعمال الفكر في ما لا ينبغى أو في الزائد عما ينبغى و(**الثانى**) في طرف التفريط وهو تعطيل القوة الفكرية وعدم استعمالها في ما ينبغى أو في أقل منه، والأولى أن يعبر عنهما بـ(السفسطة) أى الحكمة المموهة، و(الجهل) أى البسيط منه، لأن حقيقة الحكمة هو العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه وهو موقوف على اعتدال القوة العاقلة، فإذا حصلت له حدة خارجة عن الاعتدال يخرج عن الحد اللائق ويستخرج أموراً دقيقة غير مطابقة للواقع، والعلم بهذه الامور هو ضد الحكمة من طرف الإفراط وإذا حصلت لها بلادة لا ينتقل إلى شيء فلا يحصل لها العلم بالحقائق وهذا هو الجهل وهو ضده من طرف التفريط. و(اثنان) بازاء الشجاعة «التهور والجبن»: (**الأول**) في طرف الإفراط وهو الاقدام على

ما ينبغى الحذر عنه، و(**الثانى**) في طرف التفريط وهو الحذر عما ينبغى الاقدام عليه. و(اثنان) بازاء العفة وهما: «الشره والخمود»: و(**الأول**) في طرف الإفراط وهو الانهماك في اللذات الشهوية على ما لا يحسن شرعاً وعقلا، و(**الثانى**) في طرف التفريط وهو سكون النفس عن طلب ما هو ضرورى للبدن. و(اثنان) بازاء العدالة وهما: «الظلم والانظلام»: و(**الأول**) في طرف الإفراط وهو التصرف في حقوق الناس وأموالهم بدون حق، و(**الثانى**) في طرف التفريط وهو تمكين الظالم من الظلم عليه وانقياده له فيما يريده من الجبر والتعدى على سبيل المذلة، هكذا قيل.

والحق أن العدالة مع ملاحظة ما لا ينفك عنها من لازمها، لها طرف واحد يسمى جوراً وظلماً، وهو يشمل جميع ذمائم الصفات، ولا يختص بالتصرف في حقوق الناس وأموالهم بدون جهة شرعية، لأن العدالة بهذا المعنى -كما عرفت- عبارة عن ضبط العقل العملى جميع القوى تحت إشارة العقل النظرى، فهو جامع للكمالات بأسرها، فالظلم الذي هو مقابله جامع للنقائص بأسرها، إذ حقيقة الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وهو يتناول جميع ذمائم الصفات والافعال فتمكين الظالم من ظلمه لمّا كان صفة ذميمة يكون ظلماً، على أن من مكّن الظالم من الظلم عليه وانقاد له ذلة، فقد ظلم نفسه، والظلم على النفس ايضاً من أقسام الظلم. هذا هو بيان الطرفين لكل من الأجناس الأربعة للفضيلة.

ثم لكل واحد من اجناس الرذائل والفضائل انواع ولوازم من الأخلاق والأفعال ذكرها علماء الأخلاق في كتبهم، وقد ذكروا للعدالة ايضاً انواعاً، وقد عرفت فيما تقدم أن تخصيص بعض الصفات بالاندراج تحتها مما لا وجه له، إذ جميع الرذائل والفضائل لا يخرج عن التعلق بالقوى الثلاث، اعنى العاقلة والغضبية والشهوية، وإن كان للقوة العملية مدخلية في الجميع من حيث التوسط، فنحن ندخل الجميع تحت اجناس القوى الثلاث من غير اندراج شيء منها تحت العدالة، وقد عرفت ان بعضها

متعلق بالعاقله فقط، وبعضها بالقوة الغضبية فقط، وبعضها بالشهوية فقط، وبعضها بالاثنين منها أو الثلاث معاً، فنحن نذكر ذلك في مقامات أربعة.

ولمزيد الاحاطة نشير هنا إجمالا إلى اسماء الأجناس والأنواع واللوازم التي لكل جنس، ونذكر أولا ما يتعلق بالعاقلة، ثم ما يتعلق بالغضبية، ثم ما يتعلق بالشهوية، ثم ما يتعلق بالثلاث أو الاثنتين منها، ونذكر أو لا الرذيلة، ثم نشير إلى ضدها من الفضيلة ان كان له اسم، ثم في باب المعالجات نذكر معالجة كل رذيلة من الأجناس والأنواع والنتائج ونذيلها بذكر ضدها من الفضيلة، ونذكر أولاً جنسى الرذيلة لكل قوة، ونذيلهما بضدهما الذي هو جنس فضيلتها، ثم نذكر الأنواع والنتائج على النحو المذكور، أى نذكر أو لا الرذيلة باحكامها «ومعالجاتها»[1]، ثم نشير إلى ضدها، وما ورد في مدحه ترغيباً للطالبين على أخذه والاجتناب عن ضده، ولذلك لم نتابع القوم في التفريق بين الرذائل والفضائل وذكر كل منهما على حدة.

ثم بيان الأنواع واللوازم على ما ذكر أكثره القوم لا يخلو عن الاختلال إما في التعريف والتفسير، أو في الفرق والتمييز، أو في الادخال تحت ما جعلوه نوعاً له، أو غير ذلك من وجوه الاختلال، فنحن لا نتبعهم في ذلك، ونبينها ادخالا وتمييزاً وتعريفاً ما يقتضيه النظر الصحيح، فنقول:

أما جنسا الرذيلة للقوة العقلية، «فاولهما» (الجربزة والسفسطة) وهي من طرف الافراط، و«ثانيهما» (الجهل البسيط) وهو من طرف التفريط وضدهما (العلم والحكمة)، وأما الأنواع واللوازم المترتبة عليهما، فمنها (الجهل المركب) وهو من باب رداءة الكيفية. ومنها (الحيرة والشك) وهو من طرف الافراط على ما قيل، وضد الجهل المركب ادراك ما هو الحق أو زوال العلم بأنه يعلم، وضد الحيرة الجزم بأحد

(١) هذه الكلمة موجودة في نسختنا الخطية فقط.

الطرفين. وبذلك يظهر ان اليقين ضد لكل منهما، لأنه اعتقاد جازم مطابق للواقع، فمن حيث اعتبار الجزم فيه يكون ضداً للحيرة، ومن حيث اعتبار المطابقة للواقع يكون ضداً للجهل المركب، ومنشأ حصول اليقين هو استقامة الذهن وصفاؤه مع مراعاة شرائط الإستدلال، ومنشأ الجهل المركب إعوجاج الذهن، أو حصول الخطأ في الاستدلال، أو وجود مانع من افاضة الحق كعصبية، أو تقليد أو أمثال ذلك، ومنشأ الحيرة هو قصور الذهن وكدرته، أو الالتهاب الموجب للتجاوز عن المطلوب، أو عدم الاحاطة بمقدماته، ومنها (الشرك) وضده التوحيد. ومنها «الوساوس» النفسانية والخواطر الباطلة الشيطانية، وهذا ايضاً من باب رداءة الكيفية، وكان الظاهر ان يعد ذلك من رذائل قوتى الوهم والمتخيلة دون العاقلة، إذ الغالب انها لا تنفك عن الاختلال فيهما، إلا أنك قد عرفت العذر في ذلك، وضدها الخواطر المحمودة التي من جملتها الفكر في بدائع صنع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته. ومنها (استنباط المكر والحيلة) للموصول إلى مقتضيات الشهوة والغضب، وهو من طرف الافراط.

وأما جنسا الرذائل للقوة الغضبية، فاولهما (التهور) وثانيهما (الجبن) وقد عرفت ان ضدهما من الفضيلة (الشجاعة).وأما الأنواع واللوازم والنتائج المترتبة عليها، فمنها (الخوف) وهو هيئة نفسانية مؤذية تحدث من توقع مكروه أو زوال مرغوب، وهو مذموم إلا ما كان لأجل المعصية والخيانة، أو من الله وعظمته. والمذموم من رذائل تلك القوة ومن نتائج الجبن وضده الأمن والطمأنينة، والممدوح من فضائلها لكونه مقتضى العقل وضده الأمن من مكر الله، وهو ـ أى الممدوح من الخوف ـ يلازم الرجاء وضده اليأس. ومنها (صغر النفس) أى ملكة العجز عن تحمل الواردات وهو من نتائج الجبن، وضده كبر النفس أى ملكة التحمل لما يرد عليه كائناً ما كان. ومن جملة التحمل، التحمل على الخوض في الأهوال، وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام ويسمى بـ(الثبات) فهو أخص من كبر النفس، وضده الاضطراب

في الأهوال والشدائد. ومن جملة الثبات، الثبات في الإيمان، ومنها (دناءة الهمة) وهو القصور عن طلب معالي الامور وهو من لوازم ضعف النفس وصغرها، وضده (علو الهمة) الذي هو من لوازم كبر النفس وشجاعتها، أي السعي في تحصيل السعادة والكمال وطلب الامور العالية من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها. ومن أفراد علو الهمة الشهامة، ويأتي تفسيرها. ومنها (عدم الغيرة والحمية) أي الاهمال في محافظة ما يلزم حفظه، وهو أيضاً من نتائج صغر النفس وضعفها وضده ظاهر.ومنها (العجلة) وهو المعنى الراتب[1] في القلب الباعث على الاقدام على الأمر بأول خاطر من دون توقف فيه، وهو ايضاً من نتائج صغر النفس وضعفها، وضدها الاناءة والتأني، و(التعسف) قريب من العجلة، وضده أعني (التوقف) قريب من الاناءة، ويأتي الفرق بينهما، والوقار يتناول التأني والتوقف، وهو اطمئنان النفس وسكونها عند الحركات والأفعال في الابتداء والأثناء، وهو من لوازم كبر النفس وشجاعتها. ومنها (سوء الظن بالله تعالى وبالمؤمنين) وهو من لوازم الجبن وضعف النفس، وربما كان من باب رداءة الكيفية، فضده أعني حسن الظن بهما من آثار الشجاعة وكبر النفس. ومنها (الغضب) وهو حركة نفسانية يوجب حركة الروح من الداخل إلى الخارج للغلبة وهو من باب الافراط، وضده الحلم. ومنها (الإنتقام) وهو من نتائج الغضب وضده العفو. ومنها (العنف) وهو أيضاً من نتائج الغضب، وضده الرفق. ومنها (سوء الخلق) بالمعنى الأخص وهو أيضاً من نتائجه، وضده (حسن الخلق) بالمعنى الأخص. ومنها (الحقد) وهو العداوة الكامنة، أي ارادة الشر وقصد زوال الخير من المسلم، وهو ايضاً من ثمرات الغضب . ومنها (العداوة) الظاهرة، وضدها (النصيحة) أي ارادة الخير والصلاح، ودفع الشر والفساد عن كل مسلم. ثم

(١) الراتب: عيش راتب: أي دائم ثابت.

للغضب والحقد لوازم هي الضرب والفحش واللعن والطعن. ومنها (العجب) وهو استعظام النفس، وضده انكسارها واستحقارها[١]. ومنها (الكبر) وهو التعظم الموجب لرؤية النفس فوق الغير، وضده (التواضع) وهو ان لا يرى لنفسه مزية على الغير. ومنها (الافتخار) وهو المباهاة بما يظنه كمالا وهو من شعب الكبر. ومنها (البغى) وهو عدم الانقياد لمن يجب أن ينقاد وهو أيضاً من شعب الكبر. وضده (التسليم) والانقياد لمن يجب الانقياد إليه واطاعته، وقد يفسر بمطلق العلو والاستطالة[٢] ومنها (تزكية النفس) وضده الاعتراف بنقائصها. ومنها (العصبية) وهي الحماية عن نفسه وعما ينتسب إليه بالباطل والخروج عن الحق. ومنها (كتمان الحق) وضدهما الانصاف والاستقامة على الحق. ومنها (القساوة) وهو عدم التأثر عن مشاهدة تألم ابناء النوع، وضدها الرحمة.

وأما جنسا الرذائل المتعلقة بالقوة الشهوية فاحدهما (الشره) وثانيهما (الخمود) وضدهما (العفة)، وأما الأنواع والنتائج واللوازم المتعلقة بها، فمنها (حب الدنيا). ومنها (حب المال) وضدهما الزهد. ومنها (الغنى) وضده الفقر. ومنها (الحرص) وضده القناعة. ومنها (الطمع) وضده الاستغناء عن الناس. ومنها (البخل) وضده السخاء، وتندرج تحته وجوه الانفاقات بأسرها. ومنها (طلب الحرام) وعدم الاجتناب عنه، وضده الورع والتقوى بالمعنى الخاص. ومنها (الغدر والخيانة) وضدهما الامانة. ومنها (أنواع الفجور) من الزنا واللواط وشرب الخمر والاشتغال بالملاهى وامثالها. ومنها (الخوض في الباطل). ومنها (التكلم بما لا يعنى وبالفضول)

(١) من كلمة (منها) إلى قوله و(استحقارها) بتمام العبارة لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى.

(٢) من كلمة (منها) إلى قوله و(الاستطالة) بتمام العبارة لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى.

وضدهما الترك والصمت، أو بالتكلم بما يعنى بقدر الضرورة.

وأما الرذائل والفضائل المتعلقة بالقوى الثلاث، أو باثنتين منها: فمنها (الحسد) وضده النصيحة. ومنها (الايذاء والاهانة والاحتقار) وضدها كف الأذى والاكرام والتعظيم، والايذاء قريب من الظلم بالمعنى الأخص أو أعم منه، وضد الظلم بالمعنى الأخص العدالة بمعنى الاخص ومنها (إخافة المسلم وادخال الكرب في قلبه) وضدهما إزالة الخوف والكرب عنه. ومنها (ترك اعانة المسلمين) وضده قضاء حوائجهم. ومنها (المداهنة) في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وضده السعى فيهما. ومنها (الهجرة والتباعد عن الاخوان) وضده التآلف والتزاور. ومنها (قطع الرحم) وضده الصلة. ومنها (عقوق الوالدين) وضده البرّ اليهما. ومنها (تجسس العيوب) وضده الستر. ومنها (إفشاء السر) وضده الكتمان. ومنها (الافساد بين الناس) وضده الاصلاح بينهم. ومنها (الشماتة بمسلم). ومنها (المراء والجدال والخصومة) وضدهما طيب الكلام. ومنها (السخرية والاستهزاء) وضدهما المزاح. ومنها (الغيبة) وضدها المدح ودفع الذم. ومنها (الكذب) وضده الصدق، ولجميع آفات اللسان مما له ضد خاص، ومما ليس له ضد بخصوصه ضد عام هو الصمت. ومنها (حب الجاه والشهرة) وضده حب الخمول. ومنها (حب المدح وكراهة الذم) وضده مساواتهما. ومنها (الريا) وضده الاخلاص. ومنها (النفاق) وضده استواء السر والعلانية. ومنها (الغرور) وضده الفطانة والعلم والزهد. ومنها (طول الأمل) وضده قصره. ومنها (مطلق العصيان) وضده الورع والتقوى بالمعنى الاعم. ومنها (الوقاحة) وضده الحياء. ومنها (الاصرار على المعصية) وضده التوبة، وأقصى مراتبها الانابة والمحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة في ضديتها للاصرار. ومنها (الغفلة) وضدها النية والارادة. ومنها (عدم الرغبة) وضده الشوق. ومنها (الكراهة) وضده الحب. ومنها (الجفاء) وضده الوفاء وهو من تمام الحب. ومنها (البعد) وضده الانس ومن

لوازمه حب الخلوة والعزلة. ومنها (السخط) وضده الرضا، وقريب منه التسليم ويسمى تفويضاً، بل هو فوق الرضا كما يأتي. ومنها (الحزن) وضده السرور. ومنها (ضعف الوثوق والاعتماد على الله) وضده التوكل. ومنها (الكفران) وضده الشكر. ومنها (الجزع والهلع) وضده الصبر. ومنها (الفسق) وهو الخروج عن طاعة الله وعبادته، وضده الطاعة والعبادة، وتندرج تحتها (العبادات الموظفة في الشرع)[1] من الطهارة، والصلاة، والذكر وتلاوة القرآن، والزكاة والخمس والصوم والحج والزيارات. ونحن نذكر الزكاة والخمس في وجوه الانفاق، وما سواهما في العبادات.

﴿تنبيه﴾ اعلم أن إحصاء الفضائل والرذائل وضبطهما، وإدخال البعض البعض، والاشارة إلى القوة الموجبة لها على ما فصلناه، مما لم يتعرض له علماء الأخلاق، بل إنما تعرضوا لبعضها، ويظهر من كلامهم في بعض المواضع المخالفة في الادخال.

والسر فيه أن كثيراً من الصفات لها جهات مختلفة كل منها يناسب قوة كما أشرنا اليه، فالاختلاف في الادخال لأجل اختلاف الاعتبار للجهات «وقد عرفت أن ما له جهات مختلفة يتعلق بالقوى المتعددة نحن نجعل مبدأه الجميع ونعده من رذائله أو فضائله، ولا نخصه بواحدة منها». ثم بعض الصفات ربما كان ببعض الاعتبارات محموداً معدوداً من الفضائل، وببعض الاعتبارات معدوداً من الرذائل، وذلك كالمحبة والخوف والرجاء، فان الحب ان كان متعلقاً بالدنيا ومتعلقاتها كان مذموماً معدوداً من الرذائل، وإن كان متعلقاً بالله وأوليائه كان محموداً معدوداً من الفضائل، والخوف إن كان مما لا يخاف منه عقلا كان من رذائل قوة الغضب، وإن كان من المعاصي أو من عظمة الله كان من فضائلها، والرجاء إن لم يكن في موقعه كان من الرذائل، وإن كان في موقعه كان من الفضائل، وقس عليها غيرها مما له الاعتبارات المختلفة.

---

(١) هذه العبارة بتمامها غير موجودة في نسختنا الخطية.

فصل
(الفرق بين الفضيلة والرذيلة)

قد دريت اجمالا أن الفضائل المذكورة ملكات مخصوصة، لها آثار معلومة، وربما صدر عن بعض الناس أفعال شبيهة بالفضائل، وليست بها، فلا بد من بيان الفرق بينهما لئلا يشتبه على الغافل فَيضَلّ ويُضِل، فنقول:

قد عرفت أن فضيلة الحكمة عبارة عن العلم بأعيان الموجودات على ما هي عليه، وهو لا ينفك عن اليقين والطمأنينة، فمجرد أخذ بعض المسائل وتقريرها على وجه لائق من دون وثوق النفس واطمئنانها ليست حكمة، والآخذ بمثله ليس حكيماً، إذ حقيقة الحكمة لا تنفك عن الاذعان القطعي واليقيني وهما مفقودان فيه، فمثله كمثل الأطفال في التشبه بالرجال، أو بعض الحيوانات في محاكاة ما للانسان من الأقوال والأفعال.

وأما فضيلة العفة، فقد عرفت أنها عبارة عن ملكة انقياد القوة الشهوية للعقل، حتى يكون تصرفها مقصوراً على أمره ونهيه، فيقدم على ما فيه المصلحة وينزجر عما يتضمن المفسدة بتجويزه، ولا يخاف في أوامره ونواهيه، وينبغي أن يكون الباعث للاتصاف بتلك الملكة وصدور آثارها مجرد كونها فضيلة وكمالا للنفس وحصول السعادة الحقيقية بها، لا شيء آخر من دفع ضر، أو جلب نفع، أو إضطرار وإلجاء، فالإعراض عن اللذات الدنيوية لتحصيل الأزيد من جنسها ليس عفة، كما هو شأن بعض تاركي الدنيا للدنيا، وكذا الحال في تركها لخمود القوة وقصورها وضعف الآلة وفتورها، أو لحصول النفرة من كثرة تعاطيها، أو للحذر من حدوث الأمراض والأسقام، أو اطلاع الناس وتوبيخهم، أو لعدم درك تلك اللذات كما هو شأن بعض أهالي الجبال والبوادي... إلى غير ذلك.

وأما فضيلة الشجاعة، فقد عرفت أنها ملكة انقياد القوة الغضبية للعقل حتى

يكون تصرفها بحسب أمره ونهيه، ولا يكون للاتصاف بها وصدور آثارها داع سوى كونها كمالا وفضيلة، فالإقدام على الامور الهائلة، والخوض في الحروب العظيمة، وعدم المبالاة من الضرب والقطع والقتل لتحصيل الجاه والمال، أو الظفر بامرأة ذات جمال، أو للحذر من السلطان ومثله، أو للشهوة بين أبناء جنسه، ليست صادرة عن ملكة الشجاعة، بل منشأها إما رذيلة الشره أو الجبن، كما هو شأن عساكر الجائرين، وقاطعى الطرق والسارقين، فمن كان أكثر خوضاً في الأهوال، وأشد جرأة على الابطال للوصول إلى شيء من تلك الاغراض، فهو أكثر جبناً وحرصاً، لا أكثر شجاعة ونجدة. وقس على ذلك الوقوع في المهالك والأهوال، تعصباً عن الأقارب والاتباع، وربما كان باعثه تكرر ذلك منه مع حصول الغلبة، فاغتر بذلك ولم يبال بالإقدام اتكالاً على العادة الجارية. ومثله مثل رجل ذى سلاح لم يبال بالمحاربة مع طفل أعزل، فان عدم الحذر عنه ليس لشجاعته، بل لعجز الطفل. ومن هذا القبيل ما يصدر عن بعض الحيوانات من الصولة والإقدام، فانه ليس صادراً من ملكة الشجاعة، بل عن طبيعة القوة والغلبة.

وبالجملة: الشجاع الواقعى ما كانت افعاله صادرة عن اشارة العقل ولم يكن له باعث سوى كونها جميلة حسنة، فربما كان الحذر عن بعض الأهوال من مقتضيات العقل فلا ينافى الشجاعة، وربما لم يكن الخوض في بعض الأخطار من موجباته فينافيها، ولذا قيل عدم الفزع مع شدة الزلازل وتواتر الصواعق من علائم الجنون دون الشجاعة، وايقاع النفس في الهلكات بلا داع عقلى أو شرعى كتعرضه للسباع المؤذية، أو إلقاء نفسه من المواضع الشاهقة، أو في البحار والشطوط الغامرة من دون علم بالسباحة من إمارات القحة والحماقة.

ثم الشجاع الحقيقى من كان حذره من العار والفضيحة أكثر من خوفه من الموت والهلاك، فمن لا يبالى بذهاب شرفه، وفضيحة أهله وحرمه، فهو من أهل

الجنون والحماقة، ولا يستحق اسم العقل والشجاعة، كيف والموت عند الشجاع مع بقاء الفضيلة احسن من الحياة بدونها، ولذا يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة. على أن الشجاعة في المبادىء ربما كانت موذية، وإنما تظهر لذتها في العاقبة (لا) سيما إذا حصلت بها الحماية عن الدين والملة، والذب عن العقائد الحقة، فان الشجاع لحبه الجميل وثباته على الرأى الصحيح إذا علم أن عمره في معرض الزوال والثور، وأثر الفعل الجميل يبقى على مر الدهور، يختار الجميل الباقي على الرذيل الفانى، فيحامى عن دينه وشريعته، ولا يبالى بما يحذر عنه غيره من ابناء طبيعته، لعلمه بأن الجبان المقصر في حماية الدين، ومقاومة جنود الشياطين إن بقى أياماً معدودة، فمع تكدرها بالذل والصغار تكون زائلة، ولا ترضى نفسه بالحرمان عن السعادة الباقية، ولذا قال فخر الشجعان وسيد ولد عدنان عليه صلوات الله الملك الرحمان لأصحابه: «أيها الناس إنكم إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف على الرأس أهون من ميتة على الفراش».

وبالجملة: كل فعل يصدر عن الشجاع في أى وقت يكون مقتضى للعقل مناسباً لهذا الوقت واقعاً في موقعه، وله قوة التحمل على المصائب، وملكة الصبر على الشدائد والنوائب، ولا يضطرب من شدائد الامور، ويستخف بما يستعظمه الجمهور، وإذا غضب كان غضبه بمقتضى العقل، وكان انتقامه مقصوراً على ما يستحسن عقلاً وشرعاً، ولا يتعدى إلى ما لا ينبغي. وليس مطلق الانتقام مذموماً، فربما كان في بعض المواضع مستحسناً عند العقل والشرع، وقد صرح الحكماء بأن عدم الانتقام ممن يستحقه يحدث في النفس ذبولا لا يرتفع إلا بالانتقام، وربما أدى هذا الذبول إلى بعض الرذائل المهلكة.

وأما العدالة فقد عرفت أنها عبارة عن انقياد القوة العملية للعاقلة، أو امتزاج القوى وتسالمها وانقهار الجميع تحت العاقلة، بحيث يرتفع بينها التنازع والتجاذب،

ولا يغلب بعضها على بعض، ولا يقدم على شيء غير ما تقسط له العاقلة. وإنما يتم ذلك إذا حصلت للانسان ملكة راسخة تصدر لأجلها جميع الأفعال على نهج الاعتدال بسهولة، ولا يكون له غاية في ذلك سوى كونها فضيلة وكمالا، فمن يتكلف أعمال العدول رياء وسمعة، أو لجلب القلوب، أو تحصيل الجاه والمال ليس عادلا.

وقس على ذلك جميع انواع الفضائل المندرجة تحت الأجناس المذكورة فانه بازاء كل منها رذيلة شبيهة بها، فينبغى لطالب السعادة ان يعرفها ويجتنب عنها، مثلا السخاء عبارة عن ملكة سهولة بذل المال على المستحق، مع كون الغاية الباعثة له عليه مجرد كونه فضيلة وكمالا، دون الأغراض الأخر، فبذل المال لتحصيل الأزيد، أو لدفع الضرر، أو نيل الجاه، أو للوصول إلى شيء من اللذات الحيوانية ليس سخاء، وكذا بذله لغير المستحق والاسراف في انفاقه، فان المبذّر جاهل بعظم قدر المال، والاحتياج إليه في مواقع لولاه لأدى إلى تضييع الأهل والعيال والعجز عن كسب المعارف وفضائل الأعمال، وله دخل عظيم في ترويج احكام الملة ونشر الفضيلة والحكمة، ولذا ورد في الصحيفة السليمانية (ان الحكمة مع الثروة يقظان، ومع الفقر نائم)[1]. وربما كان منشأ التبذير عدم العلم بصعوبة تحصيل الحلال منه، وهذا يكون في الأغلب لمن يظفر بمال بغتة من ميراث أو غيره مما لا يحتاج إلى كد وعمل، فان مثله غافل عن صعوبة كسب الحلال منه، اذ المكاسب الطيبة قليلة جداً، وارتكابها للاحرار مشكل، ولذا ترى أفاضل الأحرار ناقصى الحظوظ منه شاكين عن بختهم، وأضدادهم على خلاف ذلك، لعدم مبالاتهم من تحصيله بأى نحو كان. وقد قال بعض الحكماء: «إن تحصيل المال بمنزلة نقل الحجر إلى قلة الجبل وانفاقه كاطلاقه».

(١) كذا في النسخ ولم نعثر على مصدر لهذه الكلمة لتصحيحها.

فصل
(العدالة أشرف الفضائل)

العدالة أشرف الفضائل وافضلها، إذ قد عرفت أنها كل الفضائل اوما يلزمها، كما أن الجور كل الرذائل أو ما يوجبها، لأنها هيئة نفسانية يقتدر بها على تعديل جميع الصفات والأفعال، ورد الزائد والناقص إلى الوسط، وانكسار سورة التخالف بين القوى المتعادية، بحيث يمتزج الكل وتتحقق بينها مناسبة واتحاد تحدث في النفس فضيلة واحدة تقتضى حصول فعل متوسط بين افعالها المتخالفة، وذلك كما تحصل من حصول الامتزاج والوحدة بين الاشياء المتخالفة صورة وحدانية يصدر عنها فعل متوسط بين افعالها المتخالفة، فجميع الفضائل مترتبة على العدالة، ولذا قال افلاطون الإلهي: (العدالة إذا حصلت للانسان اشرق بها كل واحد من اجزاء نفسه، ويستضيء بعضها من بعض، فتنتهض النفس حينئذ لفعلها الخاص على أفضل ما يكون، فيحصل لها غاية القرب إلى مبدعها سبحانه).

ومن خواص العدالة وفضيلتها انها أقرب الصفات إلى الوحدة، وشأنها اخراج الواحد من الكثرات، والتأليف بين المتباينات، والتسوية بين المختلفات، وردّ الاشياء من القلة والكثرة والنقصان والزيادة إلى التوسط الذي هو الوحدة، فتصير المتخالفات في هذه المرتبة متحدة نوع اتحاد، وفي غيرها توجد اطراف متخالفة متكاثرة، ولا ريب في أن الوحدة أشرف من الكثرة، وكلما كان الشيء أقرب اليها يكون أفضل وأكمل وأبقى وأدوم، ومن تطرق البطلان والفساد أبعد، فالمتخالفات إذا حصل بينها مناسبة واتحاد وحصلت منها هيئة وحدانية صارت اكمل مما كان، ولذا قيل: كمال كل صفة ان يقارب ضدها، وكمال كل شخص ان يتصف بالصفات المتقابلة بجعلها متناسبة متسالمة، وتأثير الاشعار الموزونة والنغمات والايقاعات المتناسبة، وجذب الصور الجميلة للنفوس، إنما هو لوحدة التناسب، ونسبة المساواة

في صناعة الموسيقى أو غيرها اشرف النسب لقربها إلى الوحدة، وغيرها من النسب يرجع اليها.

وبالجملة: اختلاف الاشياء في الكمال والنقص بحسب اختلافها في الوحدة والكثرة، فأشرف الموجودات هو الواحد الحقيقى الذي هو موجد الكل ومبدؤه، ويفيض نور الوحدة على كل موجود بقدر استعداده كما يفيض عليه نور الوجود كذلك، فكل وحدة من الوحدات جوهرية كانت أو خلقية أو فعلية أو عددية أو مزاجية، فهو ظل من وحدته الحقة، وكلما كان أقرب اليها يكون أشرف وجوداً، ولو لا الاعتدال والوحدة العرضية التي هي ظل الوحدة الحقيقية لم تتم دائرة الوجود، لأن تولّد المواليد من العناصر الأربعة يتوقف على حصول الاتحاد والاعتدال، وتعلق النفس الربانية بالبدن انما هو لحصول نسبة الاعتدال، ولذا يزول تعلقها به بزوالها، بل النفس عاشقة لتلك النسبة الشريفة أينما وجدت.

والتحقيق انها معنى وحدانى يختلف باختلاف محالها، فهى في الأجزاء العنصرية الممتزجة اعتدال مزاجى، وفي الأعضاء حسن ظاهرى، وفي الكلام فصاحة، وفي الملكات النفسية عدالة، وفي الحركات غنج ودلال، وفي النغمات ابعاد شريفة لذيذة والنفس عاشقة لهذا المعنى في أى مظهر ظهر، وبأى صورة تجلى، وبأى لباس تلبس.

فانى أحبّ الحسن حيث وجدته ... وللحسن في وجه الملاح مواقع

والكثرة والقلة والنقصان والزيادة تفسد الأشياء إذا لم تكن بينها مناسبة تحفظ عليها الاعتدال والوحدة بوجه ما، وفي هذا المقام تفوح نفحات قدسية تهتز بها نفوس أهل الجذبة والشوق، ويتعطر منها مشام أصحاب التأله والذوق، فتعرّض لها إن كنت أهلاً لذلك.

وإذا عرفت شرف العدالة وايجابها للعمل بالمساواة، وردّ كل ناقص وزائد إلى

الوسط، فاعلم: أنها إما متعلقة بالأخلاق والأفعال، أو بالكرامات وقسمة الاموال، أو بالمعاملات والمعاوضات، أو بالأحكام والسياسات، والعادل في كل واحد من هذه الأمور ما يحدث التساوى فيه برد الإفراط والتفريط إلى الوسط، ولا ريب في انه مشروط بالعلم بطبيعة الوسط، حتى يمكن رد الطرفين اليه، وهذا العلم في غاية الصعوبة، ولا يتيسر إلا بالرجوع إلى ميزان معرف للأوساط في جميع الاشياء، وما هو إلا ميزان الشريعة الإلهية الصادرة عن منبع الوحدة الحقة الحقيقية، فانها هي المعرفة للأوساط في جميع الاشياء على ما ينبغي، والمتضمنة لبيان تفاصيل جميع مراتب الحكمة العملية، فالعادل بالحقيقة يجب ان يكون حكيما عالماً بالنواميس الإلهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة.

وقد ذكر علماء الأخلاق أن العدول ثلاثة: «الأول» العادل الاكبر، وهو الشريعة الإلهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة. «الثانى» العادل الأوسط، وهو الحاكم العادل التابع للنواميس الإلهية والشريعة النبوية فانه خليفة الشريعة في حفظ المساواة. «الثالث» العادل الصامت، وهو الدينار لأنه يحفظ المساواة في المعاملات والمعاوضات.

بيان ذلك: أن الانسان مدنى بالطبع فيحتاج بعض افراده إلى بعض آخر، ولا يتم عيشهم إلا بالتعاون، فيحتاج الزارع إلى عمل التاجروبالعكس، والنجار إلى عمل الصباغ وبالعكس، وهكذا فتقع بينهم معاوضات، فلا بد من حفظ المساواة بينها دفعاً للتنازع والتشاجر، ولا يمكن حفظها بالاعمال لاختلافها بالزيادة والنقصان والقلة والكثرة وغير ذلك، وربما كان أدنى عمل مساوياً لعمل كثير كنظر المهندس، وتدبير صاحب الجيش، فان نظرهما في لحظة واحدة ربما ساوى عملا كثيراً لمن يعمل ويحارب، فحفظ المساواة بينها بالدينار والدرهم بأن تقوم بهما الاعمال والأشياء المختلفة، ليحصل الاعتدال والاستواء، ويتبين وجه الأخذ والاعطاء، وتصح

المشاركات والمعاملات على نهج لا يتضمن إفراطاً ولا تفريطاً قيل: وقد أشير إلى العدول الثلاثة في الكتاب الإلهي بقوله سبحانه:

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[1].

فان الكتاب اشارة إلى الشريعة، والميزان إلى آلة معرفة النسبة بين المختلفات ومنها الدينار، والحديد إلى سيف الحاكم العادل المقوم للناس على الوسط.

هذا والمقابل للعادل ـ أعني الجائر المبطل للتساوى أيضاً ـ إما جائر أعظم ـ وهو الخارج عن حكم الشريعة ـ ويسمى كافراً ـ أو جائر أوسط ـ وهو من لا يطيع عدول الحكام في الأحكام ـ ويسمى طاغياً وباغياً ـ أو جائر أصغر ـ وهو من لا يقوم على حكم الدينار، فيأخذ لنفسه أكثر من حقه ويعطى غيره أقل من حقه ـ ويسمى سارقاً وخائناً ـ.

ثم العدالة على أقسام ثلاثة:

«أحدها» ما يجرى بين العباد وبين خالقهم سبحانه، فانها لما كانت عبارة عن العمل بالمساواة على قدر الامكان، والواجب سبحانه واهب الحياة والكمالات وما يحتاج إليه كل حى من الأرزاق والأقوات، وهيأ لنا في عالم آخر من البهجة والسرور ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، وما من يوم إلا ويصل الينا من نعمه وعطاياه ما تكل الألسنة عن حصره وعدّه، فيجب أن يكون له تعالى علينا حق يقابل به تلك النعم التي لا تحصى كثرة حتى تحصل عدالة في الجملة، إذ من أعطى خيراً ولم يقابله بضرب من المقابلة فهو جائر.

ثم المقابلة والمكافأة تختلف باختلاف الأشخاص، فان ما يؤدى به حق

---

(١) الحديد، الآية: ٢٥.

احسان السلطان غير ما يؤدى به حق احسان غيره، فان مقابلة احسانه انما تكون بمثل الدعاء ونشر المحاسن، ومقابلة احسان غيره تكون بمثل بذل المال والسعى في قضاء حوائجه وغير ذلك. والواجب سبحانه غني عن معونتنا ومساعينا، ولا يحتاج إلى شيء من أعمالنا وأفعالنا، ولكن يجب علينا بالنظر إلى شرع العدالة حقوق تحصل بها مساواة في الجملة، كمعرفته ومحبته، وتحصيل العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة، والاجتهاد في امتثال ما جاءت به رسله وسفراؤه من الصوم والصلاة، والسعى إلى المواقف الشريفة وغير ذلك، وان كان التوفيق لادراك ذلك كله من جملة نعمائه، إلا أن العبد إذا أدى ما له فيه مدخلية واختيار من وظائف الطاعات، وترك ما تقتضى الضرورة بتمكنه على تركه من المعاصي والسيئات، لخرج عن الجور المطلق ولم يصدق عليه انه جائر مطلق، وإن كان أصل تمكنه واختياره، بل أصل وجوده وحياته كلها من الله سبحانه.

«الثاني» ما يجرى بين الناس بعضهم لبعض: من أداء الحقوق وتأدية الأمانات والنصفة في المعاملات والمعاوضات وتعظيم الأكابر والرؤساء واغاثة المظلومين والضعفاء، فهذا القسم من العدالة يقتضى ان يرضى بحقه، ولا يظلم أحداً، ويقيم كل واحد من أبناء نوعه على حقه بقدر الامكان، لئلا يجور بعضهم بعضاً، ويؤدى حقوق إخوانه المؤمنين بحسب استطاعته. وقد ورد في الحديث النبوى: «إن للمؤمن على أخيه ثلاثين حقاً لا براءة له منها إلا بالأداء أو العفو: يغفر زلته، ويرحم غربته، ويستر عورته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويردُّ غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلته، ويرعى ذمته، ويعود مرضته، ويشهد ميتته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافىء صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضى حاجته، ويشفع مسألته، ويسمت عطسته، ويرشد ضالته، ويرد سلامه، ويطيب كلامه، ويبر انعامه، ويصدق أقسامه، ويواليه ولا يعاديه، وينصره ظالماً أو مظلوماً، فأما نصرته ظالماً

فيرده عن ظلمه، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على من ظلمه، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقه، ولا يسأمه، ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه».

«**الثالث**» ما يجرى بين الاحياء وذوى حقوقهم من الاموات: من أداء ديونهم وانفاذ وصاياهم والترحم عليهم بالصدقة والدعاء. وقد أشار خاتم الرسالة ﷺ إلى أقسام العدالة بقوله ﷺ: «التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله»، وبقوله ﷺ في خبر آخر: «الدين النصيحة. قيل لمن؟ قال: لله ولرسوله ولعامة المؤمنين».

ايقاظ

قد ظهر مما ذكر أن الكمال كل الكمال لكل شخص هو العدل والتوسط في جميع صفاته وافعاله الباطنة والظاهرة، سواء كانت مختصة بذاته أو متوسطة بينه وبين أبناء نوعه، ولا تحصل النجاة والسعادة إلا بالاستقامة على وسط الاشياء المتخالفة، والتثبت على مركز الاطراف المتباعدة. فكن يا حبيبى جامعاً للكمالات، متوسطاً بين مراتب السعادات، ومركزاً لدائرة نيل الافاضات. فكن أو لا متوسطاً بين العلم والعمل جامعاً بينهما بقدر الامكان، ولا تكتف بأحدهما حتى لا تكون واحداً من الرجلين القاصمين[1] لظهر فخر الثقلين ﷺ. وكن في العمل متوسطاً بين حفظ الظاهر والباطن، فلا تكن في باطنك خبيثاً وظاهرك نقياً، حتى تكون كشوهاء ملبسة بزى حوراء مدلسة بأنواع التدليسات، ولا بالعكس لتكون مثل درة ملوثة بأقسام القاذورات، بل ينبغى ان يكون ظاهرك مرآة لباطنك، حتى يظهر من محاسنك بقدر ما اقتضته ملكاتك الفاضلة الباطنة. وكن في جميع ملكاتك الباطنة وافعالك الظاهرة

---

(١) اشارة إلى قوله ﷺ: (قصم ظهرى رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك).

متوسطاً بين الافراط والتفريط على ما يقرع سمعك في هذا الكتاب. ثم كن في العلوم متوسطاً بين العلوم الباطنة العقلية والعلوم الظاهرة الشرعية، فلا تكن من الذين قصروا أنظارهم على ظواهر الآيات ولم يعرفوا من حقائق البينات، يذمون علماء الحقيقة وينسبونهم إلى الالحاد والزندقة، ولا من الذين صرفوا أعمارهم في فضول أهل يونان وهجروا ما جاء به حامل الوحى والفرقان، يذمون علماء الشريعة ويثبتون لهم سوء القريحة، يدعون لأنفسهم الذكاء والفطانة وينسبون ورثة الانبياء إلى الجهل والبطالة. ثم كن في العقليات متوسطاً بين طرق العقلاء من غير جمود على واحدة منها بمجرد التقليد أو التعصب، فتوسط بين الحكمة والكلام والاشراق والعرفان، واجمع بين الاستدلال وتصفية النفس بالعبادة والرياضة، فلا تكن متكلماً صرفاً لا تعرف سوى الجدل، ولا مشائياً محضاً اضاع الدين وأهمل، ولا متصوفاً استراح بدعوى المشاهدة والعيان من دون بينة وبرهان. وكن في العلوم الشرعية متوسطاً بين الأصول والفروع، فلا تكن اخبارياً تاركاً للقواعد القطعية، ولا أصولياً عاملاً بقياسات عامية. وقس على ذلك جميع أمورك الباطنة والظاهرة، واعمل به حتى يرشدك إلى طريق السداد، ويوفقك لاكتساب زاد المعاد.

دفع اشكال

إن قيل: قد تلخص مما ذكر: أن الفضيلة في جميع الاخلاق والصفات انما هو المساواة من غير زيادة ونقصان، مع انه قد ثبت إن للتفضل محمود وهو زيادة فلا يدخل تحت العدالة الراجعة إلى المساواة. (قلنا): التفضل احتياط يقع لتحصيل القطع بعدم الوقوع في النقصان، وليس الوسط في طرفين من الأخلاق على نهج واحد، فان الزيادة في السخاء إذا لم يؤد إلى الاسراف احسن من النقصان عنه، وأشبه بالمحافظة على شرائطه، فالتفضل انما يصدر عن فضيلة العدالة، لأنها مبالغة

فيها ولا يخرجها عن حقيقتها، إذ المتفضل من يعطى المستحق أزيد مما يستحقه، وهذه الزيادة ليست مذمومة، بل هي العدالة مع الاحتياط فيها، ولذا قيل: «إن المتفضل أفضل من العادل»، والمذموم ان يعطى غير المستحق أو يترك المساواة بين المستحقين، لأنه انفق فيما لا ينبغي أو على ما لا ينبغي، وصاحبه لا يسمى متفضلاً بل مضيعاً، ولكون التفضل احتياطاً إنما يحسن من الرجل بالنسبة إلى صاحبه في المعاملة التي بينهما، ولو كان بين جماعة ولم يكن له نصيب في ما يحكم فيه لم يسعه إلا العدل المحض ولم يجز له التفضيل.

تتميم

(اصلاح النفس قبل اصلاح الغير)

(وأشرف وجوه العدالة عدالة السلطان)

قد تلخص ان حقيقة العدالة أو لازمها ان يغلب العقل الذي هو خليفة الله على جميع القوى حتى يستعمل كلاً منها فيما يقتضى رأيه، فلا يفسد نظام العالم الانسانى، فان الواجب سبحانه لما ركب الانسان بحكمته الحقة ومصلحته التامة من القوى الكثيرة المتضادة، فهى إذا تهايجت وتغالبت ولم يقهرها قاهر خير، حدثت فيه بهيجانها واضطرابها أنواع الشر، وجذبه كل واحدة منها إلى ما يقتضيه ويشتهيه، كما هو الشأن في كل مركب. وقد شبه المعلم الأول مثله بمن يجذب من جهتين حتى ينقطع وينشق بنصفين أو من جهات كثيرة فيتقطع بحسبها. فيجب على كل انسان ان يجاهد حتى يغلب عقله الذي هو الحكم العدل والخير المطلق على قواه المختلفة، ليرفع اختلافها وتجاذبها ويقيم الجميع على الصراط القويم.

ثم كل شخص ما لم يعدل قواه وصفاته لم يتمكن من اجراء احكام العدالة بين شركائه في المنزل والبلد، اذ العاجز عن اصلاح نفسه كيف يقدر على اصلاح غيره،

فان السراج الذي لا يضيء قريبه كيف يضيء بعيده، فمن عدل قواه وصفاته أولا واجتنب عن الإفراط والتفريط واستقر على جادة الوسط، كان مستعداً لسلوك هذه الطريقة بين ابناء نوعه، وهو خليفة الله في أرضه، وإذا كان مثله حاكماً بين الناس وكان زمام مصالحهم في قبضة اقتداره، لتنورت البلاد بأهلها، وصلحت امور العباد بأسرها، وزاد الحرث والنسل، ودامت بركات السماء والأرض.

وغير خفى أن اشرف وجوه العدالات وأهمها وأفضل صنوف السياسات وأعمها هو عدالة السلطان، إذ غيرها من العدالات مرتبطة بها ولولاه لم يتمكن أحد من رعاية العدالة، كيف وتهذيب الأخلاق وتدبير المنزل يتوقف على فراغ البال وانتظام الأحوال، ومع جور السلطان امواج الفتن متلاطمة، وافواج المحن متراكمة، وعوائق الزمان متزاحمة، وبوائق[1] الحدثان متصادمة، وطالبوا الكمال كالحيارى في الصحارى لا يجدون إلى مناله سبيلا ولا إلى جداوله مرشداً ودليلا، وعرصات العلم والعمل دراسة الآثار، ومنازلهما مظلمة الأرجاء والأقطار، فلا يوجد ما هو الملاك في تحصيل السعادات، اعنى تفرغ الخاطر والاطمئنان وانتظام أمر المعاش الضرورى لافراد الانسان. ولذا لو تصفحت في امثال زماننا زوايا المدن والبلاد واطلعت على بواطن فرق العباد، لم تجد من الالوف واحداً تمكن من اصلاح نفسه ويكون يومه خيراً من أمسه، بل لا تجد ديّناً إلا وهو باك على فقد الاسلام وأهله، ولا طالباً إلا وهو لعدم المكنة باق على جهله، ولعمرى إن هذا الزمان هو الزمان الذي أخبر عنه سيد الأنام وعترته الأبرار الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام من انه: «لا يبقى من الاسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه».

وبالجملة: المناط كل المناط في تحصيل الكمالات واخراج النفوس من

(١) البائقة: الداهية والشر. ويقال: رفعت عنك بائقة فلان أى غائلته وشره، جمعه بوائق.

الجهالات، هو عدالة السلطان، واعتناؤه باعلاء الكلمة، وسعيه في ترويج أحكام الدين والملة، ولذا ورد في الآثار: (أن السلطان إذا كان عادلا كان شريكا في ثواب كل طاعة تصدر عن كل رعية، وإن كان جائراً كان سهيما في معاصيهم). وقال سيد الرسل ﷺ: «أقرب الناس يوم القيامة إلى الله تعالى الملك العادل وأبعدهم عنه الملك الظالم». وورد عنه ﷺ: «عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة». والسر أن اثر عدل ساعة واحدة ربما يصل إلى جميع المدن والأمصار ويبقى على مر الدهور والأعصار، وقال بعض الأكابر: لو علمت انه يستجيب لى دعوة واحدة لخصصتها باصلاح حال السلطان حتى يعم نفعه.

تنوير
(لاحاجة إلى العدالة مع رابطة المحبة)

لو استحكمت رابطة المحبة وعلاقة المودة بين الناس لم يحتاجوا إلى سلسلة العدالة، فان أهل الوداد والمحبة في مقام الإيثار ولو كان بهم خصاصة، فكيف يجور بعضهم على بعض. والسر ان رابطة المحبة أتم وأقوى من رابطة العدالة، لأن المحبة وحدة طبيعية جبلية، والعدالة وحدة قهرية قسرية. على انها لا تنتظم بدون المحبة، لكونها باعثة للايجاد، كما اشير إليه في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً فاحببت أن اعرف». فالمحبة هو السلطان المطلق، والعدالة نائبها وخليفتها[١].

---

(١) ولذلك ان الشريعة الاسلامية أول ما دعت فيما دعت إلى الاخوة والتآلف بين الناس، وكثير من احكامها مثل الجماعة والجمعة والايثار والاحسان وتحريم الغيبة والنبز ونحو ذلك تستهدف ايجاد رابطة الحب بين الشعوب والقبائل والافراد، ليستغنوا عن الأخذ بقانون العدل الصارم المر.

وصل

(التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي)

لاكتساب الفضائل ترتيب ينبغي ان لا يتعدى عنه. وبيان ذلك: ان مبادىء الحركات المؤدية إلى الكمالات: إما طبيعية كحركة النطفة في الاطوار المختلفة إلى بلوغ كمال الحيوانية، أو صناعية كحركة الخشب بتوسط الآلات إلى بلوغ كمال السريرية. ثم الطبيعية وتحريكاتها لاستنادها إلى المبادىء العالية تكون متقدمة على الصناعية المستندة إلى الانسان. ولما كان كمال الثواني ان تتشبه بالأوائل، فينبغي ان تقتدي الصناعية في تحريكاتها المؤدية إلى كمالها بالطبيعية.

وإذ ثبت ذلك فاعلم: إن تهذيب الأخلاق لما كان أمراً صناعياً لزم ان يقتفي في تحصيله من حيث الترتيب بأفعال الطبيعة في ترتيب حصولها، فنقول: لا ريب في أن أول ما يحصل في الطفل قوة طلب الغذاء، وإذا زادت تلك القوة يبكي ويرفع صوته لأجل الغذاء، وإذا قويت حواسه وتمكن من حفظ بعض الصور يطلب صورة الام أو الظئر[1]، وجميع ذلك متعلق بالقوة الشهوية. ونهاية هذه القوة وكمالها ان يتم ما يتعلق بالشخص من الامور الشهوية، وينبعث منه الميل إلى استبقاء النوع، فيحدث ميل النكاح والوقاح. ثم تظهر فيه آثار القوة الغضبية حتى يدفع عن نفسه ما يؤذيه ولو بالاستعانة بغيره. وغاية كمال هذه القوة حصول التمكن من حفظ الشخص والاقدام على حفظ النوع، فيحدث فيه الميل إلى ما يحصل به التفوق من أصناف الرئاسات والكرامات. ثم تظهر فيه آثار قوة التمييز وتتزايد إلى ان يتمكن من تعقل الكليات.

وهنا يتم ما يتعلق بالطبيعة من التدبير والتكميل، ويكون ابتداء التكميل الصناعي، فلو لم يحصل الاستكمال بالكسب والصناعة بقي على هذه الحالة، ولم

(١) يريد بها المرضعة.

يبلغ إلى الكمال الحقيقى الذي خُلق الانسان لأجله، لأنه لم يخلق أحد مجبولا على الاتصاف بجميع الفضائل الخلقية إلا من أُيّد من عند الله بالنفس القدسية، وإن كان بعض الناس اكثر استعداداً لتحصيل بعض الكمالات من بعض آخر، فلابد لجل الأنام في تكميل نفوسهم من الكسب والاستعلام.

فظهر مما ذكر: ان الطبيعة تولد أولاً قوّة الشهوة، ثم قوة الغضب، ثم قوة التمييز، فيجب أن يقتدى به في التكميل الصناعى، فيهذب أو لا القوة الأولى ليكتسب العفة، ثم الثانية ليتصف بالشجاعة، ثم الثالثة ليتحلى بالحكمة، فمن حصل بعض الفضائل على الترتيب الحكمى كان تحصيل الباقى له في غاية السهولة، ومن حصله لا على الترتيب، فلا يظن ان تحصيل الباقى حينئذ متعذر بل هو ممكن، وإن كان أصعب بالنسبة إلى تحصيله بالترتيب، فان عدم الترتيب يوجب عسر الحصول لا تعذره، كما ان الترتيب يوجب يسره لا مجرد إمكانه. فلا يترك السعى والجد في كل حال ولا ييأس من رحمة الله الواهب المتعال، وليشمر ذيل الهمة على منطقة الطلب حتى ييسر الله له الوصول إلى ما هو المقصد والمطلب.

ثم الفضيلة إن كانت حاصلة لزم السعى في حفظها وابقائها، وان لم تكن حاصلة بل كان ضدها حاصلا وجب تحصيلها بازالة الضد. ولذا كان فنّ الأخلاق على قسمين: (احدهما) راجع إلى حفظ الفضائل، و(ثانيهما) نافع في دفع الرذائل، فيكون شبيهاً بعلم الطب، من حيث انقسامه إلى قسمين: (أحدهما) في حفظ الصحة، و(ثانيهما) في دفع المرض، ولذا يسمى طباً روحانياً، كما أن الطب المتعارف يسمى طباً جسمانياً. ومن هنا كتب جالينوس إلى روح الله عليه السلام: «من طبيب الأبدان إلى طبيب النفوس». فكما ان لكل من حفظ الصحة ودفع المرض في الطب الجسمانى علاجاً خاصاً، فكذلك لكل من حفظ الفضائل وازالة الرذائل في الطب الروحانى معالجات معينة، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الباب الثالث

في طريق حفظ اعتدال الأخلاق المحمودة واستحصالها بازالة نقائضها المذمومة

الطريق لحفظ اعتدال الفضائل - قانون العلاج في الطب الروحاني - طريقة معرفة الأمراض النفسية - المعالجات الكلية لأمراض النفس - المعالجات الخاصة لأمراض النفس. وله أربعة مقامات:

(الأول) ما يتعلق بالقوة العاقلة من الرذائل والفضائل وكيفية علاج الرذائل.

(الثانی) ما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج.

(الثالث) ما يتعلق بالقوة الشهوية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج.

(الرابع) ما يتعلق بالقوى الثلاث أو باثنتين منها.

وفيه فصول[1]:

---

(١) هذه الفصول كتمهيد للمقامات الأربعة التي تتعلق بالعلاج الخاص لذمائم الأخلاق.

فصل

(الطريق لحفظ اعتدال الفضائل)

قد تقرر في الطب الجسمانى أن حفظ الصحة بايراد المثل وملائم المزاج، فيجب أن يكون حفظ اعتدال الفضائل ايضاً بذلك. وايراد المثل لحفظ اعتدالها يكون بامور:

﴿منها﴾ اختيار مصاحبة الأخيار، والمعاشرة مع اولى الفضائل الخلقية، واستماع كيفية سلوكهم مع الخالق والخليقة، والاجتناب عن مجالسة الأشرار وذوى الأخلاق السيئة، والاحتراز عن استماع قصصهم وحكاياتهم وما صدر عنهم من الأفعال ومزخرفاتهم، فإن المصاحبة مع كل أحد أقوى باعث على الاتصاف بأوصافه، فإن الطبع يسترق من الطبع كلا من الخير والشر. والسر: أن النفس الانسانية ذات قوى بعضها يدعو إلى الخيرات والفضائل وبعضها يقتضى الشرور والرذائل، وكلما حصل لأحدهما أدنى باعث لما تقتضيه جبلته مال إليه وغلب على صاحبه ألى الخير، ولكون دواعى الشر من القوى اكثر من بواعث الخير منها، يكون الميل إلى الشر أسرع وأسهل بالنسبة إلى الميل إلى الخير، ولذا قيل: إن تحصيل الفضائل بمنزلة الصعود إلى الأعالى، وكسب الرذائل بمثابة النزول منها. وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات».

﴿ومنها﴾ إعمال القوى في شرائف الصفات، والمواظبة على الأفعال التي هي آثار فضائل الملكات، وحمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق الذي يريد حفظه، فالحافظ لملكة الجود يجب أن يواظب على انفاق المال وبذله على المستحقين، ويقهر على نفسه عند وجدان ميلها إلى الامساك، والحافظ لملكة الشجاعة يجب ألا يترك الاقدام في الأخطار والأهوال بشرط اشارة العقل، ويغضب على نفسه عند وجدان الجبن منها. وهكذا الحال في سائر الصفات. وهذا بمثابة

الرياضة الجسمانية في حفظ الصحة البدنية.

﴿**ومنها**﴾ ان يقدم التروى على كل ما يفعله، لئلا تصدر عنه غفلة خلاف ما تقتضيه الفضيلة. ولو صدر عنه أحياناً خلاف مقتضاها، فليؤدب نفسه بارتكاب ما يضاده، ويشق عليها عقوبة، بعد تعييرها وتوبيخها، كما إذا أكل ما يضره من المطاعم فليؤدبها بالصوم، وإذا صدر عنه غضب مذموم في واقعة فليؤدبها بايقاعها في مثلها مع الصبر عليها، أو في معرض اهانة السفهاء حتى يكسر جاهه أو يؤدبها بارتكاب ما يشق عليها من النذر والصدقة وغير ذلك. وينبغى ألا يترك الجد والسعى في التحصيل والحفظ وان بلغ الغاية، لأن التعطيل يؤدى إلى الكسالة وهي إلى انقطاع فيوضات عالم القدس، فتنسلخ الصورة الانسانية وتحصل الهلاكة الأبدية، والسعى يوجب ازدياد تجرد النفس وصفائها والانس بالحق والألف بالصدق[١]، فيتنفر عن الكذب والباطل، ويتصاعد في مدارج الكمالات ومراتب السعادات، حتى تنكشف له الاسرار الإلهية والغوامض الربانية، ويتشبه بالروحانيات القادسة، وينخرط في سلك الملائكة المقدسة. ويجب ان يكون سعيه في امور الدنيا بقدر الضرورة، ويحرّم على نفسه تحصيل الزائد، لأنه لا شقاوة أشد من صرف الجوهر الباقى النورانى في تحصيل الخزف الفانى الظلمانى الذي يفوت عنه وينتقل إلى أعدائه من الوراث وغيرهم.

﴿ومنها﴾ أن يحترز عما يهيج الشهوة والغضب رؤية وسماعاً وتخيلا، ومن هيّجهما كمن هيّج كلباً عقوراً أو فرساً شموساً، ثم يضطر إلى تدبير الخلاص عنه. وإذا تحركتا بالطبع فليقتصر في تسكينهما بما يسد الخلة ولا ينافي حفظ الصحة، وهو القدر الذي جوزه العقل والشريعة.

---

(١) كذا في النسخ. والصحيح «للصدق».

﴿ومنها﴾ أن يستقصى في طلب خفايا عيوب نفسه، وإذا عثر على شيء منها اجتهد في إزالته. ولما كانت النفس عاشقه لصفاتها وأفعالها، فكثيراً ما يخفى عليها بعض عيوبها، فيلزم على كل طالب للصحة وحافظها أن يختار بعض اصدقائه ليتفحص عن عيوبه ويخبره بما اطلع عليه، وإذا أخبره بشيء منها فليفرح وليبادر إلى ازالته حتى يثق صديقه بقوله، ويعلم أن اهداء شيء من عيوبه إليه أحسن عنده من كل ما يحبه ويهواه، وربما كان العدو في هذا الباب انفع من الصديق، لأن الصديق ربما يستر العيب ولا يظهره، والعدومصر على اظهاره، بل ربما يتجاوز إلى البهتان، فإذا أظهر الأعداء عيوبه فليشكر الله على ذلك وليبادر إلى رفعها وقمعها.

ومما ينفع في المقام ان يجعل صور الناس مرايا لعيوبه ويتفقد عيوبهم، وإذا عثر على عيب منهم تأمل في قبحه، ويعلم أن هذا العيب إذا صدر عنه يكون قبيحاً ويدرك غيره هذا القبح، فليجتهد في إزالته. وينبغى أن يحاسب نفسه في آخر كل يوم وليلة، ويتفحص عن جميع ما صدر من الأفعال فيهما، فان لم يصدر عنه شيء من القبائح والذمائم فليحمد الله على حسن تأييده، وإن صدر عنه شيء من ذلك فليعاتب نفسه ويتوب، ويجتهد في ألا يصدر عنه بعد ذلك مثله.

قانون العلاج في الطب الروحانى

﴿تنبيه﴾ قد تبين أن للطب الروحانى أسوة بالطب الجسمانى. والقانون في معالجة الأمراض الجسمانية ان يعرف جنس المرض أولا، ثم الأسباب والعلامات، ثم يبين كيفية العلاج. والعلاج فيه إماكلى يتناول جميع الامراض، أو جزئى يختص بمرض دون مرض، فكذلك الحال في الطب الروحانى. ونحن نشير إلى ذلك في فصول:

فصل

(طريق معرفة الأمراض النفسانية)

الأمراض النفسانية هي انحرافات الأخلاق عن الاعتدال. وطريق معرفتها: أنك قد عرفت ان القوى الانسانية محصورة في أنواع ثلاثة: **(احدها)** قوة التميز، **(وثانيها)** قوة الغضب ويعبر عنها بقوة الدفع، **(وثالثها)** قوة الشهوة ويعبر عنها بقوة الجذب. وانحراف كل منها إما في الكمية أو في الكيفية، والانحراف في الكمية إما للزيادة من الاعتدال أو للنقصان عنه، والانحراف في الكيفية إنما يكون برداءتها. فامراض كل قوة إما بحسب الافراط أو التفريط، أو بحسب رداءة الكيفية.

فالافراط في قوة التميز: كالجربزة والدهاء، والتجاوز عن حد النظر، والمبالغة في التنقير[1]، والتوقف في غير موضعه للشبه الواهية، والحكم على المجردات بقوة الوهم، وإعمال الذهن في ادراك ما لا يمكن دركه، والتفريط فيه كالبلاهة، وقصور النظر عن درك مقدار الواجب، كإجراء أحكام المحسوسات على المجردات. والرداءة كالسفسطة في الاعتقاد، والميل إلى العلوم الغير اليقينية ـ كعلم الجدل والخلاف ـ أزيد مما يميل إلى اليقينيات، واستعمالهما في مقام اليقينيات، والشوق إلى علم الكهانة والشعبذة وأمثالهما للوصول إلى الشهوات الخسيسة.

وأما الافراط في قوة الدفع: كشدة الغضب والغيظ وفرط الانتقام بحيث يتشبه بالسباع. وأما التفريط: كعدم الغيرة والحمية والتشبه بالأطفال والنسوان في الأخلاق والصفات. وأما الرداءة فيها: كالغيظ على الجمادات والبهائم أو على الناس لا بسبب موجب للانتقام.

وأما الإفراط في قوة الجذب: فكالحرص على الأكل والجماع أزيد من قدر

---

(١) التنقير: البحث والتتبع.

الضرورة. والتفريط فيه: فكالفتور عن تحصيل الأقوات الضرورية وتضييع العيال والخمود عن الشهوة حتى ينقطع عنه النسل. أما الرداءة فيها: كشهوة الطين والميل الى مقاربة الذكور.

ثم إنك قد عرفت أن أجناس الفضائل أربعة، فاجناس الرذائل بحسب الكمية ثمانية، لكل فضيلة ضدان كل منهما ضد للآخر، وبحسب الكيفية أربعة، ويحصل من تركيبها وامتزاجها انواع واصناف لا يعد كثرة، كما عرفت أكثرها.

فصل

(أسباب الأمراض النفسانية)

إعلم أن اسباب الانحراف في الأخلاق، إما نفسية حاصلة في النفس في بدو فطرتها، أو حادثة من مزاولتها للأعمال الردية، أو جسمية ـ وهي الأمراض الموجبة لبعض الملكات الرديّة ـ والسر في ذلك أن النفس لما كانت متعلقة بالبدن علاقة ارتباطية، فيتأثر كل منهما بتأثر الآخر، وكل كيفية تحدث في احدهما تسرى في الآخر، كما أن غضب النفس أو تعشقها يوجب اضطراب البدن وارتعاشه، وتأثر البدن بالأمراض، (لا) سيما إذا حدثت في الأعضاء الرئيسية يوجب النقص في ادراك النفس وفساد تخيلها. وكثيراً ما يحدث من بعض الأمراض السوداوية فساد الاعتقاد والجبن وسوء الظن، ومن بعضها التهور، ويحصل من أكثر الأمراض سوء الخلق.

فصل

(المعالجات الكلية لمرض النفس)

سبب الانحراف إن كان مرضاً جسمانياً فيجب أن يبادر إلى ازالته بالمعالجات

الطبية، وإن كان نفسانياً فالمعالجة الكلية هنا كالمعالجة الكلية في الطب الجسماني. والمعالجة الكلية فيه ان يعالج المرض اولاً بالغذاء الذي هو ضد المرض طبعاً، كأن يعالج المرض البارد بالغذاء الحار، فإن لم ينفع فبالدواء، وإن لم ينجع فبالسمومات، وإن لم يحصل بها البرء فبالكى أو القطع، وهو آخر العلاج. فالقانون الكلى في المعالجة هنا أيضاً كذلك، وهو أن يبادر بعد معرفة الانحراف إلى تحصيل الفضيلة التي هي ضده، والمواظبة على الأفعال التي هي آثارها، وهذا بمنزلة الغذاء المضاد للمرض. فكما ان حصول الحرارة في المزاج يدفع البرودة الحادثة فيه، فكذا كل فضيلة تحدث في النفس تزيل الرذيلة التي هي ضدها. فان لم ينفع فليوبخ النفس ويعيرها على هذه الرذيلة فكراً أو قولاً اوعملاً، ويعاتبها ويخاطبها بلسان الحال والمقال: أيتها النفس الامارة قد هلكت وتعرضت لسخط الله وغضبه، وعن قريب تعذبين في النار مع الشياطين والاشرار. فان لم يؤثر ذلك فليرتكب آثار الرذيلة التي هي ضد هذه الرذيلة، بشرط محافظة التعديل، فصاحب الجبن مثلا يعمل أعمال المتهورين، فيخوض في المخاوف والأهوال، ويلقى نفسه في موارد الحذر والأخطار. وصاحب البخل يكثر من بذل الأموال، بشرط أن يكفّ إذا قرب زوال الجبن والبخل لئلا يقع في التهور والاسراف، وهذا بمنزلة المداواة بالسم. فإن لم ينفع ذلك لقوة استحكام المرض فليعذب النفس بأنواع التكاليف الشاقة والرياضات المتعبة المضعفة للقوة الباعثة على هذه الرذيلة، وهذا بمثابة الكى والقطع، وهو آخر العلاج.

المعالجات الخاصة لمرض النفس

﴿تنبيه﴾ لمّا عرفت المعالجة الكلية الشاملة لجميع الرذائل بأجناسها وأنواعها وأصنافها، فلنشتغل الآن ببيان معالجة كل من الرذائل بخصوصه. وقد عددنا قبل

ذلك ما يتعلق بالقوى الثلاث من الرذائل وأضدادها من الفضائل مما له اسم مشهور، فههنا نذكر معالجة كل رذيلة بخصوصها، ونذيله بذكر ما يضادها من الفضيلة، وما ورد في مدحها عقلا ونقلا، لأن العلم بمعرفة كل فضيلة وحسنة أعون شيء على ازالة ما يضادها من الرذيلة. وربما كانت جملة من الرذائل المختلفة في الاسم مشتركة في المعالجة، وربما كان للرذائل أو الفضائل المتعددة ضد واحد منهما، فنحن نشير إلى ذلك، ونشير ايضاً في تلو كل رذيلة وفضيلة إلى ما يتولد منهما من أفعال الجوارح مع معالجته ـ إن كان له ذلك ـ ونراعى الترتيب المذكور في مقام الاجمال: فنذكر أو لا ما يتعلق بالقوة العاقلة من الجنسين وأنواعهما، ثم ما يتعلق بالقوة الغضبية، ثم ما يتعلق بالشهوية، ثم ما يتعلق بالثلاث والاثنين منها، فهنا أربعة مقامات:

المقام الأول

(في معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلة)

الجربزة وعلاجها ـ الجهل البسيط وعلاجه ـ شرف العلم والحكمة ـ آداب التعلم والتعليم ـ العلم الإلهى والأخلاق والفقه أشرف العلوم ـ اصول العقائد المجمع عليها ـ الجهل المركب والشك ـ اليقين ـ علامات صاحبه ـ مراتب اليقين ـ الشرك ـ التوحيد ـ التوكل على الله ـ حق التوكل بماذا يحصل ـ مناجاة السر لأرباب القلوب ـ الخواطر النفسانية والوساوس ـ أقسام الخواطر ومنها الالهام ـ المطاردة بين جندى الملائكة والشياطين في معركة النفس ـ العلائم الفارقة بين الالهام والوسوسة ـ علاج الوساوس ـ ما يتم به علاج الوساوس ـ ما يتوقف قطع الوساوس عليه ـ حديث النفس لا مؤاخذة عليه ـ الخاطر المحمود والتفكر ـ مجارى التفكر في العوالم والمخلوقات.

أما جنسا رذائلها[1] ﴿فأولهما﴾:

---

(١) أي القوة العاقلة.

الجربزة

الموجبة للخروج في الفكر عن الحد اللائق وعدم استقامة الذهن على شيء، بل لا يزال يستخرج اموراً دقيقة غير مطابقة للواقع ويتجاوز عن الحق ولا يستقر عليه، وربما أدى في العقليات إلى الالحاد وفساد الاعتقاد، بل إلى نفى حقائق الأشياء رأساً كما للسوفسطائية، وفي الشرعيات إلى الوسواس. (وعلاجه) بعد تذكر قبحه وإيجابه للهلاك، أن يكلف نفسه على الاستقامة على مقتضى الأدلة المعتبرة عند اولى الأفهام المستقيمة، ولا يتجاوز عن معتقدات أهل الحق المعروفين بالتحقيق واستقامة القريحة، ولا يزال يكلف نفسه على ذلك حتى يعتاد القيام على الوسط. وربما كان للاشتغال بالتعليمات نفع في ذلك.

﴿وثانيهما﴾:

الجهل البسيط

وقد عرفت أنه من باب التفريط، وهو خلو النفس عن العلم من دون اعتقاد بكونها عالمة. وهو في البداية غير مذموم لتوقف التعلم عليه، إذ ما لم تعتقد النفس جهلها بالمعارف لم تنهض لتحصيلها. وأما الثبات عليه فهو من المهلكات العظيمة. والطريق في ازالته امور: (الأول) أن يتذكر ما يدل على قبحه ونقصه عقلا، وهو أن يعلم أن الجاهل ليس انساناً بالحقيقة، وإنما يطلق عليه الانسان مجازاً، إذ فضل الانسان عن سائر الحيوانات إنما هو ادراك الكلى المعبر عنه بالعلم، لمشاركتها معه في سائر الامور من الجسمية والقوى الغضبية والشهوية والصوت وغير ذلك، فلو لا علمه بحقائق الأشياء وخواصها لكان حيواناً بالحقيقة، ولذا ترى أن من كان في محل محاورات العلماء وكان جاهلا بأقوالهم لم يكن فرق بينه وبين البهائم بالنسبة اليهم. وأى هلاك أعظم من الخروج عن حدود الانسانية والدخول في حد البهيمية.

(الثانى) أن يتذكر ما ورد في الشريعة من الذم عليه مثل قوله ﷺ: «ستة يدخلون في النار قبل الحساب لستة» وعد منهم أهل الرساتيق بالجهالة. (الثالث) أن يتذكر ما يدل على فضيلة العلم عقلا ونقلا كما نذكره. وإذا وقف على جميع ذلك فليتيقظ عن سنة الغفلة، ويصرف في إزالته الهمة، ويجتهد في تحصيل العلم عن أهاليه، ويصرف فيه أيامه ولياليه.

فصل

(شرف العلم والحكمة)

قد علم أن ضد الجنسين ـ أي الجربزة والسفسطة والجهل ـ هو الحكمة، اعنى العلم بحقائق الأشياء. فلنذكر أو لا بعض ما يدل على شرافته عقلا ونقلا، ترغيباً للطالبين على السعى في تحصيله وإزالة الجهل عن نفوسهم، فنقول:

لا ريب في أن العلم أفضل الفضائل الكمالية وأشرف النعوت الجمالية، بل هو أجل الصفات الربوبية وأجمل السمات الالوهية، وهو الموصل إلى جوار رب العالمين والدخول في افق الملائكة المقربين، وهو المؤدى إلى دار المقامة التي لا تزول ومحل الكرامة التي لا تحول، وقد تطابق العقل والبرهان واجماع ارباب الأديان على: أن السعادة الأبدية والقرب من الله سبحانه لا يتيسران بدونه، وأى شيء أفضل مما هو ذريعة اليهما. وأيضاً قد ثبت في الحكمة المتعالية: أن العلم والتجرد متلازمان، فكلما تزداد النفس علماً تزداد تجرداً، ولا ريب في أن التجرد أشرف الكمالات المتصورة للانسان، إذ به يحصل التشبه بالملأ الأعلى وأهل القرب من الله تعالى.

ومن جملة العلوم معرفة الله التي هي السبب الكلى لايجاد العالم العلوى والسفلى، كما دل عليه الخبر القدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق». على أن العلم لذيذ في نفسه محبوب في ذاته، وما يحصل منه من اللذة

والابتهاج قلما يحصل من غيره. والسر فيه ان ادراك الأشياء والاحاطة بها نوع تملك وتصرف لها، إذ تتقرر في ذات المدرك حقائقها وصورها، ومثل هذا التملك لدوامه وجزئية المدرك للمدرك أقوى من ملكية الأعيان المبائنة لذات المالك الزائلة عنه. والتحقيق: أن اطلاق الملكية عليه مجازى، والنفس لكونها من سنخ عالم الربوبية تحت القهر والاستيلاء على الأشياء والمالكية لها بأى نحو كان، إذ معنى الربوبية التوحد بالكمال والاقتدار والغلبة على الأشياء.

ثم من فوائد العلم في الدنيا العز والاعتبار عند الأخيار والأشرار، ونفوذ الحكم على الملوك وأرباب الاقتدار، فان طباع الأنام من الخاص والعام مجبولة على تعظيم أهل العلم وتوقيرهم ووجوب اطاعتهم واحترامهم، بل جميع الحيوانات من البهائم والسباع مطيعة للانسان مسخرة له، لاختصاصه بقوة الادراك ومزيد التمييز. ولو تصفحت آحاد الناس لم تجد أحداً له تفوق وزيادة على غيره في جاه أو مال أو غير ذلك إلا وهو راجع إلى اختصاصه بمزيد تمييز وادراك، ولو كان من باب المكر والحيل.

هذا وما يدل على شرافة العلم من الآيات والأخبار أكثر من أن تحصى. نبذة منها قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا﴾(١).

وقوله تعالى:

﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ(٢)﴾.

وقوله تعالى:

---

(١) الفاطر، الآية: ٢٨.

(٢) الزمر، الآية: ٩.

﴿وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(١).

وقوله تعالى:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾(٢).

وقول النبي ﷺ: «اللهم ارحم خلفائي. قيل: يا رسول الله! من خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي». وقوله ﷺ لأبي ذر: «جلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله تعالى من قيام الف ليلة يصلي في كل ليلة الف ركعة وأحب إليه من ألف غزوة، ومن قراءة القرآن كله اثني عشر الف مرة، وخير من عبادة سنة صام نهارها وقام ليلها، ومن خرج من بيته ليلتمس باباً من العلم كتب الله عز وجل له بكل قدم ثواب نبي من الأنبياء، وثواب ألف شهيد من شهداء بدر، وأعطاه الله بكل حرف يسمع أو يكتب مدينة في الجنة، وطالب العلم يحبه الله وتحبه الملائكة والنبيون، ولا يحبّ العلم إلا السعيد، وطوبى لطالب العلم، والنظر في وجه العالم خير من عتق ألف رقبة، ومن أحب العلم وجبت له الجنة، ويصبح ويمسي في رضى الله، ولا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر ويأكل من ثمرة الجنة، ولا يأكل الدود جسده، ويكون في الجنة رفيق خضر عليه السلام».

وقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ان كمال الدين طلب العلم والعمل به، وإن طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال، وإن المال مقسوم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم، وقد ضمنه وسَيَفي لكم، والعلم مخزون عند أهله فاطلبوه». وقوله عليه السلام: «إذا مات مؤمن وترك ورقة واحدة عليها علم، تكون تلك الورقة ستراً بينه وبين النار، وأعطاه الله بكل حرف عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرات».

وقول سيد الساجدين علي بن الحسين عليهما السلام: «لو يعلم الناس ما في طلب العلم

---

(١) البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٢) العنكبوت، الآية: ٤٣.

لطلبوه، ولو بسفك المهج وخوض اللجج».

وقول الباقر عليه السلام: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد».

وقول الصادق عليه السلام: «لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدوا أعينهم إلى ما متع به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها، وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطؤن بأرجلهم، ولتنعموا بمعرفة الله وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله. إن معرفة الله تعالى انس من كل وحشة، وصاحب من كل وحدة، ونور من كل ظلمة، وقوة من كل ضعف، وشفاء من كل سقم، قد كان قوم قبلكم يُقتلون ويُحرقون ويُنشرون وتضيق عليهم الأرض برحبها، فما يردهم عما هم عليه شيء مما هم فيه من غير ترة وتروا مَن فَعل ذلك بهم ولا أذى بما نقموا منهم:

﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[1].

فاسألوا ربكم درجاتهم، واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم».

وعن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، فاطلبوا العلم في مظانه، واقتبسوه من أهله، فان تعلمه لله تعالى حسنة، وطلبه عبادة، والمذاكرة به تسبيح، والعمل به جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة إلى الله، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل الجنة، والمؤنس في الوحشة، والصاحب في الغربة والوحدة، والمحدّث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء. والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواماً، ويجعلهم في الخير قادة، تقتبس آثارهم، ويقتدى بأفعالهم، وينتهى إلى آرائهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وفي صلاتها تبارك عليهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه. إن

(١) البروج، الآية:٨.

العلم حياة القلوب من الجهل، وضياء الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار ومجالس الأبرار والدرجات العلى في الآخرة والاولى. الذكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام. به يطاع الرب ويعبد، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال والحرام. العلم إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء، فطوبى لمن لم يحرمه الله من حظه».

آداب التعلم والتعليم

﴿تنبيه﴾ لكل من التعلم والتعليم آداب وشروط:

﴿أما آداب التعلم﴾:

(فمنها) أن يجتنب المتعلم عن اتباع الشهوات والهوى والاختلاط بأبناء الدنيا. ولقد قال بعض الأكابر: «كما أن الحاسة الجليدية إذا كانت مؤوفة برمد ونحوه فهي محرومة من الأشعة الفائضة عن الشمس، كذلك البصيرة إذا كانت مؤوفة بمتابعة الشهوات والهوى والمخالطة بأبناء الدنيا فهي محرومة من ادراك الأنوار القدسية ومحجوبة عن ذوق اللذات الانسية».

(ومنها) ان يكون تعلمه لمجرد التقرب إلى الله والفوز بالسعادات الاخروية، ولم يكن باعثه شيئاً من المراء والمجادلة، والمباهاة والمفاخرة، والوصول إلى جاه ومال، أو التفوق على الأقران والأمثال. قال الباقر عليه السلام: «من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس فليتبوأ مقعده من النار، إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها». وقال الصادق عليه السلام: «طلبة العلم ثلاثة، فاعرفهم بأعيانهم وصفاتهم: صنف يطلبه للجهل[1] والمراء، وصنف يطلبه للاستطالة والختل، وصنف

(١) (الجهل) هنا بمعنى الجفاء والغلظة.

يطلبه للفقه والعقل. فصاحب الجهل والمراء مؤذ ممار، متعرض للمقال في أندية الرجال بتذاكر العلم وصفة الحلم، وقد تسربل بالخشوع وتخلى من الورع، فدق الله من هذا خيشومه وقطع منه حيزومه. وصاحب الاستطالة والختل ذوخِب وملق، يستطيل على مثله من أشباهه، ويتواضع للأغنياء من دونه، فهو لحلوانهم[١] هاضم ولدينه حاطم، فاعمى الله على هذا خبره وقطع من آثار العلماء أثره. وصاحب الفقه والعقل ذوكآبة وحزن وسهر، قد تحنك في برنسه وقام الليل في حندسه، يعمل ويخشى وجلاً داعياً مشفقاً مقبلاً على شأنه عارفاً بأهل زمانه مستوحشاً من أوثق اخوانه، فشد الله من هذا اركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه».

(ومنها) أن يعمل بما يفهم ويعلم، فان من عمل بما يعلم ورثه الله ما لم يعلم. وقال الصادق عليه السلام: «العلم مقرون إلى العمل، من علم عمل، ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل فان أجابه وإلا ارتحل عنه». وعن السجاد عليه السلام: «مكتوب في الانجيل: لا تطلبوا علم ما لا تعلمون ولما تعملوا بما علمتم، فان العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلا كفراً ولم يزدده من الله إلا بعداً». وعن النبى صلى الله عليه وآله: «من أخذ العلم من أهله وعمل بعلمه نجا، ومن أراد به الدنيا فهى حظه». وعنه صلى الله عليه وآله: «العلماء رجلان: رجل عالم أخذ بعلمه فهذا ناج، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك، وإن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه، وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله فاستجاب له وقبل منه، فاطاع الله فأدخله الجنة، وأدخل الداعى النار بترك عمله[٢]

---

(١) قال الشيخ (ملا صالح المازندرانى) في تعليقته على اصول الكافى عن هذا الحديث: «الحلوان ـ بضم الحاء المهملة وسكون اللام ـ ما تأخذه الحكام والقضاة والكاهن من الأجر والرشوة على أعمالهم، يقال:- حلوته أحلوه حلواناً، فهو مصدر كالغفران، ونونه زائدة، وأصله من الحلاوة، وفي بعض النسخ (بحلوائهم) ـ بالهمزة بعد الألف ـ والحلوا ـ بالمد والقصر ـ ما يتخذ من الحلاوة».

(٢) صححناه على بعض نسخ اصول الكافى المصححة. و فى نسخ جامع السعادات هكذا: (بتركه علمه).

واتباعه الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق وطول الأمل ينسى الآخرة».

(ومنها) أن يحافظ شرائط الخضوع والأدب للمعلم، ولا يرد عليه شيئاً بالمواجهة، ويكون محباً له بقلبه، ولا ينسى حقوقه، لأنه والده المعنوى الروحانى، وهو أعظم الآباء الثلاثة. قال الصادق عليه السلام: «اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم».

هذا وقد اشرنا سابقاً إلى أن اللازم لكل متعلم أن يطهر نفسه أولا من رذائل الأخلاق وذمائم الأوصاف باسرها، إذ ما لم يجرد لوح نفسه عن النقوش الردية لم تشرق عليه لمعات أنوار العلم والحكمة من ألواح العقول الفعالة القدسية.

﴿وأما آداب التعليم﴾:

(فمنها) ان يخلص المعلم تعليمه لله سبحانه ولم يكن له فيه باعث دنيوى من طمع مالى أو جاه ورئاسة أو شهرة بين الناس، بل يكون الباعث مجرد التقرب إلى الله تعالى والوصول إلى المثوبات الابدية، فإن من علم غيره علماً كان شريكا في ثواب تعليم هذا الغير لآخر، وفي ثواب تعليم هذا الآخر لغيره... وهكذا إلى غير النهاية، فيصل بتعليم واحد إلى مثوبات التعاليم الغير المتناهية، وكفى بهذا له فضلا وشرفاً.

(ومنها) ان يكون مشفقاً على المتعلم ناصحاً له، مقتصراً في الافادة على قدر فهمه، متكلماً معه باللين والهشاشة لا بالغلظة والفظاظة.

(ومنها) أن لا يضن العلم من أهله ويمنعه عن غير أهله، لأن بذل الحكمة للجهال ظلم عليها، ومنعها عن أهلها ظلم عليهم، كما ورد في الخبر(١).

---

(١) روى في اصول الكافى في باب بذل العلم عن الصادق عليه السلام: «قام عيسى بن مريم خطيبا في بنى اسرائيل فقال: يا بنى اسرائيل! لا تحدثوا الجهال بالحكمة فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم».

(ومنها) أن يقول ما يعلم ويسكت عما لا يعلم حتى يرجع إليه ويعلمه، ولا يخبر المتعلمين ببيان خلاف الواقع. وهذا الشرط لا يختص بالمعلمين، بل يعم كل من تصدر عنه المسائل العلمية كالمفتى والقاضي وأمثالهما. وقال الباقر عليه السلام: «حق الله على العباد أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عندما لا يعلمون»[١] وقال الصادق عليه السلام: «إن الله تعالى خص عباده بآيتين من كتابه: ألا يقولوا حتى يعلموا ولا يردّوا ما لم يعلموا، فقال:

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[٢]. وقال: **﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾**[٣].

وعنه عليه السلام: «إذا سُئل الرجل منكم عما لا يعلم، فليقل: لا أدرى، ولا يقل: الله أعلم، فيوقع في قلب صاحبه شكا. وإذا قال المسئول: لا أدرى، فلا يتهمه السائل». وعنه عليه السلام: «إياك وخصلتين ففيهما هلك من هلك. إياك أن تفتى الناس برأيك، أو تدين بما لا تعلم». وعن الباقر عليه السلام: «من أفتى الناس بغير علم ولا هدى لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتياه».

وربما كان لكل من المتعلم والمعلم آداب أخر تظهر لمن وقف على فن الأخلاق. ثم العارف بأهل زماننا يعلم ان آداب التعلم والتعليم كسائر الأداب والفضائل فيهم مهجورة، والأمر في مثل الزمان كما قال في وصفه بعض أهل العرفان: «قد فسد الزمان وأهله، وتصدى للتدريس من قل علمه وكثر جهله، فانحطت مرتبة العلم وأصحابه، واندرست مراسمه بين طلابه».

---

(١) الحديث المروى في اصول الكافى هكذا: «عن زرارة بن أعين قال: سألت أبا جعفر عليه السلام ما حق الله على العباد؟ قال: ان يقولوا ما يعلمون.. .» إلى آخر الحديث.

(٢) الأعراف، الآية: ١٦٩.

(٣) يونس،الآية: ٣٩.

تتميم

(العلم الإلهى وعلم الأخلاق والفقه أشرف العلوم)

العلم كله وإن كان كمالا للنفس وسعادة، إلا ان فنونه متفاوتة في الشرافة والجمال ووجوب التحصيل وعدمه، فان بعضها كالطب والهندسة والعروض والموسيقى وامثالها، مما ترجع جل فائدته إلى الدنيا ولا يحصل بها مزيد بهجة وسعادة في العقبى، ولذا عدت من علوم الدنيا دون الآخرة، ولا يجب تحصيلها، وربما وجب تحصيل بعضها كفاية.

وما هو علم الآخرة الواجب تحصيله، وأشرف العلوم وأحسنها هو العلم الإلهى المعرف لاصول الدين، وعلم الأخلاق المعرف لمنجيات النفس ومهلكاتها، وعلم الفقه المعرف لكيفية العبادات والمعاملات، والعلوم التي مقدمات لهذه الثلاثة كالعربية والمنطق وغيرهما يتصف بالحسن ووجوب التحصيل من باب المقدمة. وهذه العلوم الثلاثة وإن وجب أخذها اجمالا إلا انها في كيفية الأخذ مختلفة: فعلم الأخلاق يجب أخذه عيناً على كل أحد على ما بينته الشريعة وأوضحه علماء الأخلاق، وعلم الفقه يجب أخذ بعضه عيناً إما بالدليل أو التقليد من مجتهد حى، والتارك للطريقين غير معذور، ولذا ورد الحث الأكيد على التفقه في الدين، قال الصادق عليه السلام: «عليكم بالتفقه في دين الله ولا تكونوا اعراباً، فانه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر إليه يوم القيامة ولم يُزَكِّ له عملا»، وقال: «ليت السياط على رؤس اصحابى حتى يتفقهوا في الحلال والحرام»، وقال عليه السلام: «إن آية الكذاب ان يخبرك خبر السماء والأرض والمشرق والمغرب، فإذا سألته عن حرام الله وحلاله لم يكن عنده شيء».

وأما اصول العقائد فيجب أخذها عيناً من الشرع والعقل، وهما متلازمان لا يتخلف مقتضى أحدهما عن مقتضى الآخر، إذ العقل هو حجة الله الواجب امتثاله

والحاكم العدل الذي تطابق احكامه الواقع ونفس الأمر، فلا يرد حكمه، ولولاه لما عرف الشرع، ولذا ورد: «انه ما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل»[١]. فهما متعاضدان ومتظاهران، وما يحكم به أحدهما يحكم به الآخر أيضاً، وكيف يكون مقتضى الشرع مخالفاً لمقتضى ما هو حجة قاطعة وأحكامه للواقع مطابقة، فالعقل هو الشرع الباطن والنور الداخل، والشرع هو العقل الظاهر والنور الخارج. وما يتراءى في بعض المواضع من التخالف بينهما إنما هو لقصور العقل أو لعدم ثبوت ما ينسب إلى الشرع منه، فإن كل عقل ليس تاماً، وكلما ينسب إلى الشرع ليس ثابتاً منه، فالمناط هو العقل الصحيح وما ثبت قطعاً من الشريعة، وأصح العقول وأقواها وأمتنها وأصفاها هو عقل صاحب الوحي، ولذا يدرك بنوريته ما لا سبيل لأمثال عقولنا إلى دركه، كتفاصيل احوال نشأة الآخرة، فاللازم في مثله أن نأخذه منه إذعاناً وإن لم نعرف مأخذه العقلي.

اصول العقائد المجمع عليها

ثم ما أجمعت الامة المختارة عليه من اصول العقائد هو: أن الواجب سبحانه موجود، وانه واحد في الالوهية، وبسيط عن شوائب التركيب، ومنزه عن الجسمية وعوارضها، وان وجوده وصفاته عين ذاته، وانه متقدم على الزمان والمكان ومتعال عنهما، وانه حي قديم أزلي قادر مريد عالم بجميع الأشياء، وعلمه بها بعد ايجادها كعلمه بها قبله، ولا يزداد باحداثها علماً، وان قدرته عامة بالنسبة إلى جميع الممكنات، وانه يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، ولا يكون شيء إلا بمشيئته، وانه عدل في حكمه صادق في وعده. وبالجملة: مستجمع لجميع الصفات الكمالية،

---

(١) هذا الحديث رواه في اصول الكافي عن النبي صلى الله عليه وآله في كتاب العقل والجهل فصححناه عليه، وفي نسخ جامع السعادات اختلاف عما هنا.

وليس كمثله شيء، ولا يتصور عقل ولا وهم مثله، بل هو تام فوق التمام.

وأن القرآن كلامه، ومحمد ﷺ رسوله، ما اتى به من امور النشأة الآخرة من الجنة والنار والحساب والثواب والعقاب والصراط والميزان والشفاعة وغير ذلك مما ثبت في شريعته المقدسة حق ثابت، فيجب على كل مؤمن أن يأخذ بجميع ذلك ويتشبث به ويجرد باطنه له، بحيث لو أورد عليه ما ينقصه لم يقبله ولم يعرضه شك وريب.

ثم ان المكلفين مختلفون في كيفية التصديق والاذعان بالعقائد المذكورة، فبعضهم فيها على يقين مثل ضوء الشمس، بحيث لو كشف عنهم الغطاء ما ازدادوا يقيناً[١]، وبعضهم على يقين دون ذلك، واقل هؤلاء رتبة ان تصل مرتبة يقينهم إلى طمأنينة لا اضطراب فيها، وبعضهم على مجرد تصديق ظني يتزلزل من الشبهات والقاء النقيض، وإلى هذا الاختلاف أشار الامام محمد بن علي الباقر عليه السلام بقوله: «ان المؤمنين على منازل: منهم على واحدة، ومنهم على اثنتين، ومنهم على ثلاث، ومنهم على اربع، ومنهم على خمس، ومنهم على ست، ومنهم على سبع، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقو، وعلى صاحب الثنتين ثلاثاً لم يقو... إلى آخره»[٢]، والامام أبو عبدالله الصادق عليه السلام بقوله: «إن للايمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهى تمامه، ومنها الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه».

ولا ريب في أن تحصيل ما يطمئن به القلب في العقائد الواجبة اخذها مما

(١) كما قال أمير المؤمنين ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لو كشف لى الغطاء ما ازددت يقيناً».

(٢) الحديث مروى في اصول الكافى في باب درجات الايمان وبقيته: «وعلى صاحب الثلاث اربعاً لم يقو، وعلى صاحب الاربع خمسا لم يقو، وعلس صاحب الخمس ستاً لم يقو، وعلى صاحب الست سبعاً لم يقو... وعلى هذه الدرجات».

لا بد منه لكل مكلف، ومجرّد التصديق من غير اطمئنان القلب غير كاف للنجاة في الاخرى والوصول إلى مراتب المؤمنين. ومع حصول الاطمئنان تحصل النجاة والفوز بالفلاح، وإن لم يكن حصوله من تفاصيل البراهين الحكمية والدلائل الكلامية، بل كان حاصلاً من دليل اجمالي برهاني أو اقناعي، إذ الشرع الشريف لم يكلف بأكثر من التصديق والجزم بظاهر العقائد المذكورة، ولم يكلف البحث والتفتيش عن كيفياتها وحقائقها وعن تكلف ترتيب الأدلة في نظمها، فلو حصل لأحد طمأنينة في اتصاف الواجب بجميع الصفات الكمالية وبراءته عن الصفات السلبية، بمجرد ان عدم الاتصاف بالأولى والاتصاف بالثانية نقص لا يليق بذاته الأقدس، كان كافياً في النجاة والدخول في زمرة المؤمنين. وكذا إذا حصل له ذلك بمجرد أن هذا مما اتفق عليه فرق الأنبياء وأساطين الحكماء والعلماء، وقوة عقولهم ودقة أفهامهم تأبى عن اتفاقهم على محض الخطأ. وقس على ذلك غيره مما يفيد الاطمئنان كائناً ما كان.

قال العلامة (الطوسى) ﷺ في بعض تصانيفه: «أقل ما يجب اعتقاده على المكلف هو ما ترجمة قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم إذا صدق الرسول ينبغي ان يصدقه في صفات الله واليوم الآخر وتعيين الإمام المعصوم، كل ذلك مما يشتمل عليه القرآن من غير مزيد برهان: أما في صفات الله فبأنه حي عالم قادر مريد متكلم ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأما في الآخرة فبالايمان بالجنة والنار والصراط والميزان والحساب والشفاعة وغيرها، ولا يجب عليه أن يبحث عن حقيقة الصفات، وأن الكلام والعلم وغيرهما حادث أو قديم، بل لو لم تخطر هذه بباله ومات مات مؤمنا، فان غلب على قلبه شك أو إشكال، فان أمكن إزالته بكلام قريب من الافهام وإن لم يكن قوياً عند المتكلمين ولا مرضياً فذلك كاف، ولا حاجة إلى تحقيق الدليل، فان الدليل لا يتم إلا بذكر الشبهة والجواب، ومهما ذكرت الشبهة لا يؤمن أن تتشبث بالخاطر والقلب فيظنها حقة لقصوره عن ادراك جوابها، إذ الشبهة

قد تكون جلية والجواب دقيقاً لا يحتمله عقله، ولذا ورد الزجر عن البحث والتفتيش في الكلام، وإنما زجر ضعفاء العوام، وأما أئمة الدين فلهم الخوض في غمرة الاشكالات. ومنع العوام عن الكلام يجرى مجرى منع الصبيان عن شاطىء دجلة خوفاً من الغرق، ورخصة الأقوياء فيه أيضاً هي رخصة الماهر في صنعة السباحة، إلا أن ههنا موضع غرور ومزلة قدم، وهو ان كل ضعيف في عقله يظن انه يقدر على إدراك الحقائق كلها، وانه من جملة الأقوياء فربما يخوضون ويغرقون في بحر الجهالات من حيث لا يشعرون، فالصواب منع الخلق كلهم ـ إلا الشاذ النادر الذي لا تسمح الأعصار إلا بواحد منهم أو اثنين ـ من تجاوز سلوك أهل العلم في الايمان المرسل والتصديق المجمل بكل ما انزل الله وأخبر به رسول الله ﷺ فمن اشتغل بالخوض فيه فقد أوقع نفسه في شغل شاغل، إذ قال رسول الله ﷺ حين رأى أصحابه يخوضون، بعد أن غضب حتى احمرت وجنتاه: أفبهذا أمرتم؟ تضربون كتاب الله بعضه ببعض! انظروا فيما أمركم الله فافعلوا وما نهاكم عنه فانتهوا». فهذا على تنبيه منهج الحق.

ثم لا ريب في أن نورانية اليقين ووضوحه، بل واطمئنان القلب وسكونه، لا يحصل من مجرد صنعة الجدل والكلام، كما لا يحصل من محض التلقين وتقليد العوام. بل (الأول) ـ اعنى الاستضاءة بنور اليقين ـ يتوقف على ملازمة الورع والتقوى، وفطام النفس عن الهوى، وازالة كدرتها وصدأها:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيٰهَا﴾[1].

وتطهيرها عن ذمائم الصفات والاشتغال بمشاق الرياضة والمجاهدات، حتى يقذف في قلبه نور إلهى تنكشف به الحجب والأستار عن حقائق هذه العقائد، وهو

(١) الشمس، الآية: ٩.

غاية مقصد الطالبين وقرة عيون الصديقين والمقربين، وله درجات ومراتب، والناس فيه مختلفون بحسب اختلافهم في القوة والاستعداد والسعي والاجتهاد، كما هم مختلفون في ادراك أنواع العلوم والصنائع «وكل ميسّر لما خلق له»(١).

وأما (الثاني) ـ اعني مجرد الاعتقاد الجازم الراسخ بظواهر تلك العقائد ـ فيمكن ان يحصل بما دون ذلك، بأن يشتغل ـ بعد تلقين هذه العقائد والتصديق بها ـ بوظائف الطاعات، ويصرف برهة من وقته في شرائف العبادات، ويواظب على تفسير القرآن وتلاوته، ودرس الحديث ودرايته، ويحترز عن مخالطة أولى المذاهب الفاسدة وذوى الآراء الباطلة، بل يجتنب كل الاجتناب عن مرافقة أرباب الهوى واصحاب الشر والشقاء، ويختار مصاحبة أهل الورع واليقين، ومجالسة الأتقياء والصالحين، ويلاحظ سيماهم وسيرتهم وهيئاتهم في الخضوع لله والاستكانة، فيكون التلقين كالقاء البذر في الصدر، وهذه الامور كالسقى والتربية له، فينمو ذلك البذر بها ويتقوى ويزداد رسوخاً، حتى يرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء. ثم من وصل إلى مقام العقيدة الجازمة إن اشتغل بالشواغل الدنيوية ولم يشتغل بالرياضة والمجاهدة لم ينكشف له غيره، ولكنه إذا مات مات مؤمناً على الحق وسلم في الآخرة، وإن اشتغل بتصقيل النفس وارتياضها انشرح صدره وانفتح له باب الافاضة، ووصل إلى المرتبة الأولى.

انواع الرذائل المتعلقة بالعاقلة

أما الأنواع المتعلقة بالعاقلة فمنها:

---

(١) حديث نبوى شريف مشهور، تقدم ذكره.

الجهل المركب

وهو خلو النفس عن العلم واذعانها بما هو خلاف الواقع، مع اعتقاد كونها عالمة بما هو الحق، فصاحبه لا يعلم، ولا يعلم انه لا يعلم، ولذا سمى مركباً. وهو أشد الرذائل واصعبها، وازالته في غاية الصعوبة، كما هو ظاهر من حال بعض الطلبة. وقد اعترف اطباء النفوس بالعجز عن معالجته كما اعترف اطباء الأبدان بالعجز عن معالجة بعض الأمراض المزمنة، ولذا قال عيسى عليه السلام: «انى لا اعجز عن معالجة الأكمه والابرص واعجز عن معالجة الأحمق». والسر فيه: أنه مع قصور النفس بهذا الاعتقاد الفاسد لا يتنبه على نقصانها، فلا يتحرك للطلب، فيبقى في الضلالة والردى ما دام باقياً في دار الدنيا. ثم انّ المنشأ له ان كان اعوجاج السليقة فأنفع العلاج له تحريض صاحبه على تعلم العلوم الرياضية من الهندسة والحساب، فانها موجبة لاستقامة الذهن لألفه لأجلها باليقينيات فيتنبه على خلل اعتقادها، فيصير جهلها بسيطاً، فينتهض للطلب. وإن كان خطأ في الاستدلال، فليوازن استدلاله لاستدلالات أهل التحقيق والمشهورين باستقامة القريحة، ويعرض أدلة المطلوب على القواعد الميزانية باحتياط تام واستقصاء بليغ، حتى يظهر خطأه. وإن كان مانع من عصبية أو تقليد أو غير ذلك فليجتهد في ازالته.

ومنها الشك والحيرة:

وهو من باب رداءة الكيفية، وهو عجز النفس عن تحقيق الحق وابطال الباطل في المطالب الخفية، والغالب حصوله من تعارض الأدلة. ولا ريب انه مما يهلك النفس ويفسدها، إذ الشك ينافى اليقين الذي لا يتحقق الايمان بدونه. قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: «لا ترتابوا فتشكوا ولا تشكوا فتكفروا»، وكأن الارتياب في كلامه عليه السلام مبدأ الشك. وقال الباقر عليه السلام: «لا ينفع مع الشك والجحود

عمل». وقال الصادق عليه السلام: «إن الشك والمعصية في النار ليس منا ولا الينا». وسئل عليه السلام عن قول الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[١].

قال: «بشك». وقال عليه السلام: «من شك في الله تعالى بعد مولده على الفطرة لم يفيء إلى خير أبداً». وقال عليه السلام: «من شك أو ظن فأقام على أحدهما احبط الله عمله، إن حجة الله هي الحجة الواضحة». وقال عليه السلام: «من شك في الله تعالى وفي رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فهو كافر». وبمضمونه وردت أخبار أخر. وغير خفى ان المراد بالشك ما يضعف الاعتقاد ويزيل اليقين لا مجرد الوسوسة وحديث النفس، لما يأتى أنه لا ينافى الايمان، بل الظاهر من بعض الأخبار أنّ ايجاب الشكّ للكفر إذا انجرّ إلى الجحود كما روى أن أبا بصير سأل الصادق عليه السلام ما تقول فيمن شك في الله تعالى؟ قال: «كافر»، قال: فشك في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: «كافر»، ثم التفت إلى زرارة فقال: «انما يكفر إذا جحد».

ثم علاجه ان يتذكر أولا قضية بديهية، هى: أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، ومنه يعلم اجمالاً أن أحد الشقوق العقلية المتصورة في المطلوب ثابت في الواقع ونفس الأمر والبواقى باطلة،ثم يتصفح المقدمات المناسبة للمطلوب ويعرضها على الأقيسة المنطقية باستقصاء بليغ واحتياط تام في كل طرف، حتى يقف على موضع الخطأ ويجزم بحقية أحد الشقوق وبطلان الآخر. والغرض من وضع المنطق (لا) سيما مباحث القياسات السوفسطائية المشتملة على المغالطات ازالة هذا المرض. ولو كان ممن لا يقتدر على ذلك، فالعلاج في حقه أن يواظب على العبادة وقراءة القرآن، ويشتغل بمطالعة الأحاديث وسماعها من أهلها، ويجالس

---

(١) الانعام، الآية: ٨٢.

الصلحاء والمتقين وأصحاب الورع وأهل اليقين، لتكتسب نفسه بذلك نورانية يدفع بها ظلمة شكه.

وصل

اليقين

قد عرفت: أن ضد الجهل المركب والحيرة والشك هو (اليقين). وأول مراتبه اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع غير زائل بشبهة وإن قويت، فالاعتقاد الذي لا يطابق الواقع ليس يقيناً، وإن جزم به صاحبه واعتقد مطابقته للواقع، بل هو ـ كما اشير إليه ـ جهل مركب ينشأ عن اعوجاج القريحة، أو خطأ في الاستدلال، أو حصول مانع من افاضة الحق كتقليد أو عصبية أو غير ذلك. فاليقين من حيث اعتبار الجزم فيه يكون ضد الحيرة والشك، ومن حيث اعتبار المطابقة للواقع فيه يكون ضداً للجهل المركب. ثم العلم ان لم يعتبر فيه المطابقة للواقع ففرقه عن اليقين ظاهر، والا فيتساويان ويتشاركان في المراتب المثبتة لليقين.

هذا ومتعلق اليقين إما اجزاء الايمان ولوازمه، من وجود الواجب وصفاته الكمالية وسائر المباحث الإلهية من النبوة وأحوال النشأة الآخرة، أو غيرها من حقائق الأشياء التي لا يتم الايمان بدونها. ولا ريب في أن مطلق اليقين أقوى أسباب السعادة، وإن كان اليقين في المباحث الإلهية أدخل في تكميل النفس وتحصيل السعادة الاخروية، لتوقف الايمان عليه، بل هو أصله وركنه، وغيره من المراتب فرعه وغصنه، والنجاة في الآخرة لا تحصل إلا به، والفاقد له خارج عن زمرة المؤمنين داخل في حزب الكافرين.

وبالجملة: اليقين أشرف الفضائل الخلقية وأهمها، وأفضل الكمالات النفسية وأعظمها، وهو الكبريت الأحمر الذي لا يظفر به إلا أوحدى من أعاظم العرفاء أو

ألمعى من أكابر الحكماء. ومن وصل إليه فاز بالرتبة القصوى والسعادة العظمى. قال سيد الرسل ﷺ: «أقل ما أو تيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أوتى حظه منهما لم يبال ما فاته من صيام النهار وقيام الليل»، وقال ﷺ: «اليقين الايمان كله»، وقال ﷺ: «ما آدمى إلا وله ذنوب، ولكن من كانت غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب، لأنه كلما أذنب ذنباً تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة». وقال الصادق عليه السلام: «إن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله تعالى من العمل الكثير على غير يقين»، وعنه عليه السلام: «ان الله تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط». وفي وصية لقمان لابنه: يا بنى! لا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه».

علامات صاحب اليقين

ثم لصاحب اليقين علامات:

(منها) ألا يلتفت في أموره إلى غير الله سبحانه، ولا يكون اتكاله في مقاصده إلا عليه، ولا ثقته في مطالبه إلا به. فيتبرى عن كل حول وقوة سوى حول الله وقوته، ولا يرى لنفسه ولا لأبناء جنسه قدرة على شيء ولا منشأية لأثر. ويعلم أن ما يرد عليه منه تعالى وما قدّر له وعليه من الخير والشر سيساق اليه، فتستوى عنده حالة الوجود والعدم، والزيادة والنقصان، والمدح والذم، والفقر والغنى، والصحة والمرض، والعز والذل، ولم يكن له خوف ورجاء إلا منه تعالى. والسر فيه: انه يرى الأشياء كلها من عين واحدة هو مسبب الأسباب، ولا يلتفت إلى الوسائط، بل يراها مسخرة تحت حكمه. قال الإمام أبو عبد الله عليه السلام: «من ضعف يقينه تعلق بالأسباب، ورخص لنفسه بذلك، واتبع العادات واقاويل الناس بغير حقيقة، والسعى في أمور

الدنيا وجمعها وامساكها، مقراً باللسان انه لا مانع ولا معطى إلا الله، وأن العبد لا يصيب إلا ما رزق وقسم له، والجهد لا يزيد في الرزق، وينكر ذلك بفعله وقلبه، قال الله سبحانه:

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾(١).

وقال عليه السلام: «ليس شيء إلا وله حد» قيل: فما حد التوكل؟ قال: «اليقين»، قيل: فما حد اليقين؟ قال: «ألا تخاف مع الله شيئاً». وعنه عليه السلام: «من صحة يقين المرء المسلم ألا يرضى الناس بسخط الله ولا يلومهم على ما لم يؤته الله، فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا ترده كراهية كاره، ولو أن أحدكم فرّ من رزقه كما يفرّ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت».

(ومنها) ان يكون في جميع الأحوال خاضعاً لله سبحانه، خاشعاً منه، قائماً بوظائف خدمته في السر والعلن، مواظباً على امتثال ما أعطته الشريعة من الفرائض والسنن، متوجهاً بشراشره اليه، متخضعاً متذللاً بين يديه، معرضاً عن جميع ما عداه، مفرغاً قلبه عما سواه، منصرفاً بفكره إلى جناب قدسه، مستغرقاً في لجة حبه وانسه. والسر أن صاحب اليقين عارف بالله وعظمته وقدرته، وبأن الله تعالى مشاهد لاعماله وافعاله، مطلع على خفايا ضميره وهواجس خاطره، وأن:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(٢).

فيكون دائماً في مقام الشهود لديه والحضور بين يديه، فلا ينفك لحظة عن

---

(١) الآية من سورة آل عمران: ١٦٧. وهذا الحديث منقول عن (مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة) المنسوب إلى الصادق عليه السلام. وهذا الكتاب قال فيه المجلسي رحمه الله في مقدمة البحار: «فيه ما يريب اللبيب الماهر، واسلوبه لا يشبه سائر كلمات الأئمة وآثارهم»، ثم قال: «وان سنده ينتهي إلى الصوفية، ولذا اشتمل على كثير من اصطلاحاتهم وعلى الرواية عن مشايخهم».

(٢) الزلزلة، الآية: ٧ ـ ٨

الحياء والخجل والاشتغال بوظائف الأدب والخدمة، ويكون سعيه في تخلية باطنه عن الرذائل وتحليته بالفضائل لِعين الله الكالئة أشد من تزيين ظاهره لأبناء نوعه.

وبالجملة: مَن يقينه بمشاهدته تعالى لاعماله الباطنة والظاهرة وبالجزاء والحساب، يكون أبداً في مقام امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ومَن يقينه بما فعل الله في حقه من اعطاء ضروب النعم والاحسان، يكون دائماً في مقام الانفعال والخجل والشكر لمنعمه الحقيقى.

ومَن يقينه بما يعطيه المؤمنين في الدار الآخرة من البهجة والسرور، وما اعده لخلص عبيده مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب أحد، يكون دائماً في مقام الطمع والرجاء.

ومَن يقينه باستناد جميع الامور إليه سبحانه، وبأن صدور ما يصدر في العالم إنما يكون بالحكمة والمصلحة والعناية الأزلية الراجعة إلى نظام الخير، يكون أبداً في مقام الصبر والتسليم والرضا بالقضاء من دون عروض تغير وتفاوت في حاله.

ومَن يقينه بكون الموت داهية من الدواهى العظمى وما بعده أشد وأدهى، يكون أبداً محزوناً مهموماً.

ومَن يقينه بخساسة الدنيا وفنائها، لا يركن اليها. قال الصادق عليه السلام في الكنز الذي قال الله تعالى:

﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾[1]:

«بسم الله الرحمن الرحيم: عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن أيقن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يركن اليها».

ومَن يقينه بعظمة الله الباهرة وقوته القاهرة، يكون دائماً في مقام الهيبة

(١) الكهف الآية: ٨٢.

والدهشة. وقد ورد أن سيد الرسل ﷺ كان من شدة خضوعه وخشوعه لله تعالى وخشيته منه تعالى بحيث إذاكان يمشي يظن أنه يسقط على الأرض.

ومَن يقينه بكمالاته الغير المتناهية وكونه فوق التمام، يكون دائماً في مقام الشوق والوله والحب. وحكايات أصحاب اليقين من الأنبياء والمرسلين والأولياء والكاملين في الخوف والشوق وما يعتريهم من الاضطراب والتغير والتلون وأمثال ذلك في الصلاة وغيرها مشهورة، وفي كتب التواريخ والسير مسطورة. وكذا ما يأخذهم من الوله والاستغراق والابتهاج والانبساط بالله سبحانه. وحكاية حصول تكرر الغشيات لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام في أوقات الخلوات والمناجاة وغفلته عن نفسه في الصلوات مما تواتر عند الخاصة والعامة. وكيف يتصور لصاحب اليقين الواقعي بالله وبعظمته وجلاله وباطلاعه تعالى على دقائق أحواله، أن يعصيه في حضوره ولا يحصل له الانفعال والخشية والدهشة وحضور القلب والتوجه التام إليه عند القيام لديه والمثول بين يديه، مع أنا نرى أن الحاضر عند من له أدنى شوكة مجازية من الملوك والامراء مع رذالته وخساسته أولا وآخراً يحصل له من الانفعال والدهشة والتوجه إليه بحيث يغفل عن ذاته.

(ومنها) أن يكون مستجاب الدعوات، بل له الكرامات وخرق العادات. والسر فيه أن النفس كلما ازدادت يقيناً ازدادت تجرداً، فتحصل لها ملكة التصرف في موارد الكائنات. قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «اليقين يوصل العبد إلى كل حال سني ومقام عجيب، كذلك أخبر رسول الله ﷺ من عظم شأن اليقين حين ذكر عنده أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يمشي على الماء، فقال: لو زاد يقينه لمشى في الهوى». فهذا الخبر دل على أن الكرامات تزداد بازدياد اليقين، وأن الأنبياء مع جلالة محلهم من الله متفاوتون في قوة اليقين وضعفه.

مراتب اليقين

وقد ظهر مما ذكر: أن اليقين جامع جميع الفضائل ولا ينفك عن شيء منها، ثم له مراتب: **(أولها)** علم اليقين، وهو اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع ـ كما مر ـ وهو يحصل من الاستدلال باللوازم والملزومات، ومثاله اليقين بوجود النار من مشاهدة الدخان. و**(ثانيها)** عين اليقين، وهو مشاهدة المطلوب ورؤيته بعين البصيرة والباطن، وهو أقوى في الوضوح والجلاء من المشاهدة بالبصر، وإلى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «لم أعبد رباً لم أره» بعد سؤال ذعلب اليماني عنه عليه السلام: أرأيت ربك؟ وبقوله عليه السلام: «رأى قلبي ربي». وهو إنما يحصل من الرياضة والتصفية وحصول التجرد التام للنفس، ومثاله اليقين بوجود النار عند رؤيتها عيانا. و**(ثالثها)** حق اليقين، وهو أن تحصل وحدة معنوية وربط حقيقي بين العاقل والمعقول، بحيث يرى العاقل ذاته رشحة من المعقول ومرتبطاً به غير منفك عنه، ويشاهد دائماً ببصيرته الباطنية فيضان الأنوار والآثار منه اليه، ومثاله اليقين بوجود النار بالدخول فيها من غير احتراق. وهذا إنما يكون لكمّل العارفين بالله المستغرقين في لجة حبه وانسه، المشاهدين ذواتهم بل سائر الموجودات من رشحات فيضه الأقدس، وهم الصديقون الذين قصروا أبصارهم الباطنة على ملاحظة جماله ومشاهدة أنوار جلاله. وحصول هذه المرتبة يتوقف على مجاهدات شاقة ورياضات قوية، وترك رسوم العادات وقطع أصول الشهوات، وقلع الخواطر النفسانية وقمع الهواجس الشيطانية، والطهارة عن ادناس جيفة الطبيعة، والتنزه عن زخارف الدنيا الدنية، وبدون ذلك لا يحصل هذا النوع من اليقين والمشاهدة:

وكيف ترى ليلى بعين ترى بها ... سواها وما طهّرتها بالمدامع

ثم فوق ذلك مرتبة يثبتها بعض أهل السلوك ويعبرون عنه بـ(حقيقة حق اليقين) والفناء في الله، وهو أن يرى العارف ذاته مضمحلا في أنوار الله محترقاً من سبحات

وجهه، بحيث لا يرى استقلالاً ولا تحصيلاً أصلا، ومثاله اليقين بوجود النار بدخوله فيها واحتراقه منها.

ثم لا ريب في أن اليقين الحقيقى النورانى المبرّى عن ظلمات الأوهام والشكوك ولو كان من المرتبة الأولى لا يحصل من مجرد الفكر والاستدلال، بل يتوقف حصوله على الرياضة والمجاهدة وتصقيل النفس وتصفيتها عن كدورات ذمائم الأخلاق وصدأها، ليحصل لها التجرد التام فتحاذى شطر العقل الفعال، فتتضح فيها جلية الحق حق الاتضاح. والسر أن النفس بمنزلة المرآة تنعكس اليها صور الموجودات من العقل الفعال، ولا ريب في أن انعكاس الصور من ذوات الصور إلى المرآة يتوقف على تمامية شكلها وصقالة جوهرها وحصول المقابلة وارتفاع الحائل بينهما والظفر بالجهة التي فيها الصور المطلوبة، فيجب في انعكاس حقائق الأشياء من العقل إلى النفس: ـ١ـ عدم نقصان جوهرها، فلا يكون كنفس الصبى التي لا تنجلى لها المعلومات لنقصانها ـ٢ـ وصفاءها عن كدورات ظلمة الطبيعة واخباث المعاصى، ونقاؤها عن رسوم العادات وخبائث الشهوات، وهو بمنزلة الصقالة عن الخبث والصدأ ـ٣ـ وتوجهها التام وانصراف فكرها إلى المطلوب، فلا يكون مستوعب الهم بالامور الدنيوية وأسباب المعيشة وغيرهما من الخواطر المشوشة لها، وهو بمنزلة المحاذاة ـ٤ـ وتخليتها عن التعصب والتقليد، وهو بمثابة ارتفاع الحجب ـ٥ـ واستحصال المطلوب من تأليف مقدمات مناسبة للمطلوب على الترتيب المخصوص والشرائط المقررة، وهو بمنزلة العثور على الجهة التي فيها الصورة.

ولولا هذه الاسباب المانعة للنفوس عن افاضة الحقائق اليقينية اليها، لكانت عالمة بجميع الأشياء المرتسمة في العقول الفعالة، إذ كل نفس لكونها أمراً ربانياً وجوهراً ملكوتياً فهى بحسب الفطرة صالحة لمعرفة الحقائق، ولذا امتازت عن سائر

المخلوقات من السماوات والأرض والجبال، وصارت قابلة لحمل امانة الله[١] التي هي المعرفة والتوحيد، فحرمان النفس عن معرفة اعيان الموجودات انما هو لأحد هذه الموانع، وقد أشار سيد الرسل ﷺ إلى مانع التعصب والتقليد بقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه ويمجسانه[٢] وينصرانه»، وإلى مانع كدورات المعاصى وصدأها بقوله ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض». فلو ارتفعت عن النفس حجب السيئات والتعصب وحاذت شطر الحق الأول تجلت لها صورة عالم الملك والشهادة بأسره، اذ هو متناه يمكن لها الاحاطة به، وصورة عالمى الملكوت والجبروت بقدر ما يتمكن منه بحسب مرتبته، لأنهما الاسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المختصة بادراك البصائر، وهي غير متناهية، وما يلوح منها للنفس متناه، وان كانت في نفسها وبالأضافة إلى علم الله سبحانه غير متناهية، ومجموع تلك العوالم يسمى بـ(العالم الربوبى)، إذ كل ما في الوجود من البداية إلى النهاية منسوب إلى الله سبحانه، وليس في الوجود سوى الله سبحانه وأفعاله وآثاره، فالعالم الربوبى والحضرة الربوبية هو العالم المحيط بكل الموجودات، فعدم تناهيه ظاهر بين، فلا يمكن للنفس أن تحيط بكله، بل يظهر لها منه بقدر قوتها واستعدادها. ثم بقدر ما يحصل للنفس من التصفية والتزكية وما يتجلى لها من الحقائق والأسرار، ومن معرفة عظمة الله ومعرفة صفات

---

(١) اشارة إلى قوله تعالى: «انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا» ـ الاحزاب، الآية: ٧٢.

(٢) روى السيد المرتضى علم الهدى هذا الحديث في الجزء الثالث من اماليه بدون كلمة (يمجسانه)، وكذا في غوالى اللئالى، الا أن المعروف في روايته اضافة كلمة (يمجسانه) ولكنها بعد كلمة (ينصرانه)، كما أرسلها في مجمع البيان: ج ٨ ص ٣٠٣ طبع صيدا، وكذا في مجمع البحرين في مادة (فطر)، وكذا في صحيح البخارى: ج ١ ص ٢٠٦، وصحيح مسلم: ج ٢ ص ٤١٣، ومعالم التنزيل في هامش تفسير الخازن: ج ٥ ص ١٧٢، وغير هؤلاء.

جلاله ونعوت جماله، تحصل لها السعادة والبهجة واللذة والنعمة في نعيم الجنة، وتكون سعة مملكته فيها بحسب سعة معرفته بالله وبعظمته وبصفاته وافعاله، وكل منها لا نهاية له. ولذا لا تستقر النفس في مقام من المعرفة. والبهجة والكمال والتفوق والغلبة تكون غاية طلبتها، ولا تكون طالبة لما فوقها.

وما اعتقده جماعة من ان ما يحصل للنفس من المعارف الإلهية والفضائل الخلقية هي الجنة بعينها فهو عندنا باطل، بل هي موجبة لاستحقاق الجنة التي هي دار السرور والبهجة.

ومنها:

الشرك

وهو ان يرى في الوجود مؤثراً غير الله سبحانه، فإن عبد هذا الغير - سواء كان صنما أو كوكباً أو انساناً أو شيطاناً - كان شرك عبادة، وإن لم يعبده ولكن لاعتقاد كونه منشأ أثر أطاعهُ فيما لا يرضى الله فهو شرك طاعة، والأول يسمى بالشرك الجلى، والثاني يسمى بالشرك الخفى، وإليه الاشارة بقوله تعالى:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1].

وكون الشرك اعظم الكبائر الموبقة وموجباً لخلود النار مما لا ريب فيه، وقد انعقد عليه اجماع الامة، والآيات والأخبار الواردة به خارجة عن حد الاحصاء.

ثم للشرك مراتب تظهر في بحث ضده الذي هو التوحيد، والشرك وان كان شعبة من الجهل، كما أن التوحيد الذي هو ضده من أفراد اليقين والعلم، فذكرهما على حدة لم يكن لازماً هنا، إلا انه لما كان المتعارف ذكر التوحيد في كتب الأخلاق،

---

(١) يوسف، الآية:١٠٦.

فنحن أيضاً ذكرنا له عنواناً على حدة تأسياً بها، وأشرنا إلى لمعة يسيرة منه، إذ الاستقصاء فيه والخوض في غمراته مما ليس في وسعنا ولا يليق هنا، فإن التوحيد هو البحر الخضم الذي لا ساحل له.

وصل
(التوحيد في الفعل)

ضد الشرك (التوحيد)، وهو إما توحيد في أصل الذات بمعنى عدم تركيب خارجي وعقلي في ذاته تعالى وعينية وجوده وصفاته لذاته، ويلزمه كونه تعالى صرف الوجود وبحته، أو توحيد في وجوب وجوده بمعنى نفي الشرك في وجوب الوجود عنه (ولا بحث لنا هنا عن اثبات هذين القسمين، لثبوتهما في الحكمة المتعالية)، أو توحيد في الفعل والتأثير والايجاد، بمعنى أن لا فاعل ولا مؤثر إلا هو، وهو الذي نذكر هنا مراتبه وما يتعلق به، فنقول:

هذا التوحيد - على ما قيل - له اربع مراتب: قشر، وقشر القشر، ولبّ، ولب اللب. كالجوز الذي له قشرتان وله لب، وللب دهن وهو لب اللب. (فالمرتبة الأولى) ان يقول الانسان باللسان: لا إله إلا الله، وقلبه منكر وغافل عنه، كتوحيد المنافقين، وهذا توحيد بمجرد اللسان ولا فائدة فيه إلا حفظ صاحبه في الدنيا من السيف والسنان. (الثانية) ان يصدق بمعنى اللفظ قلبه، كما هو شأن عموم المسلمين، وهو اعتقاد العوام وصاحبه موحد، بمعنى انه معتقد بقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه. وهو عقد على القلب لا يوجب انشراحاً وانفتاحاً وصفاءً له، ولكنه يحفظ صاحبه عن العذاب في الآخرة ان مات عليه ولم يضعّف بالمعاصي. (الثالثة) ان يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وذلك بأن يرى اشياء كثيرة ولكن يراها بكثرتها صادرة عن الواحد الحق، وهو مقام المقربين، وصاحبه موحد، بمعنى

أنه لا يشاهد إلا فاعلاً ومؤثراً واحداً، لأنه انكشف له الحق كما هو عليه. (الرابعة) ألا يرى في الوجود إلا واحداً، ويسميه أهل المعرفة الفناء في التوحيد، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً، فلا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالواحد كان فانياً عن نفسه في توحيده، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه، وهو مشاهدة الصديقين، وصاحبه موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث أنه كثير بل من حيث أنه واحد. وهذا هي الغاية القصوى في التوحيد.

فالمرتبة الأولى: كالقشرة العليا من الجوز، وكما أن هذه القشرة لا خير فيها أصلاً، بل إن أكلتها فهي مر المذاق، وان نظرت إلى باطنها فهو كريه المنظر، وإن اتخذتها حطباً أطفأت النار واكثرت الدخان، وإن تركتها في البيت ضيقت المكان، فلا تصلح إلا أن تترك مدة على الجوز لحفظ القشرة السفلى، ثم ترمى، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن، لكن ينفع مدةحفظ المرتبة الثانية إلى وقت الموت. والمرتبة الثانية: كالقشرة السفلى، فكما أن هذه القشرة ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا، فإنها تصون اللب عن الفساد عند الادخار، وإذا فصلت امكن ان ينتفع بها حطباً، لكنها نازلة القدر بالاضافة إلى اللب، فكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالنسبة إلى مجرد نطق اللسان، إذ تحصل به النجاة في الآخرة، لكنه ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف والعيان الذي يحصل بانشراح الصدر وانفتاحه باشراق نور الحق فيه. والمرتبة الثالثة: كاللب، وكما أن اللب نفيس في نفسه بالاضافة إلى القشر وكأنه المقصود لكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالاضافة إلى الدهن منه فكذلك توحيد الفعل على طريق الكشف مقصد عال للسالكين، إلا أنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالاضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق. والمرتبة الرابعة: كالدهن المستخرج من اللب، وكما ان اللب هو المطلوب لذاته والمرغوب في نفسه، فكذلك قصر النظر على

مشاهدة الحق الأول هو المقصود لذاته والمحبوب في نفسه.

﴿تنبيه﴾ ان قيل: كيف يمكن تحقيق المرتبة الرابعة من التوحيد لتوقفها على عدم مشاهدة غير الواحد، مع أن كل أحد يشاهد الأرض والسماء وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحداً؟ (قلنا): من تيقن أن الممكنات بأسرها اعدام صرفة في نفسها، وأن ما به تحققها من الله سبحانه، ثم احاط على قلبه نور عظمته وجلاله بحيث بهره وغلب على قلبه الحب والانس حتى عن غيره اغفله، فأى استبعاد في ان يوجب شدة استغراقه في لجة العظمة والجلال والكمال والجمال وغلبة الحب والأنس عليه، مع عدمية الكثرة ووحدة ما به التحقق عنده ورسوخ ذلك، وارتكازه في قلبه أن لا يرى في نظر شهوده إلا هو، ويغيب عنه غيره، لقصر نظر بصيرته الباطنة على ما هو الحقيقة والواقع. ومما يكسر سورة استبعادك: ان المشغول بالسلطان والمستغرق في ملاحظة سطوته ربما غفل عن مشاهدة غيره، وان العاشق قد يستغرق في مشاهدة جمال معشوقه ويبهره حبه بحيث لا يرى غيره، مع تحقق الكثرة عنده، وان الكواكب موجودة في النهار مع انها لا ترى لمغلوبية أنوارها واضمحلالها في جنب نور الشمس، فإذا جاز ان يغلب نور الشمس على نور الكواكب ويقهرها بحيث يضمحل ويغيب عن بصر الظاهر، فأى استبعاد في ان يغلب نور الوجود الحقيقى القاهر على الموجودات الضعيفة الامكانية ويقهرها، بحيث يغيب عن نظر العقل والبصيرة، ثم هذه المشاهدات التي لا يظهر فيها إلا الله الواحد الحق لا تدوم، بل هي كالبرق الخاطف والدوام فيها عزيز نادر.

فصل

(ابتناء التوكل على حصر المؤثر في الله تعالى)

اعلم: انه لا يمكن التوكل على الله تعالى في الامور حق التوكل إلا بالبلوغ إلى

المرتبة الثالثة من التوحيد، وهي التي يرتبط بها التوكل دون غيرها من المراتب، إذ المرتبة الرابعة لا يتوقف ولا يبتنى عليها التوكل، والأولى مجرد نفاق لا يفيد شيئاً، والثانية ـ اعنى مجرّد التوحيد بالاعتقاد ـ لا يورث حال توكل كما ينبغى، فانه موجود في عموم المسلمين مع عدم وجود التوكل كما ينبغى فيهم.

فالمناط في التوكل هو ثالث المراتب في التوحيد، وهو ان ينكشف للعبد بنور الحق ان لا فاعل إلا الله، وان كل موجود: من خلق ورزق، وعطاء ومنع، وغنى وفقر، وصحة ومرض، وعزّ وذل، وحياة وموت... إلى غير ذلك مما يطلق عليه اسم، فالمتفرد بابداعه واختراعه هو الله تعالى لا شريك له فيه، وإذا انكشف له هذا لم ينظر إلى غيره، بل كان منه خوفه وإليه رجاؤه، وبه ثقته وعليه اتكاله، فانه الفاعل بالانفراد دون غيره، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة في ملكوت السماوات والأرض وإذا انفتح له ابواب المعارف اتضح له هذا اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر، وإنما يصده الشيطان عن هذا التوحيد، ويوقع في قلبه شائبة الشرك بالالتفات إلى بعض الوسائط التي يتراءى في بادى النظر منشئيتها لبعض الامور، كالاعتماد على الغيم في نزول المطر، وعلى المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه، وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها، وعلى بعض نظرات الكواكب واتصالاتها في حدوث بعض الحوادث في الأرض، وكالالتفات إلى اختيار بعض الحيوانات وقدرتها على بعض الأفعال، فيوسوس الشيطان في قلبه ويقول له: كيف ترى الكل من الله تعالى، وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وإن شاء منع، وهذا الشخص قادر على جز رقبتك بسيفه فان شاء جز رقبتك وان شاء عفى عنك، فكيف لا تخافه ولا ترجوه وأمرك بيده، وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه؟!

ولا ريب في أن امثال هذه الالتفاتات جهل بحقائق الامور، ومن مكن الشيطان

وسلطه على نفسه حتى يوقع هذه الوساوس في قلبه فهو من الجاهلين بابواب المعارف، إذ من انكشف له أمر العالم كما هو عليه، علم ان السماء والكواكب والريح والغيم والمطر والانسان والحيوان... وغير ذلك من المخلوقات كلهم مقهورون مسخرون للواحد الحق الذي لا شريك له، فيعلم ان الريح مثلاً هواء، والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك، وهذا المحرك لا يحرك الهواء ما لم يحركه على التحريك محرك آخر... وهكذا إلى أن ينتهى إلى المحرك الأول الذي لا محرّك له ولا هو متحرك في نفسه. وكذا الحال في توسط غيره من الافلاك ونجومها، وكائنات الجو، والموجودات على الأرض من الجماد والنبات والحيوان.

فالتفات العبد في نجاته إلى بعض الأشياء من الرياح والأمطار أو الانسان أو الحيوان يضاهي التفات من أُخذ لتُجز رقبته، فأمر الملك كاتبه بأن يكتب توقيعاً بالعفو عنه وتخليته، فأخذ العبد يشتغل بمدح الحبر أو الكاغد أو القلم أو الكاتب، ويقول: لولا الحبر أو القلم أو الكاغد أو الكاتب ما تخلصت، فيرى نجاته من الحبر والكاغد دون القلم أو من القلم دون محركه ـ أعنى الكاتب ـ أو من الكاتب دون الملك الذي هو محرك الكاتب ومسخره. ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب، وان الكاتب لا حكم له وإنما هو مسخر تحت يد الملك، لم يلتفت إلى القلم والكاتب ولم يشكر إلا الملك، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك عن ان يخطر بباله الكاغد والحبر والقلم والكاتب. ولا ريب في ان جميع المخلوقات من الشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر والأرض وكل حيوان أو جماد مسخرات في قبضة القدرة، كتسخير القلم في يد الكاتب وتسخير الكاتب في يد السلطان، بل هذا تمثيل في حق العبد لاعتقاده ان الملك الموقع هو الكاتب حقيقة، وليس الأمر كذلك، إذ الحق ان الكاتب هو الله سبحانه كما قال تعالى:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[١].

فمن انكشف له ان جميع ما في السماوات والأرض مسخرات للواجب الحق، لم ير في الوجود مؤثراً إلا هو، وانصرف عنه الشيطان خائباً، وأيس عن مزج توحيده بهذا الشرك.

وأما من لم ينشرح بنور الله صدره، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السماوات والأرض ومشاهدة كونه وراء الكل، فوقف في الطريق على بعض المسخرات، وهو جهل محض. وغلطه في ذلك كغلط النملة مثلاً لو كانت تدبّ على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد، ولم يمتد بصرها إلى الاصابع واليد، فضلاً عن صاحب اليد، وظنت ان القلم هو المسود للبياض، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها.

فصل

(مناجاة السر لأرباب القلوب)

قال بعض العارفين[٢]: أرباب القلوب والمشاهدات قد انطق الله في حقهم كل ذرة في الأرض والسماوات بقدرته التي انطق بها كل شيء، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها وشهادتها على نفسها بالعجز، بلسان الواقع الذي هو ليس بعربى ولا أعجمى، وليس فيه حرف وصوت، ولا يسمعه أحد إلا بالسمع العقلى الملكوتى

---

(١) الأنفال، الآية: ١٧.

(٢) المقصود به (أبو حامد الغزالى) في احياء العلوم، راجع الجزء الرابع ص ١١٤ المطبوع بالمطبعة العثمانية بمصر سنة ١٣٥٢، وسترى ان هذه الفصول مقتبسة منه بتغيير في العبارة وتقديم وتأخير. وكذلك هذا الفصل المنقول عنه فيه تغيير واختصار كثير، وصاحب الكتاب اعترف ـ فيما سيأتى ـ باقتباس هذه الفصول من الغزالى.

دون السمع الظاهر الحسى الناسوتى، وهذا النطق الذي لكل ذرّة من الأرض والسماوات مع أرباب القلوب إنما هو (مناجاة السر)، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى، فانها كلمات تستمد[١] من بحر كلام الله الذي لا نهاية له:

﴿قُل لَّوْكَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[٢].

ثم انها لما كانت مناجية بأسرار الملك والملكوت، وليس كل أحد موضعاً للسر، بل صدور الأحرار قبور الأسرار، فاختصت مناجاتها بالأحرار من أرباب القلوب. وهم أيضاً لا يحكون هذه الاسرار لغيرهم، إذ إفشاء السر لؤم، وهل رأيت قط أميناً على أسرار الملك قد نوجي بخفاياه فينادى بها على الملأ من الخلق، ولو جاز إفشاء كل سرّ لما نهى النبى ﷺ عن إفشاء سر القدر، ولما خص أمير المؤمنين عليه السلام ببعض الأسرار، ولما قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»، بل كان يذكر لهم ذلك حتى يبكون ولا يضحكون.

فإذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدة مانعان: (أحدهما) المنع عن إفشاء السر، (ثانيهما) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية. ونحن نحكى في فعل الكتابة قدراً يسيراً من مناجاة بعض ما يُرى أسباباً ووسائط، واقرارها بالعجز على انفسها، ليقاس عليه جميع الأفعال الصادرة عن جميع الأسباب والوسائط المسخرة تحت قدرة الله، ويفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ونردّ لضرورة التفهم كلماتها الملكوتية إلى الحروف والأصوات، وإن لم تكن أصواتاً وحروفاً، فنقول:

---

(١) وفي نسختنا الخطية: (لأنها كلام يستمد)، ولكن الموجود في المطبوعة وفي نسخة احياء العلوم كما اثبتناه في المتن.

(٢) الكهف، الآية: ١٠٩.

قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله للكاغد، وقد رأى وجهه أسودّ بالحبر: «لم سودت وجهك وقد كان أبيض مشرقاً؟»

فقال: «ما سودت وجهى، وإنما سوده الحبر، فاسأله لم فعل كذا؟»

فسأل الحبر عن ذلك، فقال: «هذا السؤال على القلم الذي أخرجنى من مستقرى ظلماً».

فسأل القلم، فأحاله إلى اليد والأصابع، وهي إلى القدرة والقوة، وهي إلى الارادة، معترفاً كل واحد منهم بعجز نفسه، وبكونه مقهوراً مسخراً تحت قهر المحال عليه من دون استطاعة لمخالفته.

ولما سأل الارادة، قالت: «ما انتهضت بنفسى، بل بُعثت على إشخاص القدرة وإنهاضها، وبحكم رسول قاهر ورد عليّ من حضرة القلب بلسان العقل، وهذا الرسول هو العلم، فالسؤال عن انتهاضي يتوجه على العقل والقلب والعلم».

ولما سألها قال (العقل): «أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ولكنى أُشعلت».

وقال (القلب): «أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكنى بُسطت».

وقال (العلم): «أما أنا فنقش نقشت في لوح القلب لما أشرق سراج العقل، وما انتقشت بنفسى بل نقشنى غيرى، فسل القلم الذي نقشنى ورسمنى على لوح القلب بعد اشتعال سراج العقل».

وعند هذا تحير السائل وقال: «ما هذا القلم وهذا اللوح وهذا الخط وهذا السراج؟ فانى لا أعلم قلماً إلا من القصب، ولا لوحاً إلا من الحديد أو الخشب، ولا خطاً إلا بالحبر، ولا سراجاً إلا من النار. وانى لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والقلم والخط والسراج، ولا اشاهد من ذلك شيئاً».

فقال له (العلم): «فاذن بضاعتك مزجاة، وزادك قليل، ومركبك ضعيف، والمهالك في الطريق الذي توجهت إليه كثيرة، فان كنت راغباً في استتمام الطريق

إلى المقصد، فاعلم أن العوالم في طريقك ثلاثة: **(أولها)** عالم الملك والشهادة، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد والأصابع من هذا العالم، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة، **(وثانيها)** عالم الملكوت الأسفل، وهو يشبه السفينة التي بين الارض والماء، فلا هي حد اضطراب الماء، ولا هي في حد سكون الأرض وثباتها، والقدرة والارادة والعلم من منازل هذا العالم. **(وثالثها)** عالم الملكوت الاعلى، وهو من ورائى، فإذا جاوزتنى انتهيت إلى منازله. وأول منازله القلم الذي يكتب به العلم على لوح القلب. وفي هذا العالم المهامه الفسيحة والجبال الشاهقة والبحار المغرقة».

فقال له السائل السالك: «قد تحيّرت في أمرى ولست أدرى انى أقدر على قطع هذا الطريق المخوف أم لا، فهل لذلك علامة أعرف بها تمكنى على قطع هذا الطريق؟».

فقال: «نعم! افتح بصرك، واجمع ضوء عينك وحدّقه نحوى، فان ظهر لك القلم الذي به يكتب في لوح القلب، فيشبه أن تكون أهلاً لهذا الطريق، فان كل من جاوز الملكوت الأسفل وقرع أول باب من الملكوت الأعلى كوشف بالقلم. أما ترى النبى ﷺ كوشف به وانزل عليه قوله تعالى:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ... إلى قوله: **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾**[١].

وهذا القلم قلم إلهى ليس بقصب ولا خشب. أو ما سمعت أن متاع البيت يشبه ربّ البيت؟ وقد علمت ان الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات، فليس في ذاته بجسم ولا هو في مكان، فكذلك لا تشبه يده سائر الأيدى، ولا قلمه سائر الأقلام، ولاكلامه سائر الكلام، ولا خطه سائر الخطوط. بل هذه أمور إلهية من عالم الملكوت

---

(١) العلق، الآية: ١، ٣ـ٥.

الاعلى، فليست يده من لحم وعظم ودم، ولا قلمه من قصب، ولا لوحه من خشب، ولاكلامه من صوت وحرف، ولا خطه من نقش ورسم ورقم، ولا حبره من زاج وعفص. فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فأنت من أهل التشبيه والتجسم وما عرفت ربك، إذ لو نزّهت ذاته تعالى وصفاته عن ذات الأجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن الحروف والأصوات، فما بالك تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه، ولا تنزهها عن الجسمية والتشبيه بغيرها؟».

فلما سمع السائل السالك من العلم ذلك، استشعر قصور نفسه وفتح بصر بصيرته، بعد الابتهال إلى ربه، فانكشف له القلم الإلهى، فإذا هو كما وصفه العلم، ما هو من خشب ولا قصب، ولا له رأس ولا ذنب، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر اصناف العلم، فشكر العلم وودعه، وسافر إلى حضرة القلم الإلهى، وقال له:

«أيها القلم! مالك تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الارادات إلى انهاض القدرة وإشخاصها وصرفها إلى المقدورات؟».

فقال له (القلم الإلهى): «أفنسيت ما رأيت في عالم الملك وسمعته من جواب القلم الآدمى حيث أحالك إلى اليد؟ فجوابى مثل جوابه، فانى مسخر تحت يد الله تعالى الملقبة بـ(يمين الملك)، فاسأله عن شأنى فانى في قبضته وهو الذي يرددنى، وأنا مقهور مسخر، فلا فرق بين القلم الإلهى والقلم الآدمى في معنى التسخير، وإنما الفرق في ظاهر الصورة».

فقال السائل: «من يمين الملك؟».

قال القلم: «أما سمعت قوله تعالى: **وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ**؟»[1].

قال : «نعم! سمعته».

---

(١) الزمر، الآية: ٦٧.

قال: «والأقلام أيضاً في قبضته وهو الذي يرددها».

فسافر السائل من عند القلم إلى اليمين، حتى شاهده، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم، ورأى أنه يمينٌ لاكالأيمان، ويد لاكالأيدى، واصبع لاكالأصابع، فرأى القلم متحركاً في قبضته، فسأله عن سبب تحريكه القلم.

فقال: «جوابى ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة، وهو الحوالة على القدرة، إذ اليد لا حكم لها في نفسها، وإنما محركها القدرة».

فسافر إلى عالم القدرة ورأى فيها من العجائب ما استحقر لأجلها ما قبلها، فسألها عن سبب تحريكها اليمين.

فقالت: «إنما أنا صفة فاسأل القادر، إذ العهدة على الموصوف دون الصفة».

وعند هذا كاد أن يزيغ قلب السائل، وينطلق بالجرأة لسان السؤال، فثبت بالقول الثابت ونودى من وراء سرادقات الحضرة:

﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾(١).

فغشيته دهشة الحضرة، فخر صعقاً في غشيته مدة، فلما أفاق قال: «سبحانك! ما أعظم شأنك وأعز سلطانك، تبت اليك وتوكلت عليك، وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك، ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك، وبرضاك من سخطك، وما لى إلا أن أسالك وأتضرع اليك، وأقول:

﴿إِشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ لأعرفك، ﴿وَاَحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾(٢) لأثنى عليك».

فنودى من وراء الحجاب: «إياك أن تطمع في الثناء، فإن سيد الانبياء ﷺ ما زاد في هذه الحضرة على أن قال: (سبحانك لا اثنى ثناء عليك كما أنت أثنيت على نفسك). وإياك أن تطمع في المعرفة، فإن سيد الأوصياء قال: (العجز عن درك

---

(١) الأنبياء، الآية: ٢٣.

(٢) طه، الآية: ٢٥، ٢٧.

الادراك ادراك، والفحص عن سر ذات السر إشراك). فيكفيك نصيباً من حضرتنا أنك عاجز عن ملاحظة جلالنا وجمالنا، وقاصر عن ادراك دقائق حكمنا وأفعالنا».

فعند هذا رجع السائل السالك، واعتذر عن أسئلته ومعاتبته، وقال للقدرة واليمين والقلم والعلم والارادة والقدرة وما بعدها: «اقبلوا عذرى فانى كنت غريباً جديد العهد بالدخول في هذه البلاد. والآن قد صح عندى عذركم وانكشف لى أن المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار، وما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته، مرددون في قبضته، وهو الأول بالاضافة إلى الوجود، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد، وهو الآخر بالاضافة إلى سير المسافرين اليه، فانهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى حضرته، فهو أول في الوجود وآخر في المشاهدة، وهو الظاهر بالاضافة إلى من يطلبه بالسراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت، وهو الباطن بالاضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس».

وهذا هو التوحيد في الفعل للسالكين، الذين انكشف لهم وحدة الفاعل بالمشاهدة واستماع كلام ذرات الملك والملكوت، وهو موقوف على الايمان بعالم الملكوت والتمكن من المسافرة إليه واستماع الكلام من أهله. ومن كان أجنبياً من هذا العالم ولم يكن له استعداد الوصول إليه ولم يمكنه ان يسلك السبيل الذي ذكرناه، فينبغى ان يرد مثله إلى التوحيد الاعتقادى الذي يوجد في عالم الشهادة، وهو ان يعلم ببعض الأدلة وحدة الفاعل، مثل ان يقال له: إن كل أحد يعلم أن المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد باميرين، فإله العالم ومدبره واحد، إذ:

﴿لَوْكَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1].

(١) الأنبياء، الآية: ٢٢.

فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة، فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق بقدر عقله واستعداده، وقد كلفوا الأنبياء ان يكلموا الناس على قدر عقولهم.

ثم الحق أنّ هذا التوحيد الاعتقادى إذا قوى يصلح أن يكون عماداً للتوكل وأصلا فيه، إذ الاعتقاد إذا قوى عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال، إلا أنه في الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب، فيحتاج إلى من يحرسه بكلامه، وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه، فلا يخاف عليه شيء من ذلك، بل لو كشف له الغطاء لما ازداد يقيناً وان كان يزداد وضوحاً.

﴿تنبيه﴾ اعلم أن ما يبتنى عليه التوحيد المذكور، أعنى كون جميع الأشياء من الأسباب والوسائط مقهورات مسخرات تحت القدرة الأزلية ظاهر. وسائر ما أوردنا في هذا المقام مما ذكره أبو حامد الغزالى وتبعه بعض أصحابنا «ولا اشكال فيه إلا في افعال الانسان وحركاته»(١) فإن البديهة تشهد بثبوت نوع اختيار له، لأنه يتحرك ان شاء ويسكن ان شاء، مع أنه لو كان مسخراً مقهوراً في جميع أفعاله وحركاته، لزم الجبر ولم يصح التكليف والثواب والعقاب. ولتحقيق هذه المسألة موضع آخر، ولا يليق ذكرها هنا. والحق أن كل ما قيل فيها لا يخلو عن قصور ونقصان، والأولى فيها السكوت والتأدب بآداب الشرع(٢).

---

(١) هكذا في المطبوعة وفي نسختنا الخطية والنسخة الاخرى: «ولا ريب في لزوم الاشكال في افعال الانسان وحركاته».

(٢) هذا اعتراف بالعجز وهروب من حل هذه المعضلة التأريخية في سر الخلق، والحل الذي لم يسبق إليه البشر حتى عند فلا سفتهم الأقدمين والمتأخرين ما قاله امامنا الصادق عليه السلام: «لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين». فان الفاعل الذي منه الوجود هو الله تعالى وحده لا شريك له في خلقه، والفاعل الذي به الوجود هو العبد المختار في فعله.

ومنها:

الخواطر النفسانية والوساوس الشيطانية

اعلم أن الخاطر ما يعرض في القلب من الافكار فإن كان مذموماً داعياً إلى الشر سمي (وسوسة)، وإن كان محموداً داعياً إلى الخير سمي (إلهاماً).

وتوضيح ذلك: أن مَثل القلب بالنسبة إلى ما يرد عليه من الخواطر مَثل هدف تتوارد عليه السهام من الجوانب، أو حوض تنصب إليه مياه مختلفة من الجداول، أوقبة ذات أبواب يدخل منها أشخاص متخالفة، أو مرآة منصوبة تجتاز اليها صور متباينة. فكما أن هذه الامور لا تنفك عن تلك السوانح، فكذا القلب لا ينفك عن واردات الخواطر، فلا تزال هذه اللطيفة الإلهية مضماراً لتطاردها ومعركة لجولانها وتزاحمها، إلى ان يقطع ربطها عن البدن ولذاته، ويتخلص عن لدغ عقارب الطبع وحيّاته.

ثم لما كان الخاطر أمراً حادثاً فلا بد له من سبب، فإن كان سببه شيطاناً فهو الوسوسة، وإن كان ملكاً فهو الالهام. وما يستعد به القلب لقبول الوسوسة يسمى إغواءً وخذلاناً، وما يتهيأ به لقبول الالهام يسمى لطفاً وتوفيقاً. وإلى ذلك أشار سيد الرسل ﷺ بقوله: «في القلب لمتان[1]: لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق،

(١) روى الحديث في احياء العلوم ج ٢ ص ٢٣ هكذا: «في القلب لمتان: لمة من الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله. ولمة من العدوإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ...﴾ الآية. وهذا الحديث لم نعثر عليه من طرقنا، وكذا الحديث الآتي:
في نهاية ابن الأثير: «في حديث ابن مسعود: لابن آدم لمتان: لمة من الملك ولمة من الشيطان. اللمة الهمة والخطرة تقع في القلب، اراد إلمام الملك أو الشيطان به والقرب منه».

ولمة من الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق». وبقوله ﷺ: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن».

فصل
(أقسام الخواطر ومنها الإلهام)

الخاطر ينقسم إلى ما يختلج بالبال من دون أن يكون مبدأ للفعل: وهي الأماني الكاذبة والأفكار الفاسدة، وإلى محرك الارادة والعزم على الفعل، إذكل فعل مسبوق بالخاطر أولا، فمبدأ الأفعال الخواطر، وهي تحرك الرغبة، والرغبة العزم، والعزم النية، والنية تبعث الأعضاء على الفعل، (والثاني) كما عرفت إن كان مبدأ للخير يكون إلهاماً ومحموداً، وإن كان مبدأ للشر يكون وسواساً ومذموماً. (والأول) له أنواع كثيرة:

(منها) ما يرجع إلى التمني، سواء كان حصول ما يتمناه ممكناً أو محالا، وسواء كان المتمنى حسناً محموداً أو قبيحاً مذموماً، وسواء كان عدمه مستنداً إلى قضاء الله وقدره أو إلى تقصيره وسوء تدبيره فيخطر بباله أنه ياليت لم يفعل كذا أو فعل كذا.

(ومنها) ما يرجع إلى تذكر الأحوال الغالبة، إما بدون اختياره أو مع اختيار ما، بأن يتصور ما له من النفائس الفانية فيسترّ به، أو يتخيل فقده فيحزن لأجله، أو يتفكر في ما اعتراه من العلل والأسقام واختلال أمر المعاش وسوء الانتظام، أو يذهب وهمه إلى حساب المعاملين أو جواب المعاندين، وتصوير إهلاك الأعداء بالأنواع المختلفة من دون تأثير وفائدة.

(ومنها) ما يرجع إلى التطير، وربما بلغ حداً يتخيل كثيراً من الامور الاتفاقية الدالة على وقوع مكروه بنفسه أو بما يتعلق به، ويضطرب بذلك، وإن لم تكن مشهورة بذلك عند الناس، وربما حدثت في القوة الوهمية خباثة وشيطنة تذهب

غالباً إلى ما يؤذيه ويكرهه ولا يذهب إلى ما يريده ويسره، فيتخيل ذهاب أمواله وأولاده وابتلاءه بالأمراض والأسقام ووصول المكروه من الغير ومغلوبيته من عدوه، وربما حصل لنفسه نوع اذعان لهذه التخيلات لمغلوبية العاقلة للواهمة. فيعتريه نوع اضطراب وانكسار، وقلما يذهب مثل القوة الوهمية فيما يشاء ويريده من تخيل الغلبة وحصول التوسعة في الأموال والاولاد، بحيث يحصل لنفسه نوع اذعان لها، فتنبسط وتهتز. وهذا شر الوساوس وأردؤها، وربما كان المنشأ لبعضها نوع اختلال في الدماغ. وجميع الانواع المذكورة بأقسامها مفسدة للنفس يحدث فيها نوع ذبول وانكسار ويصدها عما خلقت لأجله.

(ومنها) ما يرجع إلى التفاؤل، وهذا ليس مذموماً. وقد ورد من رسول الله ﷺ: أنه يحب التفاؤل، وكثيراً ما يتفاءل ببعض الامور.

(ومنها) الوسواس في العقائد، بحيث لا يؤدى إلى الشك المزيل لليقين، فإنه قادح في الايمان كما تقدم. ومرادنا بالوسوسة وحديث النفس في العقائد هنا ما لا يضر بالايمان ولا يؤاخذ به ـ كما يأتي ـ.

﴿تذنيب﴾ قد ظهر مما ذكر: أن أكثر جولان الخاطر إنما يكون في فائت لا تدارك له، أو في مستقبل لا بد وان يحصل منه ما هو مقدر، وكيف كان هو تضييع لوقته، إذ آلة العبد قلبه وبضاعته عمره، فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنساً بالله أو عن فكر يستفيد معرفة الله ليستفيد بالمعرفة حبا لله، فهو مغبون. وهذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات، مع أن الغالب ليس كذلك، بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات، إذ لا يزال ينازع في الباطن كل من فعل فعلا مخالفاً لغرضه، أو من يتوهم انه ينازعه ويخالفه في رأيه، بل يقدّر المخالفة من اخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده، ثم يتفكر في كيفية زجرهم وقهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفتهم، فلا يزال في شغل دائم مضيّع لدينه ودنياه.

فصل

(المطاردة بين جندى الملائكة والشياطين في معركة النفس)

قد عرفت أن الوسواس أثر الشيطان الخناس، والالهام عمل الملائكة الكرام. ولا ريب في ان كل نفس في بدوفطرتها قابلة لأثر كل منهما على التساوى، وإنما يترجح أحدهما بمتابعة الهوى وملازمة الورع والتقوى، فإذا مالت النفس إلى مقتضى شهوة أو غضب وجد الشيطان مجالاً فيدخل بالوسوسة، وإذا انصرفت إلى ذكر الله ضاق مجاله وارتحل فيدخل الملك بالالهام. فلا يزال التطارد بين جندى الملائكة والشياطين في معركة النفس، لهيولانية وجودها وقابليتها للأمرين بتوسط قوتيها العقلية والوهمية، إلى أن يغلب أحد الجندين ويسخر مملكة النفس ويستوطن فيها، وحينئذ يكون اجتياز الثانى على سبيل الاختلاس، وحصول الغلبة انما هو بغلبة الهوى أو التقوى، فان غلب عليها الهوى وخاضت فيه صارت مرعى الشيطان ومرتعه وكانت من حزبه، وان غلب عليها الورع والتقوى صارت مستقر الملك ومهبطه ودخلت في جنده، قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الإنس ثلاثة أصناف: صنف كالبهائم، قال الله تعالى:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾(١).

وصنف أجسادهم أجساد بنى آدم وأرواحهم أرواح الشياطين، وصنف كالملائكة في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله».

ولا ريب في أن أكثر القلوب قد فتحها جنود الشياطين وملكوها، ويتصرفون فيها بضروب الوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطراح الآجلة. والسر فيه: أن سلطنة الشيطان سارية في لحم الانسان ودمه ومحيطة بمجامع قلبه وبدنه، كما أن

---

(١) الأعراف، الآية: ١٧٩

الشهوات ممتزجة بجميع ذلك، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان ليجرى من بنى آدم مجرى الدم»، وقال الله سبحانه ـ حكاية عن لسان اللعين ـ:

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾[١].

فالخلاص من أيدى الشياطين يحتاج إلى مجاهدة عظيمة ورياضة شاقة، فمن لم يقم في مقام المجاهدة كانت نفسه هدفاً لسهام وساوسهم وداخلة في أحزابهم.

فصل

(تسويلات الشيطان ووساوسه)

لما كانت طرق الباطل كثيرة وطريق الحق واحدة، فالأبواب المفتوحة للشيطان إلى القلب كثيرة، وباب الملائكة واحدة، ولذا روى أن النبى ﷺ خط يوماً لأصحابه خطاً وقال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله فقال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه»، ثم تلا قوله سبحانه:

﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[٢].

ثم لسهولة ميل النفس إلى الباطل وعسر انقيادها للحق تكون الطرق المؤدية إلى الباطل التي هي أبواب الشيطان جلية ظاهرة، فكانت أبواب الشيطان مفتوحة أبداً، والطرق المؤدية إلى الحق التي هي باب الملائكة خفية، فكان باب الملائكة مسدوداً دائماً، فما أصعب بالمسكين ابن آدم أن يسد هذه الأبواب الكثيرة الظاهرة المفتوحة ويفتح باباً واحداً خفياً مسدوداً. على أن اللعين ربما يلبس بين طريق الحق والباطل ويعرض الشر في موضع الخير، بحيث يظن أنه لمة الملك وإلهامه،

---

(١) الأعراف، الآية: ١٦، ١٧.

(٢) الأنعام، الآية: ١٥٣.

لا وسوسة الشيطان وإغواؤه، فيهلك ويضل من حيث لا يعلم، كما يلقى في قلب العالم أن الناس لكثرة غفلتهم أشرفوا على الهلاك، وهم من الجهل موتى، ومن الغفلة هلكى، أما لك رحمة على عباد الله؟ أما تريد الثواب والسعادة في العقبى؟ فما بك لا تنبههم عن رقدة الغفلات بوعظك، ولا تنقذهم من الهلاك الأبدى بنصحك؟ وقد من الله عليك بقلب بصير وعلم كثير ولسان ذلق ولهجة مقبولة! فكيف تخفى نعم الله تعالى ولا تظهرها؟! فلا يزال يوسوسه بأمثال ذلك ويثبتها في لوح نفسه، إلى أن يسخّره بلطائف الحيل ويشتغل بالوعظ، فيدعوه إلى التزين والتصنع والتحسن بتحسين اللفظ، والسرور بتملق الجماعة، والفرح بمدحهم إياه، والانبساط بتواضعهم لديه وانكسارهم بين يديه، لا يزال في اثناء الوعظ يقرر في قلبه شوائب الرياء وقبول العامة، ولذة الجاه وحب الرياسة، والتعزز بالعلم والفصاحة، والنظر إلى الخلق بعين الحقارة، فيهدى الناس ويضل نفسه، ويعمر يومه ويخرب أمسه، ويخالف الله ويظن أنه في طاعته، ويعصيه ويحسب انه في عبادته، فيدخل في جملة من قال الله فيهم:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(١).

ويكون ممن قال رسول الله ﷺ فيهم: «إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم»، و«إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر». فلا نجاة من مصائد الشيطان ومكائده إلا ببصيرة باطنة نوارنية وقوة قدسية ربانية، كما لا نجاة للمسافر الحيران في بادية كثيرة الطرق غامضة المسلك في ليلة مظلمة إلا بعين بصيرة صحيحة وطلوع شمس مشرقة نيرة.

---

(١) الكهف الآية: ١٠٣ـ١٠٤.

فصل

(العلائم الفارقة بين الإلهام والوسوسة)

من تمكن من معرفة الخير والشر سهل عليه التفرقة بين الالهام والوسوسة، وقد قيل إلهام الملك ووسوسة الشيطان يقع في النفوس على وجوه وعلامات: **(أحدها)** كالعلم واليقين الحاصلين من جانب يمين النفس. وتقابله الشهوة والهوى الحاصلان من جانب شمالها. **(وثانيها)** كالنظر إلى آيات الآفاق والأنفس على سبيل النظام والاحكام المزيل للشكوك والأوهام، والمحصل للمعرفة والحكمة في القوة العاقلة هي جانب الايمن من النفس ويقابله النظر اليها على سبيل الاشتباه والغفلة والاعراض عنها، الناشئة منها الشبه والوساوس في الواهمة والمتخلية التي على الجانب الأيسر منها، فان الآيات المحكمات بمنزلة الملائكة المقدسة من العقول والنفوس الكلية، لأنها مبادىء العلوم اليقينية، والمتشابهات الوهميات بمنزلة الشياطين والنفوس الوهمانية، لأنها مبادىء المقدمات السفسطية. **(وثالثها)** كطاعة الرسول المختار والأئمة الاطهار في مقابلة أهل الجحود والانكار وأرباب التعطيل والتشبيه من الكفار. فكل من سلك سبيل الهداية فهو بمنزلة الملائكة المقدسين الملهمين للخير، ومن سلك سبيل الضلال فهو بمنزلة الشياطين المغوين بالشرور. **(ورابعها)** كتحصيل العلوم والادراكات التي هي في الموضوعات العالية والأعيان الشريفة، كالعلم بالله وملائكته ورسله، واليوم الآخر، والبعث، وقيام الساعة، ومثول الخلائق بين يدى الله تعالى، وحضور الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين، في مقابلة تحصيل العلوم والادراكات التي هي من باب الحيل والخديعة والسفسطة، والتأمل في أمور الدنيا الغير الخارجة عن دار المحسوسات، فإن الأول يشبه الملائكة الروحانية وجنود الرحمن الذين هم سكان عالم الملكوت السماوى، والثانى يشبه الأبالسة المطرودة عن باب الله، الممنوعة من ولوج السماوات، المحبوسة في

الظلمات، المحرومة في الدنيا عن الارتقاء، والمحجوبة في الآخرة عن دار النعيم.

فصل

(علاج الوساوس)

الوساوس إن كانت بواعث الشرور والمعاصى، فالعلاج في دفعها ان يتذكر سوء عاقبة العصيان ووخامة خاتمته في الدنيا والآخرة، ويتذكر عظيم حق الله وجسيم ثوابه وعقابه، ويتذكر أن الصبر عما تدعو إليه هذه الوساوس أسهل من الصبر على نار لو قذف شرارة منها إلى الأرض أحرقت نبتها وجمادها، فإذا تذكر هذه الامور وعرف حقيقتها بنور المعرفة والايمان، حبس عنه الشيطان وقطع عنه وسواسه، إذ لا يمكن أن ينكر عليه هذه الامور الحقة، إذ يقينه الحاصل من قواطع البرهان يمنعه عن ذلك ويخيبه، بحيث يرجع هارباً خائباً. فإن التهاب نيران[1] البراهين بمنزلة رجوم الشياطين، فإذا قوبلت بها وساوسهم فرت فرار الحُمر من الأسد.

وإن كانت مختلجة بالبال بلا ارادة واختيار، من دون أن تكون مبادىء الأفعال، فقطعها بالكلية في غاية الصعوبة والاشكال، وقد اعترف اطباء النفوس بأنها الداء العضال ويتعسر دفعه بالمرة، وربما قيل بتعذره، ولكن الحق امكانه، لقول النبى ﷺ: «من صلى ركعتين لم تتحدث نفسه فيهما بشيء غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»، ولولا امكانه لم يتصور ذلك.

والسر في صعوبة قطعها بالكلية أن للشيطان جندين: جنداً يطير وجنداً يسير، والواهمة جنده الطيار، والشهوة جنده السيار، لأن غالب ما خلقتا منه هي النار التي

(١) و فى نسختنا الخطية هكذا: «فان نيرات البراهين».

خلق منها الشيطان، فالمناسبة اقتضت تسلطه عليهما وتبعيتهما له.

ثم لما كانت النار بذاتها مقتضية للحركة، إذ لا تتصور نار مشتعلة لا تتحرك، بل لا تزال تتحرك بطبعها، فشأن كل من الشيطان والقوتين أن يتحرك ولا يسكن، إلا أن الشيطان لما خلق من النار الصرفة من دون امتزاج شيء آخر بها فهو دائم الحركة والتحريك للقوتين بالوسوسة والهيجان، والقوتان لما امتزج بغالب مادتهما ـ أعني النار ـ شيء من الطين لم تكونا بمثابة ما خلق من صرف النار في الحركة، إلا انهما استعدتا لقبول الحركة منه، فلا يزال الشيطان ينفخ فيهما ويحركهما بالوسوسة والهيجان ويطير ويجول فيهما. ثم الشهوة لكون النارية فيها أقل فسكونها ممكن، فيحتمل أن يكف تسلط الشيطان عن الانسان فيها، فيسكن بالكلية عن الهيجان وأما الواهمة فلا يمكن أن يقطع تسلطه عنها، فيمتنع قطع وسواسه عن الانسان، إذ لو أمكن قطعه أيضاً بالمرة، لصار اللعين منقاداً للانسان مسخراً له، وانقياده له هو سجوده له، إذ روح السجود وحقيقته هو الانقياد والاطاعة، ووضع الجبهة حالته وعلامته، وكيف يتصور أن يسجد الملعون لأولاد آدم عليه السلام مع عدم سجوده لأبيهم واستكباره من أن يطمئن عن حركته ساجداً له معللا بقوله:

﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[1].

فلا يمكن أن يتواضع لهم بالكف عن الوسوسة، بل هو من المنظرين لاغوائهم إلى يوم الدين، فلا يتخلص منه أحد إلا من أصبح وهمومه هم واحد، فيكون قلبه مشتغلاً بالله وحده، فلا يجد الملعون مجالاً فيه، ومثله من المخلصين الداخلين في الاستثناء[2] عن سلطنة هذا اللعين، فلا تظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ، بل هو سيال

---

(١) الأعراف، الآية: ١٢.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ ـ الحجر، الآية: ٣٩ ـ ٤٠.

يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وسيلانه مثل الهواء في القدح، فانك إن أردت أن تخلى القدح عن الهواء من غير أن تشغله بمثل الماء فقد طمعت في غير مطمع، بل بقدر ما يدخل فيه الماء يخلو عن الهواء، فكذلك القلب إذاكان مشغولاً بفكر مهم في الدين يمكن أن يخلو من جولان هذا اللعين، وأما لو غفل عن الله ولو في لحظة، فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان، كما قال سبحانه:

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يبغض الشاب الفارغ»، لأن الشاب إذا تعطل عن عمل مباح يشغل باطنه لابد أن يدخل في قلبه الشيطان ويعيش فيه ويبيض ويفرخ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد الحيوانات، لأن الشيطان طبعه من النار، والشهوة في نفس الشاب كالحلفاء[٢] اليابسة، فإذا وجدها كثر تولده، وتولدت النار من النار ولم تنقطع أصلاً.

فظهر أن وسواس الخناس لا يزال يجاذب قلب كل انسان من جانب إلى جانب، ولا علاج له إلا قطع العلائق كلها ظاهراً وباطناً، والفرار عن الأهل والمال والولد والجاه والرفقاء، ثم الاعتزال إلى زاوية، وجعل الهموم هماً واحداً هو الله. وهذا أيضاً غير كاف ما لم يكن له مجال في الفكر وسير في الباطن في ملكوت السماوات والارض وعجائب صنع الله، فان استيلاء ذلك على القلب واشتغاله به يدفع مجاذبة الشيطان ووسواسه، وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من الصلوات والاذكار والأدعية والقراءة. ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور، إذ الأوراد الظاهرة لا تستغرق القلب، بل التفكر

(١) الزخرف، الآية: ٣٦.

(٢) الحلفاء: نبت اطرافه محددة كأنها سعف النخل والخوص، ينبت في مغايض المياه. الواحدة (حلفة وحلفاء).

بالباطن هو الذي يستغرقه، وإذا فعل كل ذلك لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها، إذ لا يخلو في بعضها عن حوادث تتجدد وتشغله عن الفكر والذكر، كمرض أو خوف أو ايذاء وطغيان، ولو من مخالطة بعض لا يستغنى عنه في الاستعانة في بعض اسباب المعيشة.

فصل

(ما يتم به علاج الوسواس)

لو أمكن العلاج في القطع الكلى للوساوس فإنما يتم بأمور ثلاثة:

(الأول) سد الأبواب العظيمة للشيطان في القلب، وهي الشهوة، والغضب، والحرص، والحسد، والعداوة، والعجب، والحقد، والكبر، والطمع، والبخل، والخفة، والجبن، وحب الحطام الدنيوى الدائر، والشوق إلى التزين بالثياب الفاخرة، والعجلة في الأمر، وخوف الفاقة والفقر، والتعصب لغير الحق، وسوء الظن بالخالق والخلق... وغير ذلك من رؤس ذمائم الصفات ورذائل الملكات، فإنها ابواب عظيمة للشيطان، فإذا وجد بعضها مفتوحاً يدخل منه في القلب بالوساوس المتعلقة به، وإذا سدّت لم يكن له إليه سبيل إلا على طريق الاختلاس والاجتياز.

(الثانى) عمارة القلب باضدادها من فضائل الأخلاق وشرائف الأوصاف، والملازمة للورع والتقوى، والمواظبة على عبادة ربه الأعلى.

(الثالث) كثرة الذكر بالقلب واللسان. فإذا قلعت عن القلب أصول ذمائم الصفات المذكورة التي هي بمنزلة الابواب العظيمة للشيطان، زالت عنه وجوه سلطنته وتصرفاته، سوى خطراته واجتيازاته، والذكر يمنعها ويقطع تسلطه وتصرفه بالكلية، ولولم يسد أبوابه أولاً لم ينفع مجرد الذكر اللسانى في إزالتها، إذ حقيقة الذكر لا يتمكن في القلب إلا بعد تخليته عن الرذائل وتحليته بالفضائل، ولولا هما لم يظهر

على القلب سلطانه، بل كان مجرد حديث نفس لا يندفع به كيد الشيطان وتسلطه، فإن مَثل الشيطان مَثل كلب جائع، ومثل هذه الصفات المذمومة مثل لحم أو خبز أو غيرهما من مشتهيات الكلب، ومثل الذكر مثل قولك له: إخسأ. ولا ريب فى أن الكلب إذا قرب اليك ولم يكن عندك شيء من مشتهياته فهو ينزجر عنك بمجرد قولك: اخسأ، وان كان عندك شيء منها لم يندفع عنك بمجرد هذا القول ما لم يصل إلى مطلوبه. فالقلب الخالى عن قوت الشيطان يندفع عنه بمجرد الذكر، وأما القلب المملو منه فيدفع الذكر إلى حواشيه، ولا يستقر في سويدائه، لاستقرار الشيطان فيه. وايضاً الذكر بمنزلة الغذاء المقوى، فكما لا تنفع الاغذية المقوية ما لم ينقَّ البدن عن الاخلاط الفاسدة ومواد الأمراض الحادثة، كذلك لا ينفع الذكر ما لم يطهر القلب عن الأخلاق الذميمة التي هي مواد مرض الوسواس، فالذكر إنما ينفع للقلب إذا كان متطهراً عن شوائب الهوى ومنوراً بأنوار الورع والتقوى، كما قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡا إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾(١).

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾(٢).

ولو كان مجرد الذكر مطرداً للشيطان لكان كل احد حاضر القلب في الصلاة، ولم يخطر بباله فيها الوساوس الباطلة والهواجس الفاسدة، إذ منتهى كل ذكر وعبادة إنما هو في الصلاة. مع أن من راقب قلبه يجد أن خطور الخواطر في صلاته أكثر من سائر الأوقات، وربما لا يتذكر ما نسيه من فضول الدنيا إلا في صلاته، بل يزدحم عندها جنود الشياطين على قلبه ويصير مضماراً لجولانهم، ويقلبونه شمالاً ويميناً بحيث لا يجد فيه ايماناً ولا يقيناً، ويجاذبونه إلى الأسواق وحساب المعاملين

---

(١) الأعراف، الآية: ٢٠١.

(٢) قٓ، الآية: ٣٧.

وجواب المعاندين، ويمرون به في أودية الدنيا ومهالكها. ومع ذلك كله لا تظنن أن الذكر لا ينفع في القلوب الغافلة أصلاً، فإن الأمر ليس كذلك، إذ للذكر عند أهله أربع مراتب كلها تنفع الذاكرين، إلا أن لبه وروحه والغرض الأصلى من ذلك المرتبة الأخيرة:

(**الأولى**)اللسانى فقط.

(**الثانية**) اللسانى والقلبى، مع عدم تمكنه من القلب، بحيث احتاج القلب إلى مراقبته حتى يحضر مع الذكر، ولو خلى وطبعه استرسل في أودية الخواطر.

(**الثالثة**) القلبى الذي تمكن من القلب واستولى عليه، بحيث لم يمكن صرفه عنه بسهولة، بل احتاج ذلك إلى سعى وتكلف، كما احتيج في الثانية اليهما في قراره معه ودوامه عليه.

(**الرابعة**) القلبى الذي يتمكن المذكور من القلب بحيث انمحى عند الذكر، فلا يلتفت القلب إلى نفسه ولا إلى الذكر، بل يستغرق بشراشره في المذكور، واهل هذه المرتبة يجعلون الالتفات إلى الذكر حجاباً شاغلاً. وهذه المرتبة هي المطلوبة بالذات والبواقى مع اختلاف مراتبها مطلوبة بالعرض، لكونها طرقاً إلى ما هو المطلوب بالذات.

فصل

(ما يتوقف عليه قطع الوساوس)

السر في توقف قطع الوساوس بالكلية على التصفية والتخلية أولاً، ثم المواظبة على ذكر الله: أن بعد حصول هذه الامور للنفس تحصل لقوتها العاقلة ملكة الاستيلاء والاستعلاء على القوى الشهوية والغضبية والوهمية، فلا تتأثر عنها وتؤثر فيها على وفق المصلحة، فتتمكن من ضبط الواهمة والمتخيلة بحيث لو أرادت صرفهما عن

الوساوس لأمكنها ذلك، ولم تتمكن القوتان من الذهاب في أودية الخواطر بدون رأيها، وإذا حصلت للنفس هذه الملكة وتوجهت إلى ضبطهما كلما أرادتا الخروج عن الانقياد والذهاب في أودية الوساوس وتكرر منها هذا الضبط، حصل لهما ثبات الانقياد بحيث لم يحدث فيهما خاطر سوء مطلقاً، بل لم يخطر فيهما إلا خواطر الخير من خزائن الغيب وحينئذ تستقر النفس على مقام الاطمئنان، وتنسد عنها أبواب الشيطان وتنفتح فيها أبواب الملائكة، ويصير مستقرها ومستودعها، فتستضاء بشروق الانوار القدسية من مشكاة الربوبية، ويشملها خطاب:

﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾(١).

ومثل هذه النفس أحسن النفوس وأشرفها، وتقابلها النفس المنكوسة المملوة من الخبائث الملوثة بأنواع الذمائم والرذائل، وهي التي انفتحت فيها أبواب الشيطان وانسدت منها أبواب الملائكة، ويتصاعد منها دخان مظلم اليها، فتملأ جوانبها ويطفيء نور اليقين ويضعف سلطان الايمان، حتى تخمد انواره بالكلية، ولا يخطر فيها خاطر خير أبداً، وتكون دائماً محل الوساوس الشيطانية، ومثلها لا يرجع إلى الخير أبداً، وعلامتها عدم تأثرها من النصائح والمواعظ، ولو اسمعت الحق عميت عن الفهم وصمت عن السمع، وإلى مثلها اشير بقوله سبحانه:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾(٢).

وبقوله تعالى:

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾(٣).

وبقوله سبحانه:

---

(١) الفجر، الآية: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) الفرقان، الآية: ٤٣.

(٣) البقرة، الآية: ٧.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[١].

وبقوله تعالى:

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

وبقوله عز وجل:

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

وبين هاتين النفسين نفس متوسطة في السعادة والشقاوة، ولها مراتب مختلفه في اتصافها بالفضائل والرذائل بحسب الكمّ والكيف والزمان، فيختلف فيها فتح أبواب الملائكة والشياطين بالجهات المذكورة. فتارة يبتدىء فيها خاطر الهوى فيدعوها إلى الشر، وتارة يبتدىء فيها خاطر الايمان فيبعثها على الخير، ومثلها معركة تطارد جندى الشياطين والملائكة وتجاذبهما، فتارة يصول الملك على الشيطان فيطرده، وتارة يحمل الشيطان على الملك فيغلبه، ولا تزال متجاذبة بين الحزبين مترددة بين الجندين، إلى أن تصل إلى ما خلقت لأجله لسابق القضاء والقدر. ثم النفس الأولى في غاية الندرة، وهي نفوس الكمل من المؤمنين الموحدين، والثانية في نهاية الكثرة وهي نفوس الكفار بأسرهم، والثالثة نفوس اكثر المسلمين، ولها مراتب شتى ودرجات لا تحصى، ولها عرض عريض، فيتصل أحد طرفيه بالنفس الأولى، وآخرهما بالثانية.

---

(١) الفرقان، الآية: ٤٤.

(٢) يسٓ، الآية: ١٠.

(٣) يسٓ، الآية: ٧.

فصل

(حديث النفس لامؤاخذة عليه)

قد عرفت أن الوساوس بأقسامها مشتركة في إحداث ظلمة وكدرة في النفس، إلا أن مجرد الخواطر ـ أي (حديث النفس) وما يتولد عنه بلا اختيار، كالميل وهيجان الرغبة ـ لا مؤاخذة عليهما، ولا يكتب بهما معصية، لعدم دخولهما تحت الاختيار، فالمؤاخذة عليهما ظلم، والنهى عنهما تكليف بما لا يطاق، والاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغى أن يفعل هذا فيؤاخذ به، لكونه اختيارياً. وكذا الهمّ بالفعل والعزم عليه، إلا أنه إن يفعل مع الهمّ خوفاً من الله وندم عنه كتبت له حسنة، وإن لم يفعل لمانع منعه لا لخوف الله سبحانه كتبت عليه سيئة.

والدليل على هذا التفصيل: أما على عدم المؤاخذة على مجرد الخاطر، فما روى في الكافى: «أنه جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله! هلكت. فقل له هل أتاك الخبيث فقال لك من خلقك؟ فقلتَ: الله تعالى، فقال لك: الله من خلقه؟ فقال له: أى والذي بعثك بالحق لكان كذا. فقال رسول الله ﷺ: ذاك والله محض الايمان». ومثله ما روى: أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله! نافقت، فقال: «والله ما نافقت! ولو نافقت ما أتيتنى تعلمنى، ما الذي رابك؟ أظن أن العدوالحاضر أتاك، فقال: من خلقك؟ فقلتَ: الله تعالى خلقنى، فقال لك: من خلق الله؟ فقال: أى والذي بعثك بالحق لكان كذا، فقال: إن الشيطان أتاكم من قبل الأعمال فلم يقو عليكم، فأتاكم من هذا الوجه لكى يستزلكم، فإذا كان كذلك فليذكر أحدكم الله وحده». وقريب منه ما روى: أن رجلاً كتب إلى أبى جعفر عليه السلام يشكو إليه لمماً يخطر على باله، فأجابه في بعض كلامه: «إن الله إن شاء ثبتك فلا يجعل لإبليس عليك طريقاً. قد شكى قوم إلى النبى ﷺ لمما يعرض لهم لإن تهوى بهم الريح أو يقطّعوا أحب اليهم من أن يتكلمو به، فقال رسول الله: أتجدون ذلك؟ قالوا: نعم! قال:

والذي نفسي بيده إن ذلك لصريح الإيمان، فإذا وجدتموه فقولوا: آمنا بالله ورسوله ولا حول ولا قوة إلا بالله». وسئل الصادق عليه السلام عن الوسوسة وإن كثرت، فقال: «لا شيء فيها، تقول لا إله إلا الله». وعن جميل بن دراج قال: قلت للصادق عليه السلام: إنه يقع في قلبي أمر عظيم، فقال: «قل لا إله إلا الله»، قال جميل: فكلما وقع في قلبي قلت: لا إله إلا الله، فيذهب عني.

ومما يدل على عدم المؤاخذة عليه وعلى الميل وهيجان الرغبة إذا لم يكونا داخلين تحت الاختيار ما روي: إنه لما نزل قوله تعالى:

﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ ٱللَّهُ﴾[1].

جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: كلفنا ما لا نطيق، إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب ان يثبت في قلبه، ثم يحاسب بذلك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لعلكم تقولون كما قال بنو اسرائيل: سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا، فقالوا: سمعنا وأطعنا، فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2]».

وما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله سبحانه:

«وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله»: «إن هذه الآية عرضت على الأنبياء والأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها من ثقلها، وقبلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعرضها على أمته فقبلوها. فلما رأى الله عز وجل منهم القبول على أنهم لا يطيقونها، قال: أما إذا قبلت الآية بتشديدها وعظم ما فيها وقد عرضتها على الأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها وقبلتها امتك، فحق على أن أرفعها عن أمتك، وقال عز من قائل: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها». وما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «وضع عن امتي تسع خصال:

---

(١) البقرة، الآية: ٢٨٤.

(٢) البقرة، الآية: ٢٨٦.

الخطأ، والنسيان، وما لا يعلمونه، وما لا يطيقونه، وما اضطروا عليه، وما استكرهوا عليه، والطيرة، والوسوسة في التفكر في الخلق، والحسد ما لم يظهر بلسان أويد».
وما روى أنه سئل الصادق عليه السلام عن رجل يجيء منه الشيء على حد الغضب يؤاخذه الله تعالى؟ فقال عليه السلام: «إن الله تعالى أكرم من أن يستغلق على عبده»، والمراد من الغضب فيه: الغضب الذي سلب الاختيار.

وبالجملة: القطع حاصل بعدم المؤاخذه والمعصية على ما لا يدخل تحت الاختيار من الخواطر والميل وهيجان الرغبة، إذ النهى عنها مع عدم كونها اختيارية تكليف بما لا تطاق، وإن لم ينفك عن إحداث خباثة في النفس.

وأما[١] على انه يكتب سيئة على الاعتقاد والهمّ بالفعل والتصميم عليه مع تركه لمانع لا لخوف من الله، فهو ان كلا من الاعتقاد والهمّ بالمعصية فعل من الأفعال الاختيارية للقلب، وقد ثبت في الشريعة ترتّب الثواب والعقاب على فعل القلب إذا كان اختيارياً، قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[٢].

وقال سبحانه:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنما يحشر الناس على نياتهم». وقال صلى الله عليه وآله: «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار»، قيل: يا رسول الله! هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «لأنه أراد قتل صاحبه». وقال صلى الله عليه وآله: «لكل امرىء ما نوى». والآثار الواردة في ترتب العقاب على الهم بالمعصية كثيرة، واطلاقها محمول على غير

---

(١) أى وأما الدليل على انه يكتب سيئة.

(٢) الإسراء، الآية: ٣٦.

(٣) البقرة، الآية: ٢٢٥.

صورة الترك خوفاً من الله، لما يأتى من أنه في هذه الصورة تكتب بها حسنة، وكيف لا يؤاخذ على اعمال القلوب مع ان المؤاخذة على الملكات الردية من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وغيرها قطعي الثبوت من الشرع، مع كونها أفعالاً قلبية، وقد ثبت في الشريعة أن من وطأ امرأة ظاناً أنها أجنبية كان عاصياً وإن كانت زوجته.

وأما على أنه يكتب حسنة على الترك بعد الهم خوفاً من الله، فما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر، فقال: راقبوه فإن عملها فاكتبوها عليه بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها لأجلى». وما روى عن الإمام محمد بن على الباقر عليه السلام: «ان الله تعالى جعل لآدم في ذريته من همَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بحسنة وعملها كتبت له عشراً، ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة، ومن هم بها وعملها كتبت عليه سيئة»، وقوله: «لم يكتب عليه» محمول على صورة عدم العمل خوفاً من الله، لما تقدم من أنه إن لم يعملها لمانع غير خوف الله كتبت عليه سيئة. وما روى عن الصادق عليه السلام أنه قال: «ما من مؤمن إلا وله ذنب يهجره زماناً ثم يلمّ به وذلك قوله تعالى:

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[1].

وقال: «واللمم: الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه»، وقد وردت بهذا المضمون اخبار أخر.

(١) النجم، الآية: ٣٢.

وصل

(الخاطر المحمود والتفكر)

قد عرفت أن ضد الوسوسة الخاطر المحمود المستحسن شرعاً وعقلاً، لأن القلب إذا كان مشغولاً بشيء لا يمكن أن يشغله شيء آخر، فإذا كان مشغولا بشيء من الخواطر المحمودة لا سبيل للخواطر المذمومة اليه، وربما كان للغفلة التي هي ضد النية تقابل لكل من الوسوسة والخاطر المحمود، إذ عند الغفلة لا يتحقق شيء منهما، إلا أن خلو القلب عن كل نية وخاطر بحيث يكون ساذجاً في غاية الندرة، على أن الظاهر أن مرادهم من الغفلة خلو الذهن من القصد الباعث وان كان مشغولاً بالوساوس الباطلة، كما يأتي تحقيقه.

ثم الخاطر المحمود إن كان قصداً ونية لفعل جميل معين كان متعلقاً بالقوة التي يتعلق هذا الفعل بها، وإلا كان راجعاً إما إلى الذكر القلبي أو إلى التدبر في العلوم والمعارف والتفكر في عجائب صنع الله وغرائب عظمته، أو إلى التدبر الاجمالي الكلي فيما يقرب العبد إلى الله سبحانه أو ما يبعده عنه تعالى، وليس وراء ذلك خاطر محمود متعلق بالدين أو غير ذلك من الخواطر المذمومة المتعلقة بالدنيا.

وإذا عرفت ذلك فاعلم: أنه من معالجات مرض الوسواس معرفة شرافة ضده الذي هو الخاطر المحمود، ليبعثه على المواظبة عليه الموجبة لدفع الوساوس. وفضيلة الخواطر المحمودة الباعثة على الأفعال الجميلة يأتي ذكرها في باب النية، وربما يعلم من بيان فضيلة نفس هذه الأفعال أيضاً كما يأتي ذكرها في باب النية، وفضيلة الذكر القلبي يعلم في باب مطلق الذكر.

أما بيان شرافة التفكر وبعض مجاريه من أفعال الله تعالى والاشارة إلى كيفية التفكر فيها وفيما يقرب العبد إلى الله تعالى وفيما يبعده عنه، فلنشر إلى مجمل منه هنا لتعلقه بالقوة النظرية، فنقول:

التفكر: هو سير الباطن من المبادىء إلى المقاصد، والمبادىء: هي آيات الآفاق والأنفس، والمقصد: هو الوصول إلى معرفة موجدها ومبدعها والعلم بقدرته القاهرة وعظمته الباهرة، ولا يمكن لأحد أن يترقى من حضيض النقصان إلى اوج الكمال إلا بهذا السير، وهو مفتاح الأسرار ومشكاة الأنوار، ومنشأ الاعتبار ومبدأ الاستبصار، وشبكة المعارف الحقيقية ومصيدة الحقائق اليقينية، وهو أجنحة النفس للطيران إلى وكرها القدسي، ومطية الروح للمسافرة إلى وطنها الأصلي، وبه تنكشف ظلمة الجهل واستاره وتنجلي أنوار العلم وأسراره، ولذا ورد عليه الحث والمدح في الآيات والأخبار كقوله سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿فَاعْتَبِرُوا يَٰٓأُولِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾[4].

وقوله تعالى:

---

(١) الروم، الآية: ٨.

(٢) الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٣) الحشر، الآية: ٢.

(٤) العنكبوت، الآية: ٢٠.

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[١].

وقوله تعالى:

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣].وقول رسول الله ﷺ: «التفكر حياة قلب البصير»، وقوله ﷺ: «فكرة ساعة خير من عبادة سنة»، ولا ينال منزلة التفكر إلا من خصه الله عز وجل بنور التوحيد والمعرفة، وقوله ﷺ: «أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي قدرته»[٤]، ومراده من التفكر في الله التفكر في قدرته وصنعه وفي عجائب افعاله ومخلوقاته وغرائب آثاره ومبدعاته، لا التفكر في ذاته، لكونه ممنوعاً عنه في الأخبار، ومعللاً بأنه يورث الحيرة والدهشة واضطراب العقل، وقد ورد: «إياكم والتفكر في الله، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه». واشتهر عن النبى ﷺ انه قال: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله، فإنكم لن تقدّروا قدره»، وقول أمير المؤمنين عليه السلام: «التفكر يدعو إلى البر والعمل به»، وقوله عليه السلام: «نبه بالتفكر قلبك، وجاف عن الليل جنبك، واتق الله ربك»، وقول الباقر عليه السلام: «بإجالة الفكر يُستدر الرأى المعشب»، وقول الصادق عليه السلام: «الفكر مرآة الحسنات وكفارة السيئات، وضياء للقلوب وفسحة للخلق، واصابة في صلاح المعاد، واطلاع على العواقب، واستزادة في العلم، وهي خصلة لا يعبد الله بمثلها»، وقول الرضا عليه السلام: «ليس العبادة كثرة في

---

(١) آل عمران، الآية: ١٩٠

(٢) الذاريات، الآية: ٢٠ـ٢١.

(٣) آل عمران، الآية: ١٩١.

(٤) روى هذه الأحاديث في الكافى في (باب التفكر) عن أبي عبدالله ٧ كما هنا.

الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر في أمر الله عزّ وجل».

تكملة
(مجارى التفكر في المخلوقات)

الموجودات بأسرها مجارى التفكر ومطارح النظر، إذ كل ما في الوجود سوى واجب الوجود فهو من رشحات وجوده وآثار فيضه وجوده، وكل موجود ومخلوق من جوهر أو عرض مجرد أو مادى، فلكى أو عنصرى، بسيط أو مركب، فعل الله وصنعه، وما من ذرة من ذرات العالم إلا وفيها ضروب من عجائب حكمته وغرائب عظمته، بحيث لو تشمر عقلاء الأقطار وحكماء الأمصار مدى الأعصار لاستنباطها، انقضت اعمارهم دون الوقوف على عشر عشيرها وقليل من كثيرها.

ثم ان الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف اصله فلا يمكننا التفكر فيه، وإلى ما يعرف اصله ومجمله من دون معرفة تفاصيله فيمكننا التفكر في تفصيله لتزداد لنا معرفة وبصيرة بخالقه. وهو إلى ما لايدرك بحس البصر ويسمى بـ(الملكوت)، كالملائكة والجن والشياطين وعوالم العقول والنفوس المجردة، ولها أجناس وطبقات لا يحيط بها إلا موجدها، وإلى ما يدرك به، وله أجناس ثلاثة: عالم السماوات المشاهدة بكواكبها ونجومها ودورانها في طلوعها وغروبها، وعالم الأرض المحسوسة ببحارها وجبالها ووهادها وتلالها ومعادنها وانهارها ونباتها وأشجارها وحيوانها وجمادها، وعالم الجو المدرك بسحبه وغيومه وأمطاره وثلوجه وشهبه وبروقه ورياحه ورعوده، وكل من هذه الأجناس الثلاثة ينقسم إلى أنواع، ويتشعب كل نوع إلى أقسام وأصناف غير متناهية، مختلفة في الصفات والهيئات، واللوازم والآثار والخواص، والمعانى الظاهرة والباطنة، وليس شيء منها إلا وموجده هو الله سبحانه، وفي وجوده وحركته وسكونه حكم ومصالح لا تحصى.

وكل ذلك مجارى التفكر والتدبر لتحصيل المعرفة والبصيرة بخالقها الحكيم وموجدها القيوم العليم، إذ كلها شواهد عدل وبينات صدق على وحدانيته وحكمته وكمال كبريائه وعظمته، فمن قدّم قدم حقيقته، ودار عالم الوجود وفتح عين بصيرته، وشاهد مملكة ربه الودود، لظهر له في كل ذرة من ذرات الخلق عجائب حكمة وغرائب قدرة، بهر منها عقله ووهمه، وحسر دونها لبه وفهمه.

ثم لا ريب في أن طبقات العوالم المنتظمة المرتبة على النحو الأصلح والنهج الأحسن بأمر موجدها الحكيم ومدبرها العليم، مبتدأة في الصدور من الأشرف فالأشرف، حتى ينتهى إلى أسفل العوالم وأخسها، وهو عالم الأرض بما فيه، وكل عالم أسفل لا قدر له بالنسبة إلى ما فوقه، فلا قدر للأرض بالنظر إلى عالم الجو، ولا للجو بالقياس إلى عالم السماوات، ولا للسماوات بالنسبة إلى عالم المثال، ولا للمثال بالنظر إلى عالم الملكوت، ولا للملكوت بالقياس إلى الجبروت، ولا للجميع بالنسبة إلى ما لا سبيل لنا إلى دركه تفصيلاً واجمالاً من عوالم الالوهية، كما ظهر لعلماء الطبيعة وأهل الرصد والهندسة، ووضح لأرباب المكاشفة والعرفان واصحاب المشاهدة والعيان.

ثم أخس العوالم الّذى عرفت حاله ـ أعنى الأرض ـ لا قدر لما على ظهرها من الحيوان والنبات والجماد، بالنظر إلى نفسها، ولذا يفسد من أدنى تغير لها جل ما عليها، ولكل جنس مما عليها أنواع وأقسام وأصناف غير متناهية. وأضعف انواع الحيوان البعوضة والنحل، وأشرف أنواعه الانسان. فنحن نشير إلى نبذة يسيرة من الحكم والعجائب المودعة فيها، وكيفية التفكر فيها، ليقاس عليها البواقى اجمالاً. فإن بيان مجارى التفكر باسرها في حيز المحال، وما يمكن منه خارج عن حيطة الضبط والتدوين، ولذا ترى أن البارعين من الحكماء والفائقين من أجلة العرفاء بذلوا وسعهم في بيان مجارى التفكر ومطارحه وشرح مجال النظر ومسارحه، فسطروا فيه

الأساطير وملأوا منه الطوامير، وخاضوا في غمرات بحار الأفكار وغاصوا في تيار لجج الانظار، ومع ذلك لم يعودوا بالنظر إلى ما هو الواقع إلا صفر اليدين ورجعوا آخر الامر (بخفى حنين). ونحن لو تعرضنا لشرح ما يمكن لنا دركه من الحكم والغرائب المودعة في عضو واحد من اعضائها على التفصيل، لخرجنا عن وضع الكتاب، وارتكبنا ما يملّ الناظرين من الاطناب، فنشير اجمالاً إلى بعض ما فيها من الحكم والعجائب، تنبيهاً للطالبين على كيفية التفكر في الصنائع الإلهية، فنقول:

أما ﴿البعوض﴾ ـ فانظر كيف خلقه الله على صغر قدره على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات، إذ خلق له خرطوماً كخرطومه، وخلق له مع صغره جميع الأعضاء التي خلقها للفيل بزيادة جناحين، فقسّم اعضاءه الظاهرة، فأنبت جناحيه وأخرج يديه ورجليه، وشق سمعه وبصره، ودبر في باطنه اعضاء الغذاء، وركّب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب في الحيوانات العظيمة ـ كما يأتي في الانسان ـ ثم هداه إلى غذائه الذي هو دم الانسان وغيره من الحيوانات، فأنبت له آلة الطيران إلى الانسان، وخلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس، وهداه إلى الامتصاص من مسام بشرة الانسان حتى يضع خرطومه في واحد من مسامه، ويغرز فيه ويمص الدم ويتجرعه، وخلق خرطومه ـ مع دقته ـ مجوفاً حتى يجرى فيه الدم الصافى الرقيق وينتهى إلى باطنه وينتشر في معدته وفي سائر أعضائه، وعرّفه أن الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب، وخلق له السمع الذي يسمع به حفيف حركة اليد مع كونها بعيدة منه، فيترك المص ويهرب، وإذا سكنت اليد عاد، وخلق له حدقتين حتى يبصر مواضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه. ولما كانت حدقة كل حيوان صغيرة بحيث لا يحتمل الأجفان لصغره، وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار، خلق للبعوض والذباب وغيرهما من الحيوانات الصغيرة يدين ليمسح بهما حدقتيه ويطهرهما عن الغبار والقذى، أو

لا ترى الذباب أنه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه؟. وأما الانسان وغيره من الحيوانات العظيمة خلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة، فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميها إلى اطراف الأهداب. فهذه لمعة يسيرة من عجائب صنع الله فيه، وفيها من العجائب الظاهرة والباطنة ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الاحاطة بكنهها عجزوا عن حقيقتها.

أما «النحل» ـ فانظر كيف أوحى الله تعالى اليها حتى اتخذت:

﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[١].

واستخرج من لعابها الشمع والعسل، وجعل أحدهما ضياء والآخر شفاء. وانظر في عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنهار واجتنابها عن النجاسات والأقذار، وفي طاعتها وانقيادها لواحد من جملتهم، وأكبرهم شخصاً، وهو أميرهم. وانظر كيف علّم الله أميرهم أن يحكم بالعدل والانصاف بينهم، حتى أنه ليقتل على باب النفذ كل ما وقع منها على نجاسة. ثم انظر إلى بناء بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال المسدس، فلا يبنى مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً، بل اختار المسدس لخاصية يقصر عن دركها أفهام المهندسين، وهو أن أوسع الأشكال وأجودها المستدير، ثم ما يقرب منه، فإن المربع تخرج منه زوايا ضايعة، وشكل النحل مستدير مستطيل، فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة، ولو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضايعة، لأن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصة، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الوسعة والاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس، فهذه خاصية هذا الشكل. فانظر كيف علّم الله النحل مع صغر جرمها لطفاً بها وعناية

---

(١) النحل، الآية: ٦٨.

بوجودها ليهنأ عيشها، فسبحانه ما أعظم شأنه. وما ذكرناه قدر يسير من عجائب الحكمة المودعة فيها، وما فيها من العجائب الظاهرة والباطنة مما لا يمكن الاحاطة به.

وأما ﴿الانسان﴾ ـ فنقول: لا ريب في أن أول كل انسان قطرة من ماء قذرة، لو خليت بنفسها لأنتنها الهواء وأفسدها، وكانت متفرقة في جميع اجزاء بدن الذكر، فالقى الله بلطائف حكمته محبة بينه وبين الانثى وقادهما بسلاسل الشهوة إلى الاجتماع، واستخرج هذه النطفة المنتنة بحركة الوقاع، وأعطى لآلة الرجل قوة دافعة، ولرحم الانثى قوة جاذبة، حتى جذبتها من فم الاحليل إلى نفسها، وامتزجت بمنى الانثى بحيث صارتا واحدة، واستقرت في الرحم، وجعل مبدأ عقد الصورة في منى الذكر، ومبدأ انعقادها في منى الأنثى، فهما بالنظر إلى الجنين كالأنفحة واللبن بالقياس إلى الجبن، والحق إن لكل من المنيين القوة العاقدة والمنعقدة، إلا أن الاولى في الذكورى والثانية في الانوثى أقوى، وإلا لم يتّحدا شيئاً واحداً، ولم ينعقد الذكورى حتى يصير جزأ من الولد. فلو كان مزاج الانثى ذكورياً كما في النساء الشريفة النفوس القوية القوى، وكان مزاج كبدها حاراً، كان المنى المنفصل عن كليتها اليمنى أحرّ كثيراً من المنفصل عن كليتها اليسرى، فإذا اجتمعا في الرحم، وكان مزاج الرحم قوياً في الامساك والجذب، قام المنفصل عن الكلية اليمنى مقام منى الذكر في شدة قوة العقد، والمنفصل من اليسرى مقام منى الأنثى في قوة الانعقاد، فيختلق الولد، وبهذا تتصحح ولادة مريم البتول عليها السلام حيث تمثل لها روح القدس بشراً سويّاً حسن الصورة، فمع تحقق ما ذكر لها تأيدت به ـ أي بروح القدس ـ وسرى أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن، وتغير مزاجها ومد جميع القوى في أفعالها بالمدد الروحاني، فصارت أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس.

ثم ابتدأ خلق الجنين في استقرار الماءين في الرحم، وشبه بالعجين إذا ألصق

بالتنور، فغيره الله تعالى سبحانه عن حاله قليلا، كالبذر إذا نبت من الأرض، فصارت نطفة، فاستجلب دم الحيض من أعماق العروق اليها، حتى ظهرت فيها نقط دموية منه وصارت علقة. ثم أظهر فيها حمرة ظاهرة حتى صار شبيهاً بالدم الجامد، وهيج فيها ريحاً حارة فصارت مضغة. ثم أظهر فيها رسوم الأعضاء وشكلها وصورها، فاحسن تصويرها، فقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة من العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم والشحم.

ثم ركب الأعضاء الظاهرة والباطنة من اللحم والعروق والأعصاب، فدور الرأس، وشق البصر والسمع والفم والأنف وسائر المنافذ، ومد اليد والرجل، وقسم رؤسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل، وخلق كل واحد من القلب والدماغ والكبد والطحال والمعدة والرئة والرحم والمثانة والأمعاء وغيرها من الأعضاء على شكل مخصوص، وجعل لكل واحد منها عملا معيناً وفعلا مخصوصاً، وجميع ذلك يحصل للجنين وهو في ظلمة الأحشاء محبوس وفي دم الحيض مغموس، منضم في صرة، كفاه على خديه، ومرفقاه على حقويه، جمعت ركبتاه على صدره وذقنه على رأس ركبتيه، وهو كشبه نائم، سرته متصلة بسرة أمه يمتص منها الغذاء، ووجهه إلى وجهها إن كان انثى وإلى ظهرها إن كان ذكراً. فتتوارد عليه تلك النقوش العجيبة والتصويرات الغريبة من غير خبر منها له وللرحم، ولا للأب والام، ولا يرى داخل النطفة أو الرحم ولا خارجهما نقاش يصل إليه أثر نقشه، فكأن الجنين بلسان حاله ينادى قلوب العارفين بنغمات تهيجها وترقصها: تصورونى في ظلمة الاحشاء مغموساً بدم الحيض، كيف يظهر التخطيط والتصوير على وجهى، فينقش النقاش اجفانى وحدقتى، ويصور المصور خدى وشفتى، ولا يزال يظهر عليّ نقش بعد نقش وصورة بعد صورة، ولا أرى نقاشاً ولا مصوراً، أو لا تتعجبون من هذا النقاش الذي لا يحتاج إلى تماس ومزاولة ولا يفتقر إلى آلة ومباشرة، أو لا تنتقلون من عجيب

صنعه إلى عظيم قدرته وجسيم عظمته، أو ليس لكم أعين بها تبصرون أو قلوب بها تفقهون، فكيف تنظرون إلى تكون اعضائى وعجائبها ولا تعتبرون؟!

فانظر الآن ـ يا حبيبى في نبذ من العجائب والحكم المودعة في بعض من هذه الأعضاء، فتأمل في (العظام) التي هي أجسام قوية صلبة كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة، وأحكمها وصلبها في الرحم بين المياه، مع أن صلابة المائع في الماء محال عادة، وجعلها قواماً ودعامة للبدن، ولذا صلبها وأحكمها لئلا تنكسر عند الحركات العنيفة، وقدرها مقادير مختلفة وشكلها على أشكال متفاوتة، ففيها صغير وكبير وطويل وقصير ومستقيم ومستدير ودقيق وعريض ومجوف ومصمت، على ما اقتضته الحكمة والمصلحة، ولما كان الانسان محتاجاً إلى الحركة، تارة بجملة بدنه، وتارة ببعض أعضائه، لم يخلقه من عظم واحد، بل جعل له عظاماً كثيرة بينها مفاصل، حتى تتيسر له الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه، وقدر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة بها، وما لم تكن فيه فائدة سوى كونه عماداً للبدن خلقه مصمتاً، وان جعل فيه المسام والخلل التي لا بد منها، وما يحتاج إليه للحركة ايضاً، زاد في تجويفه ليكون أخف، وجعل تجويفه في الوسط واحداً لئلا يحتاج في وصول الغذاء إليه إلى التجاويف والخلل المتفرقة، فيصير رخواً، بل صلبه مع تجويفه، لئلا ينكسر عند الحركات العنيفة، وما كانت الحاجة فيه إلى الوثاقة أشد جعل تجويفه أقل، وما كان الاحتياج فيه إلى الخفة أكثر جعل تجويفه أزيد، وجمع غذاءه وهو المخ في حشوه ليغذوه ويرطبه دائماً، لئلا يتفتت بتجفيف الحركة.

ثم وصل مفاصلها وربط بعضها بالبعض بأوتار أنبتها من أحد العظمين وألصقها بالآخر، كالرباط، وخلق في أحدهما زوائد خارجة منه وفي الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد، ليدخل فيها وينطبق عليها، ولذلك لو أراد الانسان أن يحرك جزأً من بدنه دون سائر اعضائه لم يتعسر عليه، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك.

ثم وسط بين العظام الصلبة واللحوم الرخوة (الغضاريف) وهي من العظم ألين ومن اللحم أصلب، ليحسن اتصال الصلب باللين، فلا يتأذى منه، خصوصاً عند الضربة والضغطة، وليحسن به مجاورة المفاصل المتحاكة، فلا تتراض لصلابتها.

ثم انظر ـ يا أخي ـ في (العروق) وما فيها من العجائب والحكم، فانها خلقت على نوعين: **(أحدهما)** الشرايين: وهي العروق الضوارب المتحركة، ومنبتها القلب. ولما كان القلب ينبوع الحياة ومنبع الروح والحرارة الغريزية خلقت هذه العروق مبتدأة منه منتشرة في سائر الأعضاء لإيصال الروح والحياة منه اليها، ولها حركتان، انقباضية يقبض بها الأبخرة الدخانية عن القلب، وانبساطية يجذب بها صافى النسيم اليه، ليستريح، ولولا هذا القبض والجذب لاختنق القلب بالبخار الدخانى، وخلقت ذات صفاقين لئلا تنشق بقوة حركتها ولئلا يتحلل ما فيها من الروح، وجعل الصفاق الداخر أصلب لأنه الملاقى لقوة الحرارة الغريزية ومصادمة حركة الروح، فاوجب الحكمة الإلهية زيادة إحكامها حفظاً لها عن الانشقاق، لقوة حركة الروح، وتقويةً لمحل الحرارة الغريزية، لئلا يتحلل شيء منها بتحلل محلها. وواحد من هذه الشرايين، ويسمى الشريان الوريدى، لما كان حاملا لغذاء الرية لأن غذاءها من القلب، فيغوص فيها ويصير شعباً، فخلق لذلك ذا صفاق واحد لئلا يزاحم بصلابته الرية لرخاوتها ولينها، مع عدم مصادمة لحمها له عند الحركة لكثرة لينه ورخاوته. فلم تكن حاجة إلى زيادة استحكامه، على أن الرية تحتاج إلى الغذاء على سبيل الترشح بسرعة وسهولة، وكثرة الصلابة منافية لذلك. و **(ثانيهما)** العروق الساكنة: وتسمى الأوردة، وشأنها جذب الغذاء من المعدة إلى الكبد ومنه إلى سائر الأعضاء وهي ذات صفاق واحد لأنها ساكنة، فلا يخشى انشقاقها. وجعل واحد منها ويسمى الوريد الشريانى ذا صفاقين لنفوذه في التجويف الأيمن من القلب، فكان اللازم زيادة وثاقته، لئلا يعتريه انشقاق بقوة حركة القلب وصلابته، وهو الذي يأتى بغذاء الرية

إلى القلب، وإذا خلص عن القلب وجاوزه يأخذ الشريان الوريدى منه الغذاء ويذهب به إلى الرية.

فانظر ـ يا أخى ـ إلى عجيب حكمة ربك، فان حامل غذاء الرية ما دام نافذاً في القلب ومصادماً لحركته خلق صلباً ذا صفاقين، وإذا خلص عنه إلى الرية التي لا تتحمل الصلب جعل رخواً ذا صفاق واحد، فسبحانه ما أجل شأنه وأعظم برهانه.

ثم تفكر أيها المتفكر في (الرأس) وعجيب خلقه، حيت ركّبه من عظام مختلفة الأشكال والصور، وألف بعضها إلى بعض حتى استوت كرة كما تراه، وجعله مجمع الحواس، ولذا جعله مستديراً، لان المستدير أبعد من الآفات بالقياس إلى ذى الزاوية، وأعظم مساحة منه مع تساوى احاطتهما، وجعل استدارته إلى طول، لأن منابت الأعصاب الدماغية موضوعة في الطول، فلو لم يتسع منبتها لازدحمت وانضغطت، وألف قحفه[١] من ستة أعظم: اثنان بمنزلة السقف وأربعة بمثابة الجدران، ووصل بعضها ببعض بالدروز والشؤن، وجعل الجدران أصلب من اليافوخ الذي هو السقف، لان الصدمات عليها أكثر، وتخلخل اليافوخ مما لا بد منه لخروج الابخرة المتحللة (وعدم ثقله على الدماغ)[٢] وفائدة الدروز أن تخرج منها الابخرة المتحللة في الدماغ لئلا يؤدى مكثها إلى الصداع وغيره من الامراض الدماغية، وجعل أصلب الجدران مؤخرها لانه غائب عن البصر فلا يحرسه فاحتاج إلى زيادة وثاقة.

وخلق فيها الدماغ ليناً دسماً، لتنطبع فيه المحسوسات بسهولة، ولتكون الاعصاب النابتة منه لزجة لئلا تنكسر، وجعل مزاجه رطباً بارداً لتنفعل القوى

---

(١) القحف: العظم فوق الدماغ وما انفلق مِن الجمجمة فبان قال في القاموس: «ولا يدعى قحفاً حتى يبين أو ينكسر منه شيء».

(٢) هذه الجملة مطابقة لنسختنا الخطية والمطبوعة، لكنها غير موجودة في النسخة الخطية الاخرى.

المودعة فيه عن مدركاتها. ولئلا يشتعل بالحرارة الحاصلة عن الحركات الفكرية، وجعل مقدمه الذي هو منبت الاعصاب الحسية ألين من مؤخره الذي هو منبت أعصاب الحركة، لان الحركة لا تحصل إلا بالقوة، والقوة إنما تحصل بالصلابة. ثم جلل الدماغ بغشاءين: (أحدهما) رقيق لين ملاصق لجوهره، و(ثانيهما) غليظ صلب ملاصق للقحف، وهو مثقب بثقب كثيرة لاندفاع الفضول منه، وانشعبت منه شعب دقاق تصعد من دروز القحف إلى ظاهره، ليتشبث بها هذا الغشاء بالقحف ولا ينفصل عنه، وجعل بين جزئى الدماغ المقدم والمؤخر حجاباً لطيفاً ليحجب عن مماسة الألين بالأصلب فيتأذى منه، وخلق تحت الدماغ بين الغشاء الغليظ والعظم نسيجة(١) شبيهة بالشباك، وقد تكونت من الشرايين الصاعدة من القلب والكبد إلى الدماغ، وقد فرشت هذه الشبكة تحت الدماغ، ليبرد فيها الدم الشرياني والروح، ويتشبه بالمزاج الدماغى بعد النضج، ثم يتخلص إلى الدماغ على التدريج، ولولاه لم يصلح الدم الكبدى والروح القلبى لكثرة حرارتهما لتغذية الدماغ، ولم يناسبا جوهره، وجعل الفرج التي بين فروع هذه الشريانات محشوة بلحم غددى لئلا تبقى خالية، ولتعتمد عليه تلك الفروع وتبقى على أوضاعها.

ثم لما كان الدماغ مبدأ الحسّ والحركة، ولم يكن لسائر الأعضاء حس وحركة بذاتها، وكان اللازم ايصالهما منه اليهما، ولم يكن ذلك ممكناً بدون واسطة في الايصال، فخلق (الأعصاب) من جوهره، ووصلها منه إلى سائر الأعضاء من العظام وغيرها، ليفيدها الدماغ بتوسطها حساً وحركة، وليشد ويتقوى بها اللحم والبدن، وأيضاً لم يجعلها متصلة بالعظم مفردة، بل بعد اختلاطها باللحم والرباط، لئلا يتأذى من صلابته.

(١) الموجود في نسختنا الخطية: «فسحة» بدل (نسيجة).

ثم لما كان نزول جميع الأعصاب التي يحتاج اليها من الدماغ موجباً لثقل الرأس وعظمه، خلق الله من جوهر الدماغ أشبه شيء به وهو (النخاع)، وجعل في أسفل القحف ثقباً وأخرجه منها، وخصه بالعنق والصلب، وأخرج منه كثيراً من الأعصاب المحتاج اليها إلى الأعضاء. فالدماغ بمنزلة العين والينبوع للحس والحركة، والنخاع بمثابة النهر العظيم الجارى منه، والأعصاب كالجداول. والمنبع ألين من النهر والنهر ألين من الجداول.

ثم انظر ـ يا حبيبى ـ كيف خلق (العين) وفتحها وأحسن شكلها ولونها وهيئتها، ورتّب لها سبع طبقات وثلاث رطوبات كل منها على شكل خاص ولون مخصوص، لو تغير شيء منها عما عليه لاختل أمر الابصار، وتأمل كيف أظهر في حدقتها التي بمقدار العدسة صورة السماء مع اتساع أكنافها وتباعد اقطارها، وحماها بالاجفان ليسترها ويحفظها ويصقلها، وجعلها وقاية لها يدفع بها الأقذاء عنها، ويمنعها عن وصول الغبار والدخان والشعاع اليها عند انطباقها، وجعل الجفن الأسفل أصغر من الأعلى، لأن الأعلى يستر الحدقة تارة ويكشفها أخرى لتحركه، وأما الأسفل فغير متحرك، فلو زيد على هذا القدر يستر شيئاً من الحدقة دائماً، ويجتمع فيه الفضول ولا تسيل.

ثم زين الأجفان بـ(الأهداب) ليمنع من الحدقة بعض الأشياء التي لا يمنعها الأجفان مع انفتاح العين ـ كما ترى عند هبوب الرياح التي يأتى بالأقذاء ـ فيفتح العين أدنى فتح، وتتصل الأهداب الفوقانية بالسفلانية، فيحصل شبه شباك ينظر من ورائه، فتحصل الرؤية مع دفع القذى.

ثم انظر كيف شق (الأذن) وأودعها ما يحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها، وجعل ثقبها محاطة بصدفة مرتفعة لئلا تتأذى من البرد والحر وغيرهما مما يؤذى، وليجتمع فيها الهواء المتحرك من الأصوات فينفذ فيها ويحرك الهواء الذي في داخلها ويموّجه

ـ كما ترى من دوائر الماء إذا وقع فيه شيء ـ حتى يصل إلى العصبة المفروشة على الصماخ التي فيها قوة السمع، فيدرك الصوت. وجعل في منفذها تجويفات واعوجاجات كثيرة لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقها، فيتنبه صاحبها إذا قصدته دابة مؤذية فيدفع شرها، وخلق فيها جرماً نتناً عفناً لتنفر عنه الدواب المؤذية ولا تدخلها.

ثم تأمل كيف زين الوجه بـ(الحاجبين) وحسنهما بدقة الشعر واستقواس الشكل.

وزين وجه الرجل بـ(اللحية) ووجه المرأة بعدمها، والمتأمل يعرف ان اللحية زين للرجل وشين للمرأة، وهذا من عجائب الحكمة.

وزين الوجه برفع (الأنف) من وسطه، وحسن شكله وفتح منخريه، وأودع فيهما حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته، وليستنشق الهواء الطيب الصافي، ويدفع الهواء الحار الدخاني، ترويحاً لقلبه، وجعل له منخرين لتميل الفضلات النازلة من الدماغ غالباً إلى أحدهما، ويبقى الآخر مفتوحاً، فلاتسدطرق الاستنشاق بأسرها.

ثم انظر إلى (الفم) وعجائبه وإلى اللسان وغرائبه، فانه سبحانه لعظيم قدرته وحكمته فتح الفم، وأودعه اللسان وجعله ناطقاً معرباً عما في القلب، ومكنه من التكلم باللغات المتخالفة وتقطيع الأصوات واخراج الحروف المتباينة، وجعل له قدرة على الحركة في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع طريق النطق بكثرتها. وخلق (الفكين) وركب فيهما الاسنان لتكون آلة للطحن والقطع والكسر، فاحكم اصولها، وحسن لونها، ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب، كالدرر المنظومة، مختلفه الاشكال باختلاف الاغراض والمقاصد، متفاوتة الاوضاع بتفاوت الغايات والفوائد ولما كان الطعام يحتاج تارة إلى الكسر وتارة إلى القطع

واخرى إلى الطحن، فقسّم الاضراس إلى عريضة طواحن كالأضراس، وإلى حادة قواطع كالرباعيات، وإلى ما يصلح للكسر كالانياب. والأضراس التي في الفك الاعلى لما كانت معلقة جعل أصولها ثلاثة أو اربعة، والتي في الفك الاسفل اكتفى في اصولها باثنين أو ثلاثة لعدم الاحتياج، وجعل لسائر الاسنان أصلاً واحداً لعدم ثقل فيها. ثم جعل مفصل (الفكين) متخلخلا بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الاعلى دوران الرحى، وهو ثابت لا يتحرك، فيتم الطحن بذلك. فانظر في عجيب صنع الله في هذه الرحى حيث يدور الاسفل منها على الأعلى على خلاف سائر الأرحية، لدوران الأعلى منها على الأسفل. والحكمة في تحرّك الأسفل دون الأعلى: أن الأعلى مجمع الدماغ والحواس، فتحركه كان موجباً لاذيتهما واضطرابهما، وايضاً هو مفصل الرأس والعنق، فلو تحرك لم يستحكم، مع أن الوثاقة فيه لازمة. ثم لما كان مضغ الطعام محتاجاً إلى تحركه فيما تحت الأسنان، فاعطى الله سبحانه قدرة اللسان على أن يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة. ولما كان الطعام يابساً فلم يمكن ابتلاعه إلا بنوع رطوبة، فخلق تحت اللسان عيناً جارية يفيض منها اللعاب وينصب بقدر الحاجة، حتى يعجن به الطعام ويقدر على ابتلاعه.

ثم تفكر كيف خلق (الحناجر) وهيأها لخروج الأصوات، وجعلها مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والطول والقصر وصلابة الجوهر ورخاوته، حتى اختلفت بها الأصوات، فلا يتشابه صوتان، بل يظهر به بين كل صوتين فرق حتى يميز السامع أصوات آحاد الناس بمجرد سماعها في الظلمة والغيبة.

ثم مد (العنق) وجعله مركباً للرأس، وكبه من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تجويفات وزيادات ونقصان، لينطبق البعض على البعض، ولما كان

أكثر منافعه في الحركة جعل مفاصله سلسة، ولم يجعل زوائدها المفصلية كبيرة كزوائد فقرات الصلب، لتكون حركاته أسرع، وتدارك تلك السلاسة بأعصاب وعضلات كثيرة محيطة به.

ثم انظر إلى عجائب (المعدة) وآلاتها التي يتم بها الاكل، فجعل سطح الفم متصلا بفم المعدة بحيث كأنهما سطح واحد، حتى يحصل أولاً نوع انهضام بالمضغ، ثم هيأ (المَرى)[١] والحنجرة، وجعل على رأسها طبقات تنفتح لاخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يهوى الطعام من دهليز المرى إلى المعدة، وإذا ورد عليها لا يصلح لان يصير عظماً ولحماً ودماً على هذه الهيئة، بل لا بد أن ينطبخ انطباخاً تاماً تتشابه أجزاؤه، فخلق الله المعدة على هيئة قدر يقع فيه الطعام وتنغلق عليه الأبواب، وخلق فيها حرارة صالحة للطبخ، ومع ذلك جعلها محاطة من جوانبها الأربعة بالحرارة المنبجسة من الكبد والطحال والثرب ولحم الصلب، فمن هذه الحرارات ينطبخ الطعام في المعدة وينهضم، حتى يصير كيلوساً[٢] أى جوهراً سيالا ليشبه ماء الكشك[٣] الثخين.

ثم خلق الله بعظيم حكمته ورأفته لإيصال صفو ماطبخ في المعدة إلى الكبد قسمين من العروق: **(أحدهما)** العروق المخلوقة في تحت المعدة المتصلة بالمعاء المسماة بـ(ماساريقا)[٤]، وجعل لها فوهات كثيرة لينصب لطيف المطبوخ فيها، و**(ثانيهما)** العرق المسمى بباب الكبد النافذ فيه بعد تفرقه بعروق شعرية ليفية منتشرة في اجزائة، وجعل الماساريقا متصلة بباب الكبد، فإذا انصب خالص

---

(١) هو الخرطوم المتصل بالاوداج الاربعة إلى الحنجرة.

(٢) كلمة يونانية، المراد منه هو الطعام المطبوخ في المعدة طبخاً ناقصاً.

(٣) ماء الكشك: هو ماء الشعير.

(٤) أي العروق تحت المعدة المتصلة بالمعاء. والكلمة يونانية.

الكيلوس في الماساريقا يوصله إلى باب الكبد، وينصب منه إلى العروق الليفية المتفرقة في جوهر الكبد، فتستولى قوة الكبد على هذا الكيلوس، بحيث يلاقى كله كله، ولذا يصير فعله فيه أشد وأسرع، فيمتصه ويجذبه إلى نفسه فيطبخه ويفيده الحرارة والحمرة، حتى ينصبغ بلون الدم، ومن هذا الطبخ يحصل شيء كالرغوة وهي (الصفراء)، وشيء كالدودى وهو (السوداء)، وشيء كبياض البيض وهو (البلغم)، وهو كما يتكون من هذا الطبخ يتكون من الطبخ الأول ايضاً، وقد يصير شيء من هذا البلغم إلى الكبد مع عصارة الطعام، ويبقى المتصفى من هذه الجملة دماً ناضجاً ذا رطوبة مائية منتشرة في العروق الشعرية، فلو بقيت الصفراء والسوداء والبلغم والمائية مختلطة بالدم ولم تنفصل عنه لفسد مزاج البدن، فخلق الله بحكمته الكليتين والمرارة والطحال، وجعل لكل منهما عنقاً ممدوداً في الكبد، وجعل عنقى الآخرين داخلا في تجويف الكبد، ولم يجعل عنقى الكليتين داخلا في تجويفه، بل جعلهما متصلين بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتى يجذبا مائيته بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد، إذ لو اجتذبت قبل ذلك لغلظت ولم تخرج بسهولة عن العروق الدقيقة الشعرية.

ثم إذا انجذبت المائية من جانب محدّب الكبد من طريق العروق الطالعة منه إلى الكليتين، حملت مع نفسها من الدم ما يكون صالحاً كمّاً وكيفاً لغذائهما فتغذوان الدسومة والدموية من تلك المائية، ويندفع باقيها إلى المثانة، ومنها إلى الاحليل. وأما (المرارة) فتأخذ الرغوة الصفراوية من محدب الكبد بعنقها الذي اتصل بالكبد، وتقذفها من منفذ آخر لها إلى الأمعاء، ليلذعها بحدتها فتحركها على دفع الأثقال التي بقيت من الكيلوس بعد ذهاب صفوه إلى الكبد، فينضغط حتى تندفع منها الأثقال، وبخروجها تخرج تلك الرغوة الصفراوية، وصفرتها لذلك. وأما (الطحال) فيأخذ بعنقه المتصل بمحدب الكبد منه الرسوب السوداوى ويحيله حتى يكتسب قبضاً

وحموضة، ثم يرسل منه في كل يوم شيئاً إلى فم المعدة لتتنبه بالجوع، فيحرك الشهوة بحموضته وقبضه، ثم يخرج بخروج الثقل ايضاً. وأما (الدم) فيتوجه إلى الأعضاء ويتوزع عليها في شعب العرق الأجوف العظيم النابت من محدب الكبد، فيسلك في الأوردة المتشعبة منه في جداول، ثم في سواقى الجداول، ثم في رواضع السواقى، ثم في العروق الشعرية الليفية، ثم يترشح من فوهاتها في الأعضاء بتقدير خالق الأرض والسماء.

ومما ذكر ظهر أنه لو حدث بواحد من المرارة والطحال والكليتين آفة، فسد الدم وحصلت امراض الخلط الذي يجذبه من الكبد، فلو عرضت آفة بالمرارة حدثت الأمراض الصفراوية، ولو حلت آفة بالطحال حصلت امراض سوداوية، ولو لم تندفع المائية إلى الكلى بعروض آفة لها حصل مرض الاستسقاء.

وأما (البلغم) فما يتكون في الكبد أو يصير إليه مع عصارة الطعام انهضم فيه وصار دماً، وما بقى منه في الأمعاء ولم ينحدر إلى الكبد انغسل بمرة الصفراء التي شأنها تنقية الأمعاء من الفضول بحرافتها وحدتها وسيلانها، ومن البلغم ما يبقى في البدن لاحتياجه إليه في حركة المفاصل وترطيب الأمعاء، ومنه ما يخرج من الفم بالقيء والبصاق أو ينحدر من الرأس إلى الفم ويخرج منه بالتنخع.

ثم انظر ـ يا أخي ـ في (القلب) وعجائبه، حيث خلقه جسما صنوبرياً وجعله منبعاً لروح الحياة، ولذا خلقه صلباً ليكون محفوظاً من الواردات، وجعل هذا الروح جرماً حاراً لطيفاً نورانياً شفافاً، وجعله مطية للنفس وقواها، وأناط به حياة الانسان وبقاءه، فيبقى ببقائه ويفنى فكل عضو يفيض عليه من سلطان نوره يكون حياً، وإلا كان ميتاً، ولذا لو حصل بعضو سدة مانعة من نفوذه فيه بطل حسه وحركته. ويتوزع هذا الروح من القلب الذي هو منبعه إلى سائر الأعضاء العالية والسافلة، بوساطة سفراء الشرايين والأوردة. فما يصعد منه إلى الدماغ بأيدى خوادم الشرايين،

ويعتدل بكسب البرودة من جوهر الدماغ، ثم يفيض على الأعضاء المدركة والمتحركة منبثاً في جميع البدن، يسمى (روحاً نفسانياً). وما ينزل بصحابة أمناء الأوردة إلى الكبد الذي هو مبدأ القوى النباتية، ومنه يتفرق إلى سائر الأعضاء، يسمى (روحاً طبيعياً). وقد خلق الله سبحانه هذا الروح من لطائف الأمشاج الأربعة، كما خلق الأعضاء من كثائفها. وهذا الروح مثاله جرم نار السراج، والقلب الذي محله كالمسرجة له، والدم الأسود الذي في باطن القلب ويتكون هذا البخار اللطيف منه بمنزلة الفتيلة له، والغذاء له كالزيت، والحياة الظاهرة في جميع أجزاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت، كما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ، فسراج الروح ايضاً ينطفىء مهما انقطع غذاؤه، وكما أن الفتيلة قد تحترق وتصير رماداً بحيث لا تقبل الزيت، فكذلك الدم الأسود الذي في باطن القلب قد يحترق بحيث لا يقبل الغذاء الذي تبقى الروح به، كما لا يقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به، وكما أن السراج ينطفىء تارة بسبب من داخل ـ كما ذكرنا ـ وتارة بسبب من خارج، كهبوب ريح أو إطفاء انسان، فكذلك إنطفاء الروح تارة يكون بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج، كالقتل، وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده كذلك إنطفاء الروح هو منتهى وقت وجود الانسان، وهو أجله الذي أجّل له في أم الكتاب. وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله كذلك الروح إذا إنطفأ أظلم البدن كله، وفارقته أنواره التي كان يستفيدها من الروح، وهي أنوار الاحساسات والقدرة والارادات وسائر ما يجمعها معنى الحياة.

ثم انظر ـ يا حبيبي ـ إن كنت من أهل اليقظة في (اليدين) وحكمتهما، حيث طوّلهما لتمتدا إلى المقاصد، وعرّض الكف ووضع عليها الأصابع الخمس، وقسم كل اصبع بثلاث أنامل، وجعل الابهام في جانب، والبواقي في جانب، ليدور عليها، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع

الاصابع سوى ما وضعت عليه من بُعد الابهام من الأربع وترتبها في صف واحد وتفاوتها في الطول والقصر، على أن يكون هذا الوجه أزين وأصلح منه أو مثله وشبهه في الزينة والمصلحة لم يقدروا عليه، إذ بهذا الترتيب صلحت للقبض والاعطاء، فان بسطتها كانت لك طبقاً تضع عليها ما تريد، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب، وإن نشرتها ثم ضممتها كانت آلة للقبض، وإن ضممتها ضما غير تام كانت لك مغرفة، وإن وضعت الابهام على السبابة كانت لك مخرقة، وإن بسطت الكف مع اتصال الأصابع كانت لك مجرفة وإن بسطت الكف وجمعت عليها الاصابع كانت لك محرزة، إلى غير ذلك من المنافع.

ثم خلق (الأظفار) على رؤسها، زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها، حتى لا تنفت، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل، وليحك بها بدنه عند الحاجة، فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الانسان وحدثت به حكة لكان أضعف الخلق واعجزهم، ثم هدى (اليد) إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في حالة النوم والغفلة، من غير حاجة إلى فحص وطلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك.

ثم خلق (الرجلين) مركبتين من الفخذ والساق والقدم، كل منها على شكل خاص وتركيب خاص، ليتحرك بهما الانسان إلى أى موضع أراد، ولو تغير شيء من الشكل أو الوضع أو التركيب في جزء من أجزائهما لاختل أمر الحركة، ووضع عليهما جملة البدن وجعلهما دعامة وأساساً له وحاملين لثقله، مع خفتهما وصغر جثتهما بالنسبة اليه، إذ حسن التركيب وسهولة الحمل والحركة في مثل هذا الخلق لا يتصور بدون ذلك. فانظر في عجيب حكمة ربك حيث جعل الأخف والأدق والأصغر أساساً وحاملا للأثقل والأغلظ والأكبر، مع أن كل بناء يكون أساسه أكبر وأغلظ مما يبنى عليه، وكل حامل يكون أعظم جثة من المحمول، فسبحانه من خالق لا نهاية

لعجائب حكمته وغرائب قدرته.

ثم خلق جميع ذلك من النطفة في جوف الرحم في ظلمات ثلاث، ولو كشف عنها الغطاء وامتد اليها البصر، لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً، ولا يرى المصور ولا آلته، فسبحانه من مصور فاعل يتصرف في مصنوعه من دون احتياج إلى مباشرة آلة ولا افتقار إلى مكادحة عمل.

تذنيب

ثم تأمل - أيها المتأمل - في عجائب حكم ربك: إنه لما كبر الصبى وضاق عنه الرحم كيف هداه السبيل إلى الخروج حتى تنكس وتحرك، وخرج من ذلك المضيق كأنه عاقل بصير، ولما خرج وكان محتاجاً إلى الغذاء ولم يتحمل بدنه الأغذية الكثيفة للينه ورخاوته خلق له اللبن اللطيف، واستخرجه من بين الفرث والدم، خالصاً سائغاً، وخلق الثديين وجمع فيهما هذا اللبن، وأنبت منهما الحلمة على قدر ما ينطبق فم الصبى، وهداه إلى التقامها، وفتح فيها ثقباً ضيقة جداً، حتى لا يخرج اللبن إلا بعد المص تدريجاً، لأن الطفل لا يطيق منه إلا القليل، ثم هداه إلى الامتصاص حتى يستخرج من مثل هذا المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع، وأخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين، لأنه لا يحتاج فيهما اليها باللبن، وما دام مغتذيا به لما كان في دماغه رطوبة كثيرة سلط عليه البكاء، لتسيل به تلك الرطوبة، فلا تنزل إلى بصره أو إلى غيره من أعضائه فتفسده، ثم لما كبر ولم يوافقه اللبن الخفيف وافتقر إلى الأغذية الغليظة المحتاجة إلى المضغ والطحن أنبت له الأسنان عند الحاجة من دون تقديم وتأخير، وحنن عليه قلوب الوالدين بالقيام على تربيته وتكفل حاله ما دام عاجزاً عن تدبير نفسه.

ثم رزقه الادراك والفهم والقدرة والعقل على التدريج حتى بلغ ما بلغ، وأودع

في نفسه المجردة وقواها الباطنة أسراراً عجيبة تحير طوامح العقول وتدهش منها ثواقب الأنظار والفهوم. فانظر إلى قوة الخيال بعرضيتها الغير المنقسمة كيف تطوى السماء والأرض وتتحرك من المغرب إلى المشرق في آن واحد، وإلى قوة الوهم كيف تستنبط كثرة المعانى الجزئية في لحظة واحدة، وتأخذها من حواق الأشياء، وإلى المتخيلة كيف تركب بعضها بالبعض وتأخذ منها ما فيه الصلاح والرشاد في أمر المعاش والمعاد.

ثم انظر في عجائب النفس وعالمها: من إحاطتها بالبدن كله وتدبيرها له، مع تنزهها عن صقع المكان واتصافها بالعلم والقدرة وسائر الصفات الكمالية، وتمكنها من الاحاطة على حقائق الأشياء بأسرها، وتصرفها في الملك والملكوت بقوتها العقلية والعملية، ومع ذلك عاجزة عن معرفة ذاتها وحقيقتها، ومن تطوراتها في الأطوار المختلفة، وتقلبها في النشآت المتباينة، وترقياتها بحسب درجاتها ومقاماتها، من لدن تعلقها بالنطفة القذرة إلى صيرورتها عالماً ربانياً محيطاً بحقائق الأشياء متصلا بالملكوت الاعلى، ومن اجتماع عوالم السباع والبهائم والملائكة والشياطين فيه(١)، واطاعة جميع الموجودات له، حتى السباع تخضع لديه والطيور تخفض أجنحة الذل بين يديه، ويستخدم الجن ويسخر الكواكب وروحانيتها، ومن عجائب عالمه الطبع الموزون والصوت الحسن، وعلمه بصناعة الموسيقى، واستنباطه أنواع الصنائع من الارض، وقد يتعدى إلى عالم العجيبة والحرف الغريبة.

ومنها أمر الرؤيا واخباره بالمغيبات لاتصاله بالجواهر الروحانية، وتأثيره في مواد الأكوان بنزع صورة وإلباس اخرى، فيؤثر بانقطاعه إلى الله في استحالة الهواء إلى الغيم ونزول الأمطار، وإزالة انواع الأمراض، وإهلاك قوم وإنجائهم، وتمكنه من فعل

(١) تذكير الضمير هنا وفيما يأتى باعتبار الانسان، وتقدم مثله صفحة (٢٦).

أو تحريك يخرج عن وسع مثله، وإمساكه عن القوت مدة غير معتادة، واقتداره على اظهار بدنه المثالي في مواضع مختلفة في وقت واحد، واحضاره ما يريده من المطاعم والملابس، ومصاحبته مع الملائكة وأخذ العلوم منهم. فانظر ـ يا أخي ـ إن كنت من أهل اليقظة إلى قدرة ربك العظيم حيث أودع جميع ذلك فيما عرفت حاله من النطفة السخيفة القذرة، وهذه النطفة هي التي قد تصير ملكاً شديد الهمة والبطش مسخراً للربع المسكون، بحيث ينوط به انتظام النوع واختلاله، وقد يصير بحيث تظهر منه خوارق العادات وغرائب المعجزات في عالم الأرض، وقد يتعدى إلى عالم الافلاك، فينشق القمر ويرد الشمس.

وليت شعري ان الناس كيف يتعجبون من صيرورة الميت حياً، مع انه جثته كانت موجودة وإنما أفيض عليه مجرد حس وحركة، ولا يتعجبون من بلوغ قطرة ماء قذرة إلى المراتب التي عرفتها. وليس المنشأ لذلك إلا كثرة مشاهدتهم وتكرر ملاحظتهم له، مع أن هذا لا يدفع العجب والغرابة لو نظروا بعين العبرة والبصيرة، إذ منشأهما إما عظم الصنع وحسن الابداع، فهما في بلوغ النطفة إلى المراتب المذكورة أقوى وأشد من احياء ميت، أو دلالة هذا الصنع والفعل على صانع حكيم وفاعل عليم، فلا ريب أيضاً في أن دلالة الأول على ذلك أشد من دلالة الثانى عليه، إذ كل من رزق أدنى حظ من البصيرة يعلم ان بلوغ قطرة ماء قذرة إلى المراتب المذكورة ليس إلا من قدرة قادر حكيم وصنع صانع عليم. أو من حدوث الفعل من دون مشاهدة سبب مباشر، فهذا في امر النطفة أظهر، وعلى أى تقدير كان يكون التعجب والغرابة في بلوغ النطفة السخيفة القذرة إلى المراتب المذكورة أشد وأحرى من التعجب في احياء ميت أو إبراء أكمه أو أبرص أو تكلم حيوان أو نبات أو جماد أو غير ذلك من خوارق العادات وغرائب المعجزات، فالنظر الذي لا يقتضى منه العجب إنما هو نظرة حمقاء لم ينشأ عن حقيقة الرؤية والاتقان ولم يصدر عن ذى

قلب يقظان. وبالجملة: الحكم والعجائب المودعة في النشأة الانسانية اكثر من أن تحصى، وإنما اشرنا إلى نبذة قليلة منها تبصرة لمن استبصر، وتنبيهاً على كيفية التفكر في سائر مجارى الفكر والنظر. قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «إن الصورة الانسانية أكبر حجة لله على خلقه، وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي مجموع صور العالمين، وهي المختصر من العلوم في اللوح المحفوظ، وهي الشاهد على كل غائب، وهي الحجة على كل جاحد، وهي الطريق المستقيم إلى كل خير، وهي الصراط الممدود بين الجنة والنار».

وإذ عرفت نبذاً من عجائب نفسك وبدنك، فقس عليه عجائب الارض التي هي مقرك: بوهادها، وتلالها، وسهلها، وجبالها، واشجارها، وانهارها، وبحارها، وازهارها، وبرارها، وعمارها، ومدنها، وامصارها، ومعادنها، وجمادها، وحيوانها، ونباتها، فان كل ما نظرت إليه منها لو تأملته لوجدته مشتملا على غرائب حكم لا تعد وعجائب مصالح لا تحد، ولرأيته آية باهرة على عظمة مبدعه وحجة قاطعة على جلالة موجده.

فانظر ـ أولاً ـ إلى (رواسى الجبال) وشوامخ الصم الصلاب، كيف أحكم بها جوانب الأرض وأودع المياه تحتها، فانفجرت من هذه الاحجار اليابسة والتربة الكدرة مياه عذبة صافية، وأودع فيها الجواهر النفيسة العالية، وهدى الناس إلى استخراجها واستعمالها فيما ينبغي، وخلق في الأرض معادن يحتاج اليها نوع الانسان، ولو فقد واحداً منها لم يتم انتظامه، ولم يترك معمورة لم يكن في قربها هذه المعادن، وجعل ما يكون الاحتياج إليه أشد وأكثر اعمّ وجوداً وأقرب مسافة، كالملح ومثله.

ثم انظر إلى (انواع النبات) بكثرتها واختلافها في الاشكال والألوان والطعوم والروائح والخواص والمنافع، فهذا يغذى، وهذا يقوى، وهذا يقتل، وهذا يحيى،

وهذا يسخن، وهذا يبرد، وهذا يجفف، وهذا يرطب، وهذا يسهر، وهذا ينوم، وهذا يحزن، وهذا يفرح... إلى غير ذلك من المنافع المختلفة والفوائد المتباينة، مع اشتراكها في السقى من ماء واحد، والخروج من أرض واحدة. (فان قلت): اختلافها لاختلاف بذورها، (قلنا): متى كانت في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب؟ ومتى كانت في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة؟ وانظر إلى كل شجر ونبت إذا أنزل عليها الماء كيف يهتز ويربو ويخضر وينمو بجميع أجزائه من الأصول والأغصان والأوراق والأثمار على نسبة واحدة، من غير زيادة لجزء على آخر، لوصول الماء اليها على نسبة واحدة وقسمته عليها بالسوية، فمن هذا القاسم العدل في فعل ما ليس له شعور ولا إدراك؟ فتباً لأقوام يسندون هذه الحكم المتقنة الظاهرة والمصالح المحكمة الباهرة إلى ما لا خبر له بوجوده وذاته ولا بافعاله وصفاته!

ثم انظر إلى (انواع الحيوانات) وأصنافها وكثرتها واختلافها: من الطيور والوحوش والسباع والبهائم، كيف هدى الله كل واحد منها إلى ترتيب المنزل وتحصيل القوت، وجعل ما لا يتم معاش الانسان بدونه من الأنعام والبهائم مأنوساً به غير متوحش عنه، وغيره وحشياً عنه غير ألف به، وجعل في كل منها من عجائب الحكم وغرائب المصالح ما تتحير منه العقول، فمن ذا الذي يقدر أن يحيط بعجائب خلق العنكبوت والنحلة ـ بل البقة والنملة ـ وغرائب أفعالها مع كونها من صغار الحيوانات، من وضع منازلها وجمع أقواتها وادخارها لنفسها وهدايتها إلى حوائجها؟ فأى مهندس يقدر على رسم بيوت النحل والعنكبوت على هذا التناسب الهندسى؟ وانظر كيف جعل العنكبوت بيته شبكة ليصيد بها البق والذباب. وبالجملة: كل شخص من الحيوان أودع فيه من العجائب ما لا يمكن وصفه، وكل احد انما يدرك قدر ما يصل إليه فهمه.

ثم انتقل من عالم الارض إلى (عالم البحر) وعجائبه من الحيوانات والجواهر

والنفائس، فان العجائب المودعة فيه أضعاف عجائب الارض، كما أن سعته أضعاف سعته، وكل حيوان يوجد في الارض يوجد فيه، وفيه حيوانات أخر ليس لها نظير في البر أصلاً، وقد يوجد فيه من الحيوانات ما عظمه بقدر جزيرة عظيمة، وكثيراً ما ينزل الركبان عليه فيتحرك. ومن عجائبه خلق اللؤلؤ في صدفه تحت الماء، وإنبات المرجان من صم الصخور تحته، مع كونه على هيئة شجرة ثابتة نامية... وقس عليه الغير وسائر النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه. وبالجملة: عجائب البحر أضعاف عجائب البر، وقد صنف جماعة فيها مجلدات من الكتب، ومع ذلك لم يأتوا إلا باليسير، ولم يذكروا إلا قليلاً من كثير.

ثم انتقل إلى (عالم الجو) وعجائبه، من السحب والغيوم والأمطار والثلوج والشهب والبروق والصواعق والرعود. فانظر إلى السحاب الخفيف مع رخاوته كيف يحمل الماء الثقيل ويسكن في جو صاف لا يتحرك، إلا أن يأذن الله سبحانه في ارساله الماء، وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي شاء وأراد، فينزل قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها أخرى، ولا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم، حتى يصيب الأرض قطرة قطرة، وعين كل قطرة لجزء من الأرض أو قوتاً لحيوان معين، ولو كنت ـ يا حبيبى ـ ذا قلب لشاهدت في كل قطرة خطاً إلهياً مكتوباً بقلم إلهى: إنه يصيب الجزء الفلانى من الأرض، أو رزق للحيوان الفلانى في الموضع الفلانى.

ثم ارفع رأسك إلى هذا (السقف الأخضر) قائلا: سبحانك! ما خلقت هذا باطلا. وانظر إلى هذه الاجرام النورية وعجائبها، واصرف برهة من وقتك في الفحص عن حقائق غرائبها: من الشمس واضاءتها عالم الأكوان، والقمر واختلاف تشكلاته في الزيادة والنقصان، وسائر الانجم الدائرة، والكواكب الثابتة والسائرة، واختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها وأوضاعها، وتفاوت مشارقها ومغاربها، وتباين منازلها ومواضعها، واجتماعها واتصالها، وتفرقها وانفصالها، وطلوعها وأفولها، وكسوفها

وخسوفها، وانتظام حركاتها واتساق دورانها، وحسن وضعها وترتيبها وعجيب نضدها وترصيعها، بحيث حصل من كيفية نضدها ووضعها صور جميع الحيوانات: من العقرب والحمل والثور والجدى والانسان والحوت والسرطان، بل صور غير الحيوان: من السنبلة والميزان والقوس والدلو وغير ذلك، حتى ما من صورة في الأرض إلا ولها تمثال في السماء، أيظن عاقل أن وضع هذه الكواكب على هذه الصورة واختلاف بعضها في اللون: ككمودة زحل، وحمرة المريخ، وقلب العقرب، وصفرة عطارد، ورصاصية الزهرة والمشترى، بمجرد الاتفاق، وليس لخالقها في ذلك حكمة ومصلحة؟ فما أشد جهلاً وحمقاً من توهم ذلك!

ثم انظر إلى حركة (الشمس) يسير فلكها وإتمامها الدور بهذا السير في سنة، وبه تقرب من وسط السماء وتبعد عنه، وبسير آخر تطلع وتغرب في كل يوم، وتتم الدور بيوم وليلة، فلولا سيرها الأول الموجب لغاية قربها إلى وسط السماء مدة، وغاية بعدها عنه تارة، وتوسطها بين الغايتين مرتين، لم تحصل الفصول الأربعة الموجبة لنشو النباتات والثمار ونضجها وبلوغها إلى غاياتها المطلوبة، ولولا سيرها الثانى لم يختلف الليل والنهار، فلم يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة، ولم تعرف المواقيت من الشهور والأعوام والساعات والأيام. وتأمل في أنه لو لم تكن السماوات مستديرة وحركاتها دورية، لم يتم شيء من الفوائد والحكم المطلوبة من الحركة والزمان وما ارتبط بها من امور العالم السفلى.

ثم انظر إلى عظم اقدار هذه الأجرام السماوية، حتى لا قدر لجميع العوالم السفلية من الأرض والبحار وعالم الجو بالنسبة اليها، فلا يمكن ان يقال جميع ذلك بالنسبة اليها، بل بالنسبة إلى فلك الشمس فقط ـ مثلا ـ كنسبة قطرة إلى البحر المحيط، وقد قال المهندسون: إن جرم كوكب الشمس فقط مائة ونيف وستون ضعف الأرض بجميعها، بل قال بعضهم أكثر من ذلك، ومع ذلك بينوا ان ثخن فلك

المريخ ثلاثة أمثال غلظ فلك الشمس، مع ما فيه من أفلاك الزهرة وعطارد والقمر والعناصر الأربعة، ثم أصغر كوكب تراه في السماء هو مثل جميع الأرض ثماني مرات، وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مثلا للأرض.

ثم انظر مع هذا العظم إلى سرعة حركتها وخفتها، فإن شدة سرعة حركتها مما لا يمكن دركها، إلا انك لا تشك في أن كل جزء من الفلك في لحظة يسيرة يسير مقدار عرض كوكب، والزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه في غاية القلة. وقد علمت أن هذا الكوكب إما مثل الأرض مائة ونيف وستين مرة أو أكثر أو مائة وعشرين مرة أو مائة مرة، والأقل قدراً أن يكون مثلها ثماني مرات، فقد دار كل جزء من الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة وسبعين مرة أو مائة وعشرين مرة. وقد عبر روح الأمين عليه السلام عن سرعة حركة الفلك، إذ قال سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم: «هل زالت الشمس؟» قال: لا. نعم! فقال له: «كيف تقول لا. نعم!» فقال: من حيث قلت: لا، إلى أن قلت نعم، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام.

فتيقظ ـ يا أخي ـ من نوم الطبيعة، وتأمل من الذي حرك هذه الأجسام الثقيلة العظيمة بهذه الحركة السريعة الخفيفة، وأدخل صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين بصغرها، وتفكر من ذا الذي سخرها وأدار رحاها، فقل: (بسم الله مجرٰيها ومرسٰيها)، ولو نظرت اليها بعين البصيرة، لعلمت انها عباد طائعون خاضعون، وعشاق إلهيون والهون، وبإشارة من ربهم إلى يوم القيامة رقّاصون دائرون.

وبالجملة: لو نظرت بعين العبرة في ذرات الوجود لا تجد ذرّة من ملكوت السماوات والأرض إلا وفيها غرائب حكمة يكل البيان عن وصفها، ولو كان لك قلب وألقيت السمع وأنت شهيد، لعلمت أن جميع ذرات الكائنات شواهد ظاهرة وآيات متظافرة على عظمة ربك الأعلى، وما من ذرة إلا وهي بلسان حالها ناطقة وعن جلالة بارئها مفصحة، قائلة لأصحاب الشهود بحركاتها وسكناتها، ومنادية لأرباب القلوب

بنغماتها: أو ما تنظرون إلى خلقى وتكوينى وتصويرى وتركيبى واختلاف صفاتى وحالاتى وتحولى في أطوارى وتقلباتى؟ أو لا تشاهدون كثرة فوائدى ومنافعى وغرائب حكمى ومصالحى؟ أتظنون أنى تكونت بنفسى أو خلقنى أحد من جنسى؟ أو تستحيون تنظرون في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف، فتجزمون أنها صنعة آدمى مريد عالم ومتكلم قادر، ثم تنظرون إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهى والعجائب الربانية المودعة في باطنى وظاهرى، ومع ذلك عن عظمة ربى غافلون وعن علمه وحكمته ذاهلون؟!

(تتميم)

قد دريت اجمالا أن التفكر النافع محصور بين التفكر في صفات الله وعجائب أفعاله، والتفكر في ما يقرب العبد إلى الله ليفعله وفيما يبعده عنه ليتركه. وغير ذلك من الأفكار ليس نافعاً ولا متعلقاً بالدين. مثال ذلك: أن حال السائر إلى الله الطالب للقائه، كحال العاشق المستهتر، فكما أن تفكره لا يتجاوز عن التفكر في معشوقه وجماله وفي صفاته وافعاله وفي افعال نفسه التي تقربه منه وتحببه إليه ليتصف بها، أو التي تبعده عنه وتسقطه عن عينه ليتنزه عنها، ولو تفكر في غير ذلك كان ناقص العشق،كذلك المحب الخالص لله ينبغي ان يحصر فكره في الله وفي صفاته وأفعاله وفيما يقربه منه ويحببه إليه أو يبعده عنه، ولو تفكر في غير ذلك كان كاذبا فيما يدعيه من الشوق والحب.

ثم التفكر في ذات الله، بل في بعض صفاته مما لا يجوز، وقد منعته الشريعة الحقة الإلهية والحكمة المتعالية الحقيقية، لأن ذاته أجل من أن تكون مرقى لأقدام الافهام، أو مرمى لسهام الأوهام، فطرح النظر إليه يورث اختلاط الذهن والحيرة، وجولان الفكر فيه يوجب اضطراب العقل والدهشة، وبعض الصديقين المتجردين

عن جلباب البدن لو اطاقوا إليه مد البصر فانما هو كالبرق الخاطف، ولو تجاوزوا عن ذلك لاحترقوا من سبحات وجهه. وحال الصديقين في ذلك كحال الانسان في النظر إلى الشمس، فانه وإن قدر على مد البصر اليها، إلا أن ادامته يورث الضعف والعمش، بل لا مشابهة بين الحالين، وانما هو مجرد تقريب وتفهيم، فان المناسبة بين نور الشمس ونور البصر في الجملة ثابتة، وأين مثل هذه المناسبة بين نور البصر ونور الانوار القاهر على كل نور بالاحاطة والغلبة، وما من نور إلا وهو منبجس من نوره ومترشح عن ظهوره، فكل نور في مرتبة نوره زائل، وكل ظهور في جنب ظهوره وشروقه مضمحل باطل.

ولما كان التفكر في ذاته تعالى مذموماً، فانحصر التفكر الممدوح في التفكر في عجائب صنعه وبدائع خلقه ـ وقد تقدم ـ وفي ما يقرب العبد إلى الله من الفضائل الخلقية والطاعات العضوية، وما يبعده عنه من الملكات الباطنة والمعاصي الظاهرة. وهذه الملكات والأفعال هي المعبر عنها بالمنجيات والمهلكات والطاعات والسيئات التي تذكر في هذا الكتاب وفي غيره من كتب الاخلاق، والمراد بالتفكر فيها ههنا أن يتفكر العبد في كل يوم وليلة في وقت واحد أو أوقات متعددة في أخلاقه الباطنة وأعماله الظاهرة، ويتفحص عن حال قلبه وأعضائه، فإن وجد قلبه مستقيما على جادة العدالة متصفاً بجميع الفضائل الخلقية ومجتنباً عن الرذائل الباطنة، ووجد أعضاءه ملازمة للطاعات والعبادات المتعلقة بها تاركة للمعاصي المنسوبة اليها، فليشكر الله على عظيم توفيقه، وإن وجد في قلبه شيئاً من الرذائل أو رآه خالياً عن بعض الفضائل، فليبادر إلى العلاج بالقوانين المقررة، بعد التفكر في سوء خاتمته وادائه إلى مقت الله وهلاكه، وكذلك إن عثر بالتفكر على صدور معصية أو ترك طاعة منه فليتداركه بالندم والتوبة وقضاء تلك الطاعة.

ولا ريب في أن هذا القسم من التفكر له مجال متسع والقدر الضروري منه

يستغرق اليوم بليلته، والاستقصاء فيه خارج عن حيطة شهر وسنة، إذ اللازم منه أن يتفكر في كل يوم وليلة في كل واحد من الملكات المهلكة: من البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحقد، والحسد، والجبن، وشدة الغضب، والحرص والطمع وشره الطعام والوقاع، وحب المال، وحب الجاه، والنفاق، وسوء الظن، والغفلة، والغرور... وغير ذلك. وينظر بنور الفكرة والبصيرة في زوايا قلبه، ويتفقد منها هذه الصفات، فان وجدها بظنه خالية عنها، فليتفكر في كيفية امتحان القلب والاستشهاد بالعلامات الدالة على البراءة اليقينية، فان النفس قد تُلبس الأمر على صاحبها: فإن ادعت البراءة من الكبر، فينبغي أن يمتحن بحمل قربة ماء أو حزمة حطب في السوق، فان ادعت البراءة من الغضب فليجرب بايقاعها في معرض اهانة السفهاء، وهكذا فليمتحن في غيرهما من الصفات بالامتحانات التي كان الأولون والسلف الصالحون يجربون بها انفسهم، حتى يطمئن بانقطاع اصولها وفروعها من قلبه. ولو وجد بالامتحان أو تصريح المشاهدة والعيان شيئاً منها في قلبه، فليتفكر في كيفية الخلاص من المعالجة بالضد أو بالموعظة والنصيحة والتوبيخ والملامة، أو ملازمة أولى الأخلاق الفاضلة ومجالسة اصحاب الورع والتقوى، أو بالرياضة والمجاهدة وغير ذلك. فان نفع شيء منها في الازالة بالسهولة فليحمد الله على ذلك، وإلا فليواظب على هذه المعالجات وتكررها حتى يوفقه الله للخلاص بمقتضى وعده.

ثم يتفكر في كل واحد من الفضائل المنجية: كاليقين، والتوكل، والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والشجاعة والسخاء، والزهد والورع، والاخلاص في العمل، وستر العيوب، والندم على الذنوب، وحسن الخلق مع الخلق، وحبّ الله والخشوع له... وغير ذلك، فان وجد قلبه متصفاً بالجميع فليجربه بالعاملات حتى يطمئن من تلبيس النفس ـ كما علمت طريقه ـ وإن وجد قلبه خالياً من شيء منها فليتفكر في طريق تحصيله ـ كما أشير

اليه ـ ثم يتوجه إلى كل واحد من أعضائه ويتفكر في المعاصي المتعلقة به، مثل أن ينظر في لسانه، ويتفكر في أنه هل صدر منه شيء من الغيبة، أو الكذب، أو الفحش، أو فضول الكلام، أو النميمة، أو الثناء على النفس، أو غير ذلك. ثم ينظر في سمعه، ويتفكر في أنه هل سمع شيئاً من ذلك. ثم ينظر في بطنه هل عصى الله بأكل حرام أو شبهة، أو كثرة مانعة عن صفاء النفس وغير ذلك... وهكذا يفعل فى كل عضوٍ عضوٍ.

ثم يتفكر في الطاعات المتعلقة بكل واحد منها وفيما خلق هذا العضو لأجله من الفرائض والنوافل، فإن وجد ـ بعد التفكر ـ عدم صدور شيء من المعاصي عن شيء منها، واتيانها بالطاعات المفروضة عليها باسرها وبالنوافل المرغبة اليها بقدر اليسر والاستطاعة، فليحمد الله على ذلك، وإن عثر على صدور شيء من المعاصي أو ترك شيء من الفرائض، فليتفكر أولا في الأسباب الباعثة على ذلك، من الاشتغال بفضول الدنيا أو مصاحبة أقران السوء أو غير ذلك، فليبادر إلى قطع السبب، ثم التدارك بالتوبة والندم، لئلا يكون غده مثل يومه. وهذا القدر من التفكر في كل يوم وليلة لازم لكل ديّن معتقد بالنشأة الآخرة، وقد كان ذلك عادة وديدناً لسلفنا المتقين في صبيحة كل يوم أو عشية كل ليلة، بل كانت لهم جريدة يكتبون فيها رؤس المهلكات والمنجيات ويعرضون في كل يوم وليلة صفاتهم عليها، ومهما اطمأنوا بقطع رذيلة أو الاتصاف بفضيلة يخطون عليها في الجريدة، ويدعون الفكر فيها، ثم يقبلون على البواقي، وهكذا يفعلون حتى يخطوا على الجميع، ومن كان أقل مرتبة منهم من الصلحاء ربما يثبتون في جريدتهم بعض المعاصي الظاهرة، من اكل الحرام، والشبهة، واطلاق اللسان، والكذب، والغيبة، والمراء، والنميمة، والمداهنة مع الخلق بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وغير ذلك، ويفعلون بمثل ما مر.

وبالجملة: كان اخواننا السالفون وسلفنا الصالحون لا ينفكون عن هذا النوع من التفكر، ويرونه من لوازم الايمان بالحساب، فأُف علينا حيث تركنا بهم التأسي

والقدوة، وخضنا في غمرات الغفلة، ولعمرى انهم لو رأونا لحكموا بكفرنا وعدم ايماننا بيوم الحساب، كيف واعمالنا لا تشابه أعمال من يؤمن بالجنة والنار. فان من خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا شيئاً طلبه، ونحن ندعى الخوف من النار ونعلم ان الهرب منها بترك المعاصى ومع ذلك منهمكون فيها، وندعى الشوق إلى الجنة ونعلم أن الوصول اليها بكثرة الطاعات ومع ذلك مقصرون في فعلها.

ثم هذا النوع من التفكر إنما هو تفكر العلماء والصالحين، وأما تفكر الصديقين فاجل من ذلك، لأنهم مستغرقون في لجة الحب والانس، منقطعون بشراشرهم إلى جناب القدس، ففكرهم مقصور على جلال الله وجماله وقلبهم مستهتر به، بحيث فنى عن نفسه ونسى صفاته وأحواله، فحالهم أبداً كحال العشاق المستهترين عند لقاء المعشوق، ولا تظن أن هذا التفكر ـ بل أدنى مراتب التلذذ بالتفكر في عظمة الله وجلاله ـ ممكن الحصول بدون الانفكاك عن جميع الرذائل المهلكة والاتصاف بجميع الفضائل المنجية، فإن حال المتفكر في جلال الله وعظمته مع اتصافه بالاخلاق الرذيلة، كحال العاشق الذي خلى بمحبوبه، وكان تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد اخرى، فتمنعه عن لذة المشاهدة والانس. ولا يتم ابتهاجه إلا باخراجها عن ثيابه. ولا ريب أن الملكات الرذيلة كلها كالحيات والعقارب مؤذيات ومشوشات، ومن كان له أدنى معرفة وتوجه إلى مناجاة ربه وكان في نفسه شيء منها، يجد أنه كيف يشوشه ويصده عن الابتهاج، ثم إن لدغ هذه الصفات لا يظهر ظهوراً بيناً للمنهمكين في علائق الطبيعة، وبعد مفارقة النفس عن البدن يشتد ألم لدغها بحيث يزيد على ألم لدغ الحيات والعقارب بمراتب شتى.

(نصيحة)

تيقظ ـ يا حبيبى ـ من نوم الغفلة، وتفكر اليوم لغدك، قبل ان تُنشِبَ مخالب

الموت في جسدك، ولا تنفك قوتك العاقلة عن التفكر في صفاتك وأحوالك، واعلم على سبيل القطع واليقين أن كل ما في نفسك من فضيلة أو رذيلة وكل ما يصدر عنك من طاعة أو معصية يكون بازائه جزاء عند رحلتك عن هذه الدار الفانية، واسمع قول سيد الرسل ﷺ ولو كنت ذا قلب لكفاك ايقاظاً وتنبيهاً، حيث قال: «إن روح القدس نفث في روعى: أحب ما أحببت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فانك ميت، واعمل ما شئت فانك مجزى به». ولعمرى أنك إن كنت مؤمناً بالمبدأ والمعاد لكفاك هذا الكلام واعظاً وحائلا بينك وبين الالتفات إلى الدنيا وأهلها. وبالجملة: ينبغى للمؤمن ألا يخلو في كل يوم وليلة عن الفكر في صفاته وأفعاله، وإذا صرف برهة من وقته في هذا التفكر وبرهة أخرى في التفكر في عجائب قدرة ربه، وصار ذلك معتاداً له، حصل لنفسه كمال قوتيها العقلية والعملية، وخلصت عن الوساوس الشيطانية والخواطر النفسانية، وفقنا الله بعظيم فضله للوصول إلى ما خلقنا لأجله.

(ومنها) ـ أى ومن رذائل القوة العاقلة ـ استنباط وجوده:

المكر والحيل

للوصول إلى مقتضيات قوتى الغضب والشهوة. واعلم أن المكر، والحيلة، والخدعة، والنكر، والدهاء: ألفاظ مترادفة، وهي في اللغة قد تطلق على شدة الفطانة، وأرباب المعقول يطلقونها على استنباط بعض الامور من المآخذ الخفية البعيدة على ما تجاوز عن مقتضى استقامة القريحة، ولذا جعلوها ضداً للذكاء وسرعة الفهم، والعرف خصصها باستنباط هذه الامور إذا كانت موجبة لاصابة مكروه إلى الغير من حيث لا يعلم، وربما فسّر بذلك في اللغة أيضاً، وهذا المعنى هو المراد هنا.

ولتركبه من اصابة المكروه إلى الغير ومن التلبيس عليه، يكون ضده استنباط

الامور المؤدية إلى الخيرية، والنصيحة لكل مسلم، واستواء العلانية للسريرية.

ثم فرق المكر ومرادفاته عن التلبيس والغش والغدر وامثالها، إما باعتبار خفاء المقدمات وبعدها فيها دونها. أو بتخصيص الأولى بنفس استنباط الامور المذكورة والثانية بارتكابها، ولذا عدت الاولى من رذائل القوة الوهمية أو العاقلة للعذر المذكور، والثانية من رذائل الشهوية، وربما كان استعما لها على الترادف، واطلق كل منهما على ما تطلق عليه الأخرى.

هذا وللمكر مراتب شتى ودرجات لا تحصى من حيث الظهور والخفاء، فربما لم يكن فيه كثير دقة وخفاء فيشعر به من له أدنى شعور، وربما كان في غاية الغموض والخفاء بحيث لم يتفطن به الأذكياء. ومن حيث الموارد والمواضع كالباعث لظهور انمحبة والصداقة واطمئنان عاقل، ثم التهجم عليه بالايذاء والمكروه، والباعث لظهور الأمانة والديانة وتسليم الناس أموالهم ونفائسهم إليه على سبيل الوديعة أو المشاركة أو المعاملة، ثم أخذها وسرقها على نحو آخر من وجوه المكر. وكالباعث لظهور ورعه وعدالته واتخاذ الناس إياه اماماً أو أميراً فيفسد عليهم باطناً دينهم ودنياهم. وقس على ذلك غيره من الموارد والمواضع.

ثم المكر من المهلكات العظيمة، لأنه اظهر صفات الشيطان. والمتصف به أعظم جنوده، ومعصيته أشد من معصية إصابة المكروه إلى الغير في العلانية، إذ المطلع بارادة الغير ايذاءه يحتاط ويحافظ نفسه عنه، فربما دفع أذيته، وأما الغافل فليس في مقام الاحتياط، لظنه أن هذا المكار المحيل محب وناصح له، فيصل إليه ضره وكيده في لباس الصداقة والمحبة. فمن أحضر طعاماً مسموماً عند الغير مريداً إهلاكه فهو أخبث نفساً وأشد معصية ممن شهر سيفه علانية مريداً قتله، إذ الثانى أظهر ما في باطنه وأعلم هذا الغير بارادته، فيجزم بأنه عدومحارب له فيتعرض لصرف شره ومنع ضره، فربما تمكن من دفعه، وأما الأول فظاهره في مقام الاحسان

وباطنه في مقام الايذاء والعدوان، والغافل المسكين لا خبر له عن خباثة باطنه، فيستطيع بأنه يحسن اليه، فلا يكون معه في مقام الدفع والاحتياط، بل في مقام المحبة والوداد، فيقتله وهو يعلم أنه يحسن اليه، ويهلكه وهو في مقام الخجل منه.

وبالجملة: هذه الرذيلة اخبث الرذائل واشدها معصية، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من ماكر مسلماً». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لولا أن المكر والخديعة في النار لكنت أمكر الناس»، وكان عليه السلام كثيراً ما يتنفس الصعداء ويقول: «وا ويلاه يمكرون بي ويعلمون أني بمكرهم عالم وأعرف منهم بوجوه المكر، ولكني أعلم أن المكر والخديعة في النار فأصبر على مكرهم ولا ارتكب مثل ما ارتكبوا».

وطريق علاجه ـ بعد اليقظة ـ أن يتأمل في سوء خاتمته ووخامة عاقبته، وفي تأديته إلى النار ومجاورة الشياطين والاشرار، ويتذكر أن وبال كل مكر وحيلة يرجع في الدنيا إلى صاحبه، كما نطقت به الآيات والأخبار وشهدت به التجربة والاعتبار. ثم يتذكر فوائد ضد المكر ومحامده، اعنى استنباط ما يوجب النصيحة والخيرية للمسلمين وموافقة ظاهره لباطنه في افعاله واقواله ـ كما يأتي في محله ـ وبعد ذلك لو كان عاقلا مشفقاً على نفسه لاجتنب عنه كل الاجتناب، وينبغي أن يقدم التروى في كل فعل يصدر عنه لئلا يكون له فيه مكر وحيلة، وإذا عثر على فعل يتضمنه فليتركه معاتباً لنفسه، وإذا تكرر منه ذلك تزول عن نفسه اصول المكر وفروعه بالكلية بعون الله وتوفيقه.

المقام الثانى

(فيما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج)

التهور والجبن والشجاعة - الخوف - الخوف المذموم واقسامه - الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته - بم يتحقق الخوف - الخوف من الله أفضل الفضائل - الخوف إذا جاوز حده كان مذموماً - طرق تحصيل الخوف الممدوح - خوف سوء الخاتمة وأسبابه - الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله - التلازم بين الخوف والرجاء - مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر - العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف - مداواة الناس بالخوف والرجاء على اختلاف امراضهم - صغر النفس وكبرها وصلابتها - الثبات - دناءة الهمة وعلوها - الغيرة والحمية وعدمهما - الغيرة على الدين والحريم والأولاد - العجلة - الاناة والتوقف والوقار والسكينة - سوء الظن - حسن الظن - الغضب - الافراط والتفريط والاعتدال في قوته - ذم الغضب - امكان ازالة الغضب وطرق علاجه - فضيلة الحلم وكظم الغيظ - الانتقام والعفو - العنف والرفق - فضيلة الرفق - المداراة - سوء الخلق بالمعنى الاخص - طرق اكتساب حسن الخلق - الحقد - العداوة الظاهرة - الضرب والفحش واللعن والطعن -

العجب ـ ذمه ـ آفاته ـ علاجه اجمالا وتفصيلا ـ انكسار النفس ـ الكبر ـ ذمه ـ التكبر على الله والناس ـ درجات الكبر ـ علاجه علما وعملا ـ التواضع ـ الذلة ـ الافتخار ـ البغي ـ تزكية النفس ـ العصبية ـ كتمان الحق ـ الانصاف والاستقامة على الحق ـ القساوة.

فنقول: أما جنسا رذائلها[١] «فأحدهما»:

التهور

كما علم، وهو من طرف الافراط: أي الاقدام على ما لا ينبغي والخوض في ما يمنعه العقل والشرع من المهالك والمخاوف. ولا ريب في انه من المهلكات في الدنيا والآخرة. ويدل على ذمه كل ما ورد في وجوب محافظة النفس وفي المنع عن إلقائها في المهالك، كقوله تعالى:

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[٢].

وغير ذلك من الآيات والأخبار. والحق أن من لا يحافظ نفسه عما يحكم العقل بلزوم المحافظة عنه فهو غير خال عن شائبة من الجنون، وكيف يستحق اسم العقل من ألقى نفسه من الجبال الشاهقة ولم يبال بالسيوف الشاهرة، أو وقع[٣] في الشطوط الغامرة الجارية ولم يحذر من السباع الضارية. كيف ومن ألقى نفسه فيما يظن به العطب، فهلك، كان قاتل نفسه بحكم الشريعة، وهو يوجب الهلاكة الابدية والشقاوة السرمدية.

وعلاجه ـ بعد تذكر مفاسده في الدنيا والآخرة ـ أن يقدّم التروى في كل فعل

(١) أي القوة الغضبية.

(٢) البقرة، الآية: ١٩٥.

(٣) كذا في النسختين، ولعل الصحيح (أو أوقع نفسه).

يريد الخوض فيه، فان جوّزه العقل والشرع ولم يحكما بالحذر عنه ارتكبه، وإلا تركه ولم يقدم عليه. وربما احتاج في معالجته أن يلزم نفسه الحذر والاجتناب عن بعض ما يحكم العقل بعدم الحذر عنه، حتى يقع في طرف التفريط، وإذا علم من نفسه زوال التهور تركه وأخذ بالوسط الذي هو الشجاعة.

«وثانيهما»:

الجبن

وهو سكون النفس عن الحركة إلى الانتقام أو غيره، مع كونها اولى. والغضب إفراط في تلك الحركة، فله ضدية للغضب باعتبار، وللتهور باعتبار آخر. وعلى الاعتبارين هو في طرف التفريط من المهلكات العظيمة، ويلزمه من الأعراض الذميمة: مهانة النفس، والذلة، وسوء العيش، وطمع الناس فيما يملكه، وقلة ثباته في الامور، والكسل، وحب الراحة، وهو يوجب الحرمان عن السعادات بأسرها وتمكين الظالمين من الظلم عليه، وتحمله للفضائح في نفسه وأهله، واستماع القبائح من الشتم والقذف، وعدم مبالاته بما يوجب الفضيحة والعار، وتعطيل مقاصده ومهماته، ولذلك ورد في ذمه من الشريعة ما ورد. قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً»، وقال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، واعوذ بك أن اردّ إلى أرذل العمر».

وعلاجه ـ بعد تنبيه نفسه على نقصانها وهلاكها ـ ان يحرّك الدواعي الغضبية فيما يحصل به الجبن، فان القوة الغضبية موجودة في كل احد، ولكنها تضعف وتنقص في بعض الناس فيحدث فيهم الجبن، وإذا حرّكت وهيجت على التواتر تقوى وتزيد، كما أن النار الضعيفة تتوقد وتلتهب بالتحريك المتواتر. وقد نقل عن الحكماء أنهم يلقون أنفسهم في المخاطرات الشديدة والمخاوف العظيمة دفعاً لهذه

الرذيلة. ومما ينفع من المعالجات ان يكلف نفسه على المخاصمة مع من يأمن غوائله، تحريكا لقوة الغضب، وإذا وجد من نفسه حصول ملكة الشجاعة فليحافظ نفسه لئلا يتجاوز ويقع في طرف الافراط.

وصل
(الشجاعة)

قد عرفت أن ضدّ هذين الجنسين هو (الشجاعة)، فتذكر مدحها وشرافتها، وكلف نفسك المواظبة على آثارها ولوازمها، حتى يصير ما تكلفته طبعاً وملكة، فترتفع عنك آثار الضدين بالكلية. وقد عرفت أن الشجاعة طاعة قوة الغضب للعاقلة في الاقدام على الأمور الهائلة وعدم اضطرابها بالخوض في ما يقتضيه رأيها. ولا ريب في أنها اشرف الملكات النفسية وأفضل الصفات الكمالية، والفاقد لها بريء عن الفحليّة والرجولية، وهو بالحقيقة من النسوان دون الرجال، وقد وصف الله خيار الصحابة بها في قوله:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾[1].

وأمر الله نبيه بها بقوله:

﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[2].

إذ الشدّة والغلظة من لوازمها وآثارها، والأخبار مصرحة باتصاف المؤمن بها. قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المؤمن: «نفسه أصلب من الصلد». وقال الصادق عليه السلام: «المؤمن أصلب من الجبل إذ الجبل يستفلُّ[3] منه والمؤمن لا يستفلُّ

(١) الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) التوبة، الآية: ٧٣.

(٣) استفل الشيء: اخذ منه أدنى جزء كعشره.

من دينه».

وأما الانواع ولوازمها المتعلقة بالقوّة الغضبية فمنها:

الخوف

وهو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال مشكوك الوقوع، فلو علم أو ظن حصوله سمى توقعه انتظار مكروه، وكان تألمه أشدّ من الخوف، وكلامنا في كليهما. وفرقه عن الجبن على ما قررناه من حدّهما ظاهر، فان الجبن هو سكون النفس عما يستحسن شرعاً وعقلاً من الحركة إلى الإنتقام أو شيء آخر، وهذا السكون قد يتحقق من غير حدوث التألم الذي هو الخوف، مثلاً من لا يجترىء على الدخول في السفينة أو النوم في البيت وحده أو التعرض لدفع من يظلمه ويتعرض له يمكن اتصافه بالسكون المذكور مع عدم تألم بالفعل، فمثله جبان وليس بخائف. ومن كان له ملكة الحركة إلى الانتقام وغيره من الأفعال التي يجوزها الشرع والعقل ربما حصل له التألم المذكور من توقع حدوث بعض المكاره، كما إذا أمر السلطان بقتله، فمثله خائف وليس بجبان.

ثم الخوف على نوعين: **(أحدهما)** مذموم بجميع أقسامه، وهو الذي لم يكن من الله ولا من صفاته المقتضية للهيبة والرعب، ولا من معاصى العبد وجناياته، بل يكون لغير ذلك من الأمور التي يأتى تفصيلها. وهذا النوع من رذائل قوة الغضب من طرف التفريط، ومن نتائج الجبن. و**(ثانيهما)** محمود وهو الذي يكون من الله ومن عظمته ومن خطأ العبد وجنايته، وهو من فضائل القوة الغضبية، إذ العاقلة تأمر به وتحسنه، فهو حاصل من انقيادها لها. ولنفصل القول في أقسام النوعين، وبيان العلاج في إزالة أقسام الأول وتحصيل الثاني:

فصل

(الخوف المذموم وأقسامه)

للنوع الأول أقسام يقبحها العقل بـاسرها ولا يـجوزها، فـلا يـنبغي للـعاقل أن يتطرقها إلى نفسه. بيان ذلك: ان باعث هذا الخوف يتصور على أقسام:

(الأول) أن يكون أمراً ضرورياً لازم الوقوع، ولم يكن دفعه فـي مـقدرة البشـر. ولا ريب في أن الخوف من مثله خطأ محض، ولا يترتب عـليه فـائدة سـوى تـعجيل عقوبة بصده عن تدبير مصالحه الدنيوية والدينية. والعاقل لا يتطرق على نـفسه مـثل ذلك، بل يسلى نفسه ويرضيها بما هو كائن ادراكاً لراحة العاجل وسعادة الآجل.

(الثاني) أن يكون أمراً ممكناً لم يجزم بشيء من طرفيه، ولم يكن لهذا الشخص مدخلية في وقوعه ولاوقوعه. ولا ريب في أن الجزم بوقوع مثله والتألم لأجله خلاف مقتضى العقل، بل اللازم إبقاؤه على إمكانه من دون جزم بحصوله، فـ:

﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾[1].

وهذا القسم مع مشاركته للاول في استلزامه تـعجيل العـقوبة بـلا سـبب، لعـدم مدخليته لاختياره فيه، يمتاز عنه بعدم الجزم بوقوعه، فهو بعدم الخوف أولى منه.

(الثالث) أن يكون أمراً مـمكناً فـاعله هـذا الشـخص، وهـو نـاشيء عـن سـوء اختياره، فعلاجه ألا يرتكبه ولا يقدم على فعل يخاف من سوء عاقبته، فـانه إمـا فـعل غير قبيح من شأنه التأدي إلى ما يضره، ولا ريب في أن ارتكـاب مـثله خـلاف حكـم العقل، ولو ظهر التأدي بعد إيقاعه فيكون مـن الثـاني، أو فـعل قـبيح لو ظـهر أوجب الفضيحة والمـؤاخـذة، وإنـما فـعله ظـناً مـنه أنـه لا يـظهر، ثـم يـخاف مـن الظـهور والمؤاخذة، ولا ريب في أن هذا الظن ناشيء عن الجهل، إذ كل فعل يصدر عـن كـل

(١) الطلاق، الآية: ١.

فاعل ولو خفية يمكن أن يظهر، وإذا ظهر يمكن إيجابه للفضيحة والمؤاخذة. والعاقل العالم بطبيعة الممكن لا يرتكب مثله، فباعث الخوف في الثانى هو الحكم على الممكن بالوجوب، وفي هذا الحكم عليه بالامتناع، ولو حكم عليه بما يقتضى ذاته أمن من الخوفين.

(الرابع) أن يكون مما تتوحش منه الطباع، بلا داع عقلى ولا باعث نفس امرى، كالميت والجن وأمثالهما، (لا) سيما في الليل مع وحدته. ولا ريب في أن هذا ناشىء عن قصور العقل ومقهوريته عن الواهمة، فليحرك القوة الغضبية ويهيجها لتغلب به العاقلة على الوهم. وربما ينفع إلزام نفسه على الوحدة في الليالى المظلمة والصبر عليها، حتى يزول عنه هذا الخوف على التدريج.

ثم لما كان خوف الموت أشد أقسام هذا النوع وأعمها، فلنشر إلى علاجه بخصوصه، فنقول: باعث خوف الموت يحتمل اموراً:

(الأول) تصور فناء ذاته بالكلية وصيرورته عدماً محضاً بالموت. ولا ريب في كونه ناشئاً عن محض الجهل، إذ الموت ليس إلا قطع علاقة النفس عن بدنه، وهي باقية أبداً، كما دلت عليه القواطع العقلية والشواهد الذوقية والظواهر السمعية، ولعل ما تقدم يكفى لاثبات هذا المطلوب. ومع قطع النظر عن ذلك نقول: كيف يجوز لمن له أدنى بصيرة أن يجتمع عظماء نوع الانسان بحذافيرهم، كأهل الوحى والالهام وأساطين الحكمة والعرفان على محض الكذب وصرف الباطل! فمن تأمل أدنى تأمل يتخلص من هذا الخوف.

(الثانى) تصور ايجابه ألماً جسمانياً عظيما لا يتحمل مثله ولم يدرك في الحياة شبهه. وهذا ايضاً من الخيالات الفاسدة، فان الألم فرع الحياة، والألم الجسمانى ما دامت الحياة لا يكون أشد مما رآه كل انسان في حياته من الأوجاع وقطع الاتصال، وبعد زوال الحياة لا معنى لوجوده، إذ كل جسمانى إدراكه بواسطة الحياة، وبعد

انقطاعها لا إدراك، فلا ألم.

(الثالث) تصور عروض نقصان لأجله. وهو أيضاً غفلة عن حقيقة الموت والانسان، إذ من علم حقيقتهما يعلم أن الموت متمم الانسانية وآثارها، والمائت جزء لحدّ الانسان. ولذا قال أوائل الحكماء: (الانسان حى ناطق مائت)، وحد الشيء يوجب كماله لا نقصانه، فبالموت تحصل التمامية دون النقصان «نشنيده‌اى كه هر كه بمرد او تمام شد»[١]. فالانسان الكامل يشتاق إلى الموت، لاقتضائه تماميته وكماله، وخروجه عن ظلمة الطبيعة ومجاورة الأشرار إلى عالم الأنوار ومرافقة الأخيار من العقول القادسة والنفوس الطاهرة، وأى عاقل لا يرجح الحياة العقلية والابتهاجات الحقيقية على الحياة الموحشة الهيولانية، المشوبة بأنواع الآلام والمصائب واصناف الاسقام والنوائب!

فيا حبيبى! تيقظ من نوم الغفلة وسكر الطبيعة، واستمع النصيحة ممن هو أحوج منك إلى النصيحة: حرك الشوق الكامن في جوهر ذاتك إلى عالمك الحقيقى ومقرك الأصلى، وانسلخ عن القشورات الهيولانية، وانفض عن روحك القدسى ما لزقه من الكدورات الجسمانية، وطهر نفسك الزكية عن أدناس دار الغرور وأرجاس عالم الزور، واكسر قفصك ترابى الظلمانى وطِر بجناح همتك إلى وكرك القدسى النورانى، وارتفع عن حضيض الجهل والنقصان إلى أوج العزة والعرفان، وخلص نفسك عن مضيق سجن الناسوت وسيرها في فضاء قدس اللاهوت، فما بالك نسيت عهود الحمى ورضيت بمصاحبة من لاثبات له ولا وفاء؟!

زد سحر طائر قدسم ز سر سدره صفير   كه در اين دامگـه حادثه آرام مگير[٢]

---

(١) هذه الجملة من الكلمات الحكمية القصار، ومعناها: (أما سمعت بأن كل من مات صار انساناً كاملاً).

(٢) هذا البيت للشاعر الفارسى الفيلسوف الشهير (حافظ الشيرازى)، وهو من أبيات العرفان. وأراد ☜

(الرابع) صعوبة قطع علاقته من الأولاد والأموال والمناصب والأحباب. ومعلوم أن هذا ليس خوفاً من الموت في نفسه، بل هو حزن على مفارقة بعض الزخارف الفانية. وعلاجه: أن يتذكر أن الأمور الفانية مما لا يليق بالعاقل ان يرتبط بها قلبه، وكيف يحب العاقل خسائس عالم الطبيعة ويطمئن اليها، مع علمه بأنه عن قريب يفارقها، فاللازم أن يخرج حب الدنيا وأهلها عن قلبه ليتخلص من هذا الألم.

(الخامس) تصور سرور الأعداء وشماتتهم بموته. وهذا وسوسة شيطانية صادرة عن محض التوهم، إذ مسرة الأعداء أو شماتتهم لا توجب ضرراً في إيمانه ودينه، ولا ألماً في روحه وجسمه، على أن ذلك لا يختص بالموت، إذ العدو يشمت ويفرح بما يرد عليه في حال الحياة ايضاً من البلايا والمحن، فمن كره ذلك فليجتهد في قطع العداوة وإزالتها بالمعالجات المقررة للحقد والحسد.

(السادس) تصور تضييع الأولاد والعيال، وهلاك الأعوان والأنصار. وهذا أيضاً من الوساوس الباطلة الشيطانية والخواطر الفاسدة النفسانية، إذ ذلك يوجب ظن منشئيته لاستكمال الغير وعزته، ومدخليته في قوته وثروته، وذلك ناشيء من جهله بالله وبقضائه وقدره، إذ فيضه الأقدس اقتضى إيصال كل ذرة من ذرات العالم إلى مايليق بها وابلاغها إلى ما خلقت لأجله، وليس لأحد أن يغير ذلك أو يبدله. ولذا ترى أكثر الأفاضل يجتهدون في تربية أولادهم ولا ينجح سعيهم أصلاً، وتشاهد غير

⇐ (بالسحر) على سبيل الرمز وقت استكمال النفس وتنبهها، و(بالطائر القدسي) ما يرمز إليه العرفاء المسمى عندهم ايضاً (البيضاني)، وهو أحد العقول المجردة الذي بصفيره يوقظ الراقدين في مراقد الظلمات، وبصوته ينبه الغافلين عن تذكر الآيات، و(بالسدرة) سدرة المنتهى المقصود منها منتهى قوس الصعود في سلسلة الممكنات.

وحاصل معنى البيت المطابقي: قد صفر الطائر القدسي المنسوب إلى من على السدرة في السحر، ويقول في صفيره: لا تستقر في المصيدة المخيفة (وهي الدنيا وعوالم السفليات)، والمراد أن يذهب عنها إلى عالم المجردات النوراني حراً طليقاً.

واحد من الأغنياء يخلفون لأولادهم أموالا كثيرة وتخرج عن ايديهم في مدة قليلة، وترى كثيراً من أيتام الأطفال لا تربية لهم ولا مال، ومع ذلك يبلغون بالتربية الأزلية مدارج الكمال، أو يحصلون ما لا حصر له من الأموال. والغالب أن الأيتام الذين ذهب عنهم الآباء في حالة الصبى تكون ترقياتهم في الآخرة والدنيا أكثر من الأولاد الذين نشأوا في حجر الآباء. والتجربة شاهدة بأن من اطمأن من أولاده بمال يخلفه لهم أو ذى قوة يفوض إليه امورهم، اعتراهم بعده الفقر والفاقة والذلة والمهانة، وربما صار ذلك سبباً لهلاكهم وانقراضهم. ومن فوض امورهم إلى رب الأرباب وخالق العباد ازداد لهم بعده عزاً وقوة وكثرة وثروة. فاللائق بالعقلاء أن يفوضوا أمور الأولاد وغيرهم من الأقارب والانصار إلى من خلقهم وربّاهم، ويوكلهم إلى موجدهم ومولاهم، وهو نعم المولى ونعم الوكيل. وقد ظهر أن الخوف من الموت لأجل البواعث المذكورة لا وجه له.

ثم ينبغى للعاقل أن يتفكر في أن كل كائن فاسد ألبتة، كما تقرر في الحكمة. وهو من الكائنات، والفساد ضرورى له. فمن أراد وجود بدنه أراد فساده اللازم له، فتمنى دوام الحياة من الخيالات الممتنعة، والعاقل لا يحوم حولها ولا يتمنى مثلها. بل يعلم يقيناً أن ما يوجد في النظام الكلى هو الأصلح الأكمل وتغييره ينافى الحكمة والخيرية، فيرضى بما هو واقع على نفسه وغيره من غير ألم وكدورة. ثم من يتمنى طول عمره فمقصوده منه إن كان حب اللذات الجسمية وامتداد زمانها، فليعلم أن الشيب إذا أدركه ضعفت الأعضاء واختلت القوى وزالت عنه الصحة التي هي عمدة لذاته فضلاً عن غيرها، فلا يلتذ بالأكل والجماع وسائر اللذات الحسية، ولا يخلو لحظة عن مرض وألم، وتتراجع جميع أحواله، فتتبدل قوّته بالضعف وعزه بالذل، وكذا سائر أحواله، كما اشير إليه في الكتاب الإلهى بقوله تعالى:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾[١].

ومع ذلك لا يخلو كل يوم من مفارقة حبيب أو شفيق، ومهاجرة قريب أو رفيق. وربما ابتلى بأنواع المصيبات، ويهجم عليه الفقر والفاقة والنكبات، وطالب العمر في الحقيقة طالب هذه الزحمات. وان كان مقصوده منه اكتساب الفضائل العلمية والعملية، فلا ريب في أن تحصيل الكمالات بعد أوان الشيخوخة في غاية الصعوبة، فمن لم يحصل الفضائل الخلقية إلى أن أدركه الشيب، واستحكمت فيه الملكات المهلكة من الجهل وغيره، فانى يمكنه بعد ذلك إزالتها وتبديلها بمقابلاتها، إذ رفع ما رسخ في النفس مع الشيخوخة التي لا يقتدر معها على الرياضات والمجاهدات غير ممكن. ولذا ورد في الآثار: «أن الرجل إذا بلغ أربعين سنة ولم يرجع إلى الخير، جاء الشيطان ومسح على وجهه وقال: بأبي وجه من لا يفلح أبداً». على أن الطالب للسعادة ينبغي أن يكون مقصور الهم في كل حال على تحصيلها، ومن جملتها دفع طول الأمل والرضا بما قدر له من طول العمر وقصره، ويكون سعيه أبداً في تحصيل الكمالات بقدر الامكان والتخلص عن مزاحمة الزمان والمكان، وقطع علاقته من الدنيا وزخارفها الفانية والميل إلى الحياة واللذات الباقية، والاهتمام في كسب الابتهاجات العقلية والاتصال التام بالحضرة الإلهية، حتى يتخلص عن سجن الطبيعة ويرتقى إلى اوج عالم الحقيقة، فيتفق له الموت الارادى الموجب للحياة الطبيعية، كما قال (معلم الإشراق): «مت بالارادة تحيى بالطبيعة»، فينقل إلى مقعد صدق هو مستقر الصدّيقين، ويصل إلى جوار رب العالمين، وحينئذ يشتاق للموت ولا يبالى بتقديمه وتأخيره، ولا يركن إلى ظلمات البرزخ الذي هو منزل الأشقياء والفجار ومسكن الشياطين والأشرار، ولا يتمنى الحياة الفانية أصلا، وينطق بلسان الحال:

(١) يس، الآية: ٦٨.

خـرم آن روز كـزين مـنزل ويـران بـروم
راحت جـان طـلبم وز پـى جـانان بـروم
بـــهواى لب او ذرّه صـــفت رقـص كـنان
تا لب چشمهٔ خورشيد درخشان بروم[١]

(السابع) تصور العذاب الجسمانى والروحانى المـترتب عـلى ذمـائم الأعـمال وقبائح الأفعال. ولا ريب في أن الخوف من ذلك مـمدوح، وهـو مـعدود مـن أقسـام النوع الثانى، إلا أن البقاء عليه وعدم السعى فيما يدفعه مـن تـرك الخـطيئات وكسب الطاعات جهل وبطالة، إذ هذا الخوف ناشىء من سوء الاختيار، وقد بعث الله الرسـل وأوصـياءهم لاسـتخلاص النـاس عـنه. فـعلاجه تـرك المـعاصى وتـحصيل مـعالى الأخلاق. ومعلوم أن المنهمك في المعاصى مع خوفه من العذاب كالملقى نفسه فـي البحر أو النار مع خوفه من الغرق والحرق، ولا ريب في أن إزالة هذا الخوف باختياره، فليترك المعاصى ويجتهد في كسب وظائف الطاعات ليتخلص عنه، واهـتمام أكـابر الدين من الأنبياء والمرسلين والحكماء والصديقين في وظائف الطـاعات وصـبرهم على مشاق العبادات ومجاهدتهم مع جنود الشياطين إنما هو لدفع هذا الخـوف عـن نفوسهم، فهو في الحقيقة ناشىء منك ومن سوء اختيارك، فبادر إلى تقليله بالمواظبة على صوالح الأعـمال وفـضائل الأفـعال. وقـد يأتـى أن هـذا الخـوف هـو سـوط الله الباعث على العمل، ومعه لو كان مفرطاً فليعالج بأسباب الرجـاء، وبـدونه فـلا بـد أن

(١) البيتان للشاعر الفيلسوف (حافظ الشيرازى). ومعنى الاول: «إن سرورى يكون في يوم الرحيل من هـذه الدار الخربة طلباً لراحة نفسى ولقاء الحبيب». ويقصد بحبيبه: الحق الأول، وبراحة نفسه: النعيم الأبدى، وبالرحيل عن الدار الخربة: انتقال نفسه من بدنه بالموت.

ومعنى البيت الثانى: «انى لشوقى إلى لقاء الحبيب اهتز اهتزاز الذرة في ضوء الشمس لكى اصل إلى لقاء عين الشمس المتوهجة». ويقصد بعين الشمس: خالق الكائنات.

يكون حتى يبعثه عليه، على أنه مع عظم جرمه وقصور باعه عن تداركه فلا ينبغي أن ييأس من روح الله، فلعل واسع الرحمة السابقة على الغضب يدركه بسابقة من القضاء والقدر.

فصل
(الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته)

وللنوع الثاني من الخوف أقسام: **(الأول)** أن يكون من الله سبحانه ومن عظمته وكبريائه، وهذا هو المسمى بالخشية والرهبة في عرف أرباب القلوب. **(الثاني)** من جناية العبد باقترافه المعاصي. **(الثالث)** أن يكون منهما جميعاً. وكلما ازدادت المعرفة بجلال الله وعظمته وتعاليه وبعيوب نفسه وجناياته، ازداد الخوف، إذ ادراك القدرة القاهرة والعظمة الباهرة والقوة القوية والعزة الشديدة، يوجب الاضطراب والدهشة. ولا ريب في أن عظمة الله وقدرته وسائر صفاته الجلالية والجمالية غير متناهية شدة وقوة ويظهر منها على كل نفس ما يطيقه ويستعد له. وأنى لأحد من أولى المدارك أن يحيط بصفاته على ما هي عليه، فان المدارك عن إدراك غير المتناهي قاصرة. نعم، لبعض المدارك العالية أن يدركه على الاجمال. مع أن ما يظهر للعقلاء من صفاته ليس هو من حقيقة صفاته، بل هو غاية ما تتأدى إليه عقولهم ويتصور كمالا. ولو ظهر قدر ذرة من حقيقة بعض صفاته لأقوى العقول وأعلى المدارك، لاحترق من سبحات وجهه، وتفرقت أجزاءه من نور ربه. ولو انكشف من بعضها الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب، فغاية ما للمدارك العالية من العقول والنفوس القادسة، أن يتصور عدم تناهيها في الشدة والقوة، وكونها في الكمال والبهاء غاية ما يمكن ويتصور ويحتمله ظرف الواقع ونفس الأمر، كما هو الشأن في ذاته سبحانه. وإدراك هذه الغاية أيضاً يختلف باختلاف علو المدارك، فمن كان في

الدرك أقوى وأقدم كان بربه أعرف، ومن كان بـه أعـرف كـان مـنه أخـوف، ولذا قـال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا﴾[1].

وقال سيد الرسل: «أنا أخوفكم من الله». وقد قرع سمعك حكايات خوف زمرة المرسلين ومن بعدهم من فِرَق الأولياء والعارفين، وعروض الغشيات المتواترة في كل ليلة لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام.

وهذا مقتضى كمال المعرفة الموجب لشدة الخوف، إذ كمال المعرفة يوجب احتراق القلب، فيفيض أثر الحرقة من القلب إلى البدن بالنحول والصفار والغشية والبكاء، وإلى الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط في جنب الله. ومن لم يجتهد في ترك المعاصي وكسب الطاعات فليس على شيء من الخوف، ولذا قيل: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه. وقال بعض الحكماء: «من خاف شيئاً هرب منه، ومن خاف الله هرب اليه»، وقال بعض العرفاء: «لا يكون العبد خائفاً حتى ينزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام». وإلى الصفات بقمع الشهوات وتكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف كونه مسموماً، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الذبول والذلة والخشوع والاستكانة، وتفارقه ذمائم الصفات،ويصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المجاهدة والمحاسبة والمراقبة والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس في الخطرات والكلمات، ويشتغل ظاهره وباطنه بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره،

(١) الفاطر، الآية: ٢٨.

كما أن من وقع في مخالب ضارى السبع يكون مشغول الهم به ولا شغل له بغيره. وهذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه، كما جرى عليه جماعة من الصحابة والتابعين ومن يحذوهم من السلف الصالحين.

فقوّة المجاهدة والمحاسبة بحسب شدة الخوف الذي هو حرقة القلب وتألمه، وهو بحسب قوة المعرفة بجلال الله وعظمته وسائر صفاته وأفعاله، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال أن يكف عن المحظورات، ويُسمى الكف منها (ورعاً)، فان زادت قوته كف عن الشبهات، ويسمى ذلك (تقوى)، إذ التقوى أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه، وقد يحمله على ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس، وهو الصدق في التقوى، فإذا انضم إليه التجرد للخدمة، وصار ممن لا يبنى ما لا يسكنه، ولا يجمع ما لا يأكله، ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنه يفارقها، ولا يصرف إلى غير الله نفساً عن أنفاسه، فهو (الصدق)، ويسمى صاحبه (صديقاً)، فيدخل في الصدق التقوى، وفي التقوى الورع، وفي الورع العفة، لأنها عبارة عن الامتناع من مقتضى الشهوات.

فاذن يؤثر الخوف في الجوارح بالكف والإقدام.

فصل

(بم يتحقق الخوف)

إعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه، والمكروه إما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار، أو مكروهاً لافضائه إلى المكروه في ذاته كالمعاصى المفضية إلى المكروه لذاته في الآخرة، ولا بد لكل خائف أن يتمثل في نفسه مكروه من أحد القسمين، ويقوى انتظاره في قلبه حتى يتألم قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه،

ويختلف مقام الخائفين فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحظورة:

فالذين يغلب على قلوبهم خوف المكروه لذاته، فاما أن يكون خوفهم من سكرات الموت وشدته وسؤال النكيرين وغلظته، أو عذاب القبر ووحدته وهول المطلع ووحشته، أو من الموقف بين يدى الله وهيبته والحياء من كشف سريرته، أو من الحساب ودقته والصراط وحدّته، أو من النار وأهوالها والجحيم وأغلالها، أو الحرمان من دار النعيم وعدم وصوله إلى الملك المقيم، أو من نقصان درجاته في العليين وعدم مجاورته المقربين، أو من الله سبحانه بأن يخاف جلاله وعظمته والبعد والحجاب منه ويرجو القرب منه، وهذا أعلاها رتبة، وهو خوف أرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضى الهيبة والخوف، والعالمين بلذة الوصال وألم البعد والفراق، والمطلعين على سر قوله:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ﴾(١)، وقوله: ﴿إتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾(٢).

وقيل: ذلك خوف العابدين والزاهدين وكافة العاملين.

وأما الذين غلب على قلوبهم خوف المكروه لغيره، فاما يكون خوفهم من الموت قبل التوبة، أو نقضها قبل انقضاء المدة، أو من ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله، أو تخليته مع حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله، أو من الميل عن الاستقامة، أو إلى اتباع الشهوات المألوفة استيلاء للعادة، أو تبديل رقة القلب إلى القساوة، أو تبعات الناس عنده من الغش والعداوة، أو من الاشتغال عن الله بغيره، أو حدوث ما يحدث في بقية عمره، أو من البطر والاستدراج بتواتر النعم، أو انكشاف غوائل طاعته حتى يبدوله من الله ما لم يعلم، أو من الاغترار بالدنيا وزخارفها الفانية، أو تعجيل العقوبة بالدنيا وافتضاحه بالعلانية، أو من اطلاع الله على

---

(١) آل عمران، الآية: ٢٨.

(٢) آل عمران، الآية: ١٠٢.

سريرته وهو عنه غافل، وتوجهه إلى غيره وهو إليه ناظر، أو من الختم له عند الموت بسوء الخاتمة، أو مما سبق له في الأزل من السابقة. وهذه كلها مخاوف العارفين.

ولكل واحد منها خصوص فائدة، هو الحذر عما يفضي إلى الخوف، فالخائف من تبعات الناس يجتهد في براءة ذمته عنها، ومن استيلاء العادة يواظب على فطام نفسه عنها، ومن اطلاع الله على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس. وهكذا في بقية الأقسام.

وأغلب هذه المخاوف على المتقين خوف سوء الخاتمة، وهو الذي قطع قلوب العارفين، إذ الأمر فيه مخطر ـ كما يأتي ـ وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة، لأن الخاتمة فرع السابقة، ويترتب عليها بعد تخلل أسباب كثيرة، ولذا قال العارف الأنصاري: «الناس يخافون من اليوم الآخر وأنا أخاف من اليوم الأول». فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب، وإليه أشار النبي ﷺ في المنبر، حيث رفع يده اليمنى قابضاً على كفه، ثم قال: «أتدرون أيها الناس ما في كفي؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم إلى يوم القيامة». ثم رفع يده اليسرى وقال: «أيها الناس! أتدرون ما في كفي؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم إلى يوم القيامة». ثم قال: «حَكَم الله وعَدل، حكم الله:

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[1]».

وقال ﷺ: «يسلك بالسعيد في طريق الأشقياء حتى يقول الناس: ما اشبهه بهم بل هو منهم، ثم تتداركه السعادة. وقد يسلك بالشقي طريق السعداء حتى يقول الناس: ما اشبهه بهم، بل هو منهم، ثم يتداركه الشقاء. إن من كتبه الله سعيداً وإن لم

---

(١) الشورى، الآية: ٧.

يبق من الدنيا إلا فواق ناقة ختم له بالسعادة»[١].

فصل

(الخوف من الله أفضل الفضائل)

الخوف منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين، وهو أفضل الفضائل النفسانية، إذ فضيلة الشيء بقدر إعانته على السعادة، ولا سعادة كسعادة لقاء الله والقرب منه، ولا وصول اليها إلا بتحصيل محبته والانس به، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الانس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسَّرُ المواظبة على الفكر والذكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقلع ذلك إلا بقمع لذاتها وشهواتها، وأقوى ما تنقمع به الشهوة هو نار الخوف، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، فاذن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات ويكف من المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف ـ كما مرّ ـ.

وقيل: من أنس بالله، وملك الحق قلبه، وبلغ مقام الرضا، وصار مشاهداً لجمال الحق: لم يبق له الخوف، بل يتبدل خوفه بالأمن، كما يدل عليه قوله سبحانه:

﴿أُولَـٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٢].

إذ لا يبقى له التفات إلى المستقبل، ولا كراهية من مكروه، ولا رغبة إلى محبوب، فلا يبقى له خوف ولا رجاء، بل صار حاله أعلى منهما. نعم، لا يخلو عن الخشية ـ أي الرهبة من الله ومن عظمته وهيبته ـ وإذا صار متجلياً بنظر الوحدة لم يبق فيه أثر من الخشية أيضاً، لأنه من لوازم التكثر، وقد زال. ولذا قيل: «الخوف حجاب

---

(١) هذا الحديث مروى في اصول الكافى في (باب السعادة والشقاوة) عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام.

(٢) الانعام، الآية: ٨٢

بين الله وبين العبد». وقيل أيضاً: «إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها محل لخوف ولا رجاء». وقيل أيضاً: «المحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصاً في دوام الشهود الذي هو غاية المقامات».

وأنت خبير بأن هذه الأقوال مما لا التفات لنا اليها، فلنرجع إلى ما كنّا بصدده من بيان فضيلة الخوف، فنقول: الآيات والأخبار الدالة عليه اكثر من أن تحصى، وقد جمع الله للخائفين العلم والهدى والرحمة والرضوان، وهي مجامع مقامات أهل الجنان، فقال:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا﴾[١]. وقال: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[٢]. وقال: ﴿رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[٣].

وكثير من الآيات مصرحة بكون الخوف من لوازم الايمان، كقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٤]. وقوله: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٥].

ومدح الخائفين بالتذكر في قوله:

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾[٦].

ووعدهم الجنة وجنتين، بقوله:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٧].

---

(١) الفاطر، الآية: ٢٨.

(٢) الأعراف، الآية: ١٥٤.

(٣) البينة، الآية: ٨

(٤) الأنفال، الآية: ٢.

(٥) آل عمران، الآية: ١٧٥.

(٦) الأعلى، الآية: ١٠.

(٧) النازعات، الآية: ٤٠ ـ ٤١.

وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[١].

وفي الخبر القدسي: «وعزتی لا أجمع على عبدی خوفين ولا أجمع له أمنين، فإذا أمننی في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإذا خافنی في الدنيا أمنته يوم القيامة». وقال رسول الله ﷺ: «رأس الحكمة مخافة الله»، وقال ﷺ: «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء»[٢]، وقال لابن مسعود: «إن أردت أن تلقانی فاكثر من الخوف بعدی»، وقال ﷺ: «أتمكم عقلا أشدكم الله خوفا».

وعن ليث بن أبی سليم قال: «سمعت رجلاً من الانصار يقول: بينما رسول الله مستظل بظل شجرة في يوم شديد الحرّ، إذ جاء رجل فنزع ثيابه، ثم جعل يتمرغ في الرمضاء، يكوی ظهره مرة، وبطنه مرة، وجبهته مرة، ويقول: يا نفس ذوقی، فما عند الله أعظم مما صنعت بك. ورسول الله ينظر إليه ما يصنع. ثم إن الرجل لبس ثيابه، ثم أقبل، فأومی إليه النبی ﷺ بيده ودعاه، فقال له: يا عبدالله! رأيتك صنعت شيئاً ما رأيت أحداً من الناس صنعه، فما حملك على ما صنعت؟ فقال الرجل: حملنی على ذلك مخافة الله، فقلت لنفسی: يا نفس ذوقی فما عند الله أعظم مما صنعت بك. فقال النبی ﷺ: لقد خفت ربك حق مخافته، وإن ربك ليباهی بك أهل السماء، ثم قال لأصحابه: يا معشر من حضر! ادنوا من صاحبكم حتى يدعو لكم، فدنوا منه، فدعا لهم، وقال: اللهمّ اجمع أمرنا على الهدى، واجعل التقوى زادنا، والجنة مآبنا».

وقال ﷺ: «ما من مؤمن يخرج من عينيه دمعة، وإن كانت مثل رأس الذباب، من خشية الله، ثم يصيب شيئاً من حُرّ وجهه، إلا حرمه الله على النار»، وقال: «إذا اقشعرَّ قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحاتّ من الشجر ورقها»،

---

(١) الرحمن، الآية: ٤٦.

(٢) روی الحديث في أصول الكافی في باب الخوف والرجاء عن الصادق عليه السلام.

وقال: «لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع». وقال سيد الساجدين عليه السلام في بعض أدعيته: «سبحانك! عجباً لمن عرفك كيف لا يخافك». وقال الباقر عليه السلام: «صلى أمير المؤمنين عليه السلام بالناس الصبح بالعراق، فلما انصرف وعظهم، فبكى وابكاهم من خوف الله، ثم قال: أما والله لقد عهدت أقواماً على عهد خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله: وإنهم ليصبحون ويمسون شعثاً غبراً خمصاً بين اعينهم كركب البعير يبيتون لربهم سجداً وقياماً، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم من النار، والله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون»، وفي رواية اخرى: «وكأن زفير النار في آذانهم، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما تميد الشجر، كأنما القوم باتوا غافلين»، ثم قال عليه السلام: «فما رُئى عليه السلام بعد ذلك ضاحكاً حتى قبض». وقال الصادق عليه السلام: «من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا»، وقال عليه السلام: «إن من العبادة شدة الخوف من الله تعالى، يقول: إنما يخشى الله من عباده العلماء». وقال:

﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[١]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[٢].

وقال: «إن حب الشرف والذكر لا يكونان في قلب الخائف الراهب»، وقال عليه السلام: «المؤمن بين مخافتين: ذنب قد مضى ما يدرى ما صنع الله فيه، وعمر قد بقى لا يدرى ما يكتسب فيه من المهالك، فهو لا يصبح إلا خائفاً ولا يصلحه إلا الخوف». وقال عليه السلام: «خف الله كأنك تراه، وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك، فقد كفرت، وان كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين اليك»، وقال عليه السلام: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو»، وقال عليه السلام: «مما حفظ من خطب

(١) المائدة، الآية: ٤٤.

(٢) الطلاق، الآية: ٢.

النبى ﷺ انه قال: أيها الناس! إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، وفي الحياة قبل الممات، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار إلا الجنة أو النار».

ثم الأخبار الواردة في فضل العلم والتقوى والورع والبكاء والرجاء تدل على فضل الخوف، لأن جملة ذلك متعلقة به تعلق السبب أو تعلق المسبب، إذ العلم سبب الخوف، والتقوى والورع يحصلان منه ويترتبان عليه -كما ظهر مما سبق- والبكاء ثمرته ولازمه، والرجاء يلازمه ويصاحبه، إذ كل من رجا محبوباً فلا بد أن يخاف فوته، إذ لو لم يخف فوته لم يحبه فلا ينفك أحدهما عن الآخر، وإن جاز غلبة أحدهما على الآخر، اذ من شرطهما تعلقهما بالمشكوك، لأن المعلوم لا يرجى ولا يخاف، فالمحبوب المشكوك فيه تقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء، وتقدير عدمه يؤلمه وهو الخوف، والتقديران يتقابلان. نعم، أحد طرفى الشك قد يترجح بحضور بعض الاسباب، ويسمى ذلك ظناً، ومقابله وهماً، فإذا ظن وجود المحبوب قوى الرجاء وضعف الخوف بالإضافة اليه، وكذا بالعكس، وعلى كل حال فهما متلازمان، ولذلك قال الله سبحانه:

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾(١). وقال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾(٢).

وقد ظهر أن ما يدل على فضل الخمسة يدل على فضيلته، وكذا ما ورد في ذم الأمن من مكر الله يدل على فضيلته، لأنه ضده، وذم الشيء مدح لضده الذي ينفيه.

---

(١) الانبياء، الآية: ٩٠.

(٢) السجدة، الآية: ١٦.

ومما يدل على فضيلته ما ثبت بالتواتر من كثرة خوف الملائكة والأنبياء وأئمة الهدى عليهم السلام كخوف جبرائيل، وميكائيل، واسرافيل، وحملة العرش، وغيرهم من الملائكة المهيمين والمسلمين. وكخوف نبينا، وابراهيم، وموسى، وعيسى، وداود، ويحيى... وغيرهم. وخوف أمير المؤمنين وسيد الساجدين وسائر الأئمة الطاهرين عليهم السلام وحكاية خوف كل منهم في كتب المحدثين مذكورة وفي زبرهم مسطورة، فليرجع اليها من أراد، ومن الله العصمة والسداد.

فصل

(الخوف إذا جاوز حده كان مذموماً)

اعلم ان الخوف ممدوح إلى حد، فان جاوزه كان مذموماً. وبيان ذلك: أن الخوف سوط الله الذي يسوق به العباد إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب إليه تعالى ولذة المحبة والأنس به، وكما أن السوط الذي تساق به البهيمة ويأدب به الصبى، له حدّ في الاعتدال، لو قصر عنه لم يكن نافعاً في السوق والتأديب، ولو تجاوز عنه في المقدار أو الكيفية أو المبالغة في الضرب كان مذموماً لأدائه إلى إهلاك الدابة والصبى، فكذلك الخوف الذي هو سوط الله لسوق عباده له حد في الاعتدال والوسط، وهو ما يوصل إلى المطلوب، فان كان قاصراً عنه كان قليل الجدوى، وكان كقضيب ضعيف يضرب به دابة قوية، فلا يسوقها إلى المقصد. ومثل هذا الخوف يجرى مجرى رقة النساء عند سماع شيء محزن يورث فيهن البكاء، وبمجرد انقطاعه يرجعن إلى حالهن الأولى، اومجرى خوف بعض الناس عند مشاهدة سبب هائل، وإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة. فهذا خوف قاصر قليل الجدوى. فالخوف الذي لا يؤثر في الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً. ولو كان

مفرطاً ربما جاوز إلى القنوط وهو ضلال:

﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[١].

أو إلى اليأس وهو كفر:

﴿لَا يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[٢].

ولا ريب في أن الخوف المجاوز إلى اليأس والقنوط يمنع من العمل، لرفعهما نشاط الخاطر الباعث على الفعل، وايجابهما كسالة الأعضاء المانعة من العمل. ومثل هذا الخوف محض الفساد والنقصان وعين القصور والخسران، ولا رجحان له في نظر العقل والشرع مطلقاً، إذ كل خوف بالحقيقة نقص لكونه منشأ العجز، لأنه متعرض لمحذور لا يمكنه دفعه، وباعث الجهل لعدم اطلاعه على عاقبة أمره، إذ لو علم ذلك لم يكن خائفاً، لما مر من أن الخوف هو ما كان مشكوكا فيه، فبعض أفراد الخوف إنما يصير كمالاً بالإضافة إلى نقص أعظم منه، وباعتبار رفعه المعاصي وافضائه إلى ما يترتب عليه من الورع والتقوى والمجاهدة والذكر والعبادة وسائر الأسباب الموصلة إلى قرب الله وأنسه، ولو لم يؤد اليها كان في نفسه نقصاً لاكمالاً، إذ الكمال في نفسه هو ما يجوز أن يوصف الله تعالى به، كالعلم والقدرة وأمثالهما، وما لا يجوز وصفه به ليس كمالاً في ذاته، وربما صار محموداً بالإضافة إلى غيره وبالنظر إلى بعض فوائده، فما لا يفضى إلى فوائده المقصودة منه لافراطه فهو مذموم، وربما أوجب الموت أو المرض أو فساد العقل، وهو كالضرب الذي يقتل الصبى أو يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضواً من أعضائها.وإنما مدح صاحب الشرع الرجاء وكلف الناس به، ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضى إلى اليأس أو إلى أحد الأمور المذكورة. فالخوف المحمود ما يفضى إلى العمل مع بقاء الحياة وصحة البدن وسلامة العقل،

---

(١) الحجر، الآية: ٥٦.

(٢) يوسف، الآية: ٨٧.

فان تجاوز إلى إزالة شيء منها فهو مرض يجب علاجه، وكان بعض مشائخ العرفاء يقول للمرتاضين من مريديه الملازمين للجوع أياماً كثيرة: «احفظوا عقولكم، فانه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل». وما قيل: «إن من مات من خوف الله تعالى مات شهيداً» معناه ان موته بالخوف أفضل من موته في هذا الوقت بدونه، فهو بالنسبة إليه فضيلة، لا بالنظر إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وتحصيل المعارف، اذ للمترقي في درجات المعارف والطاعات له في كل لحظة ثواب شهيد أو شهداء، فأفضل السعادات طول العمر في تحصيل العلم والعمل، فكل ما يبطل العمر أو العقل والصحة فهو خسران ونقصان.

فصل

(طرق تحصيل الخوف الممدوح)

لتحصيل الخوف الممدوح وجلبه، طرق:

(الأول) أن يجتهد في تحصيل اليقين: أي قوة الايمان بالله، واليوم الآخر، والجنة، والنار، والحساب، والعقاب. ولا ريب في كونه مهيجاً للخوف من النار والرجاء للجنة. ثم الخوف والرجاء يؤديان إلى الصبر على المكاره والمشاق، وهو إلى المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام، ويقوى دوام الذكر على الانس، ودوام الفكر على كمال المعرفة، ويؤدي الانس وكمال المعرفة إلى المحبة، ويتبعها الرضا والتوكل وسائر المقامات. وهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين، فليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء، ولا بعدهما مقام سوى الصبر، ولا بعده سوى المجاهدة والتجرد لله ظاهراً وباطناً، ولا بعده سوى الهداية والمعرفة، ولا بعدهما سوى الانس والمحبة. ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته، وهو التوكل. فاليقين هو سبب الخوف، فيجب تحصيل

السبب ليؤدى إلى المسبب.

(الثانى) ملازمة التفكر في أحوال القيامة، وأصناف العذاب في الآخرة، واستماع المواعظ المنذرة، والنظر إلى الخائفين ومجالستهم، ومشاهدة أحوالهم واستماع حكاياتهم. وهذا مما يستجلب الخوف من عذابه تعالى، وهو خوف عموم الخلق، وهو يحصل بمجرد اصل الايمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، وإنما يضعف للغفلة أو ضعف الايمان، وتزول الغفلة والضعف بما ذكر. وأما الخوف من الله بأن يخاف البعد والحجاب ويرجو القرب والوصال، وهو خوف أرباب القلوب، العارفين من صفاته ما يقتضى الخوف والهيبة، المطلعين على سر قوله:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ﴾[(١)]. وقوله: ﴿إِتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[(٢)].

فالعلاج في تحصيله الارتقاء إلى ذروة المعرفة، إذ هذا الخوف ثمرة المعرفة بالله وبصفات جلاله وجماله، ومن لم يمكنه ذلك فلا يترك سماع الأخبار والآثار وملاحظة أحوال الخائفين من هيبته وجلاله، كالأنبياء والأولياء وزمرة العرفاء، فانه لا يخلو عن تأثير.

(الثالث) أن يتأمل في أن الوقوف على كنه صفات الله في حيز المحال، وأن الاحاطة بكنه الامور ليس في مقدرة البشر، إذ هي مرتبطة بالمشية ارتباطاً يخرج عن حد المعقول والمألوف. ومن عرف ذلك على التحقيق يعلم أن الحكم على أمر من الامور الآتية غير ممكن بالحدس والقياس، فضلاً عن القطع والتحقيق، وحينئذ يعظم خوفه ويشتد ألمه، وإن كانت الخيرات كلها له ميسرة ونفسها عن الدنيا بالمرة منقطعة، وإلى الله بشراشرها ملتفتة، إذ خطر الخاتمة وعسر الثبات على الحق مما

(١) آل عمران، الآية: ٢٨.

(٢) آل عمران، الآية: ١٠٢.

لا يمكن دفعه، وكيف يحصل الاطمئنان من تغير الحال، وقلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن، وأنه أشد تقلباً من القدر في غليانها، وقد قال مقلب القلوب:
﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾[1].

فانى للناس أن يطمئنوا وهو يناديهم بالتحذر، ولذا قال بعض العرفاء: «لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد، لأني لا أدرى ما ظهر له من التقلب»[2].

فصل
(خوف سوء الخاتمة وأسبابه)

قد اشير إلى أن أعظم المخاوف خوف سوء الخاتمة، وله أسباب مختلفة ترجع إلى ثلاثة:

(الأول) وهو الأعظم، وهو أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله، إما الجحود أو الشك، فتقبض الروح في تلك الحالة، وتصير عقدة الجحود أو الشك حجاباً بينه وبين الله تعالى، وذلك يقتضى البعد الدائم، والحرمان اللازم، وخسران الأبد، والعذاب المخلد.

ثم هذا الجحود أو الشك إما يتعلق ببعض العقائد الأصولية، كالتوحيد وعلمه تعالى أو غير ذلك من صفاته الكمالية، أو بضروريات أمر الآخرة والنبوة. وكل واحد من ذلك كاف في الهلاك وزهوق النفس على الزندقة. أو يتعلق بجميعها إما إصالة أو سراية، والمراد بالسراية أن الرجل ربما اعتقد في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف ما هو الحق والواقع، إما برأيه ومعقوله، أو بالتقليد، فإذا قرب الموت وظهرت سكراته

---

(١) المعارج، الآية: ٢٨.

(٢) نقل هذه الكلمة في احياء العلوم (ج ٤ ص ١٤٩) عن بعض العارفين، ولم يذكر اسمه أيضاً.

واضطرب القلب بما فيه، ربما انكشف بطلان ما اعتقده جهلا، إذ حال الموت حال كشف الغطاء، ويكون ذلك سبباً لبطلان بقية اعتقاداته أو الشك فيها، وإن كانت صحيحة مطابقة للواقع، إذ لم يكن عنده أولاً فرق بين هذا الاعتقاد الفاسد الذي انكشف فساده وبين سائر عقائده الصحيحة، فإذا علم خطأه في البعض لم يبق له اليقين والاطمئنان في البواقى. كما نقل أن (الفخر الرازى) بكى يوماً، فسألوه عن سبب بكائه، قال: «اعتقدت في مسألة منذ سبعين سنة على نحو انكشف اليوم لى بطلانه، فما أدرانى أن لا تكون سائر عقائدى كذلك». وبالجملة: إن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن ينيب ويعود إلى أصل الايمان، فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك، أعاذنا الله منه، وثبتنا على الاعتقاد الحق لديه، وهم المقصودون من قوله:

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[١]. ومن قوله: **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾**[٢].

والبُله: اعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ايماناً مجملاً راسخاً، بمعزل عن هذا الخطر، ولذلك ورد: أن أكثر أهل الجنة البله. وورد المنع من البحث والنظر والخوض في الكلام، والأخذ بظواهر الشرع، مع اعتقاد كونه تعالى منزهاً عن النقص متصفاً بما هو الغاية والنهاية من صفات الكمال. والسر في ذلك: أن البله إذا أخذوا بما ورد من الشرع واعتقدوا به، يثبتون عليه لقصور اذهانهم عن درك الشبهات وعدم اعتيادهم بالتشكيك، فلا يختلج ببالهم شك وشبهة ولو عند الموت.

وأما الخائضون في غمرات البحث والنظر، والآخذون عقائدهم من عقولهم

---

(١) الزمر، الآية: ٤٧.

(٢) الكهف، الآية: ١٠٣ ـ ١٠٤.

المزجاة، فليس لهم تثبت على عقائدهم، إذ العقول عن درك صفات الله وسائر العقائد الأصولية على ما هي عليه قاصرة، والأدلة التي يستخرجها مضطربة متعارضة، وابواب الشكوك والشبهات بالخوض والبحث تصير مفتوحة. فاذهانهم دائماً محل تعارض العقائد والشكوك، فربما ثبتت لهم عقيدة بملاحظة بعض دلائله، فيحصل لهم فيها طمأنينة، ثم يعرض لهم شك يرفعها أو يضعفها، فهم دائماً في غمرات الحيرة والاضطراب. فإذا كان حالهم هذا فأخذتهم سكرات الموت، فأى استبعاد في أن يختلج لهم حينئذ شك في بعض عقائدهم. ومثله مثل من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج، يرميه موج إلى موج، والغالب في مثله الهلاك، وان اتفق نادراً ان يرميه موج إلى الساحل. وقد نقل عن (نصير الدين الحلى) ـ وهو من أعاظم المتكلمين ـ انه قال: «انى تفكرت في العلوم العقلية سبعين سنة، وصنفت فيها من الكتب ما لا يحصى، ولم يظهر لى منها شيء سوى أن لهذا المصنوع صانعاً، ومع ذلك عجائز القوم في ذلك أشد يقيناً منى». فالصواب تلقى أصل الايمان والعقائد من صاحب الوحى، مع تطهير الباطن عن خبائث الأخلاق، والاشتغال بالطاعات وصوالح الأعمال، وعدم التعرض لما هو خارج عن طاقتهم من التفكر في حقائق المعارف، إلا من أيده الله بالقوة القدسية والقريحة المستقيمة، واشرق نور الحكمة في قلبه، وشمله خفى الألطاف من ربه، فله الخوض في غمرات العلوم. وأما غيره فينبغي أن يأخذ منه أصول عقائده الواردة من الشرع، ويشتغل بخدمته حتى تشمله بركات انفاسه، فإن العاجز عن المجاهدة في صف القتال ينبغى أن يسقى القوم ويتعهد دوابهم، ليحشر يوم القيامة في زمرتهم وإن كان فاقداً لدرجتهم.

(الثانى) ضعف الايمان في الأصل، ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله وقوى حب الدنيا في القلب، واستولى عليه بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله إلا من حيث حديث النفس، فلا يظهر له أثر في مخالفة النفس والشيطان، فيورث

ذلك الانهماك في اتباع الشهوات، حتى يظلم القلب ويسود، وتتراكم ظلمة الذنوب عليه، ولا يزال يطفيء ما فيه من نور الايمان حتى ينطفيء بالكلية، فإذا جاءت سكرة الموت ازداد حب الله ضعفاً، وربما عدم بالمرة، لما يستشعر من فراق محبوبه الغالب على قلبه، وهو الدنيا، فيتألم ويرى ذلك من الله، فيختلج ضميره بانكار ما قدره الله من الموت، وربما يحدث في باطنه بغض الله بدل الحب، لما يرى أن موته من الله، كما أن من يحب ولده حباً ضعيفاً، إذا أخذ مالاً له هو أحب إليه منه وأتلفه، انقلب حبه بغضاً. فان اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطر فيها الخطرة فقد ختم له بالسوء. نعوذ بالله من ذلك.

وقد ظهر أن السبب المفضي إلى ذلك غلبة حب الدنيا مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله، فمن وجد في قلبه حب الله اغلب من حب الدنيا فهو أبعد من هذا الخطر، وإن أحب الدنيا أيضاً، ومن وجد في قلبه عكس ذلك فهو قريب من هذا الخطر. والسبب في قلة حب الله قلة المعرفة به، إذ لا يحب الله إلا من عرفه، وإلى هذا القسم من سوء الخاتمة اشير في الكتاب الإلهي بقوله:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[١].

فمن فارقته روحه في حالة كراهة فعل الله وبغضه له في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه، فيكون موته قدوماً على ما أبغضه وفراقاً لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهراً، ولا يخفى ما يستحق مثله من الخزي والنكال. وأما الذي يموت على حب الله والرضا بفعله كان قدومه قدوم العبد

(١) التوبة، الآية: ٢٤.

المحسن المشتاق إلى مولاه، ولا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور.

(والثالث) كثرة المعاصي وغلبة الشهوات، وإن قوى الايمان. وبيان ذلك: ان مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الألف والعادة، وجميع ما ألفه الانسان في عمره يعود ذكره في قلبه عند موته، فان كان اكثر ميله إلى الطاعات كان اكثر ما يحضره عند الموت طاعة الله، وإن كان أكثر ميله إلى المعاصى غلب ذكرها على قلبه عنده، وإن كان اكثر شغله السخرية والاستهزاء والمزاح وأمثال ذلك كان الغالب عند الموت ذلك، وهكذا الحال في جميع الأشغال والأعمال الغالبة في عمره، فانها تغلب على قلبه عند موته، فربما يقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصى، فيعتقد بها قلبه، ويصير محجوباً عن الله تعالى. وهو المراد بالختم على السوء. فالذى غلبت عليه المعاصي والشهوات، وكان قلبه أميل اليها منه إلى الطاعة، فهذا الخطر قريب في حقه، ولا يميل اليها أصلاً، فهو بعيد منه جداً. ومن غلبت عليه الطاعات ولم يقارف المعاصى إلا نادراً، فلعل الراجح في حقه النجاة منه، وإن أمكن حصوله. ومن لم يغلب شيء من طاعاته ومعاصيه على الآخر فأمره في هذا الخطر إلى الله، ولا يمكن لنا الحكم بشيء من القرب والبعد في حقه.

والسر في ذلك: أن الغشية المتقدمة على الموت شبيهة بالنوم، فكما أن الانسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره وألفها، حتى انه لا يرى في منامه إلا ما يماثل مشاهداته في اليقظة، وحتى ان المراهق الذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع، فكذلك حاله عند سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية، لكونه شبيهاً بالنوم وإن كان فوقه، فيقتضى ذلك تذكر المألوفات وعودها إلى القلب، فربما يكون غلبة الألف سبباً لأن تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل نفسه اليها وتقبض عليها روحه، ويكون ذلك سبب سوء خاتمته، وان كان أصل الآيمان باقياً

بحيث يرجى له الخلاص منها بعناية الله وفضله. وكما أن ما يخطر بالبال في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص لا يعلمه بحقيقته أحد إلا الله، فكذلك ما يرى في آحاد المنامات وما يختلج في القلب عند سكرات الموت له أسباب عند الله لا نعرف بعضها، وربما نتمكن من معرفة بعضه، فانا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه، إما بالمشابهة، بأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلا آخر، وإما بالمضادة، بأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحاً، وإما بالمقارنة، بأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع انسان فيتذكر ذلك الانسان، وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء، ولا يدرى وجه المناسبة له، وربما ينتقل إلى شيء لا يعرف سببه أصلا. وكذلك انتقالات الخواطر بالمنام وعند سكرات الموت لها أسباب لا نعرف بعضها ونعرف بعضها بالنحو المذكور. ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال إلى المعاصي والشهوات، فلا طريق له إلا المجاهدة طول عمره في فطام نفسه عنها، وفي قمع الشهوات عن قلبه، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار، ويكون طول المجاهدة والمواظبة على العلم وتخلية السر عن الشواغل الدنيوية وتقييده بالتوجه إلى الله وحبه وأنسه عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت، إذ المرء يموت على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه، كما ورد في الخبر[1]. وقد دلت المشاهدة على أن كل أحد يكون عند موته مشغول القلب بما هو الغالب عليه طول عمره، حيث يظهر منه عنده ذلك، وأنما المخوف الموجب لسوء الخاتمة هو خاطر سوء يخطر، ومنه عظم خوف العارفين، إذ اختلاج الخواطر والاتفاقات المقتضية لكونها مذمومة أو ممدوحة لا يدخل تحت الاختيار دخولا كلياً، وان كان لطول الألف والعادة تأثير ومدخلية، ولذا إذا أراد الانسان ألا يرى في المنام إلا الأنبياء والأئمة عليهم السلام وأحوال الصالحين

(١) لم نعثر على مصدر لهذا الخبر، وجاء ذكر هذا الخبر مرسلا في (الحقائق) ـ ص ٨٨ طبع ايران ـ للشيخ (ملا محسن الفيض) ولم يذكر المصدر له.

والعبادات لم يتيسر له، وإن كانت كثرة الحب والمواظبة على الصلاح والطاعة مؤثرة فيه. وبالجملة: اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة. وبذلك يعلم ان أعمال العبد كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح، وان السلامة مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة، فيختم له بما سبق به الكتاب»، ومعلوم أن فواق الناقة لا يتسع لأعمال توجب الشقاوة، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف. ومن هنا قيل[١]: «إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا»، وورد[٢]: «أن الملائكة إذا صعدت بروح المؤمن، وقد مات على الخير والاسلام، تعجبت الملائكة منه، وقالوا: كيف نجا من دنيا فسد فيها خيارنا». ولذلك قيل[٣]: من وقعت سفينته في لجة البحر، وهجمت عليه الرياح العاصفة، واضطربت الأمواج، كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك، وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة، وأمواج الخواطر أعظم التطاماً من أمواج البحر، ومقلب القلوب هو الله. ومن هنا يظهر سر قوله: «الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم»[٤]. ولأجل هذا الخطر

---

(١) القائل هو (مطرف بن عبدالله) كما في احياء العلوم: ج ٤ ص ١٥٥.

(٢) يظهر من كلمة (ورد) ان هذا حديث. وفي احياء العلوم ـ ج ٤ ص ١٥٥ ـ كلام ينقله عن (حامد اللفاف).

(٣) القائل هو (الغزالي) في احياء العلوم، في الصفحة المتقدمة.

(٤) جاء نص هذا الكلام في اثناء كلام (الغزالي) في احياء العلوم ـ ج ٤ ص ١٥٦ ـ وكأنه من كلام نفسه. إلا انه جاء نص هذه العبارة في (مجموعة الشيخ ورام) ص ٣٢٠، عن النبي ﷺ مرسلا. وكذلك جاء في

لح

العظيم كانت الشهادة مطلوبة وموت الفجأة مكروهاً، اذ موت الفجأة ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب.

وأما الشهادة في سبيل الله فانها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب غير حب الله، وخرج حب الدنيا والمال والولد، فإن من هجم على صف القتال بامر الله وأمر رسوله يكون موطناً نفسه على الموت لرضا الله وحبه، بائعاً دنياه بآخرته، راضياً بالبيع الذي بايعه الله به في قوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[(١)].

وبذلك يظهر أن القتل لا بسبب الشهادة التي حقيقتها ما فسر، لا يفيد الاطمئنان من هذا الخطر، وإن كان ظلماً، وإن كان في الجهاد، إذا لم تكن هجرته فيه إلى الله ورسوله، بل إلى دنيا يصيبها أو امرأة يأخذها.

وقد ظهر مما ذكر: ان سوء الخاتمة باختلاف أسبابه راجع إلى احوال القلب، وحالة القلب إما خاطر خير أو خاطر سوء أو خاطر مباح، فمن زهق روحه على خاطر مباح لم يمكن الحكم بانه ختم على خير أو سوء، بل أمره إلى الله، وان كانت النجاة له اقرب بعد غلبة صالحات أعماله على فاسداتها، ومن زهق روحه على خاطر سوء وهو أحد الخواطر المتقدمة:

﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا بَعِيدًا ﴾، و ﴿خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾[(٢)].

ومن زهق روحه على خاطر خير وهو ان يكون قلبه في حالة الموت متوجهاً إلى الله ممتلياً من حبه وانسه «فقد فاز فوزاً عظيما». وهذا موقوف على المجاهدة في

☜(مصباح الشريعة) المنسوب إلى الصادق عليه السلام في الباب ٧٧ ما يقرب من هذا النص. فماذا نظن أراد المؤلف بقوله: (سر قوله)، هل أراد الغزالي يا ترى؟.

(١) التوبة، الآية: ١١١.

(٢) النساء، الآية: ١١٦، ١١٩.

فطام النفس عن الشهوات الحيوانية، واخراج حب الدنيا عنها رأساً، والاحتراز عن فعل المعاصي ومشاهداتها والتفكر فيها، وعن مجالسة أهلها واستماع حكاياتهم، بل عن مباحات الدنيا بالكلية، وتخلية السرّ عما سوى الله، والانقطاع بشراشره اليه، واخراج محبة كل شيء سوى محبته عن قلبه، حتى يصير حبه سبحانه والأنس به ملكة راسخة، ليغلب على القلب عند سكرة الموت، وبدون ذلك لا يمكن القطع بذلك، كيف وقد علمت أن الغشية المتقدمة على الموت شبه النوم، وأنت في غالب الرؤيا الظاهرة عليك في المنام لا تجد في قلبك حباً لله وأنساً به وتوجهاً اليه، بل لا يخطر ببالك أن لك رباً متصفاً بالصفات الكمالية، بل ترى ماكنت تألفه وتعتاده من الأمور الباطلة والخيالات الفاسدة، فان زهق روحك عند اشتغال خاطرك بشيء من الأمور الدنيوية، ولم يكن متوجهاً إلى الله ومستحضراً معرفته ومبتهجاً بحبه وأنسه، لبقيت على تلك الحالة أبداً، وهو الشقاوة العظمى والخيبة الكبرى.

فتيقظ ـ يا حبيبي ـ من سنة الغفلة، وتنبه عن سكر الطبيعة، واخرج حبّ الدنيا عن قلبك، وتوجه بشراشرك إلى جناب ربك، واكتف من الدنيا بقدر ضرورتك ولا تطلب منها فوق حاجتك، واقنع من الطعام ما يقيم صلبك ولا تكثر التناول منه ليزيل من ربك قربك، وارض من اللباس بما يستر عورتك ولا يظهر للناس سوءتك، واكتف من المسكن بما يحول بينك وبين الأبصار ويدفع عنك حرّ الشمس وبرد الأمطار، فان جاوزت عن ذلك تشعبت همومك وتكثرت غمومك، واحاط بك الشغل الدائم والعناء اللازم، وذهب عنك جل خيراتك وضاعت بركات أوقاتك. وبعد ذلك راقب قلبك في جميع الأوقات، واياك أن تهمله لحظة من اللحظات، واحفظه من ان يكون محلاً لغير معرفة الله وحبه، وليكن القرب إلى الله والانس به غاية همك، إذ العاقل انما يميل ويشتاق إلى ما هو الأشرف والأكمل، ويسر ويرتاح بماله احسن وانفع، ولا ريب في ان اشرف الموجودات واكملها هو سبحانه، بل هو

الموجود الحقيقى والكمال الواقعى، وغيره من الموجودات والكمالات من لوازم فيضه ورشحات وجوده وفضله، وله غاية ما يتصور من العلو والكمال والبهاء والجلال، وإن معرفته وحبه احسن الأشياء وانفعها لكل احد، لأنه الباعث للسعادة الأبدية والبهجة الدائمية، فلا ينبغى للعاقل ان يترك ذلك اشتغالاً بفضول الدنيا وخسائسها، بل يلزم عليها ان يترك حبلها على غاربها، ويخلص نفسه الشريفة عن مخالبها، ويتوجه بكليته إلى جناب ربه، ولم يكن فرحه وابتهاجه إلا بحبه وانسه.

فصل

(الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله)

ضد الخوف المذموم هو اطمئنان القلب في الأمور المذكورة، ولا ريب في كونه فضيلة وكمالا، إذ قوة القلب وعدم اضطرابه مما يحكم العقل بعدم الحذر عنه صفة كمال، ونقيضه نقص ورذيلة.

وأما الخوف الممدوح، فضده الأمن من مكر الله، وهو من المهلكات، وقد ورد به الذمّ في الآيات والأخبار، قال الله سبحانه:

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَٰسِرُونَ﴾[١].

وقد ثبت بالتواتر: أن الملائكة والأنبياء كانوا خائفين من مكره، كما روى: «انه لما ظهر على ابليس ما ظهر، طفق جبرئيل وميكائيل يبكيان، فأوحى الله اليهما: ما لكما تبكيان؟ فقالا: يا رب! لا نأمن مكرك. فقال الله: هكذا كونا، لا تأمنا مكرى». وروى: «أن النبى ﷺ وجبرئيل بكيا من خوف الله تعالى، فأوحى الله اليهما: لم تبكيان وقد أمنتكما؟ فقالا: ومن يأمن مكرك؟» وكأنهما لم يأمنا أن يكون قوله (قد

(١) الأعراف، الآية: ٩٩.

أمنتكما) ابتلاء لهما وامتحاناً، حتى أن سكن خوفهما[1] ظهر أنهما قد أمنا المكر وما وفيا بقولهما، كما أن ابراهيم عليه السلام لما وضع في المنجنيق قال: حسبى الله. وكان هذا القول منه من الدعاوى العظيمة، فامتحن وعورض بجيرئيل عليه السلام في الهواء حتى قال: ألك حاجة؟ قال: أما اليك فلا. وكان ذلك وفاء بمقتضى قوله، فاخبر الله تعالى عنه وقال:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[2].

وبالجملة: ينبغى للمؤمن ألا يأمن من مكر ربه، كما لم يأمن منه الملائكة والأنبياء، وإذا لم يأمن منه كان خائفاً منه دائماً.

تتميم
(التلازم بين الخوف والرجاء)

الرجاء ارتياح القلب لانتظار المحبوب، وهو يلازم الخوف، إذ الخوف ـ كما عرفت ـ عبارة عن التألم من توقع مكروه ممكن الحصول، وما يمكن حصوله يمكن عدم حصوله أيضاً، وما كان حصوله مكروهاً كان عدم حصوله محبوباً، فكما انه يتألم بتوقع حصوله يرتاح ليتوقع عدم حصوله أيضاً، فالخوف عن شيء وجوداً يلزمه الرجاء عدماً، وعنه عدماً يلزمه الرجاء وجوداً. وقس عليه استلزام الرجاء للخوف، فهما متلازمان، وإن أمكن غلبة أحدهما نظراً إلى كثرة حصول اسبابه. وان تيقن الحصول أو عدمه لم يكن انتظارهما خوفاً ورجاءً، بل سمى انتظار مكروه أو انتظار محبوب.

---

(١) هذه العبارة لبيان الابتلاء والامتحان، يعنى: انهما يخشيان إذا سكن خوفهما أن يظهر انهما قد أمنا المكر ولم يوفيا بقولهما فيكون ذلك امتحاناً لهما.

(٢) النجم، الآية: ٣٧.

ثم كما أن الخوف من متعلقات قوة الغضب، وان الممدوح منه من فضائلها، لكونه مقتضى العقل والشرع، وباعثاً للعمل من حيث الرهبة، فكذا الرجاء متعلق بها ومن فضائلها، لكونه مقتضاهما وباعثاً للعمل من حيث الرغبة. إلا أن الخوف لترتّبه على ضعف القلب يكون اقرب إلى طرف التفريط، والرجاء لترتّبه على قوته يكون أقرب إلى طرف الافراط، وإن كان كلاهما ممدوحين. ثم لابدّ أن يحصل اكثر أسباب حصول المحبوب حتى يصدق اسم الرجاء على انتظاره، كتوقع الحصاد ممن ألقى بذراً جيداً في أرض طيبة يصلها الماء. وأما انتظار ما لم يحصل شيء من أسبابه فيسمى غروراً وحماقة، كتوقع من ألقى بذراً في أرض سبخة لا يصلها الماء. وانتظار ماكان أسبابه مشكوكة يسمى تمنياً، كما إذا صلحت الأرض ولا ماء.

وتفصيل ذلك: أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والايمان كالبذر، والطاعات هي الماء الذي تسقى به الأرض، وتطهير القلب من المعاصي والأخلاق الذميمة بمنزلة تنقية الأرض من الشوك والاحجار والنباتات الخبيثة، ويوم القيامة هو وقت الحصاد. فينبغي أن يقاس رجاء العبد (المغفرة) برجاء صاحب الزرع (التنمية)، وكما أن من ألقى البذر في أرض طيبة، وساق اليها الماء في وقته، ونقاها الشوك والاحجار، وبذل جهده في قلع النباتات الخبيثة المفسدة للزرع، ثم جلس ينتظر كرم الله ولطفه مؤملاً أن يحصل له وقت الحصاد مائة قفيز مثلاً، سمي انتظاره رجاء ممدوحاً، فكذلك العبد إذا طهّر أرض قلبه عن شوك الأخلاق الرديّة وبث فيه بذر الايمان بماء الطاعات، ثم انتظر من فضل الله تثبيته إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه. وكما أن من تغافل عن الزراعة واختار الراحة طول السنة، أو ألقى البذر في ارض سبخة مرتفعة لا ينصبّ اليها ماء، ولم يشتغل بتعهّد البذر واصلاح الأرض من النباتات المفسدة للزرع، ثم جلس منتظراً إلى أن ينبت له زرع يحصده، سمى انتظاره حمقاً وغروراً.

كذلك من لم يلق بذر الايمان في أرض قلبه، أو ألقاه فيه مع كونه مشحوناً برذائل الأخلاق منهمكاً في خسائس الشهوات واللذات، ولم يسق اليها ماء الطاعات، ثم انتظر المغفرة، كان انتظاره حمقاً وغروراً. وكما أن من بث البذر في ارض طيبة لا ماء لها، وجلس ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار، وإن لم يمتنع أيضاً، سمى انتظاره تمنّياً. كذلك من ألقى بذر الايمان في أرض قلبه، ولكنه لم يسق إليه ماء الطاعات، وانتظر المغفرة بلطفه وفضله، كان انتظاره تمنياً.

فاذن، اسم (الرجاء) إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات. فالأحاديث الواردة في الترغيب على الرجاء وفي سعة عفو الله وجزيل رحمته ووفور مغفرته، إنما هي مخصوصة بمن يرجو الرحمة والغفران بالعمل الخاص المعدّ لحصولهما، وترك الانهماك في المعاصى المفوت لهذا الاستعداد. فاحذر أن يغرك الشيطان ويثبطك عن العمل ويقنعك بمحض الرجاء والأمل. وانظر إلى حال الأنبياء والأولياء واجتهادهم في الطاعات وصرفهم العمر في العبادات ليلاً ونهاراً، أما كان يرجون عفو الله ورحمته؟ بلى والله! إنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأرجى لها منك ومن كل أحد، ولكن علموا أن رجاء الرحمة من دون العمل غرور محض وسفه بحت، فصرفوا في العبادات أعمارهم وقصروا على الطاعات ليلهم ونهارهم.

ونحن نشير «أولا» إلى بعض ما ورد في الرجاء من الآيات والأخبار، ثم نورد نبذاً مما يدل على انه لا معنى للرجاء بدون العمل، ليعلم أن اطلاق الأول محمول على الثاني. فنقول: الظواهر الواردة في الرجاء أكثر من أن تحصى، وهي على أقسام:

(الأول) ما ورد في النهى عن القنوط واليأس من رحمة الله كقوله تعالى:

﴿يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[١].

وقول علي عليه السلام لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه: «أيا هـذا! يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك». وما روي: «أنه صلى الله عليه وآله لما قال: لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون إلى ربكم. فهبط جبرئيل عليه السلام فقال: إن ربك يقول: لم تقنط عبادى؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم». وما ورد: «ان رجلاً من بنى اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم، فيقول الله له يوم القيامة: اليوم أو يسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادى منها».

(الثانى) ما ورد في الترغيب على خصوص الرجاء وكونه سبب النجاة، كما ورد في أخبار يعقوب من «أنه تعالى أوحى إليه أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف؟ لقولك:

﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ﴾[٢].

لم خفت الذئب ولم ترجنى؟ ولم نظرت إلى غفلة اخوته ولم تنظر إلى حفظى؟». وقول أمير المؤمنين عليه السلام لرجل قال عند النزع: أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى: «ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف»[٣]. وقول النبى صلى الله عليه وآله: «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك اذ رأيت المنكر أن تنكره؟ فان لقنه الله حجته، قال: رب رجوتك وخفت الناس، فيقول الله: قد غفرته لك». وما روى عنه صلى الله عليه وآله: «ان رجلاً يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى يا حنان يا منان، فيقول الله لجبرئيل: اذهب فأتنى بعبدى،

---

(١) الزمر، الآية: ٥٣.

(٢) يوسف، الآية: ١٣.

(٣) روى (احياء العلوم: ج ٤ ص ١٢٥) هذا الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله.

فيجيء به، فيوقفه على ربه، فيقول الله له: كيف وجدت مكانك؟ فيقول: شر مكان، فيقول: رده إلى مكانه. قال: فيمشي ويلتفت إلى ورائه، فيقول الله عز وجل: إلى أي شيء تلتفت؟ فيقول: لقد رجوت ألا تعيدني اليها بعد إذ أخرجتني منها، فيقول الله تعالى: اذهبوا به إلى الجنة». وقوله ﷺ: «قال الله تعالى: لا يتكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فانهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم اعمارهم في عبادتي، كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي، فيما يطلبون عندي من كرامتي، والنعيم في جناتي، ورفيع الدرجات العلى في جواري، ولكن برحمتي فليثقوا، وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا، وفضلي فليرجوا[1]، فان رحمتي عند ذلك تدركهم، ومَنّي يبلغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي، فاني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت». وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «وجدنا في كتاب علي عليه السلام ان رسول الله ﷺ قال وهو على منبره: والذي لا إله إلا هو ما أعطى مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين،والذي لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن، لأن الله كريم بيده الخيرات يستحيي[2] أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يختلف ظنه ورجاءه، فاحسنوا بالله الظن وارغبوا اليه».

(الثالث) ما ورد في استغفار الملائكة والأنبياء للمؤمنين كقوله تعالى:

---

(١) في الكافي في (باب حسن الظن بالله عز وجل) تقديم وتأخير عما هنا، فقد جاء فيه: «وفضلي فليرجوا وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا».

(٢) في الكافي في (باب حسن الظن): (يستحي).

﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[(١)].

وقوله ﷺ: «حياتى خير لكم وموتى خير لكم، أما حياتى فاسنّ لكم السنن واشرّع لكم الشرائع، وأما موتى فان أعمالكم تعرض عليّ، فما رأيت منها حسناً حمدت الله عليه وما رأيت منها سيئاً استغفرت الله لكم».

(الرابع) ما ورد في تأجيل المذنب إلى ان يستغفر، كقول الباقر عليه السلام: «إن العبد إذا أذنب أجل من غدوة إلى الليل، فان استغفر لم يكتب عليه»[(٢)]. وقول الصادق عليه السلام: «من عمل سيئة أجل فيها سبع ساعات من النهار، فان قال: استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحى القيوم واتوب إليه ثلاث مرات، لم تكتب عليه».

(الخامس) ما ورد في شفاعة النبى ﷺ كقوله تعالى:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[(٣)].

وقد ورد في تفسيره انه لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار، وقوله ﷺ: «ادخرت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى»، وكذا ما ورد في شفاعة الأئمة والمؤمنين.

(السادس) ما ورد من البشارات للشيعة ومن عدم خلودهم في النار، ومن أن حب النبى ﷺ والعترة الطاهرة ينجيهم من العذاب، وان فعلوا ما فعلوا.

(السابع) ما دل على أن النار إنما أعدها الله لأعدائه من الكافرين، وإنما يخوف بها أوليائه، كقوله تعالى:

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾[(٥)]، وقوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ٱلَّذِى

---

(١) الشورى، الآية: ٥.

(٢) روى الكافى في (باب الاستغفار من الذنب) هذا الحديث عن الصادق عليه السلام.

(٣) الضحى، الآية: ٥.

(٤) الزمر، الآية: ١٦.

(٥) آل عمران، الآية: ١٣١.

كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[١].

(الثامن) ما ورد في سعة عفو الله ومغفرته ووفور رأفته ورحمته، كقوله:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾[٢].

وما روى في تفسير قوله تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾[٣]:

«ان الله أوحى إلى نبيه: إنى أجعل حساب أمتك اليك. فقال: لا يا رب! أنت خير لهم منى[٤]، فقال: إذن لا أخزيك فيهم». وما روى: «انه ﷺ قال يوماً: يا كريم العفو! فقال جبرئيل: أتدرى ما تفسير يا كريم العفو؟ هو: انه يعفو عن السيئات برحمته ثم يبدلها حسنات بكرمه»[٥]. وما ورد: أن العبد إذا أذنب فاستغفر، يقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدى أذنب ذنباً، فعلم أنه له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب، أشهدكم أنى قد غفرت له. وما ورد في الخبر القدسى: «إنما خلقت الخلق ليربحوا عليّ، ولم أخلقهم لأربح عليهم». وما ورد من «أنه لو لم يذنبوا، لخلق الله تعالى خلقاً يذنبون ليغفر لهم». وقوله ﷺ: «والذي نفسى بيده. الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها». وما ورد من «أنه سبحانه ليغفرن يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد، حتى أن ابليس يتطاول لها رجاء أن تصيبه». والآيات والأخبار الواردة في هذا المعنى متجاوزة عن حد التواتر.

(التاسع) ما دل على أن ابتلاء المؤمن في الدنيا بالبلايا والأمراض كفارة لذنوبه،

---

(١) الليل، الآية: ١٥ ـ ١٦.

(٢) الرعد، الآية: ٦.

(٣) التحريم، الآية: ٨

(٤) في (احياء العلوم: ج ٤ ص ١٢٨) هكذا: «أنت أرحم بهم منى»، وكذا بدل، لا أخزيك: «لا نخزيك».

(٥) في (احياء العلوم: ص ١٢٩ من ج ٤) هكذا: «هو ان عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه».

كقوله ﷺ: «الحمى من قيح جهنم، وهي حظ المؤمن من النار».

(العاشر) ما ورد في أن الايمان لا يضر معه عمل، كما أن الكفر لا ينفع معه عمل، وفي أنه قد يغفر الله عبداً ويدخله الجنة لأجل مثقال ذرة من الايمان أو عمل جزئى من الأعمال الصالحة.

(الحادى عشر) ما ورد في الترغيب على حسن الظن بالله، كقوله ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»، وقوله ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء». وقول الرضا عليه السلام: «أحسن الظن بالله، فان الله عز وجل يقول: أنا عند ظن عبدى لى، إن خيراً فخير وإن شراً فشر». وقول الصادق عليه السلام: «حسن الظن بالله: ألا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا ذنبك». وقد تقدم بعض أخبار أخر في هذا المعنى. ثم ايجاب حسن الظن للرجاء وجلبه له مما لا ريب فيه.

(الثانى عشر) ما دل على أن الكفار أو النصّاب يكونون يوم القيامة فداء للمؤمنين أو الشيعة، كما روى انه ﷺ قال: «امتى امة مرحومة لا عذاب عليهاالآخرة، وعجل عقابها في الدنيا بالزلازل والفتن، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من امتى رجل من أهل الكتاب، فقيل هذا فداؤك من النار». وعن أهل البيت عليهم السلام: «ان النصاب يجعلون فداء لشيعتنا بظلمهم اياهم ووقيعتهم فيهم». وعن الصادق عليه السلام: «سيؤتى بالواحد من مقصرى شيعتنا في أعماله، بعد أن صان الولاية والتقية وحقوق إخوانه، ويوقف بازائه ما بين مائة واكثر من ذلك إلى مائة الف من النصاب، فيقال له: هؤلاء فداؤك من النار، فيدخل هؤلاء المؤمنون إلى الجنة وأولئك النصاب إلى النار، وذلك ما قال الله تعالى:

﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسلِمِينَ﴾[(١)] في الدنيا منقادين للامامة، ليجعل

---

(١) الحجر، الآية: ٢.

مخالفوهم من النار فداءهم».

وأما «الثاني» ـ اعني ما يدل على أن رجاء المغفرة والعفو والرحمة إنما هو بعد العمل ـ فأكثر من أن يحصى، كقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾[١]. وقوله: **﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾**[٢].

وقول النبي ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة». وما روى عن الصادق عليه السلام أنه قيل له: قوم يعملون بالمعاصى ويقولون: نرجوا، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت، فقال: «هؤلاء قوم يترجحون في الامانى كذبوا ليسوا براجين، «إن»[٣] من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه». وعن على بن محمد، قال: قلت له عليه السلام: إن قوماً من مواليك يلمون بالمعاصى ويقولون نرجوا، فقال: «كذبوا، ليسوا لنا بموال، أولئك قوم ترجحت بهم الأمانى. من رجا شيئاً عمل له، ومن خاف شيئاً هرب منه». وعنه قال: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو».

فصل

(مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر)

قد عرفت أن الخوف والرجاء محمودان، لكونهما باعثين على العمل،

---

(١) البقرة، الآية: ٢١٨.

(٢) الأعراف، الآية: ١٦٩.

(٣) روى الحديث في الكافى (باب الرجاء)، وليس فيه كلمة «إن».

ودواءين يداوى بهما أمراض القلوب، ففضل كل منهما إنما هو بحسب ما يترتب عليه من فائدة العمل ومعالجة المرض.

وهذا يختلف باختلاف الأشخاص: فمن كان تأثير الخوف في بعثه على العمل اكثر من تأثير الرجاء فيه، فالخوف له أصلح من الرجاء، ومن كان بالعكس فبالعكس ومن غلب عليه مرض الأمن من مكر الله والاغترار به، فالخوف له أصلح. ومن غلب عليه اليأس والقنوط، فالرجاء له أصلح. ومن انهمك في المعاصي، فالخوف له أصلح. ومن ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه، فالأصلح له ان يعتدل خوفه ورجاؤه.

والوجه في ذلك: أن كل ما يراد به المقصود، ففضله إنما يظهر بالاضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه، فلو فرض تساويهما في البعث على العمل ولم يغلب شيء من المذكورات، فالأصلح اعتدالهما، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام لبعض ولده: «يا بني! خف الله خوفاً ترى أنك إن اتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك، وارج الله رجاء كأنك لو اتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك». وقال الباقر عليه السلام: «ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، وقد جمع الله سبحانه بينهما في وصف من أثنى عليهم، فقال: يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، وقال: يدعوننا رغباً ورهباً». وعن الحارث بن المغيرة قال: قلت للصادق عليه السلام: ما كان في وصية لقمان؟ قال: «كان فيها الأعاجيب، وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه: خف الله عز وجل خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك، وارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك»، ثم قال عليه السلام: «كان أبي عليه السلام يقول: إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا».

وقال عليه السلام: «الخوف رقيب القلب، والرجاء شفيع النفس، ومن كان بالله عارفاً

كان من الله خائفاً وإليه راجياً، وهما جناحا الايمان، يطير العبد المحلق بهما إلى رضوان الله، وعينا عقله، يبصر بهما إلى وعد الله ووعيده، والخوف طالع عدل الله وناعي وعيده، والرجاء داعي فضل الله، وهو يحيي القلب، والخوف يميت النفس... ومن عبد الله على ميزان الخوف والرجاء لا يضل، ويصل إلى مأموله، وكيف لا يخاف العبد وهو غير عالم بما تختم صحيفته، ولا له عمل يتوسل به استحقاقاً، ولا قدرة له على شيء ولا مفر، وكيف لا يرجو وهو يعرف نفسه بالعجز، وهو غريق في بحر آلاء الله ونعمائه، من حيث لا تحصى ولا تعد، والمحب يعبد ربه على الرجاء بمشاهدة أحواله بعين سهر[١]، والزاهد يعبد على الخوف»[٢].

وقد ظهر مما ذكر: أن الرجاء أصلح وأفضل في موضعين: **(احدهما)** في حق من تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض، وكان الرجاء باعثاً له على التشمير والنشاط للطاعات، ومثله ينبغي أن يرجّي نفسه نعم الله تعالى وما وعد الله به الصالحين في العليين، حتى ينبعث من رجائه نشاط العبادة. **(وثانيهما)** في حق العاصي المنهمك إذا خطر له خاطر التوبة، فيقنطه الشيطان من رحمة الله، ويقول له: كيف تقبل التوبة من مثلك؟ فعند هذا يجب عليه أن يقمع قنوطه بالرجاء ويتذكر ما ورد فيه، كقوله تعالى:

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾[٣]. وقوله: **﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ﴾**[٤].

---

(١) هكذا في نسخ هذا الكتاب ونسخة البحار، ولم نعثر على استعمال (سهر) للمبالغة في معنى ساهرة.

(٢) هذه الرواية نقلها في البحار (الجزء الثاني من المجلد ١٥ في باب الخوف والرجاء) عن مصباح الشريعة. وقد تقدم رأي صاحب البحار في مصباح الشريعة ص ١٢١ في تعليقتنا. وهذه الرواية ظاهرة انها ليست من اسلوب كلام الامام عليه السلام.

(٣) الزمر، الآية: ٥٣.

(٤) طه، الآية: ٨٢.

ويتوب ويتوقع المغفرة مع التوبة لا بدونها، إذ لو توقّع المغفرة مع الاصرار كان مغروراً. والرجاء الأول يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمير، والثاني يقطع القنوط المانع من التوبة.

فصل

(العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف)

العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف، لأن أقرب العباد أحبهم اليه، والحب يغلب بالرجاء. واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لعطائه، ولذلك عيَّر الله أقواماً يظنون السوء بالله، قال:

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾(١). وقال: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾(٢).

وورد في الرجاء وحسن الظن ما ورد ـ كما تقدم ـ وفي الخبر: «ان الله تعالى أوحى إلى داود: أحِبني وأحب من يحبني وحببني إلى خلقي، فقال: يا رب! كيف احببك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، واذكر آلائي واحساني، وذكرهم ذلك، فانهم لا يعرفون مني إلا الجميل». ورأى بعض الأكابر في النوم ـ وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء ـ فقال: «أوقفني الله بين يديه، فقال: ما الذي حملك على ذلك؟ فقلت: أردت أن أحببك إلى خلقك، فقال: قد غفرت لك».

هذا مع ان الرجاء أفضل من الخوف للعبد بالنظر إلى مطلعهما، إذ الرجاء مستقى من بحر الرحمة والخوف مستقى من بحر الغضب. ومن لاحظ من صفات الله ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقام. وأما

---

(١) فصلت، الآية: ٢٣.

(٢) الفتح، الآية: ١٢.

الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضى الغضب، فلا تمازجه المحبة كممازجتها للرجاء. نعم، لما كانت المعاصى والاغترار على الخلق أغلب، (لا) سيما على الموجودين في هذا الزمان، فالأصلح لهم غلبة الخوف، بشرط ألا يخرجهم إلى اليأس وقطع العمل، بل يحثهم على العمل. ويكدر شهواتهم، ويزعج قلوبهم عن الركون إلى دار الغرور، ويدعوهم إلى التجافى عن عالم الزور. إذ مع غلبة المعاصى على الطاعات لا ريب في أصلحية الخوف، (لا) سيما أن الآفات الخفية: من الشرك الخفى، والنفاق، والرياء، وغير ذلك من خفايا الأخلاق الخبيثة في أكثر الناس موجودة، ومحبة الشهوات والحطام الدنيوى في بواطنهم كامنة، وأهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده ممكنة، ومناقشات الحساب ورد أعمالهم الصالحة لأسباب خفية محتملة، فمن عرف حقائق هذه الامور، فان كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه، وإن كان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه. وأما أن يغلب رجاؤه فلا، بل غلبته إنما هو من الاغترار وقلة التدبر، كما في غالب الناس، بل الأصلح لهم غلبة الخوف، ولكن قبل الاشراف على الموت، وأما عنده فالأصلح لهم غلبة الرجاء وحسن الظن، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل، وقد انقضى وقته، وهو لا يطيق هنا أسباب الخوف، لأنها تقطع نياط قلبه وتعين على تعجيل موته. وأما روح الرجاء فيقوى قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه.

وينبغى ان لا يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله، ليكون محباً للقائه، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن احب الله ولقاءه، وعلم انه تعالى ايضاً يحب لقاءه، اشتاق إليه تعالى، وكان فرحاناً بالقدوم عليه، إذ من قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته، ومن فارق محبوبه اشتد عذابه ومحنته، فمهما كان الغالب على القلب عند الموت حب الأهل والولد والمال كانت محابه كلها في الدنيا، فكانت الدنيا جنته، إذ

الجنة هي البقعة الجامعة لجيمع المحاب، فكان موته خروجاً عن الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه. وهذا أول ما يلقاه كل محب للدنيا، فضلا عما أعد الله له من ضروب الخزى والنكال والسلاسل والأغلال. وأما إذا لم يكن له محبوب سوى الله وسوى معرفته وحبه وانسه، فالدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب، فالدنيا أول سجنه، إذ السجن هي البقعة المانعة عن الوصول إلى محابه، فموته خلاص له من السجن وقدوم على المحبوب، ولا يخفى حال من خلص من السجن وخلى بينه وبين محبوبه، وهذا أول ابتهاج يلقاه من كان محباً لله غير محب للدنيا وما فيها، فضلا عما اعده الله له مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فصل

(مداواة الناس بالخوف أو الرجاء على اختلاف امراضهم)

قد عرفت أن المحتاج إلى تحصيل دواء الرجاء من غلب عليه اليأس فترك العبادة، أو غلب عليه الخوف فاسرف فيها حتى أضر بنفسه وأهله. وأما المنهمكون في طغيان الذنوب والمغررون بما هم فيه من الفساد والخوف ـ كأكثر أبناء زمانناـ فأدوية الرجاء بالنسبه اليهم سموم مهلكة، إذ لا يزداد سماعهم لها إلا تمادياً في طغيانهم وفساداً في فسادهم وعصيانهم، فواعظ الخلق ينبغي أن يعرف أمراضهم وينظر إلى مواقع عللهم، ويعالج كل علة بما يضادها لا بما يزيدها، ففي مثل هذا الزمان ينبغي ألا يذكر لهم بواعث الرجاء، بل يبالغ في ذكر أسباب الخوف، لئلا يهلكهم ويرديهم بالكلية، ولا يقصد بموعظته استمالة القلوب وتوقع الثناء من الناس، فينتقل إلى الترغيب على الرجاء لكونه أخف على القلوب وألذّ عند النفوس، فيهلك ويهلكهم ويضل ويضلهم.

وبالجملة: الطريق إلى تحصيل الرجاء لمن يحتاج اليه: أن يتذكر الآيات

والأخبار المتواترة الواردة فيه وفي سعة رحمته ووفور عفوه ورأفته ـ كما تقدم شطر منها ـ ثم يتأمل في لطائف نعمائه وعجائب آلائه لعباده في دار الدنيا، حتى أعد لهم كل ما هو ضروري لهم في دوام الوجود، بل لم يترك لهم شيئاً جزئياً يحتاجون إليه نادراً يفوت بفقده ما هو الأصلح الاولى لهم من الزينة والجمال. فإذا لم تقصر العناية الإلهية عن عباده في جميع مايحب ويحسن لهم من اللطف والاحسان في دار الدنيا ـ وهي حقيقة دار البلية والمحنة لا دار النعمة والراحة ـ ولم يرض أن يفوته شيء من المزائد والمزايا في الحاجة والزينة، فكيف يرضى في دار الآخرة التي هي دار الفيض والجود بسياقهم إلى الهلاك المؤبد والعذاب المخلد، مع انه تعالى أخبر بأن رحمته سابقة على غضبه؟! وأقوى ما يجلب به الرجاء أن يعلم أن الله تعالى خير محض لا شرية فيه أصلا، وفياض على الاطلاق، وإنما أوجد الخلق لافاضة الجود والاحسان عليهم، فلابد أن يرحمهم ولا يبقيهم في الزجر الدائم.

از خير محض جز نكوئى نايد

خوش باش كه عاقبت نكو خواهد شد[١]

ومنها:

صغر النفس

وهو ملكة العجز عن تحمل الواردات، وهو من نتائج الجبن، ومن خبائث الصفات. وتلزمه الذلة والمهانة، وعدم الاقتحام في معالى الامور، والمسامحة في النهى عن المنكر والأمر بالمعروف، والاضطراب بعروض أدنى شيء من البلايا والمخاوف. وقد ورد في الأخبار بأن المؤمن برىء عن ذلة النفس، قال الصادق عليه السلام:

---

(١) و حاصل معنى هذا البيت: (ان الخير المحض لا يصدر عنه إلا الجميل، فكن مطمئناً ان عاقبتك ستكون الى الجميل).

«ان الله عز وجل فوض إلى المؤمن أموره كله ولم يفوض إليه أن يكون ذليلا: أما تسمع الله تعالى يقول:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]؟.

فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلا، ان المؤمن أعز من الجبل، الجبل يستقل منه[٢] بالمعاول والمؤمن لا يستقلُّ من دينه شيء». وقال عليه السلام: «إن الله فوض إلى المؤمن كل شيء إلا إذلال نفسه». وقد وردت بهذا المضمون أخبار أخر. وعلاجه ما تقدم في معالجة الجبن.

وصل

(كبر النفس وصلابتها)

وضده (كبر النفس وصلابتها)، وقد عرفت أنه ملكة التحمل لما يرد عليه كائناً ما كان. وقد دلت الأخبار على أن المؤمن ذو صلابة وعزة ومهابة، وكل ذلك فرع كبر النفس. قال الباقر عليه السلام: «المؤمن أصلب من الجبل»، وقال عليه السلام: «إن الله تعالى أعطى المؤمن ثلاث خصال: العز في الدنيا والآخرة، والفلح في الدنيا والآخرة، والمهابة في صدور الظالمين». وصاحب هذه الملكة لا يبالي بالكرامة والهوان، ويتساوى عنده الفقر واليسار والغنى والاعسار، بل الصحة والمرض والمدح والذم، ولا يتأثر بتقلب

---

(١) المنافقون، الآية: ٨

(٢) تقدم في صفحة ١٨٣/١ مضمون هذا الحديث، ورجحنا فيه كلمة (يستفل) بدل (يستقل) وفسرناها. ثم بعد التحقيق وجدنا ذلك الحديث المتقدم في اصول الكافي في باب صفات المؤمن بكلمة (يستقل) ـ بالقاف ـ وكذلك نسخ جامع السعادات هنا وهناك. وجاء في البحار (الجزء الاول من المجلد ١٥ ـ باب علامات المؤمن وصفاته ص ٥٩٦) في شرح هذا الحديث هكذا: «الجبل يستقل منه: من القلة، أي ينقص ويؤخذ منه بعضه بالفأس والمعول ونحوهما».

الامور والأحوال. وهي ملكة شريفة ليست شريعة لكل وارد، ولا يصل اليها إلا واحد بعد واحد، بل لا يحوم حولها إلا اوحدى من أفاضل الحكماء، أو ألمعى قوى القلب من أماثل العرفاء. وطريق تحصيلها ـ بعد تذكر شرافتها ـ أن يتكلف في المواظبة على آثارها والاجتناب عما ينافيها، حتى تحصل بالتدريج.

تتميم

(الثبات أخص من كبر النفس)

قد عرفت أن الثبات أخص من كبر النفس، وهو ملكة التحمل على الخوض في الأهوال، وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام، بحيث لا يعتريه الانكسار، وإن زادت وكثرت. وضده الاضطراب في الأهوال والشدائد، ومن جملة الثبات الثبات في الايمان، وهو اطمئنان النفس في عقائدها، بحيث لا يتزلزل فيها بالشبهات، قال الله تعالى:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾[(١)].

وهذا الاطمئنان من شرائط كسب الكمال وفضائل الأعمال، إذ ما لم تستقر النفس على معتقداتها في المبدأ والمعاد لم يحصل لها العزم البالغ على تحصيل ما يتوقف فائدته عليها، فمن ليس له هذا الثبات لا تجده ثابتاً ومواظباً على شيء من الأعمال الفاضلة، بل هو:

﴿كَالَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾[(٢)].

والمتصف به مواظب لها دائماً من غير فتور. وعدم هذا الثبات لعدم البصيرة الباطنة أو لضعف في النفس. فوجوده يحصل من المعرفة وقوة النفس، فهو من

(١) ابراهيم، الآية: ٢٧.

(٢) الانعام، الآية: ٧١.

فضائل العاقلة وقوة الغضب، وعدمه من رذائل إحداهما أو كليهما.

ومنها:

دناءة الهمة

وهو قصور النفس عن طلب معالى الامور وقناعتها بادانيها، وهو من نتائج ضعف النفس وصغرها. وضده (علو الهمة)، وهو ملكة السعى في تحصيل السعادة والكمال وطلب معالى الأمور، من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها، حتى لا يعتريه السرور بالوجدان ولا الحزن بالفقدان، بل لا يبالى في طريق الطلب بالموت والقتل وأمثالهما. وصاحب هذه الملكة هو المؤمن الحقيقى الشائق للموت، والموت تحفة له، واعظم سرور يصل اليه، كما ورد في الأخبار. وهو الذي يقول:

آن مرد نيم كز عدمم بيم آيد — كان بيم مرا خوشتر از اين بيم آيد
جانى است مرا بعاريت داده خدا — تسليم كنم چو وقت تسليم آيد[١]

ويقول:

مرگ اگر مرد است گو نزد من آى — تا در آغوششش در آرم تنگ تنگ
من از آن عمرى ستانم جاودان — آن زمن دلقى ستاند رنگ رنگ[٢]

ويقول:

---

(١) الأبيات كلها لـ(حافظ الشيرازى) المتقدم ذكره. ومعنى البيتين: (لست بذلك الرجل الذي يخشى من فناء نفسه، فان ما اخشى منه -وهو الموت- أحسن عندى من نفس الخوف منه، لأن نفسى قد أعارنيها الله تعالى، فعلىّ ان اسلمها عندما يطلب تسليم العارية).

(٢) معنى البيتين: (لو ان الموت رجل، فقل له: يأتينى حتى احتضنه شوقاً اليه، وألزه لزاً، وذلك لأنى آخذ منه الحياة الخالدة ويأخذ منى هذه الزخارف الفانية للوراث).

ايــن جـان عـاريت كـه بـحافظ سپرده دوست

روزى رخش بــــبينم وتســــليم وى كــنم[١]

وهذه الملكة من نتائج كبر النفس وشجاعتها، وهي أعـظم الفـضائل النـفسانية، إذ كل من وصل إلى المراتب العظيمة والأمـور العـالية فـانما وصـل اليـها لأجـلها، إذ صـاحبها لا يـرضى بـالمراتب الدنـية، ويشـمر لتـحصيل المـراتب العـالية والامـور المتعالية، وفي جوهر الانسان وجبلته أن يصل إلى كل ما يجتهد في طلبه:

﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢].

من طلب الشيء وجدّ وجد. ومن افراد علو الهمة الشهامة، وهو الحرص عـلى اقتناء عظائم الامور توقعاً لجميل الذكر على مر الدهور.

ومنها:

عدم الغيرة والحمية

وهو الاهمال في محافظة ما يـلزم مـحافظته: مـن الديـن، والعـرض، والأولاد، والأموال. وهو من نتائج صغر النفس وضعفها، ومن المهلكات العظيمة، وربما يؤدى إلى الدياثة والقيادة. قال رسول الله ﷺ: «إذا لم يغر الرجـل فـهو مـنكوس القـلب». وقال ﷺ: «إذا غير الرجل في أهله أو بعض مناكحه من مملوكته فلم يغر، بـعث الله إليه طائراً يقال له (القندر) حتى يسقط على عارضة بابه، ثم يمهله اربـعين يـوماً، ثـم يهتف به: إن الله غيور يحب كل غيور، فان هو غار وغير وانكر ذلك فأكبره، وإلا طار حتى يسقط على رأسه فيخفق بجناحيه على عينيه ثم يطير عـنه، فـينزع الله مـنه بـعد

---

(١) معنى البيت: (إن هذه النفس العارية التي أمنها الحبيب عند حافظ ـ ويعنى نفسه ـ لا بد أن أسلمها في يوم من الايام عندما أرى وجه الحبيب ـ يعنى بالحبيب: الله تعالى ـ).

(٢) العنكبوت، الآية: ٦٩.

ذلك روح الايمان، وتسميه الملائكة: الديوث». وقال ﷺ: «كان ابراهيم غيوراً وأنا أغير منه، وجدع الله أنف من لا يغار على المؤمنين والمسلمين». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «يا أهل العراق! نبئت أن نساءكم يدافعن الرجال في الطريق، أما تستحيون؟». وقال عليه السلام: «أما تستحيون ولا تغارون، نساؤكم يخرجن إلى الاسواق ويزاحمن العلوج؟».

وصل
(الغيرة والحمية)

وضده (الغيرة والحمية)، وهو السعي في محافظة ما يلزم محافظته، وهو من نتائج الشجاعة وكبر النفس وقوتها، وهي شرائف الملكات، وبها تتحقق الرجولية والفحلية، والفاقد لها غير معدود من الرجال. قال رسول الله ﷺ: «إن سعداً لغيور، وأنا أغير من سعد، والله أغير منى». وقال ﷺ: «إن الله لغيور، ولأجل غيرته حرم الفواحش». وقال: «إن الله يغار، والمؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتى الرجل المؤمن ما حرم الله عليه». وقال الصادق عليه السلام: «إن الله تعالى غيور ويحب الغيرة، ولغيرته حرم الفواحش ظاهرها وباطنها».

فصل
(الغيرة على الدين والحريم والاولاد)

مقتضى الغيرة والحمية في (الدين) أن يجتهد في حفظه عن بدع المبتدعين، وانتحال المبطلين، وقصاص المرتدّين، واهانة من يستخف به من المخالفين، وردّ شبه الجاحدين، ويسعى في ترويجه ونشر أحكامه، ويبالغ في تبيين حلاله وحرامه، ولا يتسامح في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ومقتضى الغيرة على (الحريم) ألا يتغافل عن مبادىء الامور التي تخشى غوائلها، فيحفظهن عن أجانب الرجال، ويمنعهن عن الدخول في الاسواق. قال رسول الله ﷺ لفاطمة عليها السلام: «أي شيء خير للمرأة؟ قالت: أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل. فضمها اليه، وقال: ذرية بعضها من بعض». وكان أصحاب النبي ﷺ يسدّون الثقب والكوى في الحيطان، لئلا تطلع النساء على الرجال. وقال ﷺ: «من أطاع امرأته أكبه الله على وجهه في النار». وما روى أنه ﷺ: أذن للنساء في حضور المساجد، وقال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»، فالظاهر أنه كان مختصاً بنساء عصره ﷺ: لعلمه بعدم ترتب فساد على حضورهن فيها. والصواب اليوم أن يمنعن من حضور المساجد والذهاب إلى المشاهد إلا العجائز منهن، للقطع بترتب الفساد والمعصية على خروج نساء هذا العصر إلى أي موضع كان. وسئل الصادق عليه السلام عن خروج النساء في العيدين، فقال: «لا! إلا العجوز عليها منقلاها»، يعنى الخفين. وفي رواية اخرى أنه عليه السلام: «سئل عن خروج النساء في العيدين والجماعة، فقال: لا! إلا امرأة مسنة».

وبالجملة: من اطلع على أحوال نساء أمثال عصرنا يعلم أن مقتضى الغيرة أن يبالغ في حفظهن عن جميع ما يحتمل ان يؤدى إلى فتنة وفساد، سواء كان في نفسه محرماً، كالنظر إلى الرجال الأجانب واستماع كلامهم بلا ضرورة شرعية وارتكاب الملاهي المحرّمة، أولا، كالخروج عن البيت بلا داع شرعى أو ضرورى، ولو إلى المساجد والمشاهد المشرفة ومجامع تعزية مولانا أبي عبدالله الحسين عليه السلام، إذ ذلك وإن كان في نفسه راجحاً إلا أن الغالب عدم انفكاكه عما ينافى الغيرة والحمية على ما هو المشاهد في عصرنا، فان أقل ما في الباب أنه لا ينفك عن نظرهن إلى الأجانب واستماع كلامهم، بل عن نظرهم اليهن واستماع كلامهن، وهذا خروج للطرفين إلى الانحراف عن قانون العفة. مع أنا نعلم قطعاً أن خروج اكثرهن لا يخلو عن غرض

فاسد أو مرجوح، وما أقل فيهن أن يكون خروجها إلى أحد المواضع المذكورة لمحض القربة والثواب. فالصواب أن يمنعن في أمثال هذا العصر عن مطلق الخروج، إلا إلى سفر واجب، كالحج، أو إلى بيت عالم عادل لأخذ ما يجب عليهن من المسائل، إذا لم يتمكن أزواجهن من أخذها وإيصالها اليهن. نعم، لو فرض خروجها إلى أحد المشاهد أو إلى مجمع تعزية من مجامع النساء بل إلى مجمع العرس، على نحو اطمأن الزوج منها وتيقن بعدم حدوث ما ينافى الغيرة وعدم ترتب فساد ومعصية وريبة عليه، فالظاهر جواز الاذن بل رجحانه. وجميع ذلك إنما هو في الشواب من النساء، وأما العجائز فلا بأس بخروجهن إلى المواضع المذكورة! ومقتضى الغيرة أن يمنعن من استماع الكلمات الملهية والحكايات المهيجة للشهوة، وعن مجالسة العجائز اللاتى يحضرن مجامع الرجال وينقلن حكاياتهم وقصصهم، لأنهن ناقصات العقل والايمان، ومع ذلك شهوتهن في غاية القوة والغلبة، فاستماعهن لشيء من المذكورات يوجب ثوران الشهوة وهيجانها فيهن، فلما لم يكن فيهن قاهر العقل ومانع الايمان فربما أدى ذلك إلى فساد عظيم. ولذلك ورد في الأخبار منعهن عن تعلم سورة يوسف عليه السلام، إذ استماعهن لأمثال القصة المذكورة فيها ربما أدى إلى انحرافهن عن طريق العفة. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تعلموا نساءكم سورة يوسف ولا تقرؤهن إياها فان فيها الفتن، وعلموهن سورة النور فان فيها المواعظ». وقال عليه السلام: «لا تحملوا الفروج على السروج فتهيجوهن للفجور». وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور».

وبالجملة: مقتضى العقل والنقل أن يمنعن عن جميع ما يمكن أن يؤدى إلى فساد وريبة، وعن مبادىء الامور التي تخاف غوائلها، وينبغى لصاحب الغيرة أن يجعل نفسه مهيباً في نظرها، حتى تكون منه على خوف وحذر، ولا تطمئن منه فتتبع

هواها وما تقتضيه جبلتها، وأن يجعلها مشغولة في كل وقت بأمر من الامور، كتدبير المنزل وإصلاح أمر المعيشة، أو بكسب من المكاسب، حتى يكون لها دائماً شغل شاغل، ولا تكون فارغة عنه في وقت من الأوقات، إذ لو خلت عن الأشغال وتعطلت عن المهمات أوقعها الشيطان في أودية الأفكار الردية، فتميل إلى الزينة والخروج والتفرج، والنظر إلى أجانب الرجال، والملاعبة والمضاحكة للنسوان، فينجر أمرها إلى الفساد. وينبغي أيضاً لصاحب الغيرة أن يعطى امرأته ما تحتاج إليه من القوت واللباس وسائر الضروريات، حتى لا تضطر إلى ارتكاب ما لا ينبغي من الحركات والأفعال توصلاً إلى أخذ شيء من ذلك من غير زوجها.

ثم ينبغي ألا توقعه الغيرة في طرف الافراط فيبالغ في اساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن، فقد نهى رسول الله ﷺ: «أن يتبع عورات النساء وأن يتعنت بهن». وفي الخبر المشهور: «أن المرأة كالضلع، إن أردت أن تقيمه كسرته، فدعه تستمتع به على عوج». وقال ﷺ: «من الغيرة غيرة يبغضها الله ورسوله، وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك». وقال عليه السلام في رسالته إلى الحسن عليه السلام: «إياك والتغاير في غير موضع الغيرة، فان ذلك يدعوهن إلى السقم، ولكن احكم امرهن، فان رأيت عيباً فعجل النكير على الصغير والكبير، بأن تعاقب منهن البريئة فتعظم الذنب وتهون العيب». وبالجملة: لا ينبغي المبالغة في الفحص والتفتيش، إذ لا ينفك ذلك عن سوء الظن الذي نهينا عنه، فان بعض الظن اثم.

وأما مقتضى الغيرة على (الأولاد): أن تراقبهم من أول أمرهم، فاستعمل في حضانة كل مولود له وإرضاعه امرأة صالحة تأكل الحلال، إذ الصبى الذي تتكون اعضاؤه من اللبن الحاصل من غذاء حرام يميل طبعه إلى الخبائث، لأن طينته انعجنت من الخبث.

وإذا بدأت فيه مخائل التميز فينبغي أن يؤدب بآداب الأخيار. ولما كان أول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام، فينبغي أن يؤدب فيه بأن يؤمر بألا يأخذ إلا بيمينه، ويقول (باسم الله) عند أكله، ويأكل مما يليه، ولا يبادر إلى الطعام قبل غيره، ولا يحدق إلى الطعام ولا إلى من يأكل، ولا يسرع في الأكل، ويمضغ الطعام مضغاً جيداً، ولا يلطخ ثوبه ولا يده. ويُقبح عنده كثرة الأكل بأن يذم كثير الأكل ويشبه بالبهائم، ويمدح الصبى الذي يقنع بالقليل، ويحبب إليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به، والقناعة بأى طعام اتفق. ثم يؤدب في أمر اللباس، حتى لا يخرج فيه عن زى الابرار وأهل الورع، فيحبب إليه ثياب القطن والبيض، دون الابريسم الملون، ويقرر عنده بأن ذلك شأن النساء والمخنثين، والرجال يستنكفون منه، ويحفظ من الصبيان الذين تعودوا التنعم والترفه والزينة. ثم يؤدب في الأخلاق والافعال ويبالغ في ذلك، لأن الصبى إذا اهمل في أول نشوه خرج في الاكثر ردى الأخلاق والأفعال، فيكون كذاباً، حسوداً، لجوجاً، عنوداً، سارقاً، خائناً، ذا ضحك وفضول، وربما صار مخنثاً مائلاً إلى الفسوق والفجور. فينبغي أن يحفظ من قرناء السوء، وهو الأصل في تأديبه. ويسلم إلى معلم دين صالح، يعلمه القرآن واحاديث الاخيار وحكايات الابرار، لينغرس في نفسه حب الصالحين. ويحفظ عن الاشعار التي فيها ذكر الفسوق وأهله، إذ ذلك يغرس في قلبه بذر الفساد. وينبغي أن يعود الصبر والسكوت إذا ضربه المعلم، حتى لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد حينئذ، ويذكر له أن ذلك دأب الرجال والشجعان، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان. وينبغي أن يؤذن له بعد الفراغ من المكتب باللعب المباح الجميل، حتى يستريح من تعب الأدب، ولا يموت قلبه، ولا ينقص ذكاه. ويعلم محاسن الأخلاق والأفعال، ويجنب عن خبائث الصفات ورذائل الأعمال. فيخوف من الحسد، والعداوة، والجبن، والبخل، والكبر، والعجب. ويحذر من السرقة، وأكل الحرام، والكذب، والغيبة،

والخيانة، والفحش، واللعن، والسب، ولغو الكلام... وغير ذلك. ويرغب في الصبر، والشكر، والتوكل، والرضا، والشجاعة، والسخاء، والصدق، والنصيحة... وغير ذلك من محاسن الأخلاق وفضائلها. ويمدح عنده الاخيار ويذم الأشرار، حتى يصير الخير عنده محبوباً، ويصير الشر عنده مبغوضاً.

وإذا بلغ سن التمييز، يؤمر بالطهارة والصلاة، وبالصوم في بعض الأيام من شهر رمضان، ويعلم أصول العقائد وكل ما يحتاج إليه من حدود الشرع. ومهما ظهر منه خلق جميل أو فعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه ويجازى لأجله بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس. وإن ظهر منه فعل قبيح مرة واحدة ينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره، ولا يظهر له أنه يتصور أنه يتجاسر أحد على مثله، (لا) سيما إذا ستره الصبى واجتهد في اخفائه، فان اظهار ذلك ربما يفيده جسارة حتى لا يبالى بالمكاشفة بعد ذلك، فان عاد ثانياً إلى مثله، فينبغى أن يعاتب عليه سراً ويعظم الأمر فيه، ويقال له: إياك أن يطلع على فعلك هذا أحد فتفتضح عند الناس. ولا يكثر العتاب عليه حتى يسقط وقع الكلام من قلبه. وليكن الأب حافظاً هيبته في الكلام والحركات معه. وينبغي للأم أن تخوّفه بالأب. وينبغى أن يمنع من كل ما يفعله خفية، فانه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح، فإذا ترك يعوّد فعل القبيح. ويعوّد الوقار والطمأنينة في المشى وسائر الحركات والافعال، وعدم كشف اطرافه، والتواضع والاكرام لكل من عاشره، والتلطف معه في الكلام. ويعلم طاعة والديه، ومعلمه، ومؤدبه، وكل من هو اكبر سناً منه، من قريب وبعيد، ويعوّد النظر اليهم بعين التعظيم والجلالة وترك اللعب بين أيديهم. ويمنع من الفخر على أقرانه بشيء مما تملكه نفسه أو والده. ويخوف من أخذ شيء من الصبيان أو الرجال، أو يذكر له ان الرفعة في العطاء، والاخذ لؤم وخسة ومهانة وذلة، فانه دأب الكلب، إذ هو يتبصبص في انتظار لقمة، ويقبح عنده حب الذهب والفضة، ويحذر منهما اكثر مما يحذر من

الحيات والعقارب، إذ آفة حبهما اكثر من آفة السموم، وقد هلك لاجله كل من هلك العالم. ويعوّد ألا يبصق في مجلسه، ولا يتمخط، ولا يتمطط، ولا يتثأب بحضرة غيره، ولا يستدبر غيره، ولا يضع رجلاً على رجل، ولا يضرب كفه تحت ذقنه، لأنه دليل الكسل. ويعلم كيفية الجلوس والحركة والسكون. ويمنع من النوم في النهار، ومن التنعم في المفرش والملبس والمطعم، بل يعود الخشونة فيها حتى تتصلب اعضاؤه، ولا يستخف بدنه، ويذكر له انها خلقت لدفع الضرر والالم لا لاجل اللذة، وان الاطعمة ادوية يتقوى الانسان بها على عبادة الله، وان الدنيا كلها لا أصل لها ولا بقاء لها، وان الموت يقطع نعيمها، وانها دار ممر لا دار مقر. وأن الآخرة هي دار القرار ومحل الراحة واللذات، والكيّس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة. وينبغي أن يمنع من كثرة الكلام، ومن الكذب، واليمين ولو كان صدقاً، ومن اللهو واللعب والسخرية وكثرة المزاح، ومن أن يبتدىء بالكلام، ويعود ألا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو اكبر سناً منه، وأن يقوم لمن هو اكبر منه، ويوسع له المكان ويجلس بين يديه.

فإذا تأدب الصبى بهذه الآداب في صغره صارت له بعد بلوغه ملكات راسخة، فيكون خيراً صالحاً. وإن نشأ على خلاف ذلك، حتى ألف اللعب، والفحش، والوقاحة، والخرق، وشره الطعام، واللباس، والتزين والتفاخر، بلغ وهو خبيث النفس كثيف الجوهر، وكان وبالاً لوالديه، وصدر منه ما يوجب الفضيحة والعار. فيجب على كل والد ألا يتسامح في تأديب ولده في حالة الصبا، لأنه أمانة الله عنده، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة عن كل نقش وصورة، وقابل للخير والشر، وأبواه يميلان به إلى أحدهما، فان عود الخير نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم ومؤدب، وان عود الشر وأهمل شقى وهلك، وكان الوزر في رقبة أبيه أو من كان قيما ووليّاً له.

ثم الصبية تؤدب بمثل مامر، إلا فيما يتفاوت به الصبى والصبية، فيستعمل ما يليق بها، ويجب السعى في جعلها ملازمة للبيت، والحجاب، والوقار، والعفة، والحياء، وسائر الخصال التي ينبغى أن تتصف بها النساء.

ثم ينبغي أن يتفرس من حال الصبى أنه مستعد لأى علم وصناعة، فيجعل مشغولا باكتسابه ويمنع من اكتساب غيره، لئلا يضيع عمره ولا تترتب عليه فائدة، إذ كل أحد ليس مستعداً لكل صناعة، وإلا لاشتغل الجميع باشرف الصناعات، واختلاف الناس وتفاوتهم في هذا الاستعداد لتوقف قوام النوع وانتظام العالم عليه.

وأما الغيرة على (المال)، فلا تظن انها ليست ممدوحة لسرعة فناء المال وعدم اعتناء الاخيار، إذ كل إنسان ما دام في دار الدنيا محتاج اليه، وتحصيل الآخرة أيضاً يتوقف عليه، إذ كسب العلم والعمل موقوف على بقاء البدن، وهو موقوف على بدل مما يتحلل عنه من الأغذية والأقوات. فلا بد لكل عاقل أن يعتنى بالمال ويجتهد في حفظه وضبطه، بعد تحصيله من المداخل الطيبة والمكاسب المحمودة، ومقتضى السعى في حفظه المعبر عنه بالغيرة عليه ألا يصرفه في مصرف لا تترتب عليه فائدة لآخرته أو دنياه، كانفاقه للرياء والمفاخرة والتضيّف، أو بذله على غير المستحقين بلا داع دينى أو دنيوى أو عادى، أو تمكينه الظلمة والسارقين وأهل الخيانة من أخذه علانية أو سراً، أو عدم مبالاته بتضييعه من غير أن يصل نفعه إلى أحد، أو اسرافه في بذله، أو غير ذلك من المصارف التي ليست راجحة بحسب العقل والشرع، ولا يعود إليه عوض في الآخرة والدنيا. بل مقتضى الغيرة عليه أن يصرف جميع امواله في حياته في المصارف التي تعود فائدتها إلى نفسه، ولا يترك شيئاً منها لوارثه إلا للأخيار من أولاده، إذ بقاؤهم بمنزلة بقائه، ويترتب على وجودهم ـ مع حسن حالهم وعيشهم ـ جميل الذكر وجزيل الثواب له بعد موته. وكيف يرضى صاحب الغيرة ان يترك ماله الذي أتعب نفسه في اكتسابه وفنى عمره في تحصيله ويحاسب عليه في

عرصات القيامة، لزوج امرأته، فيأكله ويجامعها، وغاية رضى هذه المرأة الخبيثة التي ليست لها حمية ووفاء ولا لها مطلوب أهم من مقاربة الرجال، أن يأكل هذا الرجل صفو ماله ليتقوى على مجامعتها، وهذا محنة لا يتحمل مثلها أهل الديانة والقيادة، فضلا عن صاحب الغيرة والحمية. وقس على ذلك تخليف الأموال لسائر الوراث الذين لا يعرفون الحقوق، وليسوا من أهل الخير والصلاح والوفاء، من أولاد السوء وأزواج البنات، وسائر الأقارب من الأخوان والأخوات والاعمام والعمات والأخوال والخالات. وهؤلاء وإن لم يكونوا بمثابة زوج امرأته، إلا أن ترك الاموال لهم إذا لم يكونوا من أهل الخير والصلاح لا تثمر له فائدة سوى الوزر والوبال وذكره بالسوء والشتم والفحش، كما هو المشاهد في زماننا هذا.

ومنها:

العجلة

وهي المعنى الراتب في القلب، الباعث على الإقدام على الامور بأول خاطر، من دون توقف واستبطاء في اتباعها والعمل بها. وقد عرفت أنه من لوازم ضعف النفس وصغرها، وهو من الابواب العظيمة للشيطان، قد أهلك به كثيراً من الناس. قال رسول الله ﷺ: «العجلة من الشيطان، والتأني من الله». وقد خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بقوله:

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾(١).

وقد روى: «انه لما ولد عيسى عليه السلام أتت الشياطين ابليس، فقالت: أصبحت الاصنام قد نكست رؤسها. فقال: هذا حادث قد حدث، مكانكم. فطار حتى جاء

(١) طه، الآية: ١١٤.

خافقى الأرض، فلم يجد شيئاً، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد، وإذا الملائكة قد حفت حوله، فرجع اليهم، فقال: إن نبياً قد ولد البارحة، ما حملت انثى قط ولا وضعت إلا وانا بحضرتها، إلا هذا، فايأسوا أن تعبد الاصنام بعد هذه الليلة، ولكن ائتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة».

والظواهر في ذم العجلة اكثر من أن تحصى، ولذلك أفتى بعض علماء العامة بالمنع من التعجيل لمن خاف فوت صلاة الجمعة. والسر في شدة ذمها: ان الأعمال ينبغي أن تكون بعد المعرفة والبصيرة، وهما موقوفان على التأمل والمهلة، والعجلة تمنع فمن ذلك، فمن يستعجل في أمر يلقى الشيطان شره عليه من حيث لا يدرى. والتجربة شاهدة بأن كل أمر يصدر على العجلة يوجب الندامة والخسران، وكل ما يصدر على التأنى والتثبت لا تعرض بعده ندامة، بل يكون مرضياً، وبأن كل خفيف عجول ساقط عن العيون، ولا وقع له عند القلوب. والمتأمل في الامور يعلم ان العجلة هو السبب الأعظم لتبديل نعيم الآخرة وملك الأبد بخسائس الدنيا ومزخرفاتها.

وبيان ذلك: انه لا ريب في ان أحب اللذات وألذها للنفس هو الغلبة والاستيلاء، لأنها من صفات الربوبية التي هي مطلوبة بالطبع للنفوس المجردة. والسر فيه: ان كل معلول من سنخ علته، ويناسبها في صفاتها وآثارها، وغاية ابتهاجه ان يتصف بمثل كمالاتها، ولذا قيل: «كل ما يصدر عن شيء لا يمكن أن يكون من جميع الجهات هو هو، ولا أن يكون من جميع الجهات ليس هو، بل من جهة هو هو ومن جهة ليس هو». وهذا معنى كلام قدماء الحكمة: (الممكن زوج تركيبى). ولا ريب في أن جميع الموجودات معلولة للواجب سبحانه، صادرة عن محض وجوده ومترشحة عن فيضه وجوده، فهو غاية الكل والكل طالبة نحو كمالاته، إلا ان ما هو في سلسلة الصدور إليه أقرب والواسطة بينهما أقل، تكون مناسبة له اتم وشوقه إلى الاتصاف

بكماله أشد. ولا ريب في ان الذوات المجردة النورية التي هي من عالم الأمر مقتبسة من مشكاة نوره، فلها غاية القرب إليه في سلسلة الصدور، فتكون شديدة الشوق إلى الاتصاف بنحو كماله. والنفس الانسانية لكونها منها ومن عالم الأمر ـ كما قال الله تعالى ـ:

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1].

تكون مثلها في القرب إليه تعالى أو في المناسبة له، فلها غاية الشوق في الاتصاف بصفاته وكمالاته التي من جملتها الغلبة والاستعلاء، وليس ذلك مذموماً، إذ ينبغي لكل عبد أن يطلب ملكا عظيما لا آخر له، وسعادة دائمية لا نفاد لها، وبقاء لا فناء فيه. وعزاً لا ذل معه، وأمناً لا خوف فيه، وغنى لا فقر معه، وكمالاً لا نقصان فيه. وهذه كلها من أوصاف الربوبية، وطالبها طالب للعلو والعز والكمال لا محالة.

فالمذموم من الرئاسة والاستيلاء إنما هو الغلط الذي وقع للنفس بسبب تغرير اللعين المبعد عن عالم الأمر، إذ حسدها على كونها من عالم الأمر، فأضلها وأغواها من طريق العجلة، فزين في نظره الملك الفاني المشوب بانواع الآلام، لكونه عاجلا، وصده عن الملك المخلد الدائم الذي لا يشوبه كدر ولا يقطعه قاطع، لكونه آجلا. والمسكين المخذول ابن آدم لما خلق عجولا راغباً في العاجلة، لما جاءه المطرود من عالم الأمر، وتوسل إليه بواسطة العجلة التي في طبعه، واستغواه بالعاجلة، وأمال قلبه إلى عدم الاعتناء بالآجلة، وزين له الحاضرة، ووعده بالغرور وبالتمنى على الله في باب الآخرة، فانخدع بغروره واشتغل بطلب ملك الدنيا ومزخرفاتها مع فنائها، وترك سلطنة الآخرة مع بقائها، ولم يتأمل المسكين في أن ملك الدنيا ورئاستها ليس كمالا ولا علواً واستيلاء في الحقيقة، بل هو صفة نقص يصده عن الكمال الحقيقي

---

(١) الاسراء، الآية: ٨٥

والرئاسة المعنوية. مثال ذلك: أنه لا ريب في أن الحب والعشق صفة كمال، ولكن إذا وقع في موقعه، وذلك إذا كان المحبوب شريفاً كاملا في ذاته وصفاته، فحب الله سبحانه أشرف الصفات الكمالية، وحب الجمادات وخسائس الحيوانات أخس الرذائل النفسية، فكل من كان جاهلا بحقائق الأمور ينخدع بغروره، ويختار الملك العاجل الفاني على السلطنة الآجلة الباقية، وأما العالم الموفق فلا يتدلى بحبل غروره، إذ علم مداخل مكره، فاعرض عن العاجلة واختار الآجلة.

ولما استطار مكر اللعين في كافة الخلق، ارسل الله اليهم الانبياء، واشتغلوا بدعوتهم من الملك المجازى الذي لا أصل له ولا دوام إن سلم إلى الملك الحقيقى الذي لا زوال له أصلا، فنادوا فيهم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(١).

وذموا من اختار العاجلة الفانية على الآخرة الباقية، كما قال سبحانه:

﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾(٢). وقال: **﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ﴾**(٣).

فالغرض من بعثة الرسل ليس إلا دعوة الخلق إلى الملك المخلد، ليكونوا ملوكا في الآخرة بسبب القرب من الله تعالى، ودرك بقاء لا فناء فيه، وعز لا ذل معه، وقرة عين أخفيت لا يعلمها أحد. والشيطان يدعوهم من طريق العجلة إلى ملك الدنيا الفانى، لعلمه بأن ما سمى ملك الدنيا، مع انه لا يسلم ولا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات، يفوت به ملك الآخرة، إذ الدنيا والآخرة

---

(١) التوبة، الآية: ٣٨.

(٢) الانسان، الآية: ٢٧.

(٣) القيامة، الآية: ٢٠ ـ ٢١.

ضرتان. بل يفوت به الملك الحاضر الذي هو الزهد في الدنيا، إذ معناه ان يملك العبد شهوته وغضبه، فينقادان لباعث الدين واشارة الايمان. وهذا ملك بالاستحقاق، إذ به يصير صاحبه حراً، وباستيلاء الشهوة يصير عبداً لبطنه وفرجه وسائر اعضائه، فيكون مسخراً مثل البهيمة، مملوكا يسخره زمام الشهوة، أخذ المخنقة إلى حيث يريد ويهوى. فما أعظم اغترار الانسان، إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكا، وينال الربوبية بأن يصير عبداً. ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً في الدنيا منكوساً في الآخرة؟. فقد ظهر أن منشأ الخسران في الدنيا والآخرة هو العجلة.

والطريق في علاجها: أن يتذكر فسادها، وسوء عاقبتها، وايجابها للخفة والمهانة عند الناس، وتأديتها إلى الندامة والخسران. ثم يتذكر شرافة الوقار الذي هو ضده، وكونه صفة الأنبياء والأخيار، فيوطن نفسه على ألا يرتكب فعلا إلا بعد التأمل والمهلة، ولا يترك الطمأنينة والسكون باطناً وظاهراً في جميع أفعاله وسكناته، فإذا فعل ذلك مدة، ولو بالتكلف والتعمل، يصير ذلك عادة له، فتزول عنه هذه الصفة، وتحدث صفة الوقار والسكينة.

وصل

(الاناة والتوقف والوقار والسكينة)

ضد العجلة ﴿الاناة﴾[1]، وهو المعنى الراتب في القلب، الباعث على الاحتياط في الامور والنظر فيها، والتأني في اتباعها والعمل بها.

ثم ﴿التوقف﴾ قريب من التأني والأناة، والفرق بينهما: ان التوقف هو السكون قبل الدخول في الامور حتى يستبين له رشدها، والتأني سكون وطمأنينة بعد

---

(١) في النسخ (الاناءة)، فصححناه كما هنا.

الدخول فيها، حتى يؤدى لكل جزء منها حقه، وضد التوقف والتعسف.

و﴿الوقار﴾ يتناول الأناة والتوقف كليهما، فهو طمأنينة النفس وسكونها في الأقوال والأفعال والحركات قبل الدخول فيها وبعده. وهو من نتائج قوة النفس وكبرها. وما قل من الفضائل النفسانية أن يبلغ مرتبته في الشرافة، ولذا يمدح به الانبياء والأصفياء، وورد في الأخبار: «ان المؤمن متصف به ألبتة». فينبغى لكل مؤمن أن يتكلف آثاره في الحركات والافعال، حتى يصير بالتدريج ملكة، وتكلف الطمأنينة في الأفعال والحركات قبل أن تصير ملكة يختص باسم الوقار، وإذا صارت ملكة سميت سكينة، إذ هي طمأنينة الباطن، والوقار اطمئنان الظاهر.

ومنها:

سوء الظن بالخالق والمخلوق

وهو من نتائج الجبن وضعف النفس، إذ كل جبان ضعيف النفس تذعن نفسه لكل فكر فاسد يدخل في وهمه ويتبعه، وقد يترتب عليه الخوف والغم، وهو من المهلكات العظيمة، وقد قال الله سبحانه:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾(١). وقال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾(٢). وقال: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾(٣).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى ياتيك ما يغلبك منه، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملا».

---

(١) الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) فصلت، الآية: ٢٣.

(٣) الفتح، الآية: ١٢.

ولا ريب في أن من حكم بظنه على غيره بالشر، بعثه الشيطان على أن يغتابه أو يتوانى في تعظيمه وإكرامه، أو يقصر فيما يلزمه من القيام بحقوقه، أو ينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيراً منه. وكل ذلك من المهلكات، على أن سوء الظن بالناس من لوازم خبث الباطن وقذارته، كما أن حسن الظن من علائم سلامة القلب وطهارته، فكل من يسيء الظن بالناس ويطلب عيوبهم وعثراتهم فهو خبيث النفس سقيم الفؤاد، وكل من يحسن الظن بهم ويستر عيوبهم فهو سليم الصدر طيب الباطن، فالمؤمن يظهر محاسن أخيه، والمنافق يطلب مساويه، وكل إناء يترشح بما فيه.

والسر في خباثة سوء الظن وتحريمه وصدوره عن خبث الضمير واغواء الشيطان: أن اسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لأحد أن يعتقد في حق غيره سوءاً إلا إذا انكشف له بعيان لا يقبل التأويل، إذ حينئذ لا يمكنه ألا يعتقد ما شاهده وعلمه، وأما مالم يشاهده ولم يعلمه ولم يسمعه وإنما وقع في قلبه، فالشيطان ألقاه اليه، فينبغي أن يكذبه، لأنه أفسق الفسقة، وقد قال الله:

﴿إِنْ جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾[1].

فلا يجوز تصديق اللعين في نبأه، وإن حف بقرائن الفساد، ما احتمل التأويل والخلاف فلو رأيت عالماً في بيت أمير ظالم لا تظنن أن الباعث طلب الحطام المحرمة، لاحتمال كون الباعث إغاثة مظلوم. ولو وجدت رائحة الخمر في فم مسلم فلا تجزمنّ بشرب الخمر ووجوب الحد، إذ يمكن أنه تمضمض بالخمر ومجه وما شربه، أو شربه اكراهاً وقهراً. فلا يستباح سوء الظن إلا بما يستباح به المال، وهو صريح المشاهدة، أو قيام بينة فاضلة.

ولو أخبرك عدل واحد بسوء من مسلم، وجب عليك أن تتوقف في إخباره من

(١) الحجرات، الآية: ٦.

غير تصديق ولا تكذيب، إذ لو كذبته لكنت خائناً على هذا العدل، إذ ظننت به الكذب، وذلك أيضاً من سوء الظن، وكذا إن ظننت به العداوة أو الحسد أو المقت لتطرق لأجله التهمة، فترد شهادته، ولو صدقته لكنت خائناً على المسلم المخبر عنه، إذ ظننت به السوء، مع احتمال كون العدل المخبر ساهياً، أو التباس الأمر عليه بحيث لا يكون في اخباره بخلاف الواقع آثماً وفاسقاً. وبالجملة: لا ينبغي أن تحسن الظن بالواحد وتسيء بالآخر، فتذكر المذكور حاله على ماكان في الستر والحجاب، إذ لم ينكشف لك حاله بأحد القواطع، ولا بحجة شرعية يجب قبولها، وتحمل خبر العدل على امكان تطرق شبهة مجوزة للإخبار، وإن لم يكن مطابقاً للواقع.

ثم المراد بسوء الظن هو عقد القلب وميل النفس دون مجرد الخواطر وحديث النفس، بل الشك أيضاً، إذ المنهى عنه في الآيات والأخبار إنما هو ان يظن، والظن هو الطرف الراجح الموجب لميل النفس اليه. والامارات التي بها يمتاز العقد عن مجرد الخواطر وحديث النفس، هو أن يتغير القلب منه عما كان من الألف والمحبة إلى الكراهة والنفرة، والجوارح عما كانت عليه من الأفعال اللازمة في المعاشرات إلى خلافها. والدليل على ان المراد هو ما ذكر، قوله ﷺ: «ثلاث في المؤمن لا تستحسن وله منهن مخرج، فمخرجه من سوء الظن ألا يحققه»، أى لا يحقق في نفسه بعقد ولا فعل، لا في القلب ولا في الجوارح.

ثم لكون سوء الظن من المهلكات، منع الشرع من التعرض للتهمة، صيانة لنفوس الناس عنه، فقال ﷺ: «إتقوا مواقع التهم». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «من عرض نفسه للتهمة فلا يلومنّ من أساء به الظن». وروى: «انه ﷺ كان يكلم زوجته صفية بنت حي بن أخطب، فمر به رجل من الأنصار، فدعاه رسول الله، وقال: يا فلان! هذه زوجتي صفية. فقال: يا رسول الله! أفنظن بك إلا خيراً؟ قال: إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، فخشيت أن يدخل عليك». فانظر كيف أشفق رسول

الله ﷺ على دينه فحرسه، وكيف علم الامة طريق الاحتراز عن التهمة، حتى لا يظن العالم الورع المعروف بالتقوى والدين أن الناس لا يظنون به إلا خيراً، اعجاباً منه بنفسه، فان ما لا جزم بتحققه في حق سيد الرسل وأشرفهم، فكيف يجزم بتحققه في حق غيره، وإن بلغ من العلم والورع ما بلغ. والسر في ذلك: أن أورع الناس وأفضلهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة، بل إن نظر إليه بعضهم بعين الرضا ينظر إليه بعض آخر بعين السخط:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكنّ عين السخط تبدى المساويا

فكل عدو وحاسد لا ينظر إلا بعين السخط، فيكتم المحاسن ويطلب المساوى، وكل شرير لا يظن بالناس كلهم إلا شراً، وكل معيوب مفتضح عند الناس يحب أن يفتضح غيره وتظهر عيوبه عندهم، لأن البلية إذا عمت هانت، ولأن يشتغل الناس به فلا تطول ألسنتهم فيه. فاللازم لكل مؤمن ألا يتعرض لموضع التهمة حتى يوقع الناس في المعصية بسوء الظن، فيكون شريكا في معصيتهم، إذ كل من كان سبباً لمعصية غيره يكون شريكا له في هذه المعصية. ولذا قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ: «كيف ترون من يسب ابويه؟! فقالوا: هل من أحد يسب أبويه؟ فقال: نعم! يسب أبوى غيره فيسبون أبويه».

ثم طريق المعالجة في ازالته ـ بعد تذكر ما تقدم من فساده وما يأتى من فضيلة ضده ـ: أنه إذا خطر لك خاطر سوء على مسلم، لا تتبعه، ولا تحققه، ولا تغير قلبك عما كان عليه بالنسبة اليه، من المراعاة والتفقد والاكرام والاعتماد بسببه، بل ينبغي أن تزيد في مراعاته واعظامه وتدعو له بالخير، فان ذلك يقنط الشيطان ويدفعه

---

(١) الانعام، الآية: ١٠٨.

عنك، فلا يلقى اليك خاطر السوء خوفاً من اشتغالك بالدعاء وزيادة الاكرام. ومهما عرفت عثرة من مسلم فانصحه في السر ولا تبادر إلى اغتيابه، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على عيبه، لتنظر إليه بعين الحقارة، مع أنه ينظر اليك بعين التعظيم، بل ينبغي أن يكون قصدك استخلاصه من الاثم، وتكون محزوناً كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان، وينبغي أن يكون تركه ذلك العيب من غير نصيحتك أحب اليك من تركه بنصيحتك، وإذا فعلت ذلك جمعت بين أجر نصيحته واجر الحزن بمصيبته واجر الاعانة على آخرته.

وصل

(حسن الظن)

قد عرفت أن ضد سوء الظن بالخالق والمخلوق هو (حسن الظن بهما). ولما كان الأول من لوازم ضعف النفس وصغرها، فالثانى من نتائج قوتها وثباتها، وفوائده أكثر من أن تحصى، وقد تقدمت الظواهر الواردة في مدحه، فينبغى لكل مؤمن ألا ييأس من روح الله، ولا يظن أنه لا يرحمه ويعذبه ألبتة ولا يخلصه من العقاب، وأن ما يرد عليه في الدنيا من البلايا والمصائب هو شر له وعقوبة، بل ينبغى أن يعلم أنه أرحم وأرأف به من والديه، وإنما خلقه لأجل الفيض والجود، فلا بد أن يرحمه في دار الآخرة، ويخلصه من عذاب الأبد ويوصله إلى نعيم السرمد، وما يرد عليه من المصائب والبلايا في دار الدنيا خير له وصلاح، وذخيرة له في يوم المعاد.

وكذا لا يظنّ السوء والشر بالمسلمين، ولا يحملن ما له وجه صحيح من أعمالهم وأقوالهم على وجه فاسد، بل يجب أن يحمل كل ما يشاهده من أفعالهم وحركاتهم على أحسن الوجوه وأصحها، ما لم يجزم بفساده، ويكذب وهمه وسائر حواسه، فيما يذهب إليه من المحامل الفاسدة والاحتمالات القبيحة المحرمة،

ويكلّف نفسه على ذلك، حتى يصير ذلك ملكة له، فترتفع عنه ملكة سوء الظن بالكلية. نعم، الحمل على الوجه الصحيح على تقدير عدم مطابقته للواقع، لو كان باعثاً لضرر مالي أو فساد ديني أو عرضي، لزم فيه الحزم والاحتياط، وعدم تعليق أموره الدينية والدنيوية عليه، لئلا يترتب عليه الخسران والاضرار، وتلزمه الفضيحة والعار.

ومنها:

الغضب

وهو كيفية نفسانية موجبة لحركة الروح من الداخل إلى الخارج للغلبة، ومبدؤه شهوة الانتقام، وهو من جانب الافراط، وإذا اشتد يوجب حركة عنيفة، يمتلىء لأجلها الدماغ والأعصاب من الدخان المظلم، فيستر نور العقل ويضعف فعله، ولذا لا يؤثر في صاحبه الوعظ والنصيحة، بل تزيده الموعظة غلظة وشدة. قال بعض علماء الأخلاق: «الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة، إلا أنها لا تطلع إلا على الافئدة، وأنها لمستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد، وتستخرجها حمية الدين من قلوب المؤمنين، أو حمية الجاهلية والكبر الدفين من قلوب الجبارين، التي لها عرق إلى الشيطان اللعين، حيث قال:

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[(١)].

فمن شأن الطين السكون والوقار، ومن شأن النار التلظى والاستعار». ثم قوة الغضب تتوجه عند ثورانها إما إلى دفع المؤذيات إن كان قبل وقوعها، أو إلى التشفي والانتقام إن كان بعد وقوعها، فشهوتها إلى أحد هذين الأمرين ولذتها فيه، ولا تسكن

(١) الأعراف، الآية: ١٢. وص، الآية: ٧٦.

إلا به. فان صدر الغضب على من يقدر أن ينتقم منه، واستشعر باقتداره على الانتقام، انبسط الدم من الباطن إلى الظاهر، واحمر اللون، وهو الغضب الحقيقى. وإن صدر على من لا يتمكن أن ينتقم منه لكونه فوقه، واستشعر باليأس عن الانتقام، انقبض الدم من الظاهر إلى الباطن، وصار حزناً. وإن صدر على من يشك في الانتقام منه انبسط الدم تارة أو انقبض أخرى، فيحمر ويصفر ويضطرب.

فصل

(الافراط والتفريط والاعتدال في قوة الغضب)

الناس في هذه القوة على افراط وتفريط واعتدال. فالافراط: أن تغلب هذه الصفة حتى يخرج عن طاعة العقل والشرع وسياستهما، ولا تبقى له فكرة وبصيرة. والتفريط: ان يفقد هذه القوة أو تضعف بحيث لا يغضب عما ينبغى الغضب عليه شرعا وعقلا. والاعتدال: أن يصدر غضبه فيما ينبغى ولا يصدر في ما لا ينبغى، بحيث يخرج عن سياسة الشرع والعقل، بل يكون تابعاً لهما في الغضب وعدمه، فيكون غضبه وانتقامه بأمرهما. ولا ريب في أن الاعتدال ليس مذموماً، ولا معدوداً من الغضب، بل هو من الشجاعة. والتفريط مذموم معدود من الجبن والمهانة، وربما كان أخبث من الغضب، إذ الفاقد لهذه القوة لا حمية له، وهو ناقص جداً. ومن آثاره عدم الغيرة على الحرم وصغر النفس، والجور، وتحمل الذل من الاخساء، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والفحشاء. ولذا قيل: «من استغضب فلم يغضب فهو حمار»[1]. وقد وصف الله خيار الصحابة بالحمية والشدة، فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾[2]. وخاطب نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[3].

(١) هذه الكلمة منسوبة للشافعي - على ما في احياء العلوم: ج ٣ ص ١٤٥ و١٥٦ -.

(٢) الفتح، الآية: ٢٩.

والشدة والغلظة من آثار قوة الغضب، ففقد هذه القوة بالكلية أو ضعفها مذموم. وقد ظهر أن الغضب المعدود من الرذائل هو حد الافراط الذي يخرجه عن مقتضى العقل والدين، وحد التفريط وإن كان رذيلة إلا أنه ليس غضباً، بل هو ضد له معدود من الجبن، وحد الاعتدال فضيلة وضد له ومعدود من الشجاعة، فانحصر الغضب بالأول.

ثم الناس كما هم مختلفون في أصل قوة الغضب، كذلك مختلفون في حدوثه وزواله سرعة وبطأً، فيكونان في بعضهم سريعين، وفي بعضهم بطيئين وفي بعضهم يكون أحدهما سريعاً والآخر بطيئاً، وفي بعضهم يكون كلاهما أو أحدهما متوسطاً بين السرعة والبطء، وما كان من ذلك باشارة العقل فهو ممدوح معدود من أوصاف الشجاعة، وغير مذموم محسوب من آثار الغضب أو الجبن.

فصل
(الغضب)

(الغضب) من المهلكات العظيمة، وربما أدى إلى الشقاوة الأبدية، من القتل والقطع، ولذا قيل: (إنه جنون دفعي). قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الحدة ضرب من الجنون، لأن صاحبها يندم، فان لم يندم فجنونه مستحكم». وربما أدى إلى اختناق الحرارة، ويورث الموت فجأة. وقال بعض الحكماء: «السفينة التي وقعت في اللجج الغامرة، واضطربت بالرياح العاصفة وغشيتها الأمواج الهائلة، أرجى إلى الخلاص من الغضبان الملتهب». وقد ورد به الذم الشديد في الأخبار، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الغضب يفسد الايمان كما يفسد الخل العسل». وقال الباقر عليه السلام: «إن هذا الغضب

(٣) التوبة، الآية: ٧٣.

جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم، وإن احدكم إذا غضب احمرت عيناه وانتفخت أوداجه ودخل الشيطان فيه، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض، فان رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك». وقال الصادق عليه السلام: «وكان أبي عليه السلام يقول: أي شيء أشد من الغضب؟ إن الرجل يغضب فيقتل النفس التي حرم الله، ويقذف المحصنة». وقال عليه السلام[1]: «إن الرجل ليغضب فما يرضى أبداً حتى يدخل النار». وقال الصادق عليه السلام: «الغضب مفتاح كل شر». وقال عليه السلام: «الغضب ممحقة لقلب الحكيم». وقال عليه السلام: «من لم يملك غضبه لم يملك عقله».

ثم مما يلزم الغضب من الآثار المهلكة الذميمة، والاغراض المضرة القبيحة: انطلاق اللسان بالشتم والسب، واظهار السوء والشماتة بالمساءة وإفشاء الاسرار وهتك الاستار والسخرية والاستهزاء، وغير ذلك من قبيح الكلام الذي يستحيي منه العقلاء وتوثب الأعضاء بالضرب والجرح والتمزيق والقتل، وتألم القلب بالحقد والحسد والعداوة والبغض ومما تلزمه: الندامة بعد زواله، وعداوة الأصدقاء، واستهزاء الاراذل، وشماتة الأعداء، وتغير المزاج، وتألم الروح، وسقم البدن، ومكافاة العاجل وعقوبة الآجل.

والعجب ممن توهم ان شدة الغضب من فرط الرجولية، مع أن ما يصدر عن الغضبان من الحركات القبيحة إنما هو أفعال الصبيان والمجانين دون الرجال والعاقلين، كيف وقد تصدر عنه الحركات غير المنتظمة، من الشتم والسب بالنسبة الى الشمس، والقمر، والسحاب، والمطر، والريح، والشجر، والحيوانات والجمادات، وربما يضرب القصعة على الأرض، ويكسر المائدة، ويخاطب البهيمة والجماد كما يخاطب العقلاء، وإذا عجز عن التشفي، ربما مزق ثوبه، ولطم وجهه،

---

(١) أي: الباقر عليه السلام وقد روى هذه الاخبار المذكورة هنا الكافي في باب الغضب، فروى هذا الخبر عنه عليه السلام لا عن الصادق عليه السلام.

وقد يعدوعدوالمدهوش المتحير، وربما اعتراه مثل الغشية، أو سقط على الأرض لا يطيق النهوض والعدو. وكيف يكون مثل هذه الأفعال القبيحة من فرط الرجولية وقد قال رسول الله ﷺ: «الشجاع من يملك نفسه عند غضبه».

فصل

(امكان إزالة الغضب وطرق علاجه)

قد اختلف علماء الأخلاق في إمكان إزالة الغضب بالكلية وعدمه، فقيل: قمع أصل الغضب من القلب غير ممكن، لأنه مقتضى الطبع، إنما الممكن كسر سورته وتضعيفه، حتى لا يشتد هيجانه. وأنت خبير بأن الغضب الذي يلزم إزالته هو الغضب المذموم، إذ غيره مما يكون باشارة العقل والشرع ليس غضباً فيه كلامنا، بل هو من آثار الشجاعة، والاتصاف به من اللوازم، وان اطلق عليه اسم الغضب أحياناً حقيقة أو مجازاً، كما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «كان النبى ﷺ لا يغضب للدنيا، وإذا أغضبه الحق لم يصرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له». ولا ريب أن الغضب الذي يحصل لرسول الله ﷺ لم يكن غضباً مذموماً، بل كان غضباً ممدوحاً يقتضيه منصب النبوة، وتوجيه الشجاعة النبوية. ثم الغضب المذموم ممكن الزوال، ولولا امكانه لزم وجوده للانبياء والأوصياء، ولا ريب في بطلانه.

ثم علاجه يتوقف على امور، وربما حصل ببعضها:

(الأول) إزالة أسبابه المهيجة له، إذ علاج كل علة بحسم مادتها، وهى: العجب، والفخر، والكبر، والغدر، واللجاج، والمراء، والمزاح، والاستهزاء، والتعيير، والمخاصمة، وشدة الحرص على فضول الجاه والاموال الفانية، وهي باجمعها أخلاق ردية مهلكة، ولا خلاص من الغضب مع بقائها، فلا بد من ازالتها حتى تسهل إزالته.

(الثانى) أن يتذكر قبح الغضب وسوء عاقبته، وما ورد في الشريعة من الذم عليه، كما تقدم.

(الثالث) أن يتذكر ما ورد من المدح والثواب على دفع الغضب في موارده، ويتأمل فيما ورد من فوائد عدم الغضب، كقول النبى ﷺ: «من كفّ غضبه عن الناس كفّ الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة». وقول الباقر عليه السلام: «مكتوب في التوراة: فيما ناجى الله به موسى: أمسك غضبك عمن ملكتك عليه أكفّ عنك غضبى». وقول الصادق عليه السلام: «أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: يا ابن آدم! اذكرنى في غضبك أذكرك في غضبى، ولا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصارى لك، فان انتصارى لك خير من انتصارك لنفسك». وقوله عليه السلام: «سمعت أبى يقول: أتى رسول الله ﷺ رجل بدوى، فقال: إنى اسكن البادية، فعلمنى جوامع الكلم. فقال: آمرك ألا تغضب. فأعاد الأعرابى عليه المسألة ثلاث مرات، حتى رجع الرجل إلى نفسه، فقال: لا أسألك عن شيء بعد هذا، ما أمرنى رسول الله ﷺ إلا بالخير». وقوله عليه السلام: «إن رسول الله ﷺ أتاه رجل، فقال: يا رسول الله! علمنى عظة أتعظ بها، فقال له: انطلق ولا تغضب، ثم عاد عليه، فقال له: انطلق ولا تغضب... ثلاث مرات». وقوله عليه السلام: «من كف غضبه ستر الله عورته»... إلى غير ذلك من الأخبار.

(الرابع) أن يتذكر فوائد ضد الغضب، أعنى الحلم وكظم الغيظ، وما ورد من المدح عليهما في الأخبار ـ كما يأتى ـ ويواظب على مباشرته ولو بالتكلف، فيتحلم وإن كان في الباطن غضباناً، وإذا فعل ذلك مدة صار عادة مألوفة هنيئة على النفس، فتنقطع عنها أصول الغضب.

(الخامس) أن يقدم الفكر والروية على كل فعل أو قول يصدر عنه، ويحافظ نفسه من صدور غضب عنه.

(السادس) أن يحترز عن مصاحبة أرباب الغضب، والذين يتبجحون بتشفى الغيظ وطاعة الغضب، ويسمون ذلك شجاعه ورجولية، فيقولون: نحن لا نصبر على كذا وكذا، ولا نحتمل من أحد أمراً. ويختار مجالسة أهل الحلم، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس.

(السابع) أن يعلم أن ما يقع إنما هو بقضاء الله وقدره، وأن الأشياء كلها مسخرة في قبضنة قدرته، وأن كل ما في الوجود من الله، وأن الأمر كله لله، وأن الله لا يقدر له ما فيه الخيرة، وربما كان صلاحه في جوعه، أو مرضه، أو فقره، أو جرحه أو قتله، أو غير ذلك. فإذا علم بذلك غلب عليه التوحيد، ولا يغضب على أحد، ولا يغتاظ عما يرد عليه، إذ يرى ـ حينئذ ـ أن كل شيء في قبضة قدرته أسير، كالقلم في يد الكاتب. فكما أن من وقع عليه ملك بضرب عنقه لا يغضب على القلم، فكذلك من عرف الله وعلم أن هذا النظام الجملى صادر منه على وفق الحكمة والمصلحة، ولو تغيرت ذرة منه عما هي عليه خرجت عن الأصلحية، لا يغضب على أحد، إلا أن غلبة التوحيد على هذا الوجه كالكبريت الأحمر وتوفيق الوصول إليه من الله الاكبر. ولو حصل لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون كالبرق الخاطف، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعاً طبيعياً، ولو تصور دوام ذلك لأحد لتصور لفرق الأنبياء، مع أن التفاتهم في الجملة إلى الوسائط مما لا يمكن انكاره.

(الثامن) أن يتذكر أن الغضب مرض قلب ونقصان عقل، صادر عن ضعف النفس ونقصانها، لا عن شجاعتها وقوتها، ولذا يكون المجنون أسرع غضباً من العاقل، والمريض أسرع غضباً من الصحيح، والشيخ الهرم أسرع غضباً من الشاب، والمرأة أسرع غضباً من الرجل، وصاحب الأخلاق السيئة والرذائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل. فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة، والبخيل يغاظ لبخله إذا فقد الحبة، حتى يغضب لفقد أدنى شيء على أعزة أهله وولده. والنفس

القوية المتصفة بالفضيلة أجل شأناً من أن تتغير وتضطرب لمثل هذه الامور، بل هي كالطود الشاهق لا تحركه العواصف، ولذا قال سيد الرسل ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». وإن شككت في ذلك فافتح عينيك وانظر إلى طبقات الناس الموجودين، ثم ارجع إلى كتب السير والتواريخ، واستمع إلى حكايات الماضين، حتى تعلم أن الحلم والعفو وكظم الغيظ شيمة الأنبياء والحكماء وأكابر الملوك والعقلاء. والغضب خصلة الجهلة والأغبياء.

(التاسع) أن يتذكر أن قدرة الله عليه أقوى وأشد من قدرته على هذا الضعيف الذي يغضب عليه، وهو أضعف في جنب قوته القاهرة بمراتب غير متناهية من هذا الضعيف في جنب قوته، فليحذر، ولم يأمن إذا أمضى غضبه عليه أن يمضي الله عليه غضبه في الدنيا والآخرة، وقد روى: «أنه ما كان في بني اسرائيل ملك إلا ومعه حكيم، إذا غضب أعطاه صحيفة فيها: (ارحم المساكين، واخش الموت، واذكر الآخرة)، فكان يقرأها حتى يسكن غضبه». وفي بعض الكتب الإلهية: «يا ابن آدم! اذكرني حين تغضب اذكرك حين أغضب، فلا أمحقك فيمن أمحق»[١].

(العاشر) أن يتذكر أن من يمضي عليه غضبه ربما قوى وتشمر لمقابلته، وجرد عليه لسانه باظهار معائبه والشماتة بمصائبه، ويؤذيه في نفسه وأهله وماله وعرضه.

(الحادي عشر) أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الغيظ والغضب، فان كان خوف الذلة والمهانة والاتصاف بالعجز وصغر النفس عند الناس، فليتنبه ان الحلم وكظم الغيظ ودفع الغضب عن النفس ليست ذلة ومهانة، ولم يصدر من ضعف النفس وصغرها، بل هو من اثار قوة النفس وشجاعتها. وأضدادها تصدر من نقصان

---

(١) روى الكافي في باب الغضب نفس هذا الحديث عن الصادق عليه السلام بهذه العبارة: «إن في التوراة مكتوبا: يا ابن آدم! اذكرني حين تغضب اذكرك عند غضبي، فلا امحقك فيمن أمحق...». وقد تقدم مثله ص ٢٤٥.

النفس وخورها. فدفع الغضب عن نفسه لا يخرجه من كبر النفس في الواقع، ولو فرض خروجه به منه في أعين جهلة الناس فلا يبالى بذلك، ويتذكر أن الاتصاف بالذلة والصغر عند بعض اراذل البشر أولى من خزى يوم المحشر والافتضاح عند الله الملك الأكبر. وإن كان السبب خوف أن يفوت منه شيء مما يحبه، فليعلم ان ما يحبه ويغضب لفقده إما ضرورى لكل أحد، كالقوت والمسكن واللباس وصحة البدن، وهو الذي أشار إليه سيد الرسل ﷺ بقوله: «من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، وله قوت يومه، فكأنما خيرت له الدنيا بحذا فيرها». أو غير ضرورى لأحد، كالجاه والمنصب وفضول الأموال. أو ضرورى لبعض الناس دون بعض، كالكتاب للعالم، وأدوات الصناعات لأربابها. ولا ريب أن كل ما ليس من هذه الاقسام ضروريا فلا يليق أن يكون محبوباً عند أهل البصيرة وذوى المروات، إذ ما لا يحتاج إليه الانسان في العاجل لا بد له من تركه في الآجل، فما بال العاقل أن يحبه ويغضب لفقده، وإذا علم ذلك لم يغضب على فقد هذا القسم ألبتة. وأما ما هو ضرورى للكل أو البعض، وإن كان الغضب والحزن من فقده مقتضى الطبع لشدة الاحتياج اليه، إلا أن العاقل إذا تأمل يجد أن ما فقد عنه من الأشياء الضرورية إن امكن رده والوصول إليه يمكن ذلك بدون الغيظ والغضب أيضاً، وإن لم يمكن لم يمكن معهما أيضاً. وعلى أى حال بعد التأمل يعلم أن الغضب لا ثمرة له سوى تألم العاجل وعقوبة الآجل، وحينئذ لا يغضب، وان غضب يدفعه عن نفسه بسهولة.

(الثانى عشر) أن يعلم ان الله يحب منه ألا يغضب، والحبيب يختار ألبتة ما يحب محبوبه، فإن كان محباً لله فليطفيء شدة حبه له غضبه.

(الثالث عشر) أن يتفكر في قبح صورته وحركاته عند غضبه، بأن يتذكر صورة غيره وحركاته عند الغضب.

(تتميم)

اعلم أن بعض المعالجات المذكورة يقتضي قطع أسباب الغضب وحسم مواده، حتى لا يهيج ولا يصدر، وبعضها يكسر سورته أو يدفعه إذا صدر وهاج. ومن علاجه عند الهيجان الاستعاذة من الشيطان، والجلوس إن كان قائماً، والاضطجاع إن كان جالساً، والوضوء أو الغسل بالماء البارد، وإن كان غضبه على ذى رحم فليدن منه وليمسه، فان الرحم إذا مست سكنت، كما ورد في الأخبار (١).

وصل

(فضيلة الحلم وكظم الغيظ)

قد عرفت أن الحلم هو طمأنينة النفس، بحيث لا يحركها الغضب بسهولة ولا يزعجه المكروه بسرعة، فهو الضد الحقيقى للغضب، لأنه المانع من حدوثه، وبعد هيجانه لما كان كظم الغيظ مما يضعفه ويدفعه، فمن هذه الحيثية يكون كظم الغيظ أيضاً ضداً له. فنحن نشير إلى فضيلة الحلم وشرافته، ثم إلى فوائد كظم الغيظ ومنافعه، ليجتهد طالب إزالة الغضب في الاتصاف بالأول، فلا يحدث فيه أصلاً، وبالثانى، فيدفعه عند هيجانه. فنقول:

أما (الحلم) ـ فهو أشرف الكمالات النفسية بعد العلم، بل لا ينفع العلم بدونه أصلاً، ولذا كلما يمدح العلم أو يسأل عنه يقارن به، قال رسول الله ﷺ: «اللهم أغننى بالعلم وزينى بالحلم». وقال ﷺ: «خمس من سنن المرسلين»... وعدّ منها الحلم. وقال ﷺ: «ابتغوا الرفعة عند الله». قالوا: وما هي يا رسول الله!؟ قال: «تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتحلم عمن جهل عليك». وقال ﷺ: «إن الرجل

---

(١) روى ذلك في الكافى في باب الغضب عن الباقر عليه السلام.

المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم». وقال ﷺ: «إن الله يحب الحيّ الحليم، ويبغض الفاحش البذى». وقال ﷺ: «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله: تقوى تحجزه عن معاصى الله، وحلم يكف به السفيه، وخلق يعيش به في الناس». وقال ﷺ: «إذا جمع الخلائق يوم القيامة، نادى مناد: أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس ـ وهم يسير ـ فينطلقون سراعاً إلى الجنة، فتتلقاهم الملائكة فيقولون: إنا نراكم سراعاً إلى الجنة؟ فيقولون: نحن أهل الفضل. فيقولون: ما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظُلمنا صبرنا، وإذا أُسيء الينا عفونا، وإذا جهل علينا حلمنا. فقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين». وقال ﷺ: «ما أعز الله بجهل قط، ولا أذل بحلم قط». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك». وقال على بن الحسين عليهما السلام: «إنه ليعجبنى الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه». وقال الصادق عليه السلام: «كفى بالحلم ناصراً». وقال عليه السلام: «وإذا لم تكن حليماً فتحلّم». وقال عليه السلام: «إذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان، فيقولان للسفيه منهما: قلت وقلت وأنت أهل لما قلت، وستجزى بما قلت، ويقولون للحليم منهما: صبرت وحلمت سيغفر لك إن اتممت ذلك. قال عليه السلام: فان ردّ الحليم عليه ارتفع الملكان». وبعث عليه السلام غلاماً له في حاجة فأبطأ، فخرج على اثره فوجده نائماً، فجلس عند رأسه يروحه حتى انتبه، فقال له: «يا فلان! والله ما ذلك لك! تنام الليل والنهار، لك الليل ولنا منك النهار». وقال الرضا عليه السلام: «لا يكون الرجل عابداً حتى يكون حليماً».

وأما (كظم الغيظ) ـ فهو وإن لم يبلغ مرتبة الحلم فضيلة وشرافة، لأنه التحلم: أى تكلف الحلم، إلا انه إذا واظب عليه حتى صار معتاداً تحدث بعد ذلك صفة الحلم الطبيعى، بحيث لا يهيج الغيظ حتى يحتاج إلى كظمه، ولذا قال رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم». فمن لم يكن حليماً بالطبع لا بد له من السعى في

كظم الغيظ عند هيجانه، حتى تحصل له صفة الحلم. وقد مدح الله سبحانه كاظمي الغيظ في محكم كتابه، وتواترت الأخبار على شرافته وعظم اجره. قال رسول الله ﷺ: «من كظم غيظاً ولو شاء ان يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً»[١]. وقال ﷺ: «ما جرع عبد جرعة أعظم اجراً من جرعة غيظ كظمها إبتغاء وجه الله تعالى». وقال ﷺ: «ان لجهنم باباً لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى». وقال ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على أن ينفذه، دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق، حتى يخير من أي الحور شاء»[٢]. وقال ﷺ: «من أحب السبيل[٣] إلى الله تعالى جرعتان: جرعة غيظ يردها بحلم، وجرعة مصيبة يردها بصبر». وقال سيد الساجدين عليه السلام: «وما تجرعت جرعة أحب إلى من جرعة غيظ لا أكافى بها صاحبها». وقال الباقر عليه السلام: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه، حشا الله تعالى قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة». وقال عليه السلام لبعض ولده[٤]: «يا بنى! ما من شيء اقرّ لعين أبيك من جرعة غيظ عاقبتها صبر، وما يسرّنى أن لى ببذل نفسى حمر النعم». وقال الصادق عليه السلام: «نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها، فان عظيم الأجر البلاء، وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم». وقال عليه السلام: «ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله عز وجل عزاً في الدنيا والاخرة، وقد قال الله عز وجل:

﴿وَالْكَـٰظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٥].

---

(١) روى الحديث الكافى في باب كظم الغيظ عن أبي عبدالله عليه السلام.

(٢) صححنا هذا الحديث على ما في البحار (الجزء الثانى من المجلد ١٥ ـ في باب الحلم) رواه عن جامع الأخبار للشيخ الجليل الحسن بن فضل الطبرسي. وفيه اختلاف كثير عما في نسخ جامع السعادات.

(٣) كذا وجدنا الحديث في البحار والكافى ونسخ جامع السعادات. والظاهر أن الاصح (السبل).

(٤) في الكافى في باب كظم الغيظ روى هذا الحديث هكذا: «عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال لى ابى يا بُنيّ: ما من شيء...» إلى آخر الحديث، فالقائل هو سيد الساجدين لا الباقر عليهما السلام.

(٥) آل عمران، الآية: ١٣٤.

وأثابه الله مكان غيظه ذلك». وقال أبو الحسن الأول عليه السلام: «اصبر على اعداء النعم، فانك لن تكافى من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله فيه».

ومنها:

الانتقام

بمثل ما فعل به، أو بالأزيد منه - وإن كان محرّماً ممنوعاً من الشريعة - وهو من نتائج الغضب، إذ كل انتقام ليس جائزاً، فلا يجوز مقابلة الغيبة بالغيبة، والفحش بالفحش، والبهتان بالبهتان، والسعاية إلى الظلمة بمثلها... وهكذا في سائر المحرمات. قال سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم: «إن امرؤ وعيّرك بما فيك فلا تعيّره بما فيه». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «المتسابان شيطانان يتهاتران». وقد ورد: أن رجلاً شتم ابابكر بحضرة النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو ساكت، فلما ابتدأ لينتصر منه، قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال مخاطباً له: «إن الملك كان يجيب عنك، فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان، فلم اكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان».

فكل فعل أو قول يصدر من شخص بالنسبة إلى غيره ظلماً، إن كان له في الشرع قصاص وغرامة، فيجب ألا يتعدى عنه، وإن كان العفو عن الجائر أيضاً أفضل وأولى وأقرب إلى الورع والتقوى، وان لم يرد له بخصوصه من الشرع حكومة معينة، وجب أن يقتصر في الانتقام وما يحصل به التشفى على ما ليس فيه حرمة ولاكذب، مثل أن يقابل الفحش والذم وغيرهما من الأذايا التي لم يقدر لها في الشرع حكومة معينة، بقوله: يا قليل الحياء! ويا سيء الخلق! ويا صفيق الوجه!... وامثال ذلك، إذا كان متصفاً بها. ومثل قوله: جزاك الله وانتقم منك! ومن أنت؟ وهل أنت إلا من بنى فلان؟ ومثل قوله: يا جاهل! ويا أحمق!. وهذا ليس فيه كذب مطلقاً، اذ ما من أحد إلا وفيه جهل وحمق، (أما الأول) فظاهر، (وأما الثاني) فلما ورد من أن الناس كلهم حمقى

في ذات الله.

والدليل على جواز هذا القدر من الانتقام، قول النبي ﷺ «المتسابان ما قالا فعلى البادىء منهما حتى يعتدى المظلوم»[1]. وقول الكاظم عليه السلام في رجلين يتسابان: «البادىء منهما أظلم، ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم يتعد المظلوم»[2]. وهما يدلان على جواز الانتصار لغير البادىء من دون وزر ما لم يتعد، ومعلوم ان المراد بالسب فيهما امثال الكلمات المذكورة دون الفحش والكلمات الكاذبة، ولا ريب في ان الاقتصار على مجرد ما وردت به الرخصة بعد الشروع في الجواب مشكل، ولعل السكوت عن اصل الجواب وحوالة الانتقام إلى رب الارباب أيسر وأفضل، ما لم يؤد إلى فتور الحمية والغيرة، إذ أكثر الناس لا يقدر على ضبط نفسه عند فور الغضب، لاختلاف حالهم في حدوث الغضب وزواله. قال رسول الله ﷺ: «ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى: منهم بطيء الغضب سريع الفيء، ومنهم سريع الغضب سريع الفيء، فتلك بتلك. ومنهم سريع الغضب بطيء الفيء، ومنهم بطيء الغضب بطيء الفيء. ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع الفيء، وشرهم السريع الغضب البطيء الفيء». وقد ورد في خبر آخر: «إن المؤمن سريع الغضب سريع الرضا، فهذه بتلك».

ثم طريق العلاج في ترك الانتقام: أن يتنبه على سوء عاقبته في العاجل والآجل، ويتذكر فوائد تركه، ويعلم أن الحوالة إلى المنتقم الحقيقي أحسن وأولى، وأن انتقامه أشد وأقوى، ثم يتأمل في فوائد العفو وفضيلته، كما يأتي:

---

(١) صححنا الحديث على ما في احياء العلوم (ج ٣ ص ١٠٦) وعلى نسختنا الخطية. وفي المطبوعة: «حتى يعتذر إلى المظلوم».

(٢) صححنا الحديث على ما في اصول الكافي في باب السفه. وفي نسختنا الخطية والمطبوعة: «ما لم يعتذر إلى المظلوم».

وصل

(العفو)

ضد الانتقام (العفو)، وهو إسقاط ما يستحقه من قصاص أو غرامة، فـفرقه عـن الحلم وكظم الغيظ ظاهر، والآيات والأخبار في مدحه وحسنه اكثر مـن أن تـحصى، قال الله تعالى سبحانه:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾[١]. وقـال: **﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾**[٢].وقـال: **﴿وأَنْ تَـعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾**[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت حالفاً لحلفت عـليهنّ: ما نقصت صدقة من مال فتصدّقوا، ولا عفا رجل من مـظلمة يـبتغي بـها وجـه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عـليه بـاب فقر». وقال ﷺ: «العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فاعفوا يعزكم الله». وقـال ﷺ لعـقبة: «ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة: تصل من قطعك وتعطى من حـرمك. وتعفو عمن ظلمك[٤]. وقال ﷺ: «قال موسى: يا رب! أى عبادك أعز عـليك؟ قـال: الذي إذا قدر عفى». وقال سيد الساجدين عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة، جـمع الله الأولـين والآخرين في صعيد واحد، ثم ينادى مناد: أين أهل الفـضل؟ قـال: فـيقوم عـنق مـن الناس، فتلقاهم الملائكة، فيقولون: ومـا فـضلكم؟ فـيقولون: كـنا نـصل مـن قـطعنا، ونعطى من حرمنا، ونعفو عمن ظلمنا، قال: فيقال لهم: صدقتم، ادخلوا الجنة». وقـال

---

(١) الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٢) النور، الآية: ٢٢.

(٣) البقرة، الآية: ٢٣٧.

(٤) في اصول الكافى في باب العفو: «ألا أدلكم على خير أخلاق الدنيا والآخرة: تـصل مـن قـطعك...» إلى آخر الحديث.

الباقر عليه السلام: «الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة». وقال الصادق عليه السلام: «ثلاث من مكارم الدنيا والآخرة: تعفو عمن ظلمك...» إلى آخر الحديث. وقال أبو الحسن عليه السلام: «ما التقت فئتان قط إلا نصر أعظمهما عفواً». وكفى للعفو فضلا وشرافة أنه من أجمل الصفات الإلهية، وقد يمدح الله تعالى به في مقام الخضوع والتذلل، قال سيد الساجدين عليه السلام: «أنت الذي سميت نفسك بالعفو، فاعف عني». وقال عليه السلام: «أنت الذي عفوه أعلى من عقابه».

ومنها:

العنف

وهو الغلظة والفظاظة في الأقوال أو الحركات أيضاً، وهو من نتائج الغضب، وضده (الرفق)، أي اللين فيهما، وهو من نتائج الحلم. ولا ريب في أن الغلظة في القول والفعل ينفر الطباع ويؤدى إلى اختلال أمر المعاش والمعاد، لذلك نهى الله سبحانه نبيه عنه في مقام الارشاد، وقال:

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(١).

وروى عن سلمان: «أنه قال: إذا أراد الله تعالى هلاك عبد نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء، لم يلقه إلا خائناً مخوناً، وإذا كان خائناً مخوناً نزعت منه الأمانة، فإذا نزعت منه الأمانة لم يلقه إلا فظاً غليظاً، فإذا كان فظاً غليظاً نزعت منه ربقة الايمان، فإذا نزعت منه ربقة الايمان لم يلقه إلا شيطاناً ملعوناً».

ويظهر من هذا الكلام أن من كان من أهل الغلظة والفظاظة فهو الشيطان حقيقة، فيجب على كل عاقل ان يجتنب عن ذلك كل الاجتناب، ويقدم التروى على كل ما

---

(١) آل عمران، الآية: ١٥٩.

يصدر عنه من القول والفعل، ليحافظ نفسه عن التعنف والغلظة فيه، ويتذكر ما ورد في فضيلة الرفق، ويرتكبه في حركاته، ولو بالتكلف، إلى ان يصير ملكة، وتزول عن نفسه آثار العنف بالكلية.

وصل

(فضيلة الرفق)

الأخبار في فضيلة الرفق وفوائده أكثر من أن تحصى، ونحن نشير إلى شطر منها هنا، قال رسول الله ﷺ: «لو كان الرفق خلقاً يرى، ما كان فيما خلق الله شيء أحسن منه». وقال ﷺ : «إن الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه». وقال ﷺ: «لكل شيء قفل، وقفل الايمان الرفق». وقال ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفيق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»[1]. وقال ﷺ: «ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى الله تعالى، أرفقهما بصاحبه». وقال ﷺ: «الرفق يمن، والخرق شؤم». وقال ﷺ: «من كان رفيقاً في أمره نال ما يريده من الناس». وقال ﷺ: «إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق». وقال ﷺ: «من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الدنيا والآخرة». وقال ﷺ: «إذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق، ومن يحرم الرفق يحرم الخير كله». وقال ﷺ: «أتدرون من يحرم على النار؟ كل هين لين سهل قريب». وقال الكاظم عليه السلام: «الرفق نصف العيش». وقال عليه السلام لمن جرى بينه وبين رجل من القوم كلام: «إرفق بهم، فان كفر أحدكم في غضبه، ولا خير فيمن كان كفره في غضبه».

---

(١) روى هذان الحديثان في اصول الكافي في باب الرفق، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام.

ثم التجربة شاهدة بان إمضاء الامور وإنجاح المقاصد موقوف على الرفق واللين مع الخلائق، فكل ملك كان رفيقاً بجنده ورعيته انتظم أمره ودام ملكه، وان كان فظاً غليظاً اختل أمره وانفض الناس من حوله، وزال ملكه وسلطانه في أسرع زمان. وقس عليه غيره من طبقات الناس من العلماء والامراء وغيرهما، من ذوى المناصب الجليلة، وارباب المعاملة والمكاسبة، واصحاب الصنايع والحرف.

تكملة

(المداراة)

(المداراة): قريب من الرفق معنى، لأنها ملائمة الناس، وحسن صحبتهم، واحتمال أذاهم، وربما فرق بينهما باعتبار تحمل الأذى في المداراة دون الرفق، وقد ورد في مدحها وفوائدها الدنيوية والأخروية أخبار كثيرة كقول النبى ﷺ: «المداراة نصف الايمان»، وقوله ﷺ: «ثلاث من لم يكن فيه لم يتم عمله: ورع يحجزه عن معاصى الله، وخلق يدارى به الناس، وحلم يرد به جهل الجاهل»، وقوله ﷺ: «أمرنى ربى بمداراة الناس كما أمرنى باداء الفرائض». وقول الباقر عليه السلام: «في التوراة مكتوب: فيما ناجى الله عز وجل به موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى! اكتم مكتوم سرى في سريرتك وأظهر في علانيتك المداراة عنى لعدوى وعدوك من خلقى... إلى آخر الحديث»[1]. وقول الصادق عليه السلام: «جاء جبرئيل إلى النبى ﷺ فقال: يا محمد! ربك يقرئك السلام، ويقول: دار خلقى»، وقوله عليه السلام: «إن قوماً من الناس قلت

---

(١) وتمام الحديث في اصول الكافى في باب المداراة: «ولا تستسب لى عندهم باظهار مكتوم سرى، فتشرك عدوى وعدوك في سبى». قال في الوافى: «ولا تستسب لى : أى لا تطلب سبى، فان من لم يفهم السر يسب من تكلم به، فتشرك: أى تكون شريكا له، لانك انت الباعث له عليه».

مداراتهم للناس فنفوا[١] من قريش، وأيم الله ما كان باحسابهم بأس، وإن قوماً من غير قريش حسنت مداراتهم فالحقوا بالبيت الرفيع... ثم قال: من كف يده عن الناس، فانما يكف عنهم يداً واحدة ويكفون عنه ايدى كثيرة».

ومنها:

سوء الخلق بالمعنى الاخص

وهو التضجر، وانقباض الوجه، وسوء الكلام، وامثال ذلك. وهو أيضاً من نتائج الغضب، كما أن ضده ـ اعنى (حسن الخلق بالمعنى الأخص) وهو أن تلين جناحك، وتطيب كلامك، وتلقى أخاك ببشر حسن ـ من نتائج الحلم، وأكثر ما يطلق سوء الخلق وحسنه في الأخبار يراد به هذا المعنى، ولا ريب في أن سوء الخلق مما يبعد صاحبه عن الخالق والخلق، والتجربة شاهدة بأن الطباع متنفرة عن كل سيء الخلق، ويكون دائماً اضحوكة للناس، ولا ينفك لحظة عن الحزن والألم، ولذا قال الصادق عليه السلام: «من ساء خلقه عذب نفسه»، وقد يعتريه لأجله الضرر العظيم. هذا كله مع سوء عاقبته في الآخرة وادائه إلى العذاب الابدى، ولذا ورد به الذم الشديد من الشريعة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما خلق الله الايمان قال: اللهم قوّنى، فقواه بحسن الخلق والسخاء. ولما خلق الله الكفر قال: اللهم قوّنى، فقواه بالبخل وسوء الخلق». وروى أنه قيل له صلى الله عليه وآله وسلم: «إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها. قال: لا خير فيها! هي من أهل النار». وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «سوء الخلق يفسد

---

(١) هكذا في النسخة المطبوعة. وفي بعض نسخ الكافى المصححة «فانفوا»، وفي بعضها «فالقوا». قال في الوافى: «فانفوا، كأنه صيغة مجهول من الأنفة، بمعنى الاستنكاف، إذ لم يأت الانفاء بمعنى النفى. وفي بعض النسخ: فالقوا من الالقاء، ولعله الأصح».

العمل كما يفسد الخل العسل»[١]. وعنه ﷺ: «إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم». وعنه ﷺ: «أبى الله لصاحب الخلق السيء بالتوبة». قيل: فكيف ذاك يا رسول الله!؟ قال: «لأنه إذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم منه». وقال ﷺ: «سوء الخلق ذنب لا يغفر». وقال الامام جعفر بن محمد عليه السلام: «إذا خلق الله العبد في أصل الخلق كافراً لم يمت حتى يحبب الله إليه الشر، فيقرب منه، فابتلاه بالكبر والجبروت، فقسى قلبه، وساء خلقه، وغلظ وجهه، وظهر فحشه، وقل حياؤه، وكشف الله تعالى سره، وركب المحارم ولم ينزع عنها، ثم ركب معاصي الله، وابغض طاعته، ووثب على الناس لا يشبع من الخصومات، فاسألوا الله العافية واطلبوها منه». وقال بعض الأكابر: «لئن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إليّ من أن يصحبني عابد سيء الخلق».

وطرق العلاج في إزالته: أن يتذكر أولا أنه يفسد آخرته ودنياه، ويجعله ممقوتاً عند الخالق والخلق، فيعد نفسه لإزالته، ثم يقدم التروي والتفكر عند كل حركة وتكلم، فيحفظ نفسه عنده ـ ولو بالتحمل والتكلف ـ من صدور سوء الخلق، ويتذكر ما ورد في مدح حسن الخلق الذي هو ضده ـ كما يأتي ـ ويواظب حتى تزول على التدريج آثاره بالكلية.

وصل
(طرق اكتساب حسن الخلق)

قد عرفت أن ضد هذه الرذيلة (حسن الخلق بالمعنى الأخص)، فمن معالجاتها أن يواظب عليه حتى ترتفع آثارها بالكلية. وأقوى البواعث على اكتسابه والمواظبة

(١) روى هذا الحديث اصول الكافي في باب سوء الخلق عن الصادق عليه السلام ولكن جاء فيه «ليفسد العمل» بدل «يفسد العمل».

عليه أن يتذكر ما يدل على شرافته ومدحه عقلا ونقلا: أما حكم العقل على مدحه فظاهر لا يحتاج إلى بيان، وأما النقل فالأخبار التي وردت به أكثر من أن تحصى، ونحن نورد شطراً منها تذكرة لمن أراد أن يتذكر، قال رسول الله ﷺ: «ما يوضع في ميزان امرىء يوم القيامة أفضل من حسن الخلق» وقال: «يا بنى عبدالمطلب! إنكم لن تسعوا الناس باموالكم، فالقوهم بطلاقة الوجه، وحسن البشر». وقال ﷺ: «إن الله استخلص هذا الدين لنفسه، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق، ألا فزينوا دينكم بهما». وقال ﷺ: «حسن الخلق خلق الله الأعظم». وقيل له ﷺ: أى المؤمنين أفضلهم ايماناً؟ قال: «أحسنهم خلقاً». وقال ﷺ «إن أحبكم إليّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحسنكم خلقاً». وقال ﷺ: «ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يعتد بشيء من عمله: تقوى تحجزه عن محارم الله، وحلم يكف به السيئة، وخلق يعيش به في الناس». وقال ﷺ: «إن الخلق الحسن يميت الخطيئة، كما تميت الشمس الجليد»[١]. وقال ﷺ: «ان العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وأشرف المنازل، وإنه يضعف العبادة». وقال ﷺ لأم حبيبة: «إن حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة». وقال لها ـ بعد ما سألته أن المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلان الجنة لأيهما هى؟ ـ: «إنها لأحسنهما خلقاً». وقال ﷺ: «إن حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم»[٢]. وقال ﷺ: «أكثر ما يلج به امتى الجنة تقوى الله وحسن الخلق». وقال ﷺ: «أفاضلكم أحسنكم أخلاقاً، الموطؤن أكنافاً[٣] الذين يألفون ويؤلفون». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «المؤمن

---

(١) روى هذا الحديث في الكافى في باب حسن الخلق عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، وفي نهاية ابن الاثير: «في الحديث: حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد»، ويذيب بمعنى يميت.

(٢) هذا الحديث مروى في الكافى في باب حسن الخلق عن أبي عبدالله عليه السلام.

(٣) قال المبرد في الكامل ص ٣: «قوله ﷺ: الموطؤن اكنافاً، مثل، وحقيقته: ان التوطئة هي التذليل

مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف». ولا ريب في أن سيء الخلق تتنفر عنه الطباع، فلا يكون مألوفاً. وقال الامام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «إن اكمل المؤمنين ايماناً احسنهم خلقاً»، وقال عليه السلام: «أتى رجل رسول الله، فقال: يا رسول الله! أوصني، فكان فيما أوصاه أن قال: (ألق أخاك بوجه منبسط)». وقال الصادق عليه السلام: «ما يقدم المؤمن على الله عز وجل بعمل بعد الفرائض احب إلى الله تعالى من أن يسع الناس بخلقه». وقال عليه السلام: «البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار». وقال عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه ويروح». وقال عليه السلام: «ثلاث من اتى الله بواحدة منهن أوجب الله له الجنة: الانفاق من إقتار، والبشر لجميع العالم، والانصاف من نفسه». وقال عليه السلام: «صنايع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة، والبخل وعبوس الوجه يبعدان من الله ويدخلان النار».

ومن تأمل في هذه الأخبار، ورجع إلى الوجدان والتجربة، وتذكر أحوال الموصوفين بسوء الخلق وحسنه، يجد أن كل سيء الخلق بعيد من الله ومن رحمته، والناس يبغضونه ويشمئزون منه، ولذا يحرم من برّهم وصلتهم، وكل حسن الخلق محبوب عند الله وعند الناس، فلا يزال محلا لرحمة الله وفيوضاته، ومرجعاً للمؤمنين بايصال نفعه وخيره اليهم، وانجاح مقاصده ومطالبه منهم، ولذلك لم يبعث الله سبحانه نبياً إلا وأتم فيه هذه الفضيلة، بل هي أفضل صفات المرسلين وأشرف أعمال الصديقين، ولذا قال الله تعالى لحبيبه مثنياً عليه ومظهراً نعمته لديه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

والتمهيد... فاراد القائل بقوله: موطأ الاكناف، ان ناحيته يتمكن فيها صاحبها غير مؤذى ولا ناب به موضعه».

(١) القلم، الآية: ٤.

ولعظم شرافته بلغ رسول الله ﷺ فيه ما بلغ من غايته، وتمكن على ذروته ونهايته، حتى ورد: «بينا رسول الله ﷺ ذات يوم جالس في المسجد، إذ جاءت جارية لبعض الأنصار وهو قائم[١] فاخذت بطرف ثوبه، فقام لها النبى ﷺ فلم تقل شيئاً ولم يقل لها النبى ﷺ شيئاً، حتى فعلت ذلك ثلاث مرات، فقام لها النبى ﷺ في الرابعة، وهي خلفه، فاخذت هُدبة من ثوبه ثم رجعت، فقال لها الناس: فعل الله بك وفعل![٢] حبست رسول الله ثلاث مرات لا تقولين له شيئاً ولا هو يقول لك شيئاً! ما كانت حاجتك اليه؟ قالت: إن لنا مريضاً فارسلنى أهلى لآخذ هدبه من ثوبه يستشفى[٣] بها، فلما أردت أخذها رآنى فقام، استحييت ان آخذها وهو يرانى، وأكره أن أستأمره في اخذها، فاخذتها»[٤].

ومنها:

الحقد

وقد عرفت أنه إضمار العداوة في القلب، وهو من ثمرة الغضب، لأن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفى في الحال، رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً،

---

(١) قال في البحار ـ ج ١٥ في باب حسن الخلق ص ٢٠٧ ـ: «حال عن بعض الانصار» أى أن القائم هذا البعض صاحب الجارية لا النبى ﷺ.

(٢) قال في البحار ـ في الموضع المتقدم ـ: «كناية عن كثرة الدعاء عليها بايذائها النبى ﷺ وهذا شائع في عرف العرب والعجم».

(٣) قال في البحار ـ في الموضع المذكور ص ٢٠٨ ـ: «في بعض النسخ ـ بل اكثرها ـ: ليستشفى».

(٤) صححنا الحديث على اصول الكافى في باب حسن الخلق وفي نسخ جامع السعادات اختلاف كثير عما اثبتناه، وقد جاء في اصول الكافى في صدر الحديث: «قال أبو عبدالله عليه السلام: يا بحر حسن الخلق يسر... ثم قال: ألا اخبرك بحديث ما هو في يدى أحد من أهل المدينة؟ قلت: بلى! قال: بينا رسول الله... إلى آخر الحديث».

وهو من المهلكات العظيمة. وقد قال رسول الله ﷺ: «المؤمن ليس بحقود». والغالب أن الحقد يلزمه من الآفات: الحسد، والهجرة، والانقطاع عن المحقود، وايذاؤه بالضرب، والتكلم فيه بما لا يحل: من الكذب، والغيبة، والبهتان، وإفشاء السر، وهتك الستر، وإظهار العيوب، والشماتة بما يصيبه من البلاء والسرور به، والانبساط بظهور عثراته وهفواته، والمحاكاة عنه بالاستهزاء والسخرية، والاعراض عنه استصغاراً له، ومنع حقوقه من دين أورد مظلمة أو صلة رحم. وكل ذلك حرام يؤدى إلى فساد الدين والدنيا. وأضعف مراتبه أن يحترز عن الآفات المذكورة، ولا يرتكب لأجله ما يعصى الله به، ولكن يستثقله بالباطن، ولا ينتهى قلبه عن بغضه.

وهو أيضاً من الأمراض المؤلمة للنفس، المانعة لها عن القرب إلى الله والوصول إلى الملأ الأعلى. ويمنع صاحبه عما ينبغى أن يصدر عنه بالنسبة إلى أهل الايمان: من الهشاشة والرفق والتواضع والقيام بحوائجهم والمجالسة معهم والرغبة إلى إعانتهم ومواساتهم... وغير ذلك. وهذا كله مما ينقص درجته في الدين، ويحول بينه وبين مرافقة المقربين.

ولما كانت حقيقته عبارة عن العداوة الباطنة، فجميع الأخبار الواردة في ذم المعاداة تدل على ذمه، كقول النبى ﷺ: «ما كان جبرئيل يأتينى إلا قال: يا محمد! اتق شحناء الرجال وعداوتهم». وقوله ﷺ: «ما عهد إليّ جبرئيل قط في شيء ما عهد إليّ في معاداة الرجال». وقول الصادق ؑ: «من زرع العداوة حصد ما بذر»... وقس عليها غيرها.

وطريق العلاج في إزالته: أن يتذكر أن هذه العداوة الباطنة تؤلمه في العاجل، إذ الحقود المسكين لا يخلو عن التألم والهم لحظة، ويعذبه في الآجل، ومع ذلك لا يضر المحقود أصلا، والعاقل لا يدوم على حالة تكون مضرة لنفسه ونافعة لعدوه. وبعد هذا التذكر، فليجتهد في أن يعامله معاملة احبائه: من مصاحبته بالانبساط

والرفق، والقيام بحوائجه، وغير ذلك، بل يخصه بزيادة البر والاحسان، مجاهدة للنفس وارغاماً للشيطان، ولا يزال يكرر ذلك حتى ترتفع عن نفسه آثار هذه الرذيلة بالكلية. ثم لما كان الحقد عبارة عن العداوة الباطنة، وحقيقتها إضمار الشر وكراهة الخير لمن يعاديه، فضده (النصيحة) التي هي قصد الخير وكراهة الشر، لا المحبة - كما يتراءى في بادى الرأى - إذ هي ضد الكراهة دون العداوة - كما يأتى في محله - فمن معالجات الحقد أن يتذكر فوائد النصيحة ومدحها - كما يأتى - ليعين على إزالته.

ومنها:

العداوة الظاهرة

وهي من لوازم الحقد، لأنه إذا قوى قوة لا يقدر معها على المجاملة أظهر العداوة بالمكاشفة. والأخبار الواردة في ذمها كثيرة، وقد تقدم بعضها. وعلاجها كما تقدم في الحقد، وضدها النصيحة الظاهرة، أعنى فعلية الخير والصلاح لا مجرد قصدهما، فليكلف نفسه عليها، حتى تصير ملكة له ويزول ضدها.

ومنها:

الضرب والفحش واللعن والطعن

وهذه ناشئة غالباً عن العداوة والحقد، وربما صدرت من مجرد الغضب وسوء الخلق، وربما صدر الفحش من الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق، وربما كان الباعث في بعض أفرادها حب المال وفقده المعدود من رذائل قوة الشهوة، إلا أن الفاعل المباشر لهذه الأمور هي القوة الغضبية، أو النفس لهيجان قوة الغضب. وإن كان الهيجان حاصلا بوساطة فعل قوة الشهوة. وعلى أى تقدير يكون من رذائل القوة الغضبية على قاعدتنا، ولذا أدرجناها تحتها فقط.

ثم لا ريب في كون هذه الامور مذمومة محرمة في الشريعة، موجبة لحبط الأعمال وخسران المال. وجميع ما يدل على ذم الايذاء والاضرار يدل على ذمها، لكونها بعض أفرادهما. والعقل والشرع متطابقان على شدة قبح كل واحد منها بخصوصه وايجابه للهلاك:

أما ﴿الضرب﴾ ـ فلأنه لا ريب في أن ضرب مسلم بلا داع شرعي مما يقبحه كل عاقل، ويذمه جميع طوائف العالم، حتى نفاة الاديان، والأخبار الواردة في ذمه كثيرة، وفي عدة منها: «أن من ضرب رجلا سوطاً لضربه الله سوطاً من النار».

وأما ﴿الفحش والسب وبذاءة اللسان﴾ ـ فلا ريب في كونه صادراً عن خباثة النفس. قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّان، ولا الفاحش ولا البذي». وقال ﷺ: «إياكم والفحش، فان الله لا يحب الفحش والتفحش». وقال ﷺ: «الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها». وقال ﷺ: «ان الفحش والتفحش ليسا من الاسلام في شيء» وقال ﷺ: «البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق» وروى: أن المراد بالبيان: كشف ما لا يجوز كشفه. وقال ﷺ: «أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى»... وعدّ منهم: رجلا يسيل فوه قيحاً، وهو من كان في الدنيا فاحشاً. وقال ﷺ: «لا تسبوا الناس فتكسبوا العداوة منهم»[(١)]. وقال ﷺ: «إن الله حرم الجنة على كل فحاش بذي قليل الحياء لا يبالي ما قال ولا ما قيل له، فانك إن فتشته لم تجده إلا لغية[(٢)] أو شرك شيطان». وقال ﷺ: «إذا رأيتم الرجل لا يبالي ما قال ولا ما قيل فيه فانه لغية أو شرك شيطان». وقال ﷺ: «إن الله ليبغض الفاحش البذي والسائل الملحف». وقال ﷺ: «إن من شرار عباد الله من تكره مجالسته لفحشه». وقال ﷺ: «سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه

---

(١) وفي بعض نسخ الكافي في باب السباب: (بينهم) بدل (منهم).

(٢) قال في القاموس في مادة (غوى): «ولد غية ـ ويكسر ـ أي زنية»، فيكون معنى (لغية) أي (لزنية).

معصية، وحرمة ماله كحرمة دمه». وقال ﷺ: «سباب المؤمن كالمشرف على الهلكة». وقال ﷺ: «شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة الذين يكرمون اتقاء شرهم». وقال ﷺ: «المتسابان شيطانان معتاديان ومتهاتران». وقال الصادق عليه السلام: «من علامات شرك الشيطان الذي لا يشك فيه أن يكون فحاشاً لا يبالى ما قال ولا ما[١] قيل فيه». وقال عليه السلام: «البذاء من الجفاء، والجفاء في النار». وقال عليه السلام: «من خاف الناس لسانه فهو في النار»، وقال: «إن أبغض خلق الله تعالى عبد اتقى الناس لسانه». وعن الكاظم عليه السلام في رجلين يتسابان: «فقال: البادى منهما أظلم، ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم يتعد المظلوم»[٢].

(تنبيه) اعلم أن حقيقة الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارة الصريحة. ويجرى أكثر ذلك في الفاظ الوقاع وآلاته وما يتعلق بهما، فان لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون من التعرض لها، بل يكنون عنها ويعبرون عنها بالرموز. قال بعض الصحابة: «إن الله حيّ كريم يعف ويكنى، كنى باللمس عن الجماع». فالمس، واللمس، والدخول، والصحبة، كنايات عن الوقاع، وليست بفاحشة، وعنه عبارات فاحشة يستقبح ذكرها. وليس هذا يختص بالوقاع، بل الكناية بقضاء الحاجة عن التبول والتغوط أولى من لفظة التغوط والخراء وغيرهما، وكذا التعبير عن المرأة، فهذا أيضاً مما يخفى ويستحيى منه، فلا ينبغى أن تذكر ألفاظه الصريحة باللسان، بل يكنى عنها، فلا يقال: قالت زوجك أو امرأتك، بل يقال: قيل في الحجرة، أو قيل من وراء الستر، وقالت أم الأولاد، وأمثال ذلك. وكذلك من به عيوب يستحى منها، فلا ينبغى أن يعبر عنها بصريح لفظها،

---

(١) و فى بعض نسخ الكافى فى باب البذاء (بما) فى الموضعين

(٢) قد مضى في الصفحة (٢٥١) تصحيح الحديث على ما في اصول الكافى في باب السفه. فصححناه هنا أيضاً.

كالبرص، والقرح، والبطن، وأمثال ذلك، بل يكنى عنها بعبارات غير صريحة، مثل العارض الذي عرض وما يجرى مجراه، إذ التصريح بجميع ذلك داخل في الفحش.

ثم ألفاظ الفحش لا ريب - حينئذ - في كونها محظورة باسرها مذمومة، وإن كان بعضها أفحش من بعض، فيكون اثمه أشد، سواء استعمل في الشتم والايذاء أو لا يستعمل فيه، بل في المزاح والهزل وغيرهما. وحينئذ لما كانت هذه العبارات متفاوتة في الفحش بعضها أفحش من بعض، وربما اختلف بعادة البلاد، فيكون بعضها مكروهاً وبعضها محظوراً، فان من قال لغيره مزاحاً أو اعتياداً حاصلا من مخالطة الفساق: (فرج امرأتك ضيق أم لا؟) لا ريب في كونه فحشاً محرماً مذموماً، مع أنه لم يستعمل في الشتم. وبالجملة: أوائل هذه العبارات مكروهة وأواخرها محظورة، وبينهما درجات تتردد بين الكراهة والحرمة.

وأما ﴿اللعن﴾ - فلا ريب في كونه مذموماً، لأنه عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى، وهذا غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده بنص الشريعة. وقد ورد عليه الذم الشديد في الأخبار، قال رسول الله ﷺ: «المؤمن ليس بلعان». وعن الباقر عليه السلام قال: «خطب رسول الله ﷺ الناس، فقال: ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: الذي يمنع رفده، ويضرب عبده، ويتردد وحده. فظنوا أن الله لم يخلق خلقاً هو شر من ذلك، ثم قال: ألا اخبركم بمن هو شر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: المفتحش اللعان الذي إذا ذكر عنده المؤمنون لعنهم، وإذا ذكروه لعنوه». وقال الباقر عليه السلام: «إن اللعنة إذا خرجت من فم صاحبها ترددت بينهما فإن وجدت مساغاً وإلا رجعت إلى صاحبها».

ثم لما كان اللعن هو الحكم بالبعد أو طلب الإبعاد من الله، (والأول) غيب لا يطّلع عليه إلا الله، (والثانى) لا يجوز إلا على من اتصف بصفة تبعده منه، فينبغي ألا يلعن أحداً إلا من جوز صاحب الشرع لعنه، والمجوز من الشرع انما هو اللعن

على الكافرين والظالمين والفاسقين، كما ورد في القرآن ولا ريب في جواز ذلك بالوصف الأعم، كقولك: لعنة الله على الكافرين. أو بوصف يخص بعض الأصناف، كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى.

والحق جواز اللعن على شخص معين علم اتصافه بصفة الكفر أو الظلم أو الفسق. (وما قيل) من عدم جواز ذلك إلا على من يثبت لعنه من الشرع كفرعون وأبي جهل، لأن كل شخص معين كان على احدى الصفات الثلاثة ربما رجع عنها، فيموت مسلماً أو تائباً، فيكون مقرباً عند الله لا مبعداً عنه (كلام ينبغي) أن يطوى ولا يروى، إذ المستفاد من كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وكلام أئمتنا الراشدين: جواز نسبته إلى الشخص المعين، بل المستفاد منها أن اللعن على بعض أهل الجحود والعناد من أحب العبادات وأقرب القربات، قال الله سبحانه:

﴿أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللهِ وَٱلْمَلَـٰئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[١]. وقال: **﴿أُولَـٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾**[٢].

وقال النبي ﷺ: «لعن الله الكاذب ولو كان مازحاً». وقال ﷺ في جواب أبي سفيان حين هجاه بألف بيت: «اللهم إني لا احسن الشعر ولا ينبغي لي، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة». وقد لعن أمير المؤمنين عليه السلام جماعة. وروى أنه كان يقنت في الصلاة المفروضة بلعن معاوية وعمروبن العاص وأبي موسى الأشعري وأبي أعور الاسلمي، مع أنه أحلم الناس وأشدهم صفحاً عمن يسوء به، فلولا أنه كان يرى لعنهم من الطاعات لما يتخير محله في الصلوات المفروضات. وروى الشيخ الطوسي: «أن الصادق عليه السلام كان ينصرف من الصلاة بلعن أربعة رجال». ومن نظر إلى ما وقع للحسن عليه السلام مع معاوية وأصحابه وكيف لعنهم، وتتبع ما ورد من الأئمة في

(١) البقرة، الآية: ١٦١.

(٢) البقرة، الآية: ١٥٩.

الكافي وغيره من كتب الأخبار والأدعية في لعنهم من يستحق اللعن من رؤساء الضلال والتصريح باسمائهم، يعلم أن ذلك من شعائر الدين، بحيث لا يعتريه شك ومرية. وما ورد من قوله عليه السلام: «لا تكونوا لعانين»، ومثله: نهى عن اللعن على غير المستحقين، وما روى: أن أمير المؤمنين عليه السلام نهى عن لعن أهل الشام، فإن صح، فلعله كان يرجو اسلامهم ورجوعهم اليه، كما هو شأن الرئيس المشفق على الرعية.

وبالجملة: اللعن على رؤساء الظلم والضلال والمجاهرين بالكفر والفسق جائز، بل مستحب، وعلى غيرهم من المسلمين غير جائز، إلا أن يتيقن باتصافه باحدى الصفات الموجبة له. وينبغي ألا يحكم باتصافه بشيء منها بمجرد الظن والتخمين، إذ لا يجوز أن يرمى مسلم بكفر وفسق من غير تحقيق، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يرمى رجل رجلا بالكفر فلا يرميه بالفسق إلا ارتد عليه إن لم يكن كذلك».

ثم اللعن على الأموات أشد وزراً وأعظم إثماً، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تسبوا الأموات، فانهم قد افضوا إلى ما قدموا». ولا ينبغي أن يلعن الجماد والحيوان أيضاً. لما روى: «أنه ما لعن أحد الأرض إلا قالت: اللعن على أعصانا لله»، وما روى: «أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنكر على امرأة لعنت ناقة، وعلى رجل لعن بعيراً». ثم الدعاء على المسلم بالشر قريب من اللعن عليه، فلا ينبغي ارتكابه ولو على الظالم، إلا إذا اضطر إليه لشره واضراره، وقد ورد أن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافيه، ثم يبقى للظالم عنده فضيلة يوم القيامة. وقال علي بن الحسين عليه السلام: «إن الملائكة إذا سمعوا المؤمن يذكر أخاه بالسوء ويدعو عليه قالوا: بئس الأخ أنت لاخيك! كف أيها المستر على ذنوبه وعورته، واربع على نفسك، واحمد الله الذي ستر عليك!»(١).

ثم ضد ذلك ـ اعني الدعاء للأخ المسلم بما يحب لنفسه ـ من أحب الطاعات

(١) هذه الرواية من تتمة الرواية الآتية عن علي بن الحسين عليهما السلام.

وأقرب القربات، وفوائده اكثر من أن تحصى، بل عند التحقيق دعاؤك له دعاء لنفسك، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا دعا الرجل لاخيه في ظهر الغيب قال الملك: ولك مثل ذلك». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه». وقال علي بن الحسين عليهما السلام: «إن الملائكة إذا سمعوا المؤمن يدعو لأخيه المؤمن بظهر الغيب أو يذكره بخير، قالوا: نعم الأخ انت لأخيك! تدعو له بالخير وهو غائب عنك، وتذكره بالخير. قد اعطاك الله عز وجل مثلي ما سألت له، واثنى عليك مثلي ما أثنيت عليه، ولك الفضل عليه». ومثله ورد عن الباقر عليه السلام أيضاً. والاخبار في فضيلة الدعاء للاخوان اكثر من أن تحصى، وأى كرامة اعظم لك من أن تصل منك إلى المؤمن وهو تحت اطباق الثرى هدايا الاستغفار والادعية، وهل تدرى كيف تسر روحه منك بهذا العمل؟ فان اهله يقسمون ميراثه ويتنعمون بما خلف، وانت متفرد بحزنك تدعو له في ظلمة الليل، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء، ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب، وانه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال» وهو للاموات بمنزلة الهدايا للأحياء، فيدخل الملك على الميت معه طبق من نور عليه منديل من نور، فيقول: هذه هدية لك من عند أخيك فلان، من عند قريبك فلان، فيفرح كما يفرح الحى بالهدية[1].

وأما ﴿الطعن﴾ - فهو أيضاً من ذمائم الافعال، ويورث الضرر في الدنيا والعذاب في الاخرى. قال الباقر عليه السلام: «إياكم والطعن على المؤمنين». وقال عليه السلام: «ما من انسان يطعن في عين مؤمن إلا مات شر ميتة، وكان قمناً ألا يرجع إلى خير».

---

(١) هذا الكلام من بعد الحديث الذي وضعناه بين قوسين رواه في احياء العلوم -ج ٢ ص ١٦٤ - عن بعض السلف، وبمضمونه احاديث مروية عن آل البيت عليهم السلام. روى منها في الوسائل في ابواب الاحتضار من كتاب الطهارة (باب استحباب الصلاة عن الميت والصوم والحج).

واعلم أن هذه الامور ـ اعني الفحش واللعن والطعن وامثالها مما يأتي في موضعه: من الغيبة، والكذب، والبهتان، والاستهزاء، والمزاح، والخوض في الباطل، والتكلم بالفضول وما لا يعنى: من آفات اللسان، ويأتى أن لجميع آفات اللسان ضداً عاماً هو الصمت، ويأتى بيان فضيلته وكثرة فوائده، ويأتى أيضاً ما يدل بعمومه على ذم جميع آفات اللسان ـ اعنى ما ورد في ذم اللسان، وكون شره أعظم من شر سائر الأعضاء ـ فانه بعمومه يدل على ذم هذه الأمور.

ومنها ـ أي ومن رذائل القوة الغضبية ـ:

العجب

وهو استعظام نفسه لأجل ما يرى لها من صفة كمال، سواء كانت له تلك الصفة في الواقع أم لا. وسواء كانت صفة كمال في نفس الأمر أم لا، وقيل: «هو اعظام النعمة والركون اليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم» وهو قريب مما ذكر، ولا يعتبر في مفهومه رؤية نفسه فوق الغير في هذا الكمال وهذه النعمة، وبذلك يمتاز عن الكبر، إذ الكبر هو أن يرى لنفسه مزيّة على غيره في صفة كمال، وبعبارة أخرى هو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه، فالكبر يستدعى متكبراً عليه ومتكبراً به.

والعجب لا يستدعى غير المعجب، بل لو لم يخلق الانسان إلا وحده تصور أن يكون معجباً، ولا يتصور أن يكون متكبراً، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفة الكمال. ولا يكفى أن يستعظم نفسه ليكون متكبراً، فانه قد يستعظم نفسه، ولكن يرى في غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه، فلا يتكبر عليه، فهو معجب وليس متكبراً. ولا يكفى أن يستحقر غيره، فانه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر أو رأى غيره مثل نفسه لم يكن متكبراً، بل المتكبر هو أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة،

ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره.

والحاصل: أن العجب مجرد إعظام النفس لأجل كمال أو نعمة، وإعظام نفس الكمال والنعمة مع الركون ونسيان إضافتهما إلى الله، فان لم يكن معه ركون وكان خائفاً على زوال النعمة مشفقاً على تكدرها أو سلبها بالمرة، أو كان فرحه بها من حيث أنها من الله من دون إضافتها إلى نفسه لم يكن معجباً، فالمعجب ألا يكون خائفاً عليها، بل يكون فرحاً بها مطمئناً اليها، فيكون فرحه بها من حيث انها صفة كمال منسوبة اليه، لا من حيث انها عطية منسوبة إلى الله تعالى. ومهما غلب على قلبه أنها نعمة من الله مهما شاء سلبها زال العجب.

ثم لو انضاف إلى العجب ـ أي غلب على نفس المعجب ـ أن له عند الله حقاً، وأنه منه بمكان، واستبعد أن يجرى عليه مكروه، وكان متوقعاً منه كرامة لعمله، سمى ذلك (ادلالاً) بالعمل، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة، فهو وراء العجب وفوقه، إذ كل مدل معجب، ورب معجب لا يكون مدلاً، إذ العجب مجرد الاستعظام ونسيان الاضافة إلى الله من دون توقع جزاء على عمله، والادلال يعتبر فيه توقع الجزاء بعمله، إذ المدل يتوقع إجابة دعوته ويستنكر ردها بباطنه ويتعجب منه، فالادلال عجب مع شيء زائد.

وعلى هذا، فمن أعطى غيره شيئاً، فان استعظمه ومنّ عليه كان معجباً، وان استخدمه مع ذلك أو اقترح عليه الاقتراحات واستبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه. وكما أن العجب قد يكون مما يراه صفة كمال وليس كذلك العجب بالعمل قد يكون بعمل هو مخطىء فيه ويراه حسناً، كما قال سبحانه:

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[١].

---

(١) الفاطر، الآية: ٨.

وقال أبو الحسن عليه السلام: «العجب درجات: ومنها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً، فيعجبه ويحسب انه يحسن صنعاً. ومنها ان يؤمن العبد بربه، فيمنّ على الله عز وجل ولله عليه فيه المنّ».

فصل

(ذم العجب)

العجب من المهلكات العظيمة وأرذل الملكات الذميمة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهو متبعاً، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك نفسك». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك: العجب العجب». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «بينما موسى عليه السلام جالس[(١)]، إذ أقبل عليه ابليس وعليه برنس ذوألوان، فلما دنى منه خلع البرنس، وقام إلى موسى عليه السلام فسلم عليه، فقال له موسى: من أنت؟ فقال: انا ابليس، قال أنت! فلا قرّب الله دارك، قال: إنى إنما جئت لأسلم عليك لمكانك من الله، فقال له موسى عليه السلام: فما هذا البرنس؟ قال: به اختطف قلوب بنى آدم، فقال موسى: فاخبرنى بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه، قال: إذا اعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قال الله عز وجل: يا داود! بشّر المذنبين وأنذر الصدّيقين، قال: كيف ابشر المذنبين وانذر الصديقين؟ قال: بشر المذنبين انى أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصديقين ألا يعجبوا باعمالهم، فانه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك». وقال الباقر عليه السلام: «دخل رجلان المسجد، أحدهما عابد والآخر فاسق، فخرجا من المسجد والفاسق صديق والعابد

---

(١) وفي بعض نسخ الكافى في باب العجب هكذا: (جالساً) ـ بالنصب ـ.

فاسق، وذلك انه يدخل العابد المسجد مدلا بعبادته يدل بها، فتكون فكرته في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في الندم على فسقه، ويستغفر الله مما صنع من الذنوب». وقال الصادق عليه السلام: «إن الله علم ان الذنب خير للمؤمن من العجب، ولولا ذلك ما ابتلى مؤمناً بذنب ابداً». وقال عليه السلام: «من دخله العجب هلك». وقال عليه السلام: «ان الرجل ليذنب فيندم عليه، ويعمل العمل فيسره ذلك، فيتراخى عن حاله تلك، فلأن يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه». وقال عليه السلام: «أتى عالم عابداً فقال له: كيف صلاتك؟ فقال: مثلي يسأل عن صلاته وانا اعبد الله منذ كذا وكذا، قال: فكيف بكاؤك؟ قال: ابكي حتى تجري دموعي، فقال له العالم: فان ضحكك وأنت خائف افضل من بكائك وأنت مدل، ان المدل لا يصعد من عمله شيء». وقال عليه السلام: «العجب ممن يعجب بعمله وهو لا يدري بما يختم له، فمن أعجب بنفسه وفعله، فقد ضل عن نهج الرشاد، وادعى ما ليس له، والمدعي من غير حق كاذب وان أخفى دعواه وطال دهره. وإن أول ما يفعل بالمعجب نزع ما اعجب به ليعلم انه عاجز حقير، ويشهد على نفسه ليكون الحجة عليه أوكد، كما فعل بابليس. والعجب نبات حبها الكفر، وأرضها النفاق، وماؤها البغي، وأغصانها الجهل، وورقها الضلالة، وثمرها اللعنة والخلود في النار، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر وزرع النفاق، ولا بد أن يثمر»[1]. وقيل له عليه السلام: الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق، ثم يعمل شيئاً من البر فيدخله شبه العجب به، فقال: «هو في حالة الأولى وهو خائف أحسن حالا منه في حال عجبه». وقال عليه السلام: «إن عيسى بن مريم عليهما السلام كان من شرائعه السيح في البلاد، فخرج في بعض سيحه ومعه رجل من اصحابه قصير، وكان كثير اللزوم لعيسى، فلما انتهى عيسى إلى البحر قال: بسم الله، بصحة يقين منه، فمشى على ظهر الماء. فقال

---

(١) صححنا هذه الرواية على ما في البحار - الجزء الثالث من المجلد الخامس عشر في باب العجب - وقد نقلها عن مصباح الشريعة، وفيه اختلاف عن نسخ جامع السعادات.

الرجل القصير حين نظر إلى عيسى جازه: بسم الله، بصحة يقين منه، فمشى على الماء ولحق بعيسى ـ صلى الله عليه ـ، فدخله العجب بنفسه، فقال: هذا عيسى روح الله يمشي على الماء وانا امشي على الماء، فما فضله علي؟! قال: فرمس في الماء، فاستغاث بعيسى عليه السلام، فتناوله من الماء فأخرجه، ثم قال له: ما قلت يا قصير؟! قال قلت: هذا روح الله يمشي على الماء وانا أمشي، فدخلني من ذلك عجب، فقال له عيسى: لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله فمقتك الله على ما قلت، فتب إلى الله عز وجل مما قلت، قال: فتاب الرجل، وعاد إلى مرتبته التي وضعه الله فيها»[١].

فصل

(آفات العجب)

العجب آفاته كثيرة: (منها) الكبر لأنه أحد أسبابه ـ كما يأتي ـ (ومنها) أنه يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فلا يتذكر شيئاً منها، وإن تذكر بعضاً منها يستصغرها ولا يستعظمها، فلا يجتهد في تداركها وتلافيها، بل يظن أنها تغفر له. وأما العبادات، فيستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، وإذا اعجب بها عمي عن آفاتها. ومن لم يتفقد آفات الأعمال ضل سعيه، إذ الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع، وإنما يتَفقَّد الخائف المشفق دون المعجب، لأنه يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، وأن له عند الله حقاً باعماله التي هي من عطاياه تعالى ونعمه، وربما يخرجه العجب إلى تزكية نفسه والثناء عليها. وإن أعجب برأيه وعقله

(١) صححنا أكثر هذه الأحاديث على الكافي في باب العجب والحسد.

وعلمه منعه ذلك من السؤال والاستفادة والاستشارة، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف عن سؤال الأعلم، وربما يعجب بالرأى الخطأ الذي خطر له، فيفرح بكونه من خواطره ولا يعتنى بخواطر غيره، فيصر عليه، ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستحقار والاستجهال، فإن كان رأيه الفاسد متعلقاً بامر دنيوى أضره وفضحه، وإن كان متعلقاً بامر دينى ـ (لا) سيما في أصول العقائد ـ أضله وأهلكه. ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه، واستعان بعلماء الدين وسؤال أهل البصيرة، لكان خيراً له وأحسن، وموصلا له إلى الحق المتيقن. ومن آفاته أنه يفتر في الجد والسعى، لظنه أنه قد استغنى وفاز بما ينجيه، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه.

فصل

(علاج العجب اجمالا وتفصيلا)

إعلم أن للعجب علاجين: اجمالياً وتفصيلياً[١]:

أما العلاج الاجمالى ـ فهو أن يعرف ربه، وأنه لا تليق العظمة والعزة إلا به، وأن يعرف نفسه حق المعرفة، ليعلم أنه بذاته أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، ولا تليق به إلا الذلة والمهانة والمسكنة، فما له والعجب واستعظام نفسه، فانه لا ريب في كونه ممكناً، وكل ممكن في ذاته صرف العدم ومحض اللاشىء، كما ثبت في الحكمة المتعالية، ووجوده وتحققه وكماله وآثاره جميعاً من الواجب الحق، فالعظمة والكبرياء انما تليق بمفيض وجوده وكمالاته، لا لذاته التي هي صرف العدم ومحض الليس، فان شاء أن يستعظم شيئاً ويفتخر به فليستعظم ربه وبه افتخر، ويستحقر

(١) وفي النسخ: (اجمالى وتفصيلى).

نفسه غاية الاستحقار وحتى يراها صرف العدم ومحض اللاشيء. وهذا المعنى يشترك فيه كل ممكن كائناً من كان.

وأما المهانة والذلة التي تخص هذا المعجب وبنى نوعه، فكون أوله نطفة قذرة وآخره جيفة عفنة، وكونه ما بين ذلك حمال نجاسات منتنة، وقد مرّ على ممر البول ثلاث مرات. وتكفيه آية واحدة من كتاب الله تعالى لو كان له بصيرة، وهي قوله تعالى:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا أَكْفَرَهُۥ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾[1].

فقد أشارت الآية إلى انه كان أولا في كتم العدم غير المتناهي، ثم خلقه من أقذر الأشياء الذي هو نطفة مهينة، ثم أماته وجعله جيفة منتنة خبيثة.

وأي شيء أخس وأرذل ممن بدايته محض العدم، وخلقته من أنتن الأشياء وأقذرها، ونهايته الفناء وصيرورته جيفة خبيثة. وهو ما بين المبدأ والمنتهى عاجز ذليل، لم يفوض إليه أمره، ولم يقدر على شيء لنفسه ولا لغيره، إذ سلطت عليه الأمراض الهائلة، والأسقام العظيمة، والآفات المختلفة، والطبائع المتضادة، من المرة والدم والريح والبلغم، فيهدم بعض أجزائه بعضاً، شاء أم أبى، رضى أم سخط، فيجوع كرهاً، ويعطش كرهاً، ويمرض كرهاً، ويموت كرهاً، لا يملك لنفسه نفعاً وضراً ولا خيراً وشراً. يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن ينسى الشيء فلا ينساه، ويريد أن ينصرف قلبه إلى ما يهمه فيجول في أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار. فلا يملك قلبه قلبه، ولا نفسه نفسه. يشتهى الشيء وفيه هلاكه، ويكره الشيء وفيه حياته، يستلذ ما يهلكه ويرديه، ويستبشع ما ينفعه

---

(١) عبس، الآية: ١٧ـ٢٢.

وينجيه، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وعلمه وقدرته، وتفلج أعضاؤه، ويختلس عقله، وتختطف روحه، ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، وهو مضطر ذليل، إن ترك فني، وإن خلى ما بقي، عبد مملوك، لا يقدر على شيء من نفسه ولا من غيره. فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه؟ وأنى يليق العجب به لولا جهله؟. وهذا وسط أحواله.

وأما آخره، فهو الموت ـ كما عرفت ـ فيصير جيفة منتنة قذرة، ثم تضمحل صورته، وتبلى أعضاؤه، وتنخر عظامه، وتتفتت أجزاؤه، فيصير رميماً رفاتاً، ثم يصير روثاً في أجواف الديدان، يهرب منه الحيوان، ويستقذره كل انسان، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان، فيصير تراباً تعمل منع الكيزان، ويعمر منه البنيان، فما أحسنه لو ترك تراباً، بل يحيى بعد طول البلى ليقاسى شدائد البلا، فيخرج من قبره بعد جمع اجزائه المتفرقة، ويساق إلى عرصات القيامة، فيرى سماء مشققة، وأرضاً مبدلة، وجبالاً مسيرة، ونجوماً منكدرة، وشمساً منكسفة، وجحيماً مسعرة، وجنة مزينة، وموازين منصوبة، وصحائف منشورة، فإذا هو في معرض المؤاخذة والحساب وعليه ملائكة غلاظ شداد، فيعطى كتابه إما بيمينه أو شماله، فيرى فيه جميع أعماله وأفعاله، من قليل وكثير ونقير وقطمير. فان غلبت سيئاته على حسناته وكان مستحقاً للعذاب والنار، تمنى ان يكون كلباً أو خنزيراً، لصيّر مع البهائم ترابا ولا يلقى عقابا ولا عذابا. ولا ريب في أن الكلب والخنزير أحسن وأطيب ممن عصى ربه القهار ويعذب في النار، إذ أولهما وآخرهما التراب، وهو بمعزل عن العقاب والعذاب، والكلب والخنزير لا يهرب منهما الخلق، ولو رأى أهل الدنيا من يعذب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته، ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقاه في بحار الدنيا صارت أنتن من الجيفة المنتنة.

فما لمن هذه حاله والعجب واستعظام نفسه! وما أغفله من التدبر في أحوال

يومه وأمسه! ولو لم يدركه العذاب ولم يؤمر به إلى النار فانما ذلك للعفو، لأنه ما من عبد إلا وقد أذنب ذنباً، وكل من أذنب ذنباً استحق عقوبة، فلو لم يعاقب فانما ذلك للعفو. ولا ريب في أن العفو ليس يقيناً، بل هو مشكوك فيه، فمن استحق عقوبة ولا يدرى أيعفى عنها أم لا، يجب أن يكون ابداً محزوناً خائفاً ذليلاً، فكيف يستعظم نفسه ويلحقه العجب، ألا ترى أن من جنى على بعض الملوك بما استحق به الف سوط مثلا، فأخذ وحبس في السجن وهو منتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق، وليس يدرى أيعفى عنه أم لا، كيف يكون ذله في السجن؟ أفترى أنه مع هذه الحالة يكون معجباً بنفسه؟! ولا اظنك ان تظن ذلك. فما من عبد مذنب، ولو اذنب ذنباً واحداً، إلا وقد استحق عقوبة من الله، والدنيا سجنه، ولا يدرى كيف يكون امره، فيكفيه ذلك خوفا ومهانة وذلة. فلا يجوز له لان يعجب ويستعظم نفسه.

هذا هو العلاج الاجمالى للعجب.

وأما التفصيلى - فهو ان يقطع اسبابه - اعنى ما به العجب - وهي العلم، والمعرفة، والعبادة، والطاعة، وغير ذلك من الكمالات النفسية، كالورع، والشجاعة، والسخاوة، والنسب، والحسب، والجمال، والمال، والقوة، والبطش، والجاه، والاقتدار، وكثرة الأعوان والأنصار، والكياسة، والتفطن لدقائق الأمور، والرأى الخطأ.

أما (العجب بالعلم): فعلاجه أن يعلم ان العالم الحقيقى هو الذي يعرف نفسه وخطر الخاتمة، وان من تليق به العظمة والعزة والكبرياء هو الله سبحانه، وما عداه هالك الهوية والذات فاقد الكمال والصفات. وهذا العلم يزيد الخوف والذلة والمهانة والمسكنة، والاعتراف بالقصور والتقصير في اداء حقوق الله، والشكر بازاء نعمه، ولذا قيل: «من ازداد علماً ازداد وجعاً». فالعلم الذي لا يوجب ذلك ويورث العجب، إما ليس علماً حقيقياً، بل هو من العلوم الدنيوية التي ينبغى ان تسمى صناعات

لا علوماً، إذ صاحبه خاض فيه وهو خبيث النفس ردى الأخلاق لم يهذب نفسه أولا ولم يزكها بالمجاهدات ولم يرضها في عبادة ربه، فيبقى خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم وإن كان علماً حقيقياً صادف من قلبه منزلاً خبيثاً، فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير اثره، فان العلم مثله مثل الغيث ينزل من السماء عذبا صافياً، فإذا شربته الاشجار والنباتات ازداد المر مرارة والحلو حلاوة، كذلك العلم إذا صادف القلوب ازداد القلب المظلم الخبيث ظلمة وخباثة، والطيب الصافى طيباً وصفاء.

وإذا علم ذلك، يعرف أنه لا ينبغى العجب بالعلم، ويجب أيضاً ان يعلم أنه إذا أعجب بنفسه صار ممقوتاً عند الله مبغوضاً لديه، لما تقدم من الأخبار، وقد أحب الله منه الذلة والحقارة عند نفسه. وقال بواسطة سفرائه: «إن لك عندى قدراً ما لم تر لنفسك قدراً، فان رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك عندى»[1]. وقال: «صغروا أنفسكم ليعظم عند محلكم». فلابد ان يكلف نفسه ما يحب مولاه، وأن يعلم ان حجة الله على أهل العلم أوكد، وانه يتحمل من الجاهل ما لا يتحمل عشره من العالم، لأن العالم إذا زل زل بزلته كثير من الناس، ولأن من عصى الله عن علم ومعرفة كانت جنايته أفحش، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيطيف به أهل النار، فيقولون: مالك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه وانهى عن الشر وآتيه». وقد مثل الله تعالى علماء (اليهود) بالحمار،[2] وبلعلم بن باعوراء

(١) هذا كلام بنصه مذكور في احياء العلوم ـ ج ٣ ص ٣١٢ـ ويظهر منه انه من كلامه هو أو مقتبس من مضامين الأخبار، لا انه نص حديث، وكذا ما بعده وهو قوله: «صغروا...».

(٢) اشارة إلى قوله تعالى ـ في سورة الجمعة الآية ٥ ـ: «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً».

بالكلب[١]، لعدم عملهم بما علموه. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يكون قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقولون قد قرأنا القرآن فمن اقرأ منا ومن أعلم منا»، ثم التفت إلى أصحابه فقال: «أولئك منكم أيها الأمة، أولئك هم وقود النار». وقال صلى الله عليه وآله: «إن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه، وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله فاستجاب له وقبل منه، فاطاع الله فادخله الله الجنة، وادخل الداعي النار بتركه علمه واتباعه الهوى وطول الأمل». وقال روح الله عليه السلام: «ويل لعلماء السوء[٢] كيف تتلظى عليهم النار». وقال الصادق عليه السلام: «يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد».

ولا ريب في أن كل عالم يأمر الناس بالتواضع وذل النفس وانكسارها، وينهاهم عن العجب والكبر، وهو معجب متكبر، يكون من علماء السوء، وممن لم يعمل بعلمه، فيكون داخلا تحت هذه الأخبار. وأى عالم يتصور في أمثال هذه الأزمنة أن يجزم بأنه عمل بجميع ما علم وامر به، ولم يضع شيئاً من أوامر ربه من الجنايات الظاهرة والذنوب الباطنة، كالرياء والحسد والعجب والنفاق وغير ذلك؟ وكيف يمكنه القطع بأنه امتثل ما امر به من التكاليف العامة والخاصة به؟ فخطره اعظم من خطر غيره، كيف وقد روى: «أن حذيفة صلى بقوم، فلما سلم قال: لتلتمسن إماماً غيرى أو لتصلن وحداناً، فإنى رأيت في نفسى أنه ليس في القوم أفضل منى». فإذا

(١) اشارة إلى قوله تعالى ـ في سورة الأعراف الآية ١٧٦ ـ: «فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث».

(٢) في النسخ المصححة للكافى ـ باب لزوم الحجة على العالم ـ هكذا: «للعلماء السوء» ـ بتعريف العلماء ـ ونحن رجحنا نسخة جامع السعادات المطبوعة فأثبتناه بلا تعريف. قال صاحب مجمع البحرين ـ (مادة سوء) ـ: «تقول هذا رجل سوء بالاضافة، ثم تدخل عليه الالف واللام، فتقول هذا رجل السوء. ولا يقال الرجل السوء. كذا قاله الجوهرى».

كان مثله لا يسلم، فكيف يسلم الضعفاء من متأخرى هذه الأمة، فما أعز على بسيط الأرض في هذه الأعصار علماء الآخرة الذين أقبلوا على شأنهم، واستوحشوا من أوثق اخوانهم، وشغلهم عظيم الأمر عن الالتفات إلى الدنيا وزهرتها، وازعجهم خوف الرحمن عن مضاجعهم في حنادس الليالي وظلمتها، ولا يشتهون من نعيم الدنيا حاراً ولا بارداً، وصارت همومهم هماً واحداً، هيهات! فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم، فهم أرباب الاقبال وأصحاب الدول، وقد انقرضوا في القرون الأول، بل يعز أن يوجد في زماننا هذا عالم لا تكون له استطالة وخيلاء، ولم يكن متكبراً على الفقراء، ومتواضعاً للأغنياء. فينبغى لكل عالم أن يتفكر في أحواله وأعماله وما أريد منه، وفي عظم خطره حتى تنكسر نفسه، ويظهر خوفه وحزنه ويبطل كبره وعجبه.

وأما (العجب بالعبادة والطاعة): فعلاجه أن يعلم أن الغرض من العبادة هو إظهار الذل والانكسار، وصيرورتهما ملكة للنفس ليحصل له معنى العبودية وحقيقتها، فالعجب لمنافاته الغرض المقصود منها يبطلها، وبعد بطلانها فلا معنى للعجب بها. وايضاً آفات العبادة الموجبة لحبطها كثيرة، وكذلك شرائطها وآدابها التي لا يصح بدونها كثيرة، فيمكن ان تدخلها بعض الآفات، أو تفقد عنها بعض الشرائط والآداب، فلا تكون مقبولة عند الله، ومع إمكان ردها وعدم قبولها كيف يعجب العاقل بها؟ ومن يمكنه القطع بسلامة طاعاته وعباداته عن جميع الآفات؟ ومن قطع بذلك فهو في غاية الجهل بحقائق الأمور. على أن فائدة العبادة إنما هو إذا كان عند الله سعيداً، ومن جوز أن يكون عند الله شقياً، وقد سبق القضاء الإلهي بشقوته، فأى نفع يتصور لعبادته حتى يعجب بها ولا ريب في انه لا يخلو عبد عن هذا التجويز، فما لأحد إلى العجب والتكبر في حال من الأحوال سبيل.

وأما (العجب بالورع، والتقوى، والصبر، والشكر، والسخاوة، والشجاعة، وغيرها من الفضائل النفسية): فعلاجه أن يعلم أن هذه الفضائل إنما تكون نافعة

ومنجية إذا لم يدخلها العجب، وإذا دخلها العجب أبطلها وأفسدها، فما للعاقل أن يرتكب رذيلة تضيع ماله من الفضائل، وأنى له لا يظهر الذلة والتواضع في نفسه حتى يزيد فضيلة على فضائلها، ويختم لأجلها الجميع بالخير، وتصير عاقبته محمودة، وتكون مساعيه مقبولة مشكورة. وينبغي أن يعلم أن كل واحد من الفضائل التي يثبتها لنفسه موجودة مع الزيادة في كثير من بني نوعه، وإذا علم اشتراك الناس معه في هذه الفضيلة زال اعجابه بها. وقد نقل أن واحداً من مشاهير الشجعان إذا قابل خصمه اصفر لونه وارتعدت فرائصه واضطرب قلبه، فقيل له: ما هذه الحالة وانت اشجع الناس واقواهم؟ فقال: إني لم امتحن خصمي، فلعله أشجع مني. وأيضاً النصر والغلبة وحسن العاقبة مع الذلة والمسكنة، لا مع الاعجاب بالقوة والشجاعة، فإن الله عند المنكسرة قلوبهم.

ومن المعالجات النافعة للعجب بكل واحد من الصفات الكمالية: أن يقابل سببه بضده، اذ علاج كل علة بمقابلة سببها بضده، ولما كانت علة العجب هو الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة له، فنقول:

الكمال الذي به يعجب إما أن يكون يعجب به من حيث أنه فيه وهو محله ومجراه، أو من حيث أنه نشأ منه وحصل بسببه وقوته وقدرته. فإن كان (الأول)، فهو محض الجهل، لأن المحل مسخر، وإنما يجرى ما يجرى فيه وعليه من جهة غيره، ولا مدخل له في الايجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس له. وإن كان (الثاني)، فينبغي أن يتأمل في قدرته وارادته واعضائه، وسائر الاسباب التي بها يتم كماله وعمله، أنها من اين كانت له: فإن كان علم ان جميع ذلك نعمة من الله إليه من غير حق سبق له، فينبغي أن يكون اعجابه بجود الله تعالى وكرمه وفضله، إذ أفاض عليه ما لا يستحقه، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة، فإن ظن أنه تعالى وفقه لهذا العمل لاتصافه ببعض الصفات الباطنة المحمودة، كحبه له تعالى أو مثله، فيقال له:

الحب والعمل كلاهما نعمتان من عنده، ابتدأك بهما من غير استحقاق من جـهتك، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة، فليكن الاعجاب بجوده، إذ أنعم بوجودك وبوجود صـفاتك واعمالك واسباب اعمالك.

فاذن لا معنى لعجب العالم بعلمه، وعـجب العـابد بـعبادته، وعـجب الشـجاع بشجاعته، وعجب الجميل بجماله، وعجب الغنى بماله، لأن كل ذلك مـن فـضل الله، وإنما هو محل لفيضان فضل الله وجوده. والمحل أيضاً من فـضله وجـوده، فـانه هـو الذي خلقك، وخلق اعضاءك، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة، وخـلق لك العـقل والعلم والارادة، ولو أردت أن تنفى شيئاً من ذلك لم تقدر عليه. ثـم خـلق الحـركات في اعضائك مستبداً باختراعها من غير مشاركة لك معه في الاخـتراع، إلا أنـه خـلقها على ترتيب؛ فلم يخلق الحركة ما لم يخلق فـي العـضو قـوة وفـي القـلب ارادة، ولم يخلق العلم ما لم يخلق القلب الذي هو محله، فتدريجه في الخلق شيئاً بعد شيء هو الذي خيل اليك أنك مستقل بايجاد عـملك، وقـد غـلطت، فـان تـحريك البـواعث، وصرف العوائق، وتهيئة الأسباب، كلها من الله، ليس شيء منها اليك.

ومن العجائب أن تعجب بنفسك، ولا تعجب بمن إليه الأمـر كـله، ولا تـعجب بجوده وكرمه، وفضله في ايثاره إياك على الفساق من عـباده، إذ مكـنهم مـن اسـباب الشهوات واللذات، وزواها عنك، وصرف عـنهم بـواعث الخـير وهـيأها لك، حـتى يتيسر لك الخير من غير وسيلة سابقة منك.

روى: «أن أيوب عليه السلام قال: (إلهى إنك ابتليتنى بهذا البلاء، ومـا ورد عـليَّ أمـر إلا آثرت هواك على هواى)، فنودى من غمامة بعشرة آلاف صوت: يـا ايـوب! أنـى لك ذلك؟ قال: فأخذ رماداً فوضعه على رأسه، وقال: مـنك يـا رب! فـرجـع عـن نسـيانه، واضاف دلك إلى الله تعالى، ولذلك قال الله تعالى:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[١].

وقال النبي ﷺ: «ما منكم من أحد ينجيه عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: «ولا أنا إلا ان يتغمدني الله برحمته».

(فإن قيل): ما ذكرت من استناد الصفات والأفعال ومحلها جميعاً إلى الله تعالى، يؤدي إلى الجبر ونفي التكليف، وبطلان الثواب والعقاب، (قلنا): هذا فرع باب مسألة يتعلق بعلم آخر، ولا يليق بيانها هنا[٢]. ونحن لم نسلب القدرة والاختيار عن العبد بالكلية في متعلق التكليف - اعني افعاله العرضية - بل نفينا استقلاله فيها. نعم، في غيرها من المحال والأسباب والصفات اللازمة، والتوفيق، وتحريك البواعث، وصرف الموانع، لا قدرة له فيها اصلاً، ولا يلزم منه فساد.

وأما (العجب بالحسب والنسب): فعلاجه يتم بمعرفة امور:

الأول - أن يعلم أن التعزز بكمال الغير غاية السفاهة والجهل، فإنه لو كان خسيساً في صفات ذاته، فمن أين يجبر خسته كمال غيره، ولو كان أباه أو جده، بل لو كان الذي يعجب به بالانتساب حياً لكان له ان يقول: الفضل لي لا لك وأنت دودة خلقت من فضلتي، أفترى ان الدودة التي خلقت من فضلة الانسان اشرف من الدودة التي خلقت من فضلة حمار؟! هيهات! فانهما متساويان في الخسة، إن الشرف للانسان لا للدودة، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام:

انا ابن نفسي وكنيتي ادبي　　من عجم كنت أو من العرب

إن الفتى من يقول هأنذا　　ليس الفتى من يقول كان أبي

وقيل: لئن فخرت بآباء ذوي شرف　　لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

وقد روي: «أن اباذر قال بحضرة النبي ﷺ لرجل: (يا ابن السوداء!)، فقال

(١) النور، الآية: ٢١.

(٢) تقدم ذكر هذا الأمر ص ١٣٤.

النبى ﷺ: (يا اباذر! طف الصاع طف الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل). فاضطجع أبوذر وقال للرجل: قم فطأ على خدى». وروى: «أن بلالاً لما أذن يوم الفتح على الكعبة، قال جماعة: هذا العبد الأسود يؤذن! فنزل قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(١).

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية ـ أى كبرها ـ كلكم بنو آدم وآدم من تراب». ونقل: أن واحداً من رؤساء اليونان افتخر على غلام، فقال له: إن كان منشأ افتخارك آباؤك، فالتفوق لهم لا لك، وإن كان لباسك، فالشرافة له دونك، وإن كان مركوب، فالفضيلة له لا لك. فليس لك شيء يصلح للعجب والمفاخرة. ولذا قال متمم مكارم الأخلاق ﷺ: «لا تأتونى بأنسابكم وائتونى بأعمالكم».

الثانى ـ أن يعرف نسبه الحقيقى، فإن أباه القريب نطفة قذرة، وجده البعيد تراب ذليل. وقد عرفه الله نسبه فقال:

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾(٢).

والأصل الذي يوطأ بالأقدام أو تغسل منه الاجسام أى رفعة يكون لفرعه!

الثالث ـ أن يعلم أن من يعجب بهم بالانتساب من اسلافه، إن كانوا من أهل الديانة والخصال المرضية والشرافة الحقيقية، فظاهر أنه ما كان من أخلاقهم العجب، بل الذلة والازراء على النفس ومذمتها واستعظام الخلق، فان اقتدى بهم في اخلاقهم فلا يليق به العجب والتعزز، وإلا كان طاعناً في نسبه بلسان حاله. وإن لم يكونوا من أهل الديانة الواقعية والشرافة العلمية والعملية، بل كان لهم مجرد شوكة ظاهرية، كالسلاطين الظلمة وأعوانهم، فأف لمن يفتخر بهم ويعجب بنفسه لأجلهم! إذ

---

(١) الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) السجدة، الآية: ٧ ـ ٨.

الانتساب إلى الكلاب والخنازير أحسن من الانتساب اليهم، كيف وأنهم ممقوتون عند الله معذبون في النار، بحيث لو نظر إلى صورهم في النار وما لحقهم فيها من النتن والقذارة، لا ستنكف منهم وتبرأ من الانتساب اليهم. ولذلك قال ﷺ: «ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحماً في جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدوف بآنافهم القذر» وروى: أنه افتخر رجلان عند موسى عليه السلام، فقال احدهما: أنا فلان بن فلان، حتى عدّ تسعة، فأوحى الله تعالى إلى موسى: «قل للذى افتخر: بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم!».

وأما (العجب بالجمال): فعلاجه أن يعلم أنه في معرض الزوال بالعلل والآلام والأمراض والأسقام، وأي عاقل يعجب بشيء تزيله حمى يوم أو قرحة أو جدرى!

بر مال وجمال خويشتن غرّه مشو ... كان را بشبى برند واين را به تبى[1]

ولو لم يرتفع بها، فهل يشك عاقل بزواله بذهاب الشباب ومجيء الشيب وبالموت الذي لا بد ان تذوقه كل نفس؟ فانظر إلى الوجود الجميلة والأبدان الناعمة، كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور، بحيث استقذرتها الطباع.

على انه لو نظر نظر العقلاء في باطنه عند اتصافه بغاية جماله، لرأى من الفضائح ما يكدّر عليه العجب والتعزز به، فإنه وكلت اليه[2] الاقذار في جميع اجزائه: (البصاق) في فمه، (والمخاط) في انفه، (والوسخ) في اذنه، (والنتن) تحت ابطه، (والصديد) تحت بشرته، (والفضلات) في معدته، (والرجيع) في امعائه، (والديدان) في احشائه، (والبول) في مثانته، (والصفراء) في مرارته، يتردد إلى الخلاء كل يوم مرتين، ويغسل الغائط كل يوم بيده مرتين، يخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلاً ان يمسه أو يشمه. وفي أول امره خلق من الاقذار الشنيعة

---

(١) معنى البيت: (لا تغتر بمالك و جمالك، فان ذاك يذهب بليلة و هذا بحمى واحدة).

(٢) وفي النسخ: «وكل به»، ورجحنا ما اثبتناه.

الصور: من النطفة ودم الحيض، وخرج من مجارى الاقذار، اعنى الصلب والذكر والرحم والفرج. ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعهده بالغسل والتنظيف، لثارت منه الانتان والاقذار، وصار اقذر وأنتن من الدواب المهملة. هذا أوله ووسطه، وسيموت فيصير جيفة اقذر من سائر الاقذار. فما للعاقل أن يعجب ويتعزز بهيئة حاصلة لبدن هذه حقيقته!

وأما (العجب بالمال): فهو عجب بأمر خارج عن ذات الانسان، فهو اقبح انواع العجب. وعلاجه ان يتفكر في آفات المال، وكونه في معرض الفناء والزوال، من الغضب والنهب والحرق والغرق، وغير ذلك من الآفات السماوية والارضية، ويتذكر أن في اليهود والهندومن يزيد عليه في المال. واف لشرف يسبقه اليهود والهندو! واف لشرف يأخذه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلا مفلساً!! ويتذكر ما ورد في ذم المال وحقارة الاغنياء، وفي فضيلة الفقر وشرافة الفقراء، وسبقهم إلى الجنة في القيامة، وما ورد في عقوبة المعجب بالمال بخصوصه، كقوله ﷺ: «بينما رجل يتبختر في حلة له قد اعجبته نفسه، اذ أمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[1]، أشار به إلى عقوبة اعجابه بماله ونفسه. وكيف يتصور المؤمن العاقل أن يعجب بالمال ويفرح به، مع كثرة حقوقه وعظم غوائله، وايجابه المؤاخذة وطول المحاسبة في القيامة، والعقوبة والنكال إن كان حراماً، وانحطاط المرتبة والدرجة إن كان حلالاً، بل ينبغي له ألا يخلو ساعة عن الخوف من تقصيره، في القيام بحقوقه، وأخذه من حله، ووضعه في حقه.

وأما (العجب بالقوة وشدة البطش): فعلاجه أن يتذكر ما سلط عليه من العلل والأمراض، وأن حمى يوم تضعف قوته ويتحلل منها ما لا ينجبر في مدة، وأنه لو

(١) هذا الحديث صححناه على ما في احياء العلوم ـ ٣: ٣٢٢ ـ.

وجع عرق واحد من بدنه صار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل، وأنـه لو سـلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه، وأن بقة لو دخـلت فـي أنـفه أو نـملة دخـلت فـي أذنـه لقتلته، وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته. ثم أقوى إنسـان لا يكـون اقـوى مـن حمار أو جمل أو فيل أو بقر، وأي عجب وافتخار في صفة يسبقه البـهائم فـيها، هـذا مع ان الغالب ان من يعجب بقوته يسلبها الله تعالى عنه بأدنى آفة يسلطها عليه.

وأما (العجب بالجاه، والمنصب، وولاية السلاطين، وكثرة الأتباع والأنصار: من الأولاد والأقارب والقبائل والعشائر والخدم والغلمان): فعلاجه أن يعلم ان كـل ذلك في معرض الانقطاع، وعن قريب يقع بينه وبينها المفارقة، إما بفنائه وموته أو بـفنائها وهلاكها، بل العاقل يجدها كسراب بـقيعة، وإنـما هـي خـيالات تـظن شـيئاً وليست بشيء، وستفترق عنه إذا مات ودفن في قبره ذليلا مهيناً وحده، لا يرافقه أهـل وأولاد ولا أعوان وأتباع، فيسلمونه إلى البلاء وإلى العقارب والحيات والديـدان، ولا يـغنون عنه شيئاً، وهو في احوج أوقاته اليهم، وكيف يعجب العـاقل بـمن يـفارقه فـي أشـد احواله! عـلى انـهم فـي الدنـيا يـتبعونه مـا دام يـحصل مـنه مـا يشـتهونه مـن البـذل والاعطاء، فلابـد له مـن ايـقاع نـفسه فـي المـهالك وتـعرضه لسـخط الله وعـقوبته، لتحصيل الاموال من الوجوه المحرمة وصرفها اليهم، ليستمروا على متابعته واعانته، ولو نقص شيء مما يتمنونه تعرضوا لمقته وعداوته، فضلا عن بقائهم عـلى حـمايته واطاعته. ثم المعجب بتمكين السلطان وولايته بناء أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر، إذ لو تغير عليه كان أذل الخلق.

وأما (العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقـائق الأمـور): فـعلاجه أن يـعلم أن ذلك يزول عنه بأدنى مرض يصيب دماغه، وربما زال عقله دفعة. مع أنـه إن كـان فـي

الواقع فطناً كيساً في الأمور يلزم عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك، ويستصغر[١] عقله وفطانته، ليبقى الله تعالى عليه تلك النعمة، ولا يسلبها عنه لأجل عجبه.

وأما (العجب بالرأى الخطأ الذي يزين له بجهله): فهو أقبح أنواع العجب، إذ جميع أهل البدع والضلال والفرق الذين اختاروا مذاهب باطلة وآراء فاسدة إنما أصروا عليها لعجبهم بها، ولذا يفتخرون بمذاهبهم على غيرهم، وبذلك هلكت الامم إذا افترقت فرقا، وكل معجب برأيه، و:

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[٢].

فكل من استحسن ما يسوقه إليه الهوى والشبهة ـ مع ظن كونه حقاً ـ يكون له هذا العجب، وقد أخبر رسول الله ﷺ: «أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة». وعلاجه أشد من علاج غيره، لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطأه، ولو عرفه لتركه. ولا يعالج الداء الذي لا يعرف، إذ العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه إذا لم يكن معجباً برأيه وجهله، وإذا كان معجباً به يتهمه ولا يصغى اليه حتى يعالجه، فقد سلطت عليه بلية تهلكه وهو يظن أنها نعمة. وكيف يطلب الهرب ممّا يعتقد أنه سبب سعادته! وانما علاجه في الجملة أن يكون متهما لرأيه لا يغتر به، إلا أن يشهد له قاطع عقلى أو نقلى لا يعتريه ريب وشبهة.

ومعرفة أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكان الغلط فيها موقوفة على عقل ثابت، وقريحة تامة مستقيمة، مع جدّ وتشمير في الطلب، وممارسة الكتاب والسنة، ومجالسة أهل العلم، ومدارسة العلوم طول العمر، ومع ذلك لا يؤمن عليه الغلط. فالصواب للكل ـ إلا من أيده الله بقوة قدسية يتمكن بها من الخوض في غمرات العلوم ـ ألا يخوض في المذاهب الباطلة ولا يصغى اليها، ويتبع أهل الوحى فيما

---

(١) فى النسخ: «يستغفر»، فرجحنا ما اثبتناه.

(٢) المؤمنون، الآية: ٥٣.

جاؤا به من عند الله في الأصول والفروع.

وصل
(انكسار النفس)

ضد العجب انكسار النفس واستحقارها وكونها في نظره ذليلة مهينة. وكما ان العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار استصغار الغير معه، هكذا ضده مجرد استحقار النفس من دون اشتراط اعظام الغير معه، إذ الأول مع اعتبار الثاني تكبر، والثالث مع اشتراط الرابع تواضع، وهما ضدان.

ثم لا ريب في فوائد انكسار النفس واستصغارها، وكل من بلغ مرتبة عظيمة فانما بلغ بهذه الصفة، لأن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم، وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة[١] يمسكانها، فان هو رفع نفسه جبذاها[٢] ثم قالا: اللهم ضعه، وإن وضع نفسه قالا: اللهم ارفعه»[٣]. وروى: «أنه أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أن يا موسى! أتدرى لم اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟ قال: يا رب! ولم ذلك؟ فأوحى الله تبارك وتعالى اليه: أني قلبت عبادي ظهراً لبطن، فلم اجد فيهم احداً اذل نفساً لي منك، يا موسى! إنك إذا صليت وضعت خدك على التراب». وروى: «انه لما اوحى الله تعالى إلى الجبال: أني واضع سفينة نوح عندي على جبل منكن، فتطاولت وشمخت، وتواضع الجودي، وهو جبل عندكم، فضربت السفينة بجؤجؤها الجبل، فقال نوح عند ذلك: (يا ماري اتقن) وهو بالسريانية: رب اصلح»[٤].

(١) الحكمة بالتحريك: ما احاط بحنكى الفرس من لجامه.

(٢) بمعنى جذباها.

(٣) صححنا الحديث على ما في احياء العلوم -ج ٢ ص ٣٢٩-.

(٤) هذا الحديث وما قبله رواهما الكافي في باب التواضع، فصححناهما عليه.

ومنها:

الكبر

وقد عرفت: أنه الركون إلى رؤية النفس فوق الغير، وبعبارة أوضح: هو عزة وتعظيم يوجب رؤية النفس فوق الغير واعتقاد المزية والرجحان عليه، فهو يستدعى متكبراً عليه. وبه ينفصل عن العجب، إذ العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار رؤيتها فوق الغير، فالعجب سبب الكبر والكبر من نتائجه.

ثم الكبر ـ أي العزة الموجبة لرؤية النفس فوق الغير ـ هو خلق الباطن يقتضى اعمالا في الظاهر هي ثمراته، وتسمى تلك الأعمال الظاهرة الصادرة منه تكبراً، ولذا من تعزز ورأى نفسه باطناً فوق الغير، من دون صدور فعل على جوارحه، يقال له (كبر)، وإذا ظهرت الأعمال يقال له (تكبر). وهذه الأعمال الظاهرة التي هي ثمرات خلق الكبر أفعال وأقوال توجب تحقير الغير والازراء به، كالترفع عن مواكلته ومجالسته، والاستنكاف عن مرافقته ومصاحبته، وابعاده عن نفسه، وإبائه عن الجلوس بجنبه، وانتظاره ان يسلّم عليه، وتوقعه أن يقوم ماثلا بين يديه، والاستنكاف من قبول وعظه، وتعنيفه في ارشاده ونصحه، وتقدمه عليه في المحافل والطرقات، وعدم الالتفات إليه في المحاورات، وتوقع التقديم عليه في كل ما يدل على التعظيم عرفا. وبالجملة: الأعمال الصادرة عن الكبر كثيرة، ولا حاجة إلى احصائها، لكونها مشهورة معروفة، ومن جملتها الاختيال في المشى وجرّ الثياب، إذ فاعلهما يرى نفسه فوق الاكثر ويقصد بهما استحقارهم، فهما يقتضيان متكبراً عليه، فيكونان من انواع التكبر، وما ورد في ذمهما يدل أيضاً على ذمه، كما يأتى. وهذه الأفعال المعبر عنها بالتكبر قد تصدر عن الحقد أو الحسد أو الرياء، وإن لم تكن في النفس عزة وتعظم.

فصل

(ذم الكبر)

الكبر آفته عظيمة وغائلته هائلة، وبه هلك خواص الأنام فضلا عن غيرهم من العوام، وهو الحجاب الأعظم للوصول إلى أخلاق المؤمنين، إذ فيه عز يمنع عن التواضع، وكظم الغيظ، وقبول النصح، والدوام على الصدق، وترك الغضب والحقد والحسد والغيبة والازراء بالناس، وغير ذلك. فما من خُلق مذموم إلا وصاحب الكبر مضطر اليه، ليحفظ به عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه، خوفا من فوات عزه. ولذا ورد في ذمه ما ورد من الآيات والأخبار، قال الله سبحانه:

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[1]. وقال: **﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾**[2]. وقال: **﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ**... إلى قوله: **وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾**[3]. وقال: **﴿أُدْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾**[4]. وقال: **﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾**[5]. وقال: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾**[6]. وقال: **﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾**[7].

وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل

---

(١) غافر، الآية: ٣٥.

(٢) الأعراف، الآية: ١٤٦.

(٣) الانعام، الآية: ٩٣

(٤) الزمر، الآية: ٧٢.

(٥) النحل، الآية: ٢٢.

(٦) غافر، الآية: ٦٠.

(٧) غافر، الآية: ٥٦.

من كبر»[١]، وقال: «من تعظم في نفسه واختال في مشيته، لقى الله وهو عليه غضبان». وقال ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل يجر ازاره بطراً». وقال ﷺ: «قال الله: الكبرياء ردائي والعظمة ازاري، فمن نازعني في واحد منهما ألقيته في جهنم». وقال ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم من العذاب». وقال ﷺ: «يخرج من النار عنق له اذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق، يقول وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين. وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة جبار، ولا بخيل، ولا سيء الملكة». وقال ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك جبار، ومقل مختال». وقال ﷺ: «بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى، بئس العبد عبد تبختر واختال ونسى الكبير المتعال، بئس العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى، بئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى». وقال ﷺ: «ألا أخبركم باهل النار: كل عتل جواظ جعظري مستكبر»[٢]. وقال ﷺ: «إن أبغضكم الينا وأبعدكم منا في الآخرة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون»: أي المتكبرون. وقال ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر، تطأهم الناس ذراً في مثل صور الرجال، يعلوهم كل شيء من الصغار، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له (يولس)، تعلو هم نار شر أنيار[٣]، يسقون من طينة الخبال وعصارة أهل النار». وقال ﷺ: «يحشر الجبارون

---

(١) روى الحديث في الكافي عن احد الصادقين عليهما السلام في باب الكبر، وجاء فيه هكذا: «الكبر» بتعريف كبر.

(٢) صححنا الحديث على كنز العمال ـ ج ٢ ص ١٠٧ ـ والجواظ: المتكبر الجافي، والجعظري: اللفظ الغليظ.

(٣) كذا في النسخ، وفي نسخة احياء العلوم ـ ج ٢ ص ٢٩٠ ـ: (نار الانيار)، ولم نعثر على جمع نار على انيار، وانما من جملة جموعها (نيار).

والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطأهم الناس لهوانهم على الله تعالى»، وقال: «إن في جهنم وادياً يقال له (هبهب)، حق على الله أن يسكنه كل جبار»، وقال: «إن في النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم»، وقال: «إذا مشت امتى المطيطاء وخدمتهم (فارس) و(الروم) سلط الله بعضهم على بعض»، والمطيطاء: مشية فيها اختيال. وقال عيسى بن مريم: «كما أن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفاء، كذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر، ألا ترون أنه من يتشمخ برأسه إلى السقف شجه، ومن يطأطيء أظله وأكنه». ولما حضرت نوحا الوفاة، دعا ابنيه فقال: «إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين: أنهاكما عن الشرك والكبر وآمركما بلا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده». وقال سليمان بن داود يوماً للطير والجن والأنس والبهائم: «اخرجوا، فخرجوا في مائتي الف من الانس ومائتي الف من الجن، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السماوات، ثم خفض حتى مست اقدامه البحر، فسمع صوتاً يقول: لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته».

وقال الباقر عليه السلام: «الكبر رداء الله، والمتكبر ينازع الله رداءه»، وقال: «العز رداء الله والكبر ازاره، فمن تناول شيئاً منه أكبه الله في جهنم». وقال الصادق عليه السلام: «إن في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له (سقر) شكى إلى الله شدة حره وسأله أن يأذن له أن يتنفس، فتنفس فاحرق جهنم». وقال عليه السلام: «إن المتكبرين يجعلون في صور الذر، يتوطأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب». وقال عليه السلام: «ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه». وقال عليه السلام: «إن في السماء ملائكة موكلين بالعباد، فمن تواضع رفعاه، ومن تكبر وضعاه». وقال عليه السلام: «الجبار الملعون من غمض الناس وجهل الحق»، قال الرواي: أما الحق فلا أجهله، والغمض لا أدرى ما هو قال: «من حقر الناس وتجبر عليهم فذلك الجبار». وقال عليه السلام: «ما من عبد إلا وفي رأسه حكمة وملك يمسكها،

فإذا تكبر قال له: اتضع وضعك الله، فلا يزال أعظم الناس في نفسه وأصغر الناس في أعين الناس، وإذا تواضع رفعها الله عز وجل، ثم قال له: انتعش نعشك الله، فلا يزال أصغر الناس في نفسه وارفع الناس في أعين الناس».

فصل
(التكبر على الله وعلى الناس)

التكبر قد يكون على الله، كما كان لنمرود وفرعون، وسببه الطغيان ومحض الجهل، وهو أفحش أنواع الكبر، إذ هو أعظم افراد الكفر، ولذا تكررت في ذمه الآيات، كقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[(١)]. وقوله: ﴿وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[(٢)]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا﴾[(٣)]. وقوله: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[(٤)].

وقد يكون على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن انقيادهم، كما كان لمن يقول:

﴿أَهَـٰؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾[(٥)]. ولمن يقول: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾[(٦)].

---

(١) غافر، الآية: ٦٠

(٢) النساء، الآية: ١٧٢.

(٣) مريم، الآية: ٦٩.

(٤) النحل، الآية: ٢٢.

(٥) الانعام، الآية: ٥٣.

(٦) المؤمنون، الآية: ٤٧.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[1]. ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾[2]. ولمن قال: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[3].

وهذا في الشناعة قريب من التكبر على الله، وإن كان دونه.

وقد يكون على العباد بأن يستعظم نفسه ويستصغرهم، وهذا وإن كان دون الأولين، إلا أنه من المهلكات العظيمة، من حيث أنه يؤدى إلى مخالفة الله سبحانه، إذ صاحبه إذا سمع من عبد استنكف من قبوله واشمأز بجحده، ومن حيث أن العز والعظمة والعلى لا يليق إلا بالعلى الأعلى، فمهما تكبر العبد نازع الله في صفة من صفاته، ولذا قال الله سبحانه: «والعظمة ازارى والكبرياء ردائى، فمن نازعنى فيهما قصمته».

فصل

(درجات الكبر)

للكبر درجات ثلاث:

(الأولى) أن يكون مستقراً في قلبه، يرى نفسه خيراً من غيره، ويظهره في أفعاله: بالترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، وأن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم، ويعبس وجهه، ويقطب جبينه. وفي أقواله: باظهار الانكار على من يقصر فيما يتوقعه، من التعظيم، وابداء الدعوى، والمفاخرة والمباهاة، وتزكية النفس، والتشمير لغلبة الغير في العلم والعمل. وهذه الدرجة أقبح الدرجات

(١) ابراهيم، الآية: ١٠.

(٢) المؤمنون، الآية: ٣٤.

(٣) الفرقان، الآية: ٢١.

وأشدها، إذ صاحبها قد رسخت في قلبه شجرة الكبر وارتفعت أغصانها وفروعها، بحيث أحاطت على جميع جوارحه.

(الثانية) كالأولى، إلا في إظهاره على اللسان، وهي دون الأولى، لكونها أقل اغصاناً منها.

(الثالثة) أن يكون مستقرا في قلبه بحيث رأى نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد في التواضع، ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه. وهذا وإن رسخت في قلبه شجرة الكبر، إلا أنه قطع أغصانها بالكلية، فان كان مع ذلك منكراً على نفسه فيما رسخ فيها، ومغضباً عليها ومتشمراً لازالتها، إلا أنه لم يقدر على دفعه بسرعة وسهولة، وتميل النفس إلى ما تشتهيه في بعض الأحيان بدون اختيار، ولكنه كان في مقام المجاهدة، فلعله لم يكن عليه كثير إثم، ومثله يوفقه الله للوصول إلى ما يطلبه بمقتضى وعده.

فصل
(علاج الكبر علماً وعملاً)

الكبر كالعجب في كيفيّة العلاج اجمالا وتفصيلا، إذ الكبر لما تضمن معنى العجب ـ أي استعظام النفس ـ وكان العجب منشأ له، فما ذكر لعلاج مطلق العجب هو العلاج لمطلق الكبر أيضاً. ولكن ما به الكبر ـ اعنى بواعثه ـ هي بواعث العجب بعينها، فما ذكر لعلاج العجب بالبواعث المذكورة مشترك بينهما.

ومن المعالجات المختصة بالكبر: أن يتذكر ما ورد في ذمّه من الآيات والأخبار المذكورة وغيرها، ويتأمل فيما ورد في مدح ضده ـ اعنى التواضع ـ كما يأتي. ولكون الكبر مشتملا على شيء زائد على العجب هو رؤية النفس فوق الغير، فينبغي أن يعلم أن الحكم بخيرية نفسه من الغير غاية الجهل والسفاهة، فلعل في الغير من خفايا

الأخلاق الكريمة ما ينجيه، وفيه من الملكات الذميمة ما يهلكه ويرديه. وكيف يجترىء صاحب البصيرة أن يرجح نفسه على الغير، مع ابهام الخاتمة وخفاء الأخلاق الباطنة واشتراك الكل في الانتساب إلى الله تعالى، وفي صدورها وترشحها منه ومعلوليتها ولازميتها له، فالواقف بخطر الخاتمة واناطة النجاة والهلاك بالبواطن لا يرى لنفسه مزية على غيره، والعارف بكون كل فرد من أفراد الموجودات أثراً من آثار ذاته ولمعة من لمعات انوار صفاته، بل رشحة من رشحات فضله وجوده وقطرة من قطرات تيار فيض وجوده، لا ينظر إلى أحد بنظر السوء والعداوة، بل يشاهد الكل بعين الخيرية والمحبة.

اشكال وحل

﴿فإن قيل﴾: كيف يحسن أن يتواضع العالم الورع للجاهل الفاسق ويراه خيراً من نفسه، مع ظهور جهله وفسقه، وقطعه باتصاف نفسه بالعلم والورع وخلوه عنهما؟ وكيف يجوز له أن يحب فاسقاً أو كافراً أو مبتدعاً ويتواضع له ولا يعاديه، مع أنه مبغوض عند الله، فيكون مأموراً ببغضه، والجمع بين الحب والتواضع وبين البغض جمع بين النقيضين؟

﴿أجبنا﴾ عن (الأول) بأن حقيقة التواضع ألا يرى النفس لذاتها مزية واقعية وخيرية حقيقية على الغير، لا ألا يرى مزية لذاتها عليه في الصفات الظاهرة التي يجزم باتصاف نفسه بها وعدم اتصافه بها، كالعلم والعبادة والسخاوة والعدالة والاجتناب عن الأموال المحرمة وغير ذلك، إذ العالم ببعض العلوم لا يمكنه أن يدفع عن نفسه القطع بكونه عالماً بها وكون فلان العامي غير عالم بها. لكن المزية الواقعية والخيرية النفس الأمرية إنما هو بالتقرب إلى الله والوصول إلى السعادة الدائمية، ولا شك في أن ذلك لا يحصل بمجرد تعلم بعض العلوم والمواظبة على

بعض العبادات أو غير ذلك من الصفات المحمودة، بل المناط فيه حسن الخاتمة، وهو أمر مبهم، إذ العواقب مطوية عن العباد، فيمكن أن يسلم الكافر ويختم له بالايمان ويضل هذا العالم الورع ويختم له بالكفر، فعلى كل عبد إن رأى من هو شراً منه ظاهراً أن يقول لعل هذا ينجو وأهلك أنا، فلا يراه شراً من نفسه في الواقع خائفاً من العاقبة، ويقول: لعل برّ هذا باطن، بأن يكون فيه خلق كريم بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال، وبرّى ظاهر لا آمن أن تدخله الآفات فتحبطه. وبالجملة: ملاحظة الخاتمة والسابقة والعلم بأن الكمال في القرب من الله وسعادة الآخرة دون ما يظهر في الدنيا من الأعمال الظاهرة يوجب نفى الكبر والتواضع لكل أحد.

وعن (الثانى) إن الحب ينبغى أن يكون لأجل النسبة الشريفة المذكورة والتواضع لأجل ملاحظة الخاتمة، وبغضه وغضبه عليه لأجل ما ظهر منه من الكفر والفسوق. وأى منافاة بين الغضب لله في صدور معصية من عبد، وبين عدم الكبر والاذلال؟! إذ الغضب إنما هو لله لا لنفسك، إذ أمرك بأن تغضب عند مشاهدة المنكر، والتواضع وعدم الكبر إنما هو بالنظر إلى نفسك، بألا ترى نفسك ناجياً وصاحبك هالكاً في حال غضبك عليه لأمر الله، بل يكون خوفك على نفسك مما علم الله من خفايا ذنوبك اكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة، فليس من ضرورة الغضب والبغض لله أن تتكبر على المغضوب عليه، وترى قدرك فوق قدره.

ومثال ذلك: أن يكون لملك غلام وولد، وقد وكل الملك الغلام على ولده بأن يراقبه ويضربه مهما ساء أدبه، ويغضب عليه إذا اشتغل بما لا يليق به، فإن كان الغلام مطيعاً محباً لمولاه يغضب عليه إذا ساء أدبه امتثالاً لأمر مولاه، ومع ذلك يحبه لانتسابه إلى مولاه بالولادة، ولا يتكبر عليه ويتواضع له، ويرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام.

تذنيب
(العلاج العملى للكبر)

ما ذكرناه لعلاج الكبر إنما هو العلاج العلمى، وأما (العلاج العملى)، فهو أن يتواضع بالفعل لله ولسائر الخلق، ويواظب على اخلاق المتواضعين، ويكلف نفسه على ذلك إلى أن تقطع عن قلبه شجرة الكبر باصولها وفروعها، ويصير التواضع ملكة له. وللقطع الكلى وحصول ملكة التواضع امتحانات يعرفان بها، فلا بد أن يمتحن نفسه بها حتى يطمئن بأنه متواضع، إذ النفس قد تضمر التواضع وتدعى البراءة من الكبر، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها:

(الأول) أن يناظر مع أقرانه في بعض المسائل، فإذا ظهر شيء من الحق على لسانهم، فإن اعترف به مع السرور والاهتزاز والشكر لهم لتنبيههم إياه على ما غفل عنه فهو علامة التواضع، وإن ثقل عليه القبول والاعتراف ولم يسرّ بظهور الحق على لسانهم فهو دليل بقاء الكبر بعد. فليعالجه من حيث العلم بأن يتذكر سوء عاقبته وخسة نفسه وخباثتها، من حيث إن قبول الحق يثقل عليها، ومن حيث العمل بأن يكلف نفسه على ما يثقل عليها من الاعتراف بالحق واطلاق اللسان بالثناء والشكر، والاقرار على نفسه بالعجز والقصور، ويقول: ما أحسن فطانتك! لقد أرشدتنى إلى الحق، فجزاك الله خيراً. فإذا واظب على ذلك مرات متوالية، صار ذلك له طبعاً، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله، وإن لم يثقل عليه في الخلوة وثقل عليه في الملأ، فليس فيه كبر، بل فيه رياء، فليعالج بما يأتى في معالجة الرياء.

(الثانى) أن يقدم الأقران والامثال على نفسه في المحافل، ويمشى خلفهم في الطرق، فإن لم يثقل ذلك عليه فهو متواضع، وإلا فمتكبر، فليقدمهم بالتكلف، ويجلس تحتهم، ويظهر السرور والارتياح بذلك، حتى يسقط عنه ثقله. قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام: «إنّ من التواضع أن يجلس الرجل دون شرفه». وقال عليه السلام:

«من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس، وأن تسلم على من تلقى، وأن تترك المراء وان كنت محقاً، ولا تحب أن تحمد على التقوى». ومن المتكبرين من إذا لم يجد مكاناً في الصدر يجلس في صف النعال، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأراذل ولا يجلس تحتهم، وغرضهم من ذلك استحقار الأقران أو ايهام أن تركهم للصدر انما هو بالتفضل، فهو أشد انواع التكبر.

(الثالث) أن يجيب دعوة الفقير، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، ويحمل حاجتهم وحاجة نفسه منه إلى البيت، فإن لم يثقل عليه ذلك في الخلوة والملأ فليس فيه كبر ورياء، وان ثقل عليه فيهما ففيه كبر ورياء، وان ثقل عليه عند مشاهدة الناس دون الخلوة ففيه رياء دون الكبر. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله». وروى: «أنه اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته، فقال له بعضهم: احمل عنك يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا! أبو العيال أحق أن يحمل». وروى: «أن الصادق عليه السلام: نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئاً وهو يحمله، فلما رآه الرجل استحيى منه، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: اشتريته لعيالك وحملته اليهم، أما والله لولا أهل المدينة لأحببت ان اشترى لعيالى الشيء ثم أحمله اليهم».

(الرابع) أن يلبس ثيابا بذلة، فان لم يثقل عليه ذلك أصلاً فليس فيه كبر ورياء، وإلا كان متكبراً أو مرائياً، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد بريء من الكبر». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما أنا عبد آكل في الأرض، وألبس الصوف، وأعقل البعير، وألعق أصابعى، وأجيب دعوة المملوك، فمن رغب عن سنتى فليس منى». وقيل لسلمان: لم لا تلبس ثوباً جديداً؟ فقال: «إنما أنا عبد، فإذا اعتقت يوماً لبست جديداً»: أشار به إلى العتق في الآخرة. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «البذاذة ـ أى الدون من اللباس ـ من الايمان». وعوتب أمير المؤمنين عليه السلام في ازار مرقوع، فقال: «يقتدى به

المؤمن وتخشع له القلوب».

(الخامس) أن يأكل مع خدامه وغلمانه، فان لم يثقل عليه فهو متواضع، وإلا فمتكبر. وروى رجل من أهل بلخ، قال: «كنت مع الرضا عليه السلام في سفره إلى خراسان، فدعا يوماً بمائدة، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم، فقلت: جعلت فداك! لو عزلت لهؤلاء مائدة، فقال عليه السلام: إن الرب تعالى واحد، والدين واحد، والأم واحدة، والأب واحد، والجزاء بالأعمال».

والامتحانات لبقاء الكبر ليست منحصرة بما ذكر، بل هي كثيرة:

كأن يحب قيام الناس له أو بين يديه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام». وقال بعض الصحابة: «لم يكن شخص أحب اليهم من رسول الله، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك».

وأن يحب أن يمشي خلفه غيره، وقد روى «أنه لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشي خلفه». وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الأوقات يمشي مع بعض الاصحاب، فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم.

وألا يزور غيره، وإن كان في زيارته فائدة دينية. وان يستنكف من مجالسة الفقراء والمعلولين والمرضى. روى أنه دخل على رسول الله رجل وعليه جدري قد تقشر، وعنده ناس من أصحابه يأكلون، فما جلس عند أحد إلا قام من جنبه. فاجلسه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى جنبه. وكان صلى الله عليه وآله وسلم في نفر من أصحابه يأكلون في بيته، إذ دخل عليهم رجل به زمانة تنكره الناس لأجلها، فأجلسه رسول الله على فخذه وقال له: «اطعم»، وكأن رجلا من قريش اشمأز منه وتكره، فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة

مثلها. ومر سيد الساجدين عليه السلام على المجذومين[١] وهو راكب حماره، وهم يتغدون، فدعوه إلى الغداء، فقال: «أما أني لولا أني صائم لفعلت»، فلما صار إلى منزله أمر بطعام فصنع، وأمر أن يتنوقوا فيه، ثم دعاهم، فتغدوا عنده وتغدى معهم... وقس على هذه غيرها من الامتحانات.

ولقد كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جامعة لجميع ما يمتحن به التواضع، بريئة عن جميع ما يصدر من الكبر من الأفعال والحركات، فينبغى لكل مؤمن أن يقتدى به وقد روى أبو سعيد الخدرى: «أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلف الناضح، ويعقل البعير، ويقمّ البيت، ويحلب الشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه إذا أعيى، ويشرى الشيء من السوق، ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه وينقلب إلى أهله. يصافح الغنى والفقير والصغير والكبير، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة، ليست له حلة لمدخله ولا حلة لمخرجه، لا يستحيى من أن يجيب إذا دعى، وإن كان أشعث أغبر، ولا يحقر ما دعى اليه، وإن لم يجد إلا حشف الرّقل[٢]، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء. هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً من غير ضحك، محزونا من غير عبوس، شديداً في غير عنف متواضعاً في غير مذلة، جواداً من غير سرف، رحيما لكل ذى قربى، قريباً من كل ذمي ومسلم، رقيق القلب، دائم الاطراق، لم يبسم قط من شبع، ولا يمد يده إلى طمع». هذا وقال أبو الحسن عليه السلام: «التواضع: أن تعطى الناس ما تحب أن تعطاه». وسئل عن حد التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعاً، فقال: «التواضع درجات: منها أن يعرف المرء قدر نفسه، فينزلها منزلتها بقلب سليم لا يحب أن يأتى إلى أحد

---

(١) وفي بعض نسخ الكافى المصححة في باب التواضع هكذا: (المجذمين).

(٢) في احياء العلوم ـ ج ٣ ص ٣٠٦ ـ هكذا: (الدقل)، وكل من النسختين يصح به المعنى.

إلا مثل ما يؤتى اليه، إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ عاف عن الناس، والله يحب المحسنين».

وصل
(التواضع ومدحه)

قد أشير إلى ان ضد الكبر (التواضع)، وهو انكسار للنفس يمنعها من أن يرى لذاتها مزية على الغير، وتلزمه افعال وأقوال موجبة لاستعظام الغير وإكرامه، والمواظبة عليها أقوى معالجة لإزالة الكبر. ولا بد من الاشارة إلى الأخبار الواردة في مدح التواضع وفوائده، تحريكا للطالبين إلى السعي في تحصيله الموجب لازالة ضده، وهذه الأخبار كثيرة خارجة عن حد الاحصاء، فنكتفي بايراد بعض منها:

قال رسول الله ﷺ: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». وقال ﷺ: «طوبى لمن تواضع في غير مسكنة، وانفق مالاً جمعه من غير معصية، ورحم أهل الذلة والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة». وروى: «أن الله سبحانه أوحى إلى موسى: إنما اقبل صلاة من تواضع لعظمتى ولم يتعاظم على خلقى وألزم قلبه خوفى وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجلى». وقال رسول الله ﷺ لاصحابه: «مالى لا أرى عليكم حلاوة العبادة! قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال: التواضع». وقال ﷺ: «إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة». وقال ﷺ: «إذا هدى الله عبداً للأسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعاً، فذلك من صفوة الله». وقال ﷺ: «اربع لا يعطيهن الله إلا من يحبه: الصمت وهو اول العبادة، والتوكل على الله، والتواضع، والزهد في الدنيا». وقال ﷺ: «ليعجبنى أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه». وقال ﷺ: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر خفضه الله، ومن اقتصد في معيشة

رزقه الله، ومن بذر حرمه الله، ومن اكثر ذكر الموت أحبه الله، ومن اكثر ذكر الله اظله الله في جنته». وروى: «أنه أتى رسول الله ﷺ ملك، فقال: إن الله تعالى يخيرك أن تكون عبداً رسولا متواضعاً أو ملكا رسولا. فنظر إلى جبرئيل عليه السلام وأومىء بيده أن تواضع، فقال: عبداً متواضعاً رسولا، فقال الرسول يعنى الملك ـ: مع أنه لا ينقصك مما عند ربك شيئاً». وقال عيسى بن مريم عليه السلام: «طوبى للمتواضعين في الدنيا! هم اصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا! هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا! هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة». وقال ﷺ: «إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرحمكم الله». وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «يا داود! كما أن اقرب الناس إلى الله المتواضعين كذلك أبعد الناس من الله المتكبرون». وروى: «أن سليمان بن داود إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجىء إلى المساكين فيقعد معهم، ويقول مسكين مع مساكين». وروى: «أنه ورد على أمير المؤمنين عليه السلام اخوان له مؤمنان، أب وابن، فقام اليهما وأكرمهما وأجلسهما في صدر مجلسه وجلس بين ايديهما، ثم أمر بطعام فأحضر فأكلا منه، ثم جاء قنبر بطست وابريق خشب ومنديل، وجاء ليصب على يد الرجل، فوثب أمير المؤمنين وأخذ الأبريق ليصب على يد الرجل، فتمرغ الرجل في التراب، وقال: يا أمير المؤمنين! الله يرانى وانت تصب على يدى! قال: اقعد واغسل، فإن الله عز وجل يراك واخوك الذي لا يتميز منك ولا ينفصل عنك يخدمك، يريد بذلك في خدمته في الجنة مثل عشرة اضعاف عدد أهل الدنيا. فقعد الرجل. وقال له على عليه السلام: أقسمت عليك بعظيم حقى الذي عرفته لما غسلت مطمئناً كما كنت تغسل لو كان الصاب عليك قنبر، ففعل الرجل ذلك، فلما فرغ ناول الابريق محمد بن الحنفية، وقال: يا بنى! لو كان هذا الابن حضرنى دون أبيه لصببت على يده، ولكن الله عز وجل يأبى أن يسوى بين ابن وأبيه إذا جمعهما

مكان، لكن قد صبّ الأب على الأب فليصب الابن على الابن، فصب محمد بن الحنفية على الابن»[١].

وقال الصادق عليه السلام: «التواضع أصل كل شرف نفيس ومرتبة رفيعة، ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب. والتواضع ما يكون لله وفي الله، وما سواه فكبر. ومن تواضع لله شرفه الله على كثير من عباده. ولاهل التواضع سيماء يعرفها أهل السماوات من الملائكة وأهل الأرض من العارفين. قال الله عز وجل:

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ﴾[٢].

وأصل التواضع من اجلال الله وهيبته وعظمته. وليس لله عزوجل عبادة يقبلها ويرضاها إلا وبابها التواضع. ولا يعرف ما في معنى حقيقة التواضع إلا المقربون من عباده المستقلين بوحدانيته، قال الله عز وجل:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا سَلَـٰمًا﴾[٣].

وقد أمر الله عز وجل أعز خلقه وسيد بريته محمداً صلى الله عليه وآله بالتواضع، فقال عز وجل:

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

والتواضع مزرعة الخضوع والخشوع والخشية والحياء، وإنهن لا يأتين إلا منها

---

(١) روى هذا الحديث في البحار ـ في الجزء الرابع من المجلد الخامس عشر ص ١٤٩ باب التواضع ـ عن الاحتجاج والتفسير المنسوب إلى الامام العسكري عليه السلام.

(٢) الأعراف، الآية: ٤٦.

(٣) الفرقان، الآية: ٦٣.

(٤) الشعراء، الآية: ٢١٥.

وفيها، ولا يسلم الشرف التام الحقيقى إلا للمتواضع في ذات الله تعالى[١]. وقال الإمام أبو محمد الحسن بن على العسكرى عليه السلام: «أعرف الناس بحقوق اخوانهم واشدهم قضاء لهم اعظمهم عند الله شأناً، ومن تواضع في الدنيا لاخوانه فهو عند الله من الصديقين ومن شيعة على بن أبي طالب عليه السلام حقاً»[٢].

تتميم
(الذلة)

لما عرفت أن كل فضيلة وسط له طرفان مذمومان، فأحد طرفى التواضع (الكبر) ـ كما عرفت ـ وهو من طرف الافراط، وآخرهما (الذلة) والتخاسس، وهو من طرف التفريط. فكما أن الكبر مذموم، فكذلك المذلة والتخاسس أيضاً مذموم، اذ كلا طرفى الأمور ذميم، والمحمود: هو التواضع من دون الخروج إلى شيء من الطرفين، اذ أحب الأمور إلى الله أوسطها. وهو أن يعطى كل ذى حق حقه، وهو العدل، فلو وقع في طرف النقصان فليرفع نفسه، إذ ليس للمؤمن أن يذل نفسه، فالعالم إذا دخل عليه إسكاف فخلى له مجلسه وأجلسه فيه، وترك تعليمه وإفادته، وإذا قام عدا إلى الباب خلفه، فقد تخاسس وتذلل، وهو غير محمود، بل هو رذيلة في طرف التفريط. فاللازم إذا وقع فيه أن يرفع نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم. فإن العدل أن يتواضع بمثل ما ذكر لأمثاله ولمن يقرب درجته. فأما تواضعه للسوقى، فبالبشر في الكلام، والرفق في السؤال، واجابة دعوته، والسعى في حاجته، وامثال ذلك، وألا يرى نفسه خيراً منه، نظراً إلى خطر الخاتمة.

ثم ينبغى ألا يتواضع للمتكبرين، إذ الإنكسار والتذلل لمن يتكبر ويتعزز مع

(١) روى هذا الحديث في البحار أيضاً في الموضع المتقدم عن مصباح الشريعة.

(٢) هذا الحديث من نفس الحديث المتقدم عن الاحتجاج والتفسير المنسوب إلى الامام.

كونه من التخاسس والمذلة المذمومة يوجب اضلال هذا المتكبر، وتقريره على تكبره، وإذا لم يتواضع له الناس وتكبروا عليه ربما تنبه وترك التكبر، اذ المتكبر لا يرضى بتحمل المذلة والاهانة من الناس، ولذا قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم المتواضعين من امتى فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم، فإن ذلك لهم مذلة وصغار».

ومنها:

الافتخار

أي المباهاة باللسان بما توهمه كمالاً، والغالب كون المباهاة بالأمور الخارجة عن ذاته، وهو بعض أصناف التكبر ـ كما اشير إليه ـ فكل ما ورد في ذمه يدل على ذمه، والأسباب الباعثة عليه في أسباب التكبر. وقد تقدم أن شيئاً منها لا يصلح لأن يكون منشأ للافتخار، فهو ناش من محض الجهل والسفاهة. قال سيد الساجدين عليه السلام: «عجباً للمتكبر الفخور الذي كان بالأمس نطفة ثم (هو)[1] غداً جيفة». وقال الباقر عليه السلام: «عجباً للمختال الفخور، وانما خلق من نطفة ثم يعود جيفة، وهو فيما بين ذلك لا يدرى ما يصنع به». وقال عليه السلام: «صعد رسول الله ﷺ المنبر يوم فتح مكة، فقال: أيها الناس! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا إنكم من آدم وآدم من طين، ألا إن خير عباد الله عبد اتقاه». وقال له عليه السلام عقبة بن بشير الأسدي: أنا في الحسب الضخم عزيز في قومي، فقال له: «تمنّ علينا بحسبك! إن الله تعالى رفع بالايمان من كان الناس يسمونه وضيعاً إذا كان مؤمناً، ووضع بالكفر من كان الناس يسمونه شريفاً إذا كان كافراً. فليس لأحد فضل على أحد إلا بتقوى الله». وقال

(١) في بعض نسخ الكافي في باب الفخر والكبر زيادة كلمة (هو).

الصادق عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: آفة الحسب الافتخار والعجب». وقال عليه السلام: «أتى رسول الله صلى الله عليه وآله رجل، فقال: يا رسول الله! أنا فلان بن فلان... حتى عدّ تسعة، فقال رسول الله: أما انك عاشرهم في النار!». ونقل: أن قريشاً تفاخروا عند سلمان، فقال: «لكنى خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم إلى الميزان، فإن ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لئيم». ثم ضده استحقار نفسه وترجيح غيره عليها بالقول.

ومنها:

البغى

ويسمى البذخ أيضاً، وهو صعوبة الانقياد والتابعية لمن يجب أن ينقاد (له)، وقد فسر بمطلق العلو والاستطالة، سواء تحقق في ضمن عدم الانقياد لمن يجب أن ينقاد (له)، أو في ضمن أحد أفعال الكبر، أو في ضمن الظلم والتعدى على الغير. وعلى أى تقدير هو أفحش أنواع الكبر، إذ عدم الانقياد لمن يجب أن ينقاد (له) ـ كالأنبياء وأوصيائهم ـ يؤدى إلى الكفر الموجب للهلاك الأبدى. ولقد هلك بذلك اكثر طوائف الكفار، كاليهود والنصارى وكفار قريش وغيرهم. وكذا الظلم والتعدى على المسلم وإذلاله بالمقهورية والمغلوبية من المهلكات العظيمة، ولذا ورد في ذمه ما ورد، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن أعجل الشر عقوبة البغى». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «حق على الله عز وجل ألا يبغى شيء على شيء إلا أذله الله، ولو أن جبلاً بغى على جبل لهد الله الباغى منهما». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أيها الناس! إن البغى يقود اصحابه إلى النار، وإن أول من بغى على الله عناق بنت آدم، وأول قتيل قتله الله عناق، وكان مجلسها جريباً في جريب، وكان لها عشرون اصبعاً في كل اصبع ظفران مثل المنجلين، فسلط الله عليها اسداً كالفيل، وذئباً كالبعير، ونسراً كالبغل، فقتلنها. وقد قتل الله تعالى الجبابرة على أفضل احوالهم وأمن ما كانوا». وقال الصادق عليه السلام: «يقول ابليس لجنوده:

القوا بينهم الحسد والبغي فانهما يعدلان عند الله الشرك». وكتب عليه السلام إلى بعض اصحابه: «انظر ألا تكلمن بكلمة بغى ابداً، وإن اعجبتك نفسك وعشيرتك».

وعلاجه: ان يتذكر ـ أولاً ـ هذه الأخبار الواردة في ذمه، و ثانياً ـ ما ورد في مدح ضده ـ اعنى التسليم والانقياد لمن يلزم اطاعته وتابعيته ـ كقولهم عليهم السلام: «شيعتنا المسلمون». والآيات والأخبار الواردة في وجوب اطاعة الله واطاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأولى الأمر، وغيرهم من العلماء والفقهاء الذين هم نواب الأئمة في زمن الغيبة. وبعد ذلك يكلف نفسه التابعية والاطاعة لمن يجب ان يطاع، ويتخضع له قولاً وفعلاً، حتى يصير ذلك له ملكة.

ومنها:

تزكية النفس

أى نفى النقائص عنها، واثبات الكمالات لها. وهو من نتائج العجب. وقبحه اظهر من ان يخفى، إذ من عرف حقيقة الامكان، ثم اطلع على خلق الانسان، يعلم انه عين القصور والنقصان، فلا يطلق بمدح نفسه اللسان. على أنه يتضمن بخصوصه قبحاً يشهد به الذوق والوجدان، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «تزكية المرء لنفسه قبيحة». وقد تقدم ما يكفيك لمعرفة حقارة الانسان وخساسته.

ثم ضد التزكية عدم تبرئة نفسه من العيوب والاقرار بها واثبات النقائص لها، فإذا كلف نفسه عليه وفعل ذلك مرات متوالية، يصير معتاداً له، ويزول عنه ما اعتاده من مدح نفسه.

ومنها:

العصبية

وهي السعي في حماية نفسه أو ما له إليه نسبة: من الدين، والأقارب، والعشائر، وأهل البلد، قولا أو فعلا: فان كان ما يحميه ويدفع عنه السوء مما يلزم حفظه وحمايته، وكانت حمايته بالحق من دون خروج من الانصاف والوقوع في ما لا يجوز شرعاً، فهو الغيرة الممدوحة التي هي من فضائل قوة الغضب ـكما مر ـ. وإن كان مما يلزم حمايته، أو كانت حمايته بالباطل، بأن يخرج عن الانصاف وارتكب ما يحرم شرعاً، فهو التعصب المذموم، وهو من رداءة قوة الغضب. وإلى ذلك يشير كلام سيد الساجدين عليه السلام حيث سئل عن العصبية، فقال: «العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم».

والغالب اطلاق العصبية في الأخبار على التعصب المذموم، ولذا ورد بها الذم، كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربق الايمان من عنقه». وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية». وقال السجاد عليه السلام: «لم يدخل الجنة حمية غير حمية حمزة بن عبدالمطلب، وذلك حين أسلم عصباً للنبي صلى الله عليه وآله في حديث السلى الذي ألقى على النبي صلى الله عليه وآله». وقال الصادق عليه السلام: «إن الملائكة كانوا يحسبون أن ابليس منهم، وكان في علم أنه ليس منهم، فاستخرج ما في نفسه بالحمية والعصب، فقال:

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[(١)].

ومنها:

(١) الأعراف، الآية: ١٢. ص، الآية: ٧٦.

كتمان الحق

والانحراف عنه، وباعثه إما العصبية أو الجبن، فهو من نتائج واحدة منهما، فعلى (الأول) يكون من رذائل قوة الغضب من جانب الافراط، وعلى (الثانى) يكون من رذائلها من جانب التفريط. وربما كان الباعث في بعض افراده الطمع المالى، إلا أن الظاهر كون الفاعل المباشر النفس مع رداءة قوة الغضب، كما في نفس الغضب وغيره، إذ ما لم يحصل في النفس ضعف وفي القوة الغضبية خمود لم يتحقق كتمان الحق. ويندرج تحته الميل في الحكم، وكتمان الشهادة، وشهادة الزور، وتصديق المبطل، وتكذيب المحق، وغير ذلك.

والظواهر الدالة على ذمه مطلقاً، وعلى كل واحد من الأصناف المندرجة تحته كثيرة، ولا حاجة إلى ذكرها لاشتهارها. وعلاج العصبية وكتمان الحق: أن يتذكر ـ أولاً ـ ايجابهما لسخط الله ومقته، وربما تأديا إلى الكفر، و ثانياً ـ فوائد ضدهما، أعنى الانصاف والاستقامة على الحق. وبعد ذلك يكلف نفسه على اظهار ما هو الحق والعمل به، ولو بالمشقة الشديدة، إلى ان يصير ذلك عادة له، فيزول عن نفسه ما صار لها ملكة من التعصب وكتمان الحق.

وصل

(الانصاف والاستقامة على الحق)

لما كان ضدهما الانصاف والاستقامة على الحق، فلنشر إلى بعض ما ورد في مدحهما تحريكا للطالبين إلى الأخذ بهما، قال رسول الله ﷺ: «لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون فيه ثلاث خصال: الانفاق من الاقتار، والانصاف من نفسه، وبذل السلام». وكان ﷺ يقول في آخر خطبته: «طوبى لمن طاب خلقه، وطهرت سجيته، وصلحت سريرته، وحسنت علانيته، وأنفق الفضل من ماله، وامسك الفضل من

قوله، وانصف الناس من نفسه». وقال ﷺ: «سيد الأعمال انصاف الناس من نفسك...» إلى آخره. وقال ﷺ: «من واسى الفقير من ماله وأنصف الناس من نفسه، فذلك المؤمن حقاً». وقال ﷺ: «ثلاث خصال من كنّ فيه أو واحدة منهنّ كان في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله: رجل اعطى الناس عن نفسه ما هو سائلهم...» الحديث. وقال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: «ألا إنه من ينصف من نفسه لم يزده الله إلا عزاً». وقال الصادق عليه السلام: «من يضمن لى أربعة باربعة ابيات في الجنة: انفق ولا تخف فقراً، وافش السلام في العالم، واترك المراء وإن كنت محقاً، وانصف الناس من نفسك». وقال عليه السلام: «ألا اخبركم بأشد ما فرض الله على خلقه»، فذكر ثلاثة اشياء أولها: (انصاف الناس من نفسك). وقال عليه السلام: «من انصف الناس من نفسه رضى به حكماً لغيره». وقال عليه السلام: «ما تدارى اثنان في أمر قط فأعطى أحدهما النصف صاحبه فلم يقبل منه إلا أديل منه». وقال عليه السلام: «ثلاثة هم أقرب الخلق إلى الله تعالى يوم القيامة حتى يفرغ من الحساب: رجل لم تدعه قدرة في حال غضبه على ان يحيف على من تحت يده، ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر بعشيرةٍ، ورجل قال بالحق فيما له وعليه». وقال عليه السلام: «إن لله جنة لا يدخلها إلا ثلاثه، أحدهم من حكم في نفسه بالحق»[١].

ومنها:

القساوة

وهي ملكة عدم التأثر عن تألم ابناء النوع. ولا ريب في كونه ناشئاً من غلبة السبعية، واكثر ذمائم الصفات: من الظلم والايذاء، وعدم اغاثة المظلومين، وعدم

---

(١) هذا الحديث رواه في الكافي في باب الانصاف والعدل عن الباقر عليه السلام.

مواساة الفقراء والمحتاجين وغير ذلك يترتب عليه. وضده الرحمة والرقة، وهو التأثر عن مشاهدة تألم ابناء نوعه، ويترتب عليه من الصفات المرضية اضداد ما ذكر. وقد ورد به المدح والترغيب في الأخبار الكثيرة، كقول النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا في اكنافهم، فانى جعلت فيهم رحمتى. ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم، فانى جعلت فيهم سخطى». وكقول الصادق عليه السلام: «اتقوا الله وكونوا اخوة بررة متحابين في الله متواصلين متراحمين ... الخ». وقوله عليه السلام: «تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا اخوة بررة كما امركم الله». وقوله عليه السلام: «يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لاهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل: رحماء بينهم متراحمين مغتمين لما غاب عنكم من امرهم على ما مضى عليه معشر الانصار على عهد رسول الله ﷺ». وقد ورد: أن من ترحّم على العباد يرحمه الله. والأخبار الواردة في فضيلة مطلق الرحمة، وفي فضيلة خصوص كل واحد واحد فيما يندرج تحته: من اعانة المحتاج، واغاثة المظلوم، ومواساة الفقير، والاغتمام بمصائب المؤمنين، وأمثال ذلك، أكثر من أن تحصى.

ثم إن ازالة القساوة واكتساب الرحمة في غاية الإشكال، إذ القساوة صفة راسخة في القلب لا يقدر على تركها بسهولة، فطريق العلاج أن يترك لوازمها وآثارها من الأفعال الظاهرة، ويواظب على ما يترتب على الرحمة من الصفات الاختيارية، ويكلف نفسه على ذلك حتى يرتفع على التدريج مبدأ الأولى ويحصل مبدأ الثانية.

المقام الثالث

(فيما يتعلق بالقوة الشهوية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج)

الشره ـ فوائد الجوع ـ الشهوة الجنسية ـ خمود الشهوة ـ العفة ـ الاعتدال في الشهوة ـ حب الدنيا ـ لا بد للمؤمن من مكسب ـ الدنيا المذمومة هي الهوى ـ ذم الدنيا وانها عدوة الله والانسان ـ خسائس صفات الدنيا ـ تشبيهات الدنيا وأهلها ـ عاقبة حب الدنيا وبغضها ـ الجمع بين ذم المال ومدحه ـ حب المال ـ ذم المال ـ غوائل المال وفوائده ـ الأمور المنجية من غوائل المال ـ الزهد ـ مدح الزهد ـ اعتبارات الزهد ودرجاته ـ الزهد الحقيقي ـ ذم الغنى ـ الفقر ـ اختلاف أحوال الفقراء ـ مراتب الفقر ومدحه ـ الموازنة بين الفقر والغنى ـ ما ينبغي للفقير ـ وظيفة الفقراء ـ موارد قبول العطاء وردها ـ لا يجوز السؤال من غير حاجة ـ الحرص وذمه ـ القناعة ـ علاج الحرص ـ الطمع وذمه ـ الاستغناء عن الناس ـ البخل ـ ذم البخل ـ السخاء ـ معرفة ما يجب أن يبذل ـ الايثار ـ علاج البخل ـ الزكاة ـ سر وجوب الزكاة وفضيلة سائر الانفاقات ـ الحث على التعجيل في الاعطاء ـ فضيلة اعلان الصدقة الواجبة ـ ذم المن والأذى في الصدقة ـ ما ينبغي للمعطي ـ ما ينبغي للفقراء في أخذ الصدقة ـ زكاة الأبدان ـ الخمس ـ الانفاق على الأهل والعيال ـ ماينبغي في الانفاق على العيال ـ صدقة التطوع ـ فضيلة الاسرار في الصدقة المندوبة ـ الهدية ـ الضيافة ـ ما ينبغي أن يقصد في الضيافة ـ آداب الضيافة ـ الحق المعلوم وحق الحصاد والجذاذ ـ القرض ـ إنظار المعسر والتحليل ـ بذل الكسوة والسكنى ونحوهما ـ ما يبذل لوقاية العرض والنفس ـ ما ينفق في المنافع العامة ـ الفرق بين الانفاق والبر والمعروف ـ طلب

الحرام ـ عزة تحصيل الحلال ـ انواع الاموال ـ الفرق بين الرشوة والهدية ـ الورع عن الحرام ـ مدح الورع ـ مداخل الحلال ـ درجات الورع ـ الغدر ـ أنواع الفجور ـ الخوض في الباطل ـ التكلم بما لا يعنى ـ حد التكلم بما لا يعنى ـ أسباب الخوض فيما لا يعنى ـ الصمت.

فنقول: أما جنسا رذائلها[١] فاحدهما:

الشره

وهو اطاعة شهوة البطن والفرج، وشدة الحرص على الأكل والجماع، وربما فسر باتباع القوة الشهوية في كل ماتدعو اليه: من شهوة البطن والفرج، وحب المال، وغير ذلك، ليكون أعم من سائر رذائل قوة الشهوة، وتتحقق جنسيته، وعلى الأول يكون بعض رذائلها كحب الدنيا المتعلق بها أعم منه، إلا أن القوم لما فسروه بالأول فنحن اتبعناهم، إذ الأمر في مثله هين.

وبالجملة: رذيلة الشره من طرف الافراط ولا ريب في كونه أعظم المهلكات لابن آدم، ولذا قال رسول الله ﷺ: «من وقى شر قبقبة وذبذبة ولقلقة، فقد وقى»، والقبقب: البطن، والذبذب: الفرج، واللقلق: اللسان. وقال ﷺ: «ويل للناس من القبقبين!، فقيل: وما هما يا رسول الله؟! قال: الحلق والفرج». وقال ﷺ: «أكثر ما يلج به أمتى النار الأجوفان: البطن والفرج». وقال ﷺ: «ثلاث أخافهن على أمتى من بعدى: الضلالة بعد المعرفة، ومضلات الفتن، وشهوة البطن والفرج».

ويدل على ذم (الأول) ـ أعنى شهوة البطن والحرص على الأكل والشرب ـ قوله ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاءاً شراً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه،

---

(١) أى القوة الشهوية.

وإن كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه». وقال ﷺ: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فان القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء». وقال ﷺ: «أفضلكم منزلة عند الله أطولكم جوعاً وتفكراً، وأبغضكم إلى الله تعالى كل نؤم أكول شروب». وقال ﷺ: «المؤمن يأكل في معاء واحد والمنافق يأكل فيسبعة أمعاء»، أي يأكل سبعة أضعاف ما يأكله المؤمن أو تكون شهوته سبعة أمثال شهوته، فالمعاء كناية عن الشهوة. وقال ﷺ: «إن أبغض الناس إلى الله المتّخمون الملأى، وما ترك عبد أكلة يشتهيها إلا كانت له درجة في الجنة». وقال ﷺ: «بئس العون على الدين قلب نخيب وبطن رغيب ونعظ شديد»[1]. وقال ﷺ: «أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا». وقال ﷺ: «لا يدخل ملكوت السماوات من ملأبطنه». وفي التوراة: «إن الله ليبغض الحبر السمين»، لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل. وفي بعض الآثار: «ان الله يبغض القارىء السمين». وقال لقمان لابنه: «يا بني! إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة». وقال الباقر عليه السلام: «إذا شبع البطن طغى». وقال عليه السلام ما مِن شيء ابغض الى الله عزوجل مِن بطن مملو، وقال الصادق عليه السلام: «إن البطن ليطغى من أكلة، وأقرب ما يكون العبد من الله إذا خفّ بطنه، وأبغض ما يكون العبد إلى الله إذا امتلأ بطنه». وقال ﷺ: «ليس لابن آدم بدّ من أكلة يقيم بها صلبه، فإذا أكل أحدكم طعاماً، فليجعل ثلث بطنه للطعام، وثلث بطنه للشراب، وثلثه للنفس، ولا تسمنوا تسمن الخنازير للذبح». وقال عليه السلام: «ما من شيء أضر لقلب المؤمن من كثرة الأكل، وهي مورثة شيئين: (قسوة) القلب، و(هيجان) الشهوة. والجوع إدام للمؤمن، وغذاء للروح، وطعام للقلب، وصحة للبدن».

---

(١) صححنا الحديث على نسخ الوسائل المصححة في كتاب الاطعمة، والوافي ١١ : ٦٦ ـ. وكذا ذكره في مجمع البحرين مادة (نخب)، والنخيب: الجبان الذي لا فؤاد له. والرغيب: الواسع.

والأخبار الواردة بهذه المضامين كثيرة، ولا ريب في أن أكثر الأمراض والأسقام تترتب على كثرة الأكل. قال الصادق عليه السلام: «كل داء من التخمة إلا الحمى فانها ترد وروداً». وقال عليه السلام: «الأكل على الشبع يورث البرص». وكفى لشهوة البطن ذماً أنها صارت منشأً لاخراج آدم وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار، إذ نهيا عن أكل الشجرة فغلبتهما شهوتهما حتى أكلا منها، فبدت لهما سوآتهما.

والبطن منبت الأدواء والآفات وينبوع الشهوات، إذ تتبعها شهوة الفرج وشدة السبق إلى المنكوحات، وتتبع شهوة المطعم والمنكح شدة الرغبة في الجاه والمال، ليتوسل بهما إلى التوسع في المطعومات والمنكوحات، ويتبع ذلك أنواع الرعونات، وضروب المحاسدات والمنافسات، وتتولد من ذلك آفة الرياء، وغائلة التفاخر والتكاثر والعجب والكبر، ويداعى ذلك إلى الحقد والعداوة والبغضاء، ويفضى ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغى والمنكر والفحشاء. وكل ذلك ثمرة اهمال المعدة وما يتولد من بطر الشبع والامتلاء. ولو ذلل العبد نفسه بالجوع، وضيق مجارى الشيطان، لم يسلك سبيل البطر والطغيان، ولم ينجر به إلى الانهماك في الدنيا والانغمار فيما يفضيه إلى الهلاك والردى، ولذا ورد في فضيلة الجوع والصبر عليه ما ورد من الأخبار، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش، فان الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله، وأنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أفضل الناس من قلّ مطعمه وضحكه، ورضى بما يستر عورته». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «سيد الأعمال الجوع، وذل النفس لباس الصوف». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اشربوا وكلوا في انصاف البطون، فانه جزء من النبوة». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قلة الطعام هي العبادة». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله يباهى الملائكة بمن قلّ مطعمه في الدنيا، يقول: انظروا إلى عبدى ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فصبر وتركهما، اشهدوا يا ملائكتى: ما من أكلة يدعها إلا ابدلته بها درجات في الجنة». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أقرب الناس من الله عز

وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا». وقال عيسى عليه السلام: «أجيعوا أكبادكم وأعروا اجسادكم، لعل قلوبكم ترى الله عز وجل». وقالت بعض زوجاته صلى الله عليه وآله: «إن رسول الله لم يمتل قط شبعاً، وربما بكيت رحمة مما أرى به من الجوع فامسح بطنه بيدى، وأقول: نفسى لك الفداء! لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويمنعك من الجوع، فيقول: اخوانى من اولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فاكرم مآبهم وأجزل ثوابهم، فاجدنى أستحيى إن ترفهت في معيشتى أن يقصر بى غداً دونهم، فاصبر أياماً يسيرة أحب إلى من أن ينقص بى حظى غداً في الآخرة، وما من شيء أحب إلى من اللحقوق بأصحابى وإخوانى». وروى: «انه جاءت فاطمة عليها السلام ومعها كسيرة مِن خبز، فدفعتها إلى النبى صلى الله عليه وآله فقال: ما هذه الكسيرة؟ قالت: قرص خبزته للحسن والحسين عليهما السلام جئتك منه بهذه الكسيرة، فقال: أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث»[1].

فوائد الجوع

ثم للجوع فوائد: هى صفاء القلب ورقته، واتقاد الذهن وحدته، والالتذاذ بالمناجاة والطاعة، والابتهاج بالذكر والعبادة، والترحم لارباب الفقر والفاقة، والتذكر بجوع يوم القيامة. والانكسار المانع عن الطغيان والغفلة، وتيسر المواظبة على الطاعة والعبادة، وكسر شهوات المعاصى المستولية بالشبع، ودفع النوم الذي يضيع العمر ويكل الطبع ويفوت القيام والتهجد، والتمكن من الايثار والتصديق بالزائد، وخفة المؤنة الموجبة للفراغ عن الاهتمام بالتحصيل والاعداد، وصحة البدن ودفع

---

(١) صححنا الحديث على ما في سفينة البحار ـ ١: ١٩٥ ـ.

الأمراض، إذ المعدة بيت كل داء والحمية رأس كل دواء، وورد: «كلوا في بعض بطونكم تصحوا»، وأضداد هذه الفوائد من المفاسد يترتب على الشبع.

ثم علاج الشره بالأكل والشرب: أن يتذكر الأخبار الواردة في ذمه، وينبه نفسه على رذالة المأكولات وخساستها، وعلى خسة الشركاء من الحيوانات، ويتأمل في المفاسد المترتبة على الولوع به: من الذلة، والمهانة، وسقوط الحشمة والمهابة، وفتور الفطنة، وظهور البلادة، وحدوث العلل والامراض الكثيرة، وبعد ذلك يحافظ نفسه عن الافراط في الاكل ولو بالتكلف حتى يصير الاعتدال فيه عادة.

الشهوة الجنسية

(وأما الثانى) ـ أعنى طاعة شهوة الفرج والافراط في الوقاع ـ فلا ريب في أنه يقهر العقل حتى يجعل الانسان مقصور الهم على التمتع بالنسوان والجوارى، فيحرم من سلوك طريق الآخرة، أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش وربما انتهت هذه الشهوة بمن غلبت وهمه على عقله إلى العشق البهيمى الذي ينشأ من استيلاء الشهوة، فيسخر الوهم العقل لخدمة الشهوة، وقد خلق العقل ليكون مطاعاً لا ليكون خادماً للشهوة. وهذا مرض قلوب فارغة خلت عن محبة الله وعن الهمم العالية.

ويجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة الفكر والنظر، وإذا استحكم عسر دفعه، وكذلك حب باطل من الجاه والمال والعقار والأولاد. فمثل مَن يكسره في اول انبعاثه مثل من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب ليدخله، وما أهون منعها بصرف عنانها، ومثل من يعالجه بعد استحكامه مثل من يترك الدابة حتى تدخل وتتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها إلى ورائها، وما اعظم التفاوت بين الأمرين في اليسر والعسر. فليكن الاحتراز والاحتياط في بدايات الامور، إذ في أواخرها لا تقبل العلاج إلا بجهد شديد يكاد يوازى نزع الروح.

وربما انتهى افراط هذه الشهوة بطائفة إلى أن يتناولوا ما يقويها ليستكثروا من الجماع، ومثلهم كمثل من بلى بسباع ضارية تغفل عنه في بعض الأوقات فيحتال لإثارتها وتهييجها في هذا الوقت ثم يشتغل بعلاجها واصلاحها. والتجربة شاهدة بأن من ينقاد لهذه الشهوة ويسعى في تكثير ما يهيجها من النسوان وتجديدهن والتخيل والنظر وتناول الأغذيةوالأدوية المحركة لها يكون ضعيف البدن سقيم الجسم قصير العمر، وقد ينجر افراطها إلى سقوط القوة واختلال القوى الدماغية وفساد العقل ـ كما برهن عليه في الكتب الطبية ـ. والوقاع أضر الأشياء بالدماغ، إذ جلّ المواد المنوية يجلب منه، ولذا شبه الغزالى هذه الشهوة بالعامل الظالم الذي لو أطلقه السلطان ولم يمنعه من ظلمه أخذ أموال الرعية على التدريج بأسرها وابتلاهم بالفقر والفاقة، فأهلكهم الجوع وعدم تمكنهم من تحصيل القوت، وكذا هذه القوة لو لم يقهرها سلطان العقل ولم يقمها على طريق الاعتدال صرفت جميع المواد الصالحة والاخلاط المحمودة التي اكتسبتها القوى الغذائيه لبدل ما يتحلل من الأعضاء في مصارف نفسها وجعلها بأسرها منياً، وتبقى جميع الأعضاء بلا قوت، فتضعف ويدركها الفناء بسرعة. ولو كانت مطيعة للعقل، بحيث تقدم على ما يأمرها به وتنزجر عما ينهاها عنه، كانت كالعامل الذي يأخذ الخراج على طريق العدل والمروة، ويصرفه في مصارف المملكة من سدّ الثغور واصلاح القناطر وخروج العساكر، وتبقى سائر أموال الرعية لأنفسهم، فيبقى لهم القوت وسائر ما يحتاجون اليه.

ولعظم آفة هذه الشهوة واقتضائها هلاك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم ترد إلى حدّ الاعتدال، ورد في ذمها ما ورد من الأخبار، وقال رسول الله ﷺ في بعض دعواته: «اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى وبصرى وقلبى وشر منيي». وروى أنه إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله». وورد في تفسير قوله تعالى:

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾[(١)].

أي: ومن شر الذكر إذا قام أو دخل. وقال ﷺ: «النساء حبائل الشيطان» وقال ﷺ: «ما بعث الله نبياً فيما خلا إلا لم ييأس ابليس أن يهلكه بالنساء، ولا شيء أخوف عندي منهن»[(٢)]. وقال ﷺ: «اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء، فإن أول فتنة بني اسرائيل كانت من قبل النساء». وروي: «أن الشيطان قال لموسى عليه السلام: لا تخل بامرأة لا تحل لك. فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون اصحابي حتى افتنه بها». وروي ايضاً: «أن الشيطان قال: المرأة نصف جندي، وهي سهمي الذي أرمي فلا اخطيء، وهي موضع سري، وهي رسولي في حاجتي». ولا ريب في أنه لولا هذه الشهوة لما كان للنساء تسلط على الرجال.

وقد ظهر بالعقل والنقل: أن الافراط في هذه الشهوة وكثرة الطروقة والنزو على النسوان مذموم. ولا تغرنك كثرة نكاح رسول الله ﷺ فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا، وكان استغراقه في حب الله بحيث يخشى احتراق قلبه والسراية منه إلى قالبه، فكان ﷺ يكثر من النسوان ويشغل نفسه الشريفة بهن، ليبقى له نوع التفات إلى الدنيا، ولا يؤدي به كثرة الاستغراق إلى مفارقة الروح عن البدن، ولذا إذا غشيته كثرة الاستغراق وخاض في غمرات الحب والانس، يضرب يده على فخذ عائشة ويقول ﷺ: «كلميني واشغليني يا حميراء!» وهي تشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه، لقصور طاقة قالبه عنه.

ثم لما كانت جبلته الانس بالله، وكان أنسه بالخلق عارضاً يتكلفه رفقاً ببدنه، فإذا طالت مجالسته معهم لم يطق الصبر معهم وضاق صدره، فيقول: «ارحنا يا بلال!» حتى يعود إلى ما هو قرة عينه. فالضعيف إذا لاحظ احواله فهو معذور، لأن الافهام

---

(١) الفلق، الآية: ٣.

(٢) في احياء العلوم ـ ٣: ٨٦ ـ ان هذا الكلام من قول سعيد بن المسيب لا من كلام النبي ﷺ.

تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله»[١].

ثم علاج افراط هذه الشهوة ـ بعد تذكر مفاسدها المذكورة ـ كسرها بالجوع، وسدّ الطرق المؤدية اليها: من التخيل والنظر والتكلم والخلوة، فإن أقوى الأسباب المهيجة لها هو النظر والخلوة، ولذا قال الله تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾[٢].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «النظرة سهم مسموم من سهام ابليس، فمن تركها خوفاً من الله تعالى أعطاه الله ايماناً يجد حلاوته في قلبه». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لكل عضو من اعضاء ابن آدم حظ من الزنا، فالعينان تزنيان وزناهما النظر». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تدخلوا على المغيبات ـ أي التي غاب عنها زوجها ـ فان الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم». وقال عيسى بن مريم عليه السلام: «اياكم والنظرة، فإنها تزرع في القلب شهوة، وكفى بها فتنة». وقيل ليحيى بن زكريا: ما بدء الزنا؟ قال: «النظرة والتمني». وقال داود عليه السلام لابنه: «يا بني! امش خلف الأسد (و)[٣] الأسود ولا تمش خلف المرأة». وقال ابليس: «النظرة قوسى وسهمى الذي لا اخطىء به».

ولكون النظر مهيجاً للشهوة، حرم في الشريعة نظر كل من الرجل والمرأة إلى الآخر، وكذا حرم استماع كل منهما لكلام الآخر، إلا مع الضرورة وعموم الحاجة، وكذا حرم نظر الرجال إلى المرد من الصبيان إذا كان مورثاً للفتنة، ولذا كان كبراء الأخيار وعظماء الأبرار في الأعصار والأمصار محترزين عن النظر إلى وجوه الصبيان، حتى قال بعضهم: «ما انا بأخوف على الشباب الناسك من سبع ضار كخوفي عليه من

---

(١) هذا الكلام كله عن تعليل كثرة طروق النبي صلى الله عليه وآله وسلم مأخوذ من كلام الغزالى في احياء العلوم ٣: ٨٧.

(٢) النور، الآية: ٣٠.

(٣) حرف (و) موجود في نسختنا الخطية وفي احياء العلوم ـ ٣: ٨٧ ـ، ولكنه قد شطب عليها في النسخة المطبوعة.

غلام أمرد يجلس اليه».

ثم إن لم تنقمع الشهوة بالجوع والصوم وحفظ النظر، فينبغى كسرها بالنكاح، بشرط الاستطاعة والأمن من غوائله. قال رسول الله ﷺ: «معاشر الشباب! عليكم بالباءة، فمن لم يستطع فعليه بالصوم، فان الصوم له وجاء». وقال رسول الله ﷺ: «إن المرأة إذا أقبلت أقبلت بصورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله، فان معها مثل الذي معها».

(وثانيهما) ـ أي ثاني جنسى رذائل قوة الشهوة ـ:

الخمود

وهو التفريط في كسب ضرورى القوت، والفتور عما ينبغى من شهوة النكاح، بحيث يؤدى إلى سقوط القوة وتضييع العيال وانقطاع النسل. ولا ريب في كون ذلك مذموماً غير مستحسن في الشرع، إذ تحصيل المعارف الألهية واكتساب الفضائل الخلقية والعبادات البدنية موقوف على قوة البدن، فالتفريط في ايصال بدل ما يتحلل إلى البدن يوجب الحرمان عن تحصيل السعادات وهو غاية الخسران. وكذا اهمال قوة شهوة النكاح يوجب الحرمان عن الفوائد المترتبة عليها، فان هذه القوة إنما سلطت على الانسان لبقاء النسل ودوام الوجود، ولأن يدرك لذته فيقيس بها لذات الآخرة، فان لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى اللذات الجسمانية، كما أن ألم النار أعظم الآلام الجسدانية، فالترغيب والترهيب يسوقان الخلق إلى سعاداتهم، وليس ذلك إلا بلذة مدركة وألم محسوس مشابهين للذات والآلام الأخروية.

ولبقاء النسل فوائد: موافقة محبة الله بالسعى في تحصيل الولد لبقاء نوع الانسان، وعدم قطعه السلسلة التي وصلت إليه من مبدأ النوع، وطلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير من به مباهاته، وطلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده، وطلب

الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله، كما استفاضت به الأخبار.

ومن فوائد النكاح: كسر التوقان والتحرز من الشيطان، بغض البصر وحفظ الفرج وقطع الوساوس وخطرات الشهوة من القلب، وإليه الاشارة بقوله ﷺ: «من تزوج فقد أحرز نصف دينه».

ومن فوائد النكاح: تفريغ القلب عن تدبير المنزل، والتكفل بشغل الطبخ والفرش والكنس، وتنظيف الاوانى وتهيئة أسباب المعيشة، فان الفراغ عن ذلك أعون شيء على تحصيل العلم والعمل، ولذا قال النبى ﷺ: «ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلبا شاكراً وزوجة مؤمنة صالحة تعينه على آخرته».

ومنها: مجاهدة النفس ورياضتها بالسعى في حوائج الأهل والعيال، والاجتهاد في اصلاحهم وارشادهم إلى طريق الدين، وفي تحصيل المال الحلال لهم من المكاسب الطيبة، والقيام بتربية الأولاد، والصبر على اخلاق النساء، وكل ذلك من الفضائل العظيمة، ولذا قال رسول الله ﷺ: «الكاد في نفقة عياله كالمجاهد في سبيل الله». وقال ﷺ: «من حسنت صلاته، وكثر عياله، وقل ماله ولم يغتب المسلمين: كان معى في الجنة كهاتين». وقال ﷺ: «من الذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة». وقال ﷺ: «من كانت له ثلاث بنات فانفق عليهن واحسن اليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله تعالى له الجنة».

ولا ريب في أن الخمود عن الشهوة يلزمه الحرمان عن الفوائد المذكورة، فهو مرجوح.

ثم لما كان للنكاح آفات أيضاً، كالاحتياج إلى المال وصعوبة تحصيل الحلال منه ـ لا سيما في أمثال زماننا ـ والعجز عن القيام بحقوق النسوان، والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، وتفرق الخاطر لأجل القيام بتدبير المعيشة وتهيئة ما يحتاجون اليه، وتأدية ذلك غالباً إلى ما لا ينبغى من الانغمار في الدنيا والغفلة عن

الله سبحانه وعما خلق لأجله، فاللائق أن يلاحظ في كل شخص أن الراجح في حقه ماذا؟ ـ بعد ملاحظة الفوائد والمفاسد ـ فيأخذ به.

وصل
(العفة)

قد عرفت أن ضد الجنسين (العفة)، وهو انقياد قوة الشهوة للعقل في الاقدام على ما يأمرها به من المأكل والمنكح كمّاً وكيفاً، والاجتناب عما ينهاها عنه، وهو الاعتدال الممدوح عقلاً وشرعاً، وطرفاه من الافراط والتفريط مذمومان، فان المطلوب في جميع الأخلاق والأحوال هو الوسط، إذ خير الامور أوساطها، وكلا طرفيها ذميم، فلا تظنن مما ورد في فضيلة الجوع أن الافراط فيه ممدوح، فان الأمر ليس كذلك، بل من اسرار حكمة الشريعة أن كلما يطلب الطبع فيه طرف الافراط بالغ الشرع في المنع عنه على وجه يتوهم الجاهل منه أن المطلوب طرف التفريط، والعالم يدرك أن المقصود هو الوسط، فان الطبع إذا طلب غاية الشبع، فالشرع ينبغي أن يطلب غاية الجوع، حتى يكون الطبع باعثاً والشرع مانعاً، فيتقاومان ويحصل الاعتدال. ولما بالغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الثناء على قيام الليل وصيام النهار، ثم علم من حال بعضهم أنه يقوم الليل كله ويصوم الدهر كله، فنهى عنه. والأخبار الواردة في مدح العفة وفضيلتها كثيرة، قال أمير المومنين عليه السلام: «أفضل العبادة العفاف». وقال الباقر عليه السلام: «ما من عبادة أفضل من عفة بطن وفرج». و قال عليه السلام ما عبد الله بشيءٍ افضلُ من عفة بطنٍ وفرجٍ وقال عليه السلام: «أي الاجتهاد أفضل من عفة بطن وفرج». وفي معناها أخبار أخر.

واذا عرفت هذا، فاعلم أن الاعتدال في الأكل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا بألم الجوع، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه أصلا، فان المقصود من الأكل بقاء

الحياة وقوة العبادة، وثقل الطعام يمنع العبادة، وألم الجوع أيضاً يشغل القلب ويمنع منها. فالمقصود أن يأكل أكلا معتدلا بحيث لا يبقى للأكل فيه أثر، ليكون متشبهاً بالملائكة المقدسين عن ثقل الطعام وألم الجوع، وإليه الاشارة بقوله تعالى:

﴿وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[1].

وهذا يختلف بالنسبة إلى الاشخاص والاحوال والاغذية، والمعيار فيه ألا يأكل طعاما حتى يشتهيه، ويرفع يده عنه وهو يشتهيه، وينبغي ألا يكون غرضه من الاكل التلذذ، بل حفظ القوة على تحصيل ما خلق لاجله، فيقتصر من انواع الطعام على خبز البر في بعض الأوقات، وعلى خبز الشعير في بعضها، ولو ضم إليه الأدام فيكتفي بأدام واحد في بعض الأحيان، ولا يواظب على اللحم، ولا يتركه بالمرّة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من ترك اللحم أربعين يوماً ساء خلقه، ومن داوم عليه أربعين يوماً قسى قلبه».

(الاعتدال في الشهوة)

والاعتدال أن يكتفى في اليوم بليلته بأكلة واحدة في وقت السحر، بعد الفراغ عن التهجد أو بعد صلاة العشاء، أو بأكلتين: التغدى والتعشى ـ إن لم يقدر على الاكتفاء بمرة واحدة ـ وقد استفاضت أخبار أئمتنا الراشدين عليهم السلام بالحث على التعشى.

ثم للعرفاء ترغيبات على الجوع وتصريحات على كثرة فوائده، وعلى توقف كشف الاسرار الإلهية والوصول إلى المراتب العظيمة عليه، ولهم حكايات في امكان الصبر عليه، وعلى عدم الاكل شهراً أو شهرين أو سنة، ونقلوا حصوله عن بعضهم،

---

(١) الاعراف، الآية: ٣١.

وهذا أمر وراء ما وردت به السنة وكلفت به عموم الامة، فان كان ممدوحاً فانما هو لقوم مخصوصين.

وأما الجماع، فالاعتدال فيه أن يقتصر فيه على مالا ينقطع عن النسل، ويحصل له التحصن، وتزول به خطرات الشهوة، ولا يؤدى إلى ضعف البدن والقوى.

وأما غير الجنسين من الأنواع والنتائج والآثار المتعلقة بالقوة الشهوية ـ وإن كان بعضها أعم الجنسين أو مساويا لهما ـ:

فمنها:

حب الدنيا

اعلم أن للدنيا ماهية في نفسها وماهية في حق العبد، أما ماهية الدنيا وحقيقتها في نفسها، فعبارة عن أعيان موجودة: هي الأرض وما عليها، والأرض هي العقار والضياع وأمثالهما، وما عليها تجمعه المعادن والنبات والحيوان، والمعادن تطلب لكونها إما من الآلات والزينة كالنحاس والرصاص والجواهر وأمثالها، أو من النقود كالذهب والفضة، والنبات يطلب لكونه من الأقوات أو الادوية، والحيوانات تطلب إما لملكية ابدانها واستخدامها كالعبيد والغلمان أو لملكية قلوبها وتسخيرها ليترتب عليه التعظيم والاكرام وهو الجاه، أو للتمتع والتلذذ بها كالجوارى والنسوان، أو للقوة والاعتضاد كالأولاد. هذه هي الاعيان المعبر عنها بالدنيا، وقد جمعها الله سبحانه في قوله:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[١].

---

(١) آل عمران، الآية: ١٤.

وحب جميع ذلك من رذائل قوة الشهوة، إلا حب تسخير القلوب لقصد الغلبة والاستيلاء، فانه من رذائل قوة الغضب ـ كما تقدم ـ وبذلك يظهر أن حب الدنيا المتعلق بقوة الشهوة أعم من الشره باول تفسيريه ـ كما اشير إليه ـ.

وأما ما هيتها في حق العبد، فعبارة عن جميع ماله قبل الموت، كما أن بعد الموت عبارة عن الآخرة، فكل ما للعبد فيه نصيب وشهوة وحظ وغرض ولذة في عاجل الحال قبل الوفاة فهى الدنيا في حقه، وللعبد فيه علاقتان، علاقة بالقلب: وهو حبه له، وعلاقة بالبدن: وهو اشغاله باصلاحه، ليستوفي منه حظوظه. إلا أن جميع ماله إليه ميل ورغبة ليس بمذموم، وذلك لأن ما يصحبه في الدنيا وتبقى ثمرته معه بعد الموت ـ أعنى العلم النافع والعمل الصالح ـ فهو من الآخرة في الحقيقة، وإنما سمى بالدنيا باعتبار دنوّه، فان كلا من العالم والعابد قد يلتذ بالعلم والعبادة بحيث يكون ذلك الذّ الاشياء عنده، فهو وان كان حظاً عاجلا له في الدنيا، إلا أنه ليس من الدنيا المذمومة، بل هو من الآخرة في الحقيقة، وإن عدّ من الدنيا من حيث دخوله في الحس والشهادة، فان كل ما يدخل فيهما فهو من عالم الشهادة ـ أعنى الدنيا ـ ولذا جعل نبينا صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة من الدنيا، حيث قال: «حبب إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقرّة عينى في الصلاة»، مع أنها من أعمال الآخرة.

فالدنيا المذمومة عبارة عن حظ عاجل، لا يكون من أعمال الآخرة ولا وسيلة اليها، وما هو إلا التلذذ بالمعاصى والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الضرورة في تحصيل العلم والعمل.

وأما قدر الضرورة من الرزق، فتحصيله من الأعمال الصالحة ـ كما نطقت به الأخبار ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «العبادة سبعون جزءاً، أفضلها طلب الحلال». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ملعون من القى كله على الناس». وقال السجاد عليه السلام: «الدنيا دنياآن: دنيا بلاغ، ودنيا ملعونة».وقال الباقر عليه السلام: «من طلب الدنيا استعفافا عن الناس، وسعياً على

أهله، وتعطفاً على جاره، لقى الله عز وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البـدر». وقال الصادق عليه السلام: «الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله» وقال عليه السلام: «إن الله تـبارك وتعالى ليحب الاغتراب في طلب الرزق». وقال عليه السلام: «ليس منا من ترك دنياه لآخـرته ولا آخرته لدنياه». وقال عليه السلام: «لا تكسلوا في طلب معايشكم، فان آبائنا كانوا يركضون فيها ويطلبونها».وقال له عليه السلام رجل: «انا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها، فقال: تحب أن تصنع بها ماذا؟ قال: أعـود بـها عـلى نـفسى وعـيالى، وأصـل بـها وأتـصدق، وأحـج وأعتمر، فقال أبو عبدالله عليه السلام: ليس هذا طلب الدنـيا، هـذا طـلب الآخـرة». وكـان أبـو الحسن عليه السلام يعمل في أرض قد استنقعت قدماه في العرق، فـقيل له: «جـعلت فـداك! اين الرجال؟ فقال: وقد عمل باليد من هو خير منى في أرضه ومن أبـى، فـقيل: ومـن هو؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين وآبائى كلهم كانوا قد عملوا بايديهم، وهو من عمل النبيين والمرسلين والأوصياء والصالحين». وقد ورد بهذه المضامين أخبار كثيرة أخر مشهورة.

تذنيب

(لا بد للمؤمن من مكسب)

قد ظهر من هذه الأخبار أن الراجح ـ بل اللازم ـ لكل مؤمن أن يكون له مكسب طيب يحصل منه ما يحتاج إليه من الرزق وغيره من المخارج المحمودة، وقد صـرح بذلك في أخبار كثيرة أخر، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أوحى الله عز وجـل إلى داود عليه السلام: إنك نعم العبد لولا أنك تأكل من بيت المال ولا تعمل بـيدك شـيئاً، قـال: فـبكى داود أربعين صـباحاً، فأوحـى الله عـز وجـل إلى الحـديد أن لن لعـبدى داود، فألان الله له الحديد، وكان يعمل كل يوم درعاً فيبيعها بألف درهم، فـعمل ثـلثمائة وسـتين درعاً فباعها بثلثمائة وستين الفاً، واستغنى عن بيت المال». وقـال الصـادق عليه السلام: مـن احـبنا

أهل البيت فليأخذ من الفقر جلباباً أو تجفافاً»، والجلباب: كناية عن الستر على فقره، والتجفاف[١]: كناية عن كسب طيب يدفع فقره. وقيل له في رجل قال: لأقعدن في بيتی، ولأصلين، ولأصومن، ولأعبدن ربی، فأما رزقی فسيأتينی: قال أبو عبدالله: «هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم».

وهذا ـ أی ملكة تحصيل المال الحلال من المكاسب الطيبة وصرفها في المخارج المحمودة ـ هو الحرية بأحد المعنيين، إذ للحرية اطلاقان: (أحدهما) ذلك، وهو الحرية بالمعنى الأخص، (وثانيهما) التخلص عن أسر الهوى وعبودية القوة الشهوية، وهو الحرية بالمعنى الأعم المرادفة، وضده الرقية بالمعنى الأعم الذي هو طاعة قوة الشهوة ومتابعة الهوى.

وضدّ الأول ـ أعنی الرقية بالمعنى الأخص ـ هو افتقاره إلى الناس فيما يحتاج إليه من الرزق، والقاء نظره إلى ايديهم، وحوالة رزقه على اموالهم، إما على وجه محرم، كالغصب والنهب والسرقة وأنواع الخيانات، أو غير محرم، كأخذ وجوه الصدقات وأوساخ الناس، بل مطلق الأخذ منهم إذا جعل يده يداً سفلی ويدهم يداً عليا. ولا ريب في كون الرقية بهذا المعنى مذمومة، إذا الوجه (الأول) محرم في الشريعة وموجب للهلاك الأبدی، والوجه (الثانی) وإن لم يكن محرماً إذا كان فقيراً مستحقاً، إلا أنه لإيجابه التوقع من الناس وكون نظره اليهم يقتضی المذلة والانكسار والتخضع للناس والرقية والعبودية لهم، وهذا يرفع الوثوق بالله والاعتماد والتوكل عليه، وينجر ذلك إلى سلب التوكل على الله بالكلية، وترجيح المخلوق على الخالق، وهذا ينافي مقتضى الايمان والمعرفة الواقعية بالله سبحانه.

---

(١) التجفاف: آلة للحرب يتقى بها كالدرع وعن تفسير أمثال هذا الحديث راجع الجزء الأول من المجلد الخامس عشر من البحار، ص ٦٥، ففيه تفصيل معناه. وقد نقل عن ابن الأثير في النهاية، وابن أبي الحديد في شرحه: كلاماً في هذا الباب.

فصل

(الدنيا المذمومة هي الهوى)

قد ظهر مما ذكر: أن الدنيا المذمومة حظ نفسك الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة، ويعبر عنه بالهوى، وإليه أشار قوله تعالى:

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ. فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[(١)].

ومجامع الهوى هي المذكورة في قوله تعالى:

﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾[(٢)].

والاعيان التي تحصل منها هذه الأمور هي المذكورة في قوله سبحانه:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[(٣)].

فهذه أعيان الدنيا، وللعبد معها علاقتان:

(علاقة مع القلب): وهي حبه لها وحظه منها وانصراف همه اليها، حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بها، ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلقة بالدنيا: كالرياء، والسمعة، وسوء الظن، والمداهنة، والحسد، والحقد، والغل، والكبر، وحب المدح، والتفاخر والتكاثر. فهذه هي الدنيا الباطنة، والظاهرة هي الاعيان المذكورة.

و(علاقة مع البدن): وهو اشتغاله باصلاح هذه الاعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره: وهذا الاشتغال عبارة عن الصناعات والحرف التي اشتغل الناس بها،

---

(١) النازعات، الآية: ٤٠، ٤١.

(٢) الحديد، الآية: ٢٠.

(٣) آل عمران، الآية: ١٤.

بحيث أنستهم أنفسهم وخالقهم وأغفلتهم عما خلقوا لأجله، ولو عرفوا سبب الحاجة اليها واقتصروا على قدر الضرورة، لم يستغرقهم اشتغال الدنيا والانهماك فيها، ولما جهلوا بالدنيا وحكمتها وحظهم منا لم يقتصروا على قدر الاحتياج، فأوقعوا انفسهم في اشغالها، وتتابعت هذه الأشغال واتصلت بعضها ببعض، وتداعت إلى غير نهاية محدودة، فغفلوا عن مقصودها، وتاهوا في كثرة الاشغال. فان أمور الدنيا لا يفتح منها باب إلا وتنفتح لأجله عشرة أبواب اخر، وهكذا يتداعى إلى غير حد محصور، وكأنها هاوية لا نهاية لعمقها، ومن وقع في مهواة منها سقط منها إلى اخرى... وهكذا على التوالى. ألا ترى أن ما يضطر إليه الانسان بالذات منحصر بالمأكل والملبس والمسكن؟ ولذلك حدثت الحاجة إلى خمس صناعات هي أصول الصناعات: الفلاحة، والرعاية للمواشي، والحياكة، والبناء، والاقتناص ـ أي تحصيل ما خلق الله من الصيد والمعادن والحشائش والأحطاب ـ وتترتب على كل من هذه الصناعات صناعات أخر، وهكذا إلى أن حدثت جميع الصناعات التي نراها في العالم، وما من أحد إلا وهو مشتغل بواحدة منها أو أكثر، إلا أهل البطالة والكسالة، حيث غفلوا عن الاشتغال في أول الصبا، أو منعهم مانع واستمروا على غفلتهم وبطالتهم، حتى نشأوا بلا شغل واكتساب، فاضطروا إلى الاخذ مما يسعى فيه غيرهم، ولذلك حدثت حرفتان خبيثتان هي (اللصوصية) و(الكدية)[١]، ولكل واحد منهما أنواع غير محصورة لا تخفى على المتأمل.

---

(١) قال في المنجد: الكدية: الاستعطاء وحرفة السائل الملح.

فصل

(ذم الدنيا وأنها عدوة الله والانسان)

اعلم أن الدنيا عدوة لله ولاوليائه ولاعدائه: أما عداوتها لله، فإنها قطعت الطريق على العبادة، ولذلك لم ينظر اليها مذ خلقها، كما ورد في الأخبار[١]. وأما عداوتها لاوليائه واحبائه، فانها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها، حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها. وأما عداوتها لاعدائه، فإنها استدرجتهم بمكرها ومكيدتها واقتنصتهم بشباكها وحبائلها حتى وثقوا بها وعولوا عليها، فاجتبوا منها حيرة وندامة تنقطع دونها الاكباد، ثم حرمتهم عن السعادة أبد الآباد، فهم على فراقها يتحسرون، ومن مكائدها يستغيثون ولا يغاثون، بل يقال لهم:

﴿إِخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[٢]. **﴿أُوْلَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾**[٣].

والآيات الواردة في ذم الدنيا وحبها كثيرة، وأكثر القرآن مشتمل على ذلك وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة، بل هو المقصود من بعثة الأنبياء، فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها. فلنشر إلى نبذة من الأخبار الواردة في ذم الدنيا وحبها وفي سرعة زوالها، قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء». وقال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها». وقال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». وقال ﷺ: «من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء، وألزم الله قلبه أربع خصال: همّاً لا ينقطع عنه أبداً، وشغلاً لا يتفرغ منه أبداً، وفقراً لا ينال غناه

(١) سيأتي الخبر بهذا المعنى ـ ص ٣٠٢ ـ وهو عامي.

(٢) المؤمنون، الآية: ١٠٨.

(٣) البقرة، الآية: ٨٦.

أبداً، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً». وقال ﷺ: «يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور!». وقال ﷺ: «لتأتينكم بعدى دنياً تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب». وقال: «ألهاكم التكاثر، يقول ابن آدم: مالى مالى. وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأبقيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟». وقال: «أوحى الله تعالى إلى موسى: لا تركنن إلى حب الدنيا، فلن تأتين بكبيرة هي أشد عليك منها». وقال عليه السلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة». وقال عليه السلام: «من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى». ومرّ ﷺ على مزبلة، فوقف عليها وقال: «هلموا إلى الدنيا!» وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة وعظاماً قد نخرت، فقال: «هذه الدنيا!». وقال عليه السلام: «إن الله لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا، وإنه لم ينظر اليها منذ خلقها». وقال عليه السلام: «الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادى من لا علم عنده، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له». وقال ﷺ: «لما هبط آدم من الجنة إلى الأرض قال له: إنّ للخراب ولد للفناء». وقال عليه السلام: «لتجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة، فيؤمر بهم إلى النار»، فقيل: يا رسول الله! أمصلين؟ قال: «نعم!، كانوا يصومون ويصلون ويأخذون هنيئة من الليل، فإذا عرض لهم من الدنيا شيء وثبوا عليه». وقال عليه السلام: «هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً؟ ألا إنه من رغب في الدنيا وطال فيها أمله أعمى الله قلبه على قدر ذلك، ومن زهد في الدنيا وقصر أمله فيها أعطاه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية». وقال عليه السلام: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنى أخشى عليكم ان تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما اهلكتهم». وقال: «أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض»، فقيل: ما بركات الأرض؟ قال: «زهرة الدنيا». وقال عليه السلام: «دعوا الدنيا لأهلها، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه فقد

أخذ حتفه وهو لا يشعر». وقال ﷺ: «سيأتي قوم بعدي يأكلون أطايب الطعام وانواعها، وينكحون أجمل النساء وألوانها، ويلبسون ألين الثياب وألوانها، ويركبون أقوى الخيل وألوانها، لهم بطون من القليل لا تشبع، وأنفس بالكثير لا تقنع، عاكفين على الدنيا، يغدون ويروحون اليها، اتخذوها آلهة دون إلههم ورباً دون ربهم إلى امرهم ينتهون وهواهم يلعبون، فعزيمة من محمد بن عبدالله لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم أبدا لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتبع جنائزهم ولا يوقر كبيرهم، ومن فعل ذلك فقد أعان على هدم الاسلام». وقال ﷺ: «مالي وللدنيا وما انا والدنيا؟! إنما مثلي ومثلها كمثل راكب سار في يوم صائف، فرفعت له شجرة، فقال تحت ظلها ساعة، ثم راح وتركها». وقال ﷺ: «احذروا الدنيا، فانها أسحر من هاروت وماروت». وقال ﷺ: «حق على الله ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه». وقال عيسى بن مريم عليه السلام: «ويل لصاحب الدنيا! كيف يموت ويتركها، ويأمنها وتغره، ويثق بها وتخذله، ويل للمغترين! كيف الزمهم ما يكرهون، وفارقهم ما يحبون، وجاءهم ما يوعدون، ويل لمن اصبحت الدنيا همه والخطايا عمله! كيف يفتضح غداً بذنبه». وقال عليه السلام: «من ذا الذي يبني على أمواج البحر داراً تلكم الدنيا، فلا تتخذوها قراراً». وقال عليه السلام «لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد». وأوحى الله تعالى إلى موسى: «يا موسى! مالك ولدار الظالمين! إنها ليست لك بدار، اخرج منها همك وفارقها بعقلك فبئست الدار هي، إلا لعامل يعمل فيها فنعمت الدار هي، يا موسى! إني مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم». وأوحى اليه: «يا موسى! لا تركنن إلى حب الدنيا، فلن تأتين بكبيرة هي أشد منها». ومر موسى عليه السلام برجل وهو يبكي، ورجع وهو يبكي، فقال موسى: «يا رب! عبدك يبكي من مخافتك»، فقال تعالى: «يابن عمران! لو نزل دماغه مع عينيه ورفع يديه حتى يسقطا لم اغفر له وهو يحب الدنيا!».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام بعد ما قيل له صف لنا الدنيا -: «وما أصف لك من دار من صح فيها سقم، ومن أمن فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العقاب». وقال عليه السلام: «إنما مثل الدنيا كمثل الحية، ما ألين مسها وفي جوفها السم الناقع، يحذرها الرجل العاقل ويهوى اليها الصبى الجاهل». وقال في وصف الدنيا: «ما أصف من دار اولها عناء وآخرها فناء، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فاتته، ومن قعد عنها اتته، ومن بصر بها بصرته، ومن أبصر اليها اعمته». وقال عليه السلام في بعض مواعظه: «ارفض الدنيا، فان حب الدنيا يعمى ويصم ويبكم ويذل الرقاب، فتدارك ما بقى من عمرك، ولا تقل غداً وبعد غد، فانما هلك من كان قبلك باقامتهم على الامانى والتسويف، حتى اتاهم أمر الله بغتة وهم غافلون، فنقلوا على اعوادهم إلى قبورهم المظلمة الضيقة، وقد اسلمهم الأولاد والأهلون، فانقطع إلى الله بقلب منيب. من رفض الدنيا وعزم ليس فيه انكسار ولا انخذال». وقال عليه السلام: «لا تغرنكم الحياة الدنيا، فانها دار بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة، فكل ما فيها إلى زوال، وهى بين اهلها دول وسجال، لا تدوم احوالها، ولا يسلم من شرها نزّالها، بينا أهلها منها في رخاء وسرور إذا هم منها في بلاء وغرور، احوال مختلفة، وتارات متصرمة، العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم، وإنما أهلها فيها اغراض مستهدفة، ترميهم بسهامها، وتفنيهم بحمامها. واعلموا عبادالله انكم وما انتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى، ممن كان اطول منكم اعماراً، واشد منكم بطشاً، واعمر دياراً وابعد آثاراً، فاصبحت اصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلبها، واجسادهم بالية، وديارهم على عروشها خاوية، وآثارهم عافية، استبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنمارق الممهدة الصخور والاحجار المسندة في القبور اللاطئة الملحدة فمحلها مقترب، وساكنها مغترب، بين أهل عمارة موحشين، وأهل محلة

متشاغلين، لا يستأنسون بالعمران، ولا يتواصلون تواصل الجيران الاخوان، على ما بينهم من قرب الجواردنو الدار، وكيف يكون بينهم تواصل، وقد طحنهم بكلكله البلاء، وأكلتهم الجنادل والثرى، واصبحوا بعد الحياة أمواتاً، وبعد نضارة العيش رفاتاً، فَجَعَ بهم الاحباب، وسكنوا تحت التراب، وظعنوا فليس لهم إياب، هيهات هيهات!

﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(١).

فكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلى والوحدة في دار المثوى، وارتهنتم في ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع، وكيف بكم لو عانيتم الأمور، وبعثرت القبور، وحصل ما في الصدور، وأوقفتم للتحصيل بين يدى الملك الجليل، فطارت القلوب لاشفاقها من سالف الذنوب، وهتكت عنكم الحجب والأستار، فظهرت منكم العيوب والاسرار، هنالك:

﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾(٢).

وقال أيضاً عليه‌السلام في بعض خطبه: «اوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم، وان كنتم لا تحبون تركها، المبلية أجسامكم، وانتم تريدون تجديدها، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقاً، وكأنهم قد قطعوه، وافضوا إلى علم، فكأنهم قد بلغوه، وكم عسى أن يجرى المجرى حتى ينتهي إلى الغاية، وكم عسى أن يبقى من له يوم في الدنيا، وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها، فلا تجزعوا لبؤسها وضرّائها فإنه إلى انقطاع، ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فانه إلى زوال، عجبتُ لطالب الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه».

وقال السجاد عليه‌السلام: «إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة،

---

(١) المؤمنون، الآية: ١٠٠.

(٢) غافر، الآية: ١٧.

ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من ابناء الآخرة ولا تكونوا من ابناء الدنيا، ألا وكونوا من الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة ألا إن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الارض بساطاً والتراب فراشاً والماء طيباً، وقرضوا من الدنيا تقريضاً، ألا ومن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن اشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصائب، ألا إن لله عباداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين، وكمن رأى أهل النار في النار معذبين، شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، أنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا أياماً قليلة، فصاروا بعقبى راحة طويلة، أما الليل فصافون أقدامهم، تجرى دموعهم على خدودهم، وهم يجأرون إلى ربهم، يسعون في فكاك رقابهم، وأما النهار فحلماء علماء بررة اتقياء كأنهم القداح، قد براهم الخوف من العبادة، ينظر اليهم الناظر فيقول مرضى، وما بالقوم من مرض، أم خولطوا، فقد خالط القوم أمر عظيم من ذكر النار وما فيها». وقال عليه السلام: «ما من عمل بعد معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله صلى الله عليه وآله أفضل من بغض الدنيا، فان لذلك لشعباً كثيرة، وللمعاصي شعبا. فأول ما عصى الله به الكبر معصية ابليس حين أبى واستكبروكان من الكافرين. ثم الحرص، وهى معصية آدم وحواء حين قال الله عز وجل لهما:

﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

فأخذا مالا حاجة بهما اليه، فدخل ذلك على ذريتهما إلى يوم القيامة، وذلك إن أكثر ما يطلب ابن آدم مالا حاجة به اليه. ثم الحسد، وهو معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله، فتشعب من ذلك حب النساء، وحب الدنيا، وحب الرئاسة، وحب الراحة، وحب الكلام، وحب العلو والثروة، فصرن سبع خصال، فاجتمعن كلهن في

(١) الأعراف، الآية: ١٩.

حب الدنيا. فقال الأنبياء والعلماء ـ بعد معرفة ذلك ـ: حب الدنيا رأس كل خطيئة، والدنيا دنيا آن: دنيا بلاغ ودنيا ملعونة». وقال الباقر عليه السلام لجابر: «يا جابر! إنه من دخل قلبه صافي خالص دين الله شغل قلبه عما سواه، يا جابر! ما الدنيا وما عسى أن تكون الدنيا؟! هل هي إلا طعام أكلته، أو ثوب لبسته، أو امرأة أصبتها؟ يا جابر! إن المؤمنين لم يطمأنوا إلى الدنيا ببقائهم فيها، ولم يأمنوا قدومهم الآخرة. يا جابر! الآخرة دار قرار، والدنيا دار فناء وزوال، ولكن أهل الدنيا أهل غفلة، وكان المؤمنون هم الفقهاء أهل فكرة وعبرة، لم يصممهم عن ذكر الله ـ جل اسمه ـ ماسمعوا بآذانهم، ولم يعمهم عن ذكر الله ما رأوا من الزينة بأعينهم، ففازوا بثواب الآخرة كما فازوا بذلك العلم»(١).

وقال الصادق عليه السلام: «مثل الدنيا كمثل ماء البحر، كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله». وقال: فيما ناجى الله عز وجل به موسى: «يا موسى! لا تركن إلى الدنيا ركون الظالمين وركون من اتخذها أباً وأماً. يا موسى! لو وكلتك إلى نفسك لتنظر لها إذن لغلب عليك حب الدنيا وزهرتها. يا موسى! نافس في الخير أهله واستبقهم اليه، فان الخير كاسمه، واترك من الدنيا ما بك الغنى عنه، ولا تنظر عينك إلى كل مفتون بها وموكل إلى نفسه، واعلم أن كل فتنة بدؤها حب الدنيا، ولا تغبط أحداً بكثرة المال، فان مع كثرة المال تكثر الذنوب لواجب الحقوق ولا تغبطن أحداً برضى الناس عنه، حتى تعلم أن الله راض عنه، ولا تغبطن مخلوقا بطاعة الناس له، فان طاعة الناس له واتباعهم اياه على غير الحق هلاك له ولمن تبعه».وأوحى الله تعالى إلى موسى وهرون لما أرسلهما إلى فرعون: «لو شئت أن ازينكما بزينة من الدنيا، يعرف فرعون حين يراها ان مقدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت، ولكنى أرغب لكما

---

(١) صححنا الحديث على الكافي في باب ذم الدنيا، و صدر الحديث هكذا: «قال جابر: دخلت على ابى جعفر عليه السلام فقال: يا جابر! و الله لمحزون! و انى لمشغول القلب، قلتُ: جعلت فداك! وما شغلك وما حزن قلبك...» إلى آخر الحديث.

عن ذلك وازوى ذلك عنكما، وكذلك افعل بأوليائي، وإني لا زويهم عن نعيمها، كما يزوي الراعي الشفيق غنمه عن مواقع الهلكة، وإني لا جنبهم عيش سلوتها، كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مواقع الغرّة، وما ذلك لهوانهم عليّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفراً، إنما يتزين لي أوليائي: بالذل والخشوع والخوف والتقوى». وقال الكاظم عليه السلام: «قال ابوذر رضي الله عنه: جزى الله الدنيا عني مذمة بقدر رغيفين من الشعير، اتغذى باحدهما واتعشى بالآخر، وبعد شملتي الصوف، اتزر باحداهما واتردي بالأخرى». وقال لقمان لابنه: «يا بني! بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً». وقال له: «يا بني! إن الدنيا بحر عميق، قد غرق فيها ناس كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل وحشوها الايمان، وشراعها التوكل على الله، لعلك ناج وما اراك ناجياً». وقال: «يا بني! إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم، فلم يبق ما جمعوا ولم يبق من جمعوا له، وانما أنت عبد مستأجر قد امرت بعمل ووعدت عليه أجراً، فاوف عملك واستوف أجرك، ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فاكلت حتى سمنت، فكان حتفها عند سمنها، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها وتركتها، ولم ترجع اليها آخر الدهر، أخربها ولا تعمر، فانك لم تؤمر بعمارتها، واعلم أنك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله عز وجل عن أربع: شبابك فيما أبليته وعمرك فيما افنيته، ومالك مما أكتسبته وفيما أنفقته، فتأهب لذلك، وأعد له جوابا ولا تأس على ما فاتك من الدنيا، فان قليل الدنيا لا يدوم بقاؤه، وكثيرها لا يؤمن بلاؤه، فخذ حذرك وجدّ في أمرك، واكشف الغطاء عن وجهك، وتعرض لمعروف ربك، وجدد التوبة في قلبك، واكمش في فراغك قبل أن يقصد قصدك، ويقضى قضاؤك، ويحال بينك وبين ما تريد».

وقال بعض الحكماء: «الدنيا دار خراب، وأخرب منها قلب من يعمرها. والجنة

دار عمران، وأعمر منها قلب من يعمرها». وقال بعضهم: «الدنيا لمن تركها، والآخرة لمن طلبها». وقال بعضهم: «إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك، ويكون له أهل بعدك، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداء يوم، فلا تهلك نفسك في أكلة، وصم الدنيا، وافطر على الآخرة فان رأس مال الدنيا الهوى، وربحها النار». وقال بعض أكابر الزهاد: «الدنيا تخلق الابدان، وتجدد الآمال، وتقرّب المنية، وتبعد الأمنية، ومن ظفر بها تعب، ومن فاتته نصب». وقال بعضهم: «ما في الدنيا شيء يسرك إلا وقد التزق به شيء يسوءك». وقال آخر: «لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث: إنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما امل، ولم يحسن الزاد لما قدم عليه». وقال حكيم: «كانت الدنيا ولم اكن فيها، وتذهب ولا أكون فيها، فكيف اسكن اليها؟ فان عيشها نكد، وصفوها كدر، وأهلها منها على وجل، إما بنعمة زائلة، أو بلية نازلة، أو منية قاضية». وقال بعض العرفاء: «الدنيا حانوت الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئاً، فيجيء في طلبك ويأخذك». وقال بعضهم: «لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى، لكان ينبغي أن يختار العاقل خزفا يبقى على ذهب يفنى، فكيف والآخرة ذهب يبقى والدنيا أدون من خزف يفنى؟» وقد ورد: «أن العبد إذا كان معظما للدنيا، يوقف يوم القيامة، ويقال: هذا عظّم ما حقره الله». وروى: «أنه لما بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتت ابليس جنوده، فقالوا: قد بعث نبي واخرجت امة، قال: يحبون الدنيا؟ قالوا: نعم! قال: إن كانوا يحبونها ما ابالى ألا يعبدوا الأوثان، وانا اغدوعليهم واروح بثلاثة: أخذ المال من غير حقه، وانفاقه في غير حقه، وامساكه عن حقه، والشرّ كله لهذا تبع». وروى: «انه أوحى الله تعالى إلى بعض انبيائه: احذر مقتك، فتسقط من عيني، فاصب عليك الدنيا صبا». وقال بعض الصحابة: «ما اصبح أحد من الناس في الدنيا إلا وهو ضيف، وماله عارية. فالضّيفُ مرتحل، والعارية مردودة». وقال بعضهم: «إن الله جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء

للمنافق، وجزء للكافر. فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع». وقيل: «من أقبل على الدنيا احرقته نيرانها حتى يصير رماداً، ومن أقبل على الآخرة صفته نيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع بها، ومن أقبل على الله سبحانه، احرقته نيران التوحيد، فصار جوهراً لا حد لقيمته».وقيل ايضاً: «العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه». وسأل بعض الامراء رجلا بلغ عمره مائتى سنة عن الدنيا، فقال: «سنيات بلاء، وسنيات رخاء، يوم فيوم، وليلة فليلة، يولد ولد، ويهلك هالك، فلولا المولود باد الخلق، ولولا الهالك لضاقت الدنيا بمن فيها»، فقال له الأمير: سل ماشئت، قال: «اريد منك أن ترد علي ما مضى من عمرى، وتدفع عنى ما حضر من أجلى»، قال: لا أملك ذلك، قال: «فلا حاجة لى اليك».

والأخبار والآثار في ذم الدنيا وحبها، وفي سرعة زوالها وعدم الاعتبار بها، وفي هلاك من يطلبها ويرغب اليها، وفي ضديتها للآخرة، أكثر من أن تحصى. وما ورد في ذلك من كلام أئمتنا الراشدين، (لا) سيما عن مولانا أمير المؤمنين - صلوات الله عليهم أجمعين إلى يوم الدين - فيه بلاغ لقوم زاهدين. ومن تأمل في خطب على عليه السلام ومواعظه - كما في نهج البلاغة وغيره - يظهر له خساسة الدنيا ورذالتها. وقضية السؤال والجواب بين روح الأمين ونوح في كيفية سرعة زوال الدنيا مشهورة، وحكاية مرور روح الله على قرية هلك أهلها من حب الدنيا معروفة[1]. ولعظم آفة الدنيا وحقارتها ومهانتها عند الله، لم يرضها لأحد من أوليائه، وحذرهم عن غوائلها، فتزهدوا فيها وأكلوا منها قصداً، وقدموا فضلا. أخذوا منها ما يكفى، وتركوا ما يلهى. لبسوا من الثياب ما سترالعورة، وأكلوا من الطعام ما سد الجوع. نظروا إلى الدنيا بعين

(۱) ذكرها (الكافى) عن ابى عبدالله الصادق عليه السلام في باب حب الدنيا بتمامها.

أنها فانية، والى الآخرة أنها باقية، فتزودوا منها كزاد الراكب، فخربوا الدنيا وعمروا بها الآخرة، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنهم سينظرون اليها باعينهم، فارتحلوا اليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون اليها بابدانهم. صبروا قليلا ونعموا طويلا.

فصل

(خسائس صفات الدنيا)

اعلم أن للدنيا صفات خسيسة قد مثلت في كل صفة بما تماثله فيها:

فمثالها في سرعة الفناء والزوال وعدم الثبات: مثل النبات الذي اختلط به ماء السماء فاخضر، ثم اصبح هشيما تذروه الرياح، أو كمنزل نزلته ثم ارتحلت عنه أو كقنطرة تعبر عنها ولا تمكث عليها. وفي كونها مجرد الوهم والخيال، وكونها مما لا أصل لها ولا حقيقة، كفيء الظلال، أو خيالات المنام وأضغاث الأحلام، فإنك قدتجد في منامك ماتهواه، فإذا استيقظت ليس معك منه شيء.

وفي عداوتها لأهلها واهلاكها اياهم: بامرأة تزينت للخطاب، حتى إذا نكحتهم ذبحتهم. فقد روى: «أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا، فرآها في صورة عجوز شمطاء هتماء عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لازواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بالماضين؟ كيف تهلكينهم واحداً واحداً ولا يكونون منك على حذر؟!».

وفي مخالفة باطنها لظاهرها: كعجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها. فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها ظهرت لهم قبائحها. روى: «أنه يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء، انيابها بادية، مشوه خلقها، فتشرف على الخلائق، ويقال لهم: تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه! فيقال: هذه

الدنـيا التـي تـفاخرتم عـليها، وبـها تـقاطعتم الأرحـام، وبـها تـحاسدتم وتـباغضتم واغررتم، ثم يقذف بها في جهنم، فتنادى: أى رب! أين اتباعى واشياعى؟ فـيقول الله عز وجل: ألحقوا بها اتباعها واشياعها».

وفي قصر عمرها لكل شخص بالنسبة إلى ما تقدمه من الأزل وما يتأخر عنه من الأبد: كمثل خطوة واحدة، بل أقل من ذلك، بالنسبة إلى سفر طويل، بـل بـالنسبة إلى كل مسافة الأرض اضعافاً غير متناهية. ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن اليها، ولم يبال كيف انقضت أيامه في ضيق وضرّ أو في سعة ورفاهية، بل لا يبنى لبنة على لبـنة. توفي سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم وما وضع لبنة على لبنة ولا قـصبة عـلى قـصبة. ورأى بـعض أصحابه يبنى بيتاً مـن جـص، فـقال: «أرى الأمـر أعـجل مـن هـذا». والى هـذا أشـار عيسى عليه السلام حيث قال: «الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها».

وفي نعومة ظاهرها وخشونة باطنها: مثل الحية التي يلين مسها ويقتل سمها.

وفي قلة ما بقى منها بالاضافة إلى ما سبق: مثل ثـوب شـق مـن أوله إلى آخـره، فبقى متعلقاً في آخره، فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع.

وفي قلة نسبتها إلى الآخرة: كمثل ما يجعل احـد اصـبعه فـي اليـم، فـلينظر بـم يرجع إليه من الأصل.

وفي تأدية علائقها بعض إلى بعض حتى يـنجر إلى الهـلاك: كـماء البـحر كـلما شرب منه العطشان ازداد عطشا حتى يقتله.

وفي تأدية الحرص عليها إلى الهلاك غماً: كمثل دودة القـز كـلما ازدادت عـلى نفسها لفاً كان ابعد لها من الخروج حتى تموت غماً.

وفي تعذر الخلاص من تبعاتها واستحالة عدم التلوث بقاذوراتها بعد الخوض فيها: كالماشى في الماء، فإنه يمتنع ألا تبتل قدماه.

وفي نضارة أولها وخباثةعاقبتها: كالأطعمة التي تؤكل، فكما أن الطعام كلما كان

الذ طعماً واكثر دسومة كان رجيعه اقذر واشد نتناً، فكذلك كل شهوة من شهوات الدنيا التي كانت للقلب اشهى واقوى، فنتنها وكراهيتها والتأذى بها عند الموت أشد، وهذا مشاهد في الدنيا. فإن المصيبة والألم والتفجع في كل ما فقد بقدر الالتذاذ بوجوده وحرصه عليه وحبه له، ولذا ترى أن من نهبت داره واخذت اهله واولاده، يكون تفجعه وألمه أشد مما إذا اخذ عبد من عبيده، فكل ما كان عند الوجود اشهى عنده والذ، فهو عند الفقد أدهى وأمر، وما للموت معنى إلا فقد ما في الدنيا.

وفي تنعم الناس بها ثم تفجعهم على فراقها: مثل طبق ذهب عليه بخور ورياحين، في دار رجل هيأه فيها، ودعا الناس على الترتيب واحداً بعد واحد ليدخلوا داره، ويشمه كل واحد وينظر اليه، ثم يتركه لمن يلحقه، لا ليتملكه ويأخذه، فدخل واحد وجهل رسمه، فظن أنه قد وهب ذلك له، فتعلق به قلبه، لما ظن أنه له، فلما استرجع منه ضجر وتألم، ومن كان عالماً برسمه انتفع به وشكره وردّه بطيب قلب وانشراح صدر. فكذلك من عرف سنة الله في الدنيا، علم أنها دار ضيافة سلبت على المجتازين لينتفعوا بما فيها، كما ينتفع المسافر بالعوارى، ثم يتركوها ويتوجهوا إلى مقصدهم من دون صرف قلوبهم اليها، حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها، ومن جهل سنة الله فيها، ظن أنها مملوكة له، فيتعلق بها قلبه، فلما اخذت منه عظمت بليته واشتدّت مصيبته.

وفي اغترار الخلق بها وضعف ايمانهم بقوله تعالى في تحذيره إياهم غوائلها: كمفازة غبراء لا نهاية لها، سلوكها قوم وتاهوا فيها بلازاد وماء وراحلة، فأيقنوا بالهلاك، فبيناهم كذلك إذ خرج عليهم رجل وقال: أرأيتم إن هديتكم إلى رياض خضر وماء رواء ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك في شيء. فأخذ منهم عهوداً ومواثيق على ذلك، فأوردهم ماء رواء ورياضاً خضراء، فمكث فيهم ماشاءالله، ثم قال: الرحيل! قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم، والى رياض ليست كرياضكم.

فقال اكثرهم: لا نريد عيشاً خيراً من هذا، فلم يطيعوه. وقالت طائفة ـ وهم الأقلون ـ: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله ألا تعصوه، وقد صدقكم في أول حديثه؟ فوالله إنه صادق في هذا الكلام أيضاً! فاتبعه هذا الأقل، فذهب فيهم إلى أن أوردهم في ماء ورياض أحسن بمراتب شتى مما كانوا فيه أولاً، وتخلف عنه الأكثرون، فبدرهم عدو، فأصبحوا من بين قتيل وأسير.

تذنيب
(تشبيهات الدنيا وأهلها)

قد شبه بعض الحكماء حال الانسان واغتراره بالدنيا، وغفلته عن الموت وما بعده من الأهوال، وانهماكه في اللذات العاجلة الفانية الممتزجة بالكدورات: بشخص مدلى في بئر، مشدود وسطه بحبل، وفي أسفل ذلك البئر ثعبان عظيم متوجه اليه، منتظر سقوطه، فاتح فاه لالتقامه، وفي أعلى ذلك البئر جرذان أبيض وأسود، لا يزالان يقرضان ذلك الحبل شيئاً فشيئاً، ولا يفتران عن قرضه آناً من الآنات، وذلك الشخص، مع أنه يرى ذلك الثعبان ويشاهد انقراض الحبل آناً فآناً، قد اقبل على قليل عسل قد لطخ به جدار ذلك البئر وامتزج بترابه واجتمعت عليه زنابير كثيرة، وهو مشغول بلطعه منهمك فيه، ملتذ بما أصاب منه، مخاصم لتلك الزنابير عليه، قد صرف باله باجمعه إلى ذلك غير ملتفت إلى ما فوقه والى ما تحته. فالبئر هو الدنيا، والحبل هو العمر، والثعبان الفاتح فاه هو الموت، والجرذان الليل والنهار القارضان للعمر، والعسل المختلطة بالتراب هو لذات الدنيا الممتزجة بالكدورات والآلام، والزنابير هم ابناء الدنيا المتزاحمون عليها.

وشبه بعض العرفاء الدنيا وأهلها، في اشتغالهم بنعيمها وغفلتهم عن الآخرة، وحسراتهم العظيمة بعد الموت، من فقدهم نعيم الجنة بسبب انغمارهم في

خسائس الدنيا: بقوم ركبوا السفينة، فانتهت بها إلى جزيرة، فأمرهم الملاّح بالخروج لقضاء الحاجة، وحذرهم المقام فيها، وخوفهم مرور السفينة واستعجالها، فتفرقوا في نواحي الجزيرة، فقضى بعضهم حاجته، وبادر إلى السفينة، فصادف المقام خالياً، فأخذ أوسع الأماكن واوفقها بمراده. وبعضهم توقف في الجزيرة، واشتغل بالنظر إلى أزهارها وانوارها واشجارها واحجارها ونغمات طيورها، ثم تنبه لخطر فوات السفينة، فرجع اليها، فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً، فاستقر فيه. وبعضهم، بعد التنبه لخطر مرور السفينة، لما تعلق قلبه ببعض احجار الجزيرة وازهارها وثمارها، لم تسمح نفسه باهمالها، فاستصحب منها جملة ورجع إلى السفينة، فلم يجد فيها إلامكاناً ضيقاً لا يسعه إلا بالتكلف والمشقة، وليس فيه مكان لوضع ما حمله، فصار ذلك ثقلا عليه ووبالاً، فندم على أخذها، ولم يقدر على رميها، فحملها في السفينة على عنقه متأسفاً على أخذها. وبعضهم اشتغل بمشاهدة الجزيرة، بحيث لم يتنبه اولا من خطر مرور السفينة ومن نداء الملاح، حتى امتلأت السفينة، فتنبه أخيراً ورجع اليها، مثقلاً بما حمله من احجار الجزيرة وحشائشها، ولما وصل إلى شاطىء البحر سارت السفينة، أولم يجد فيها موضعاً أصلاً، فبقى على شاطىء البحر. وبعضهم لكثرة الاشتغال بمشاهدة الجزيرة وما فيها نسوا المركب بالمرة، ولم يبلغهم النداء اصلا، لكثرة انغمارهم في أكل الثمار وشرب المياه والتنسم بالأنوار والأزهار والتفرج بين الاشجار، فسارت السفينة وبقوا في الجزيرة من دون تنبههم بخطر مرورها، فتفرقوا فيها، فبعضهم نهشته العقارب والحيات، وبعضهم افترسته السباع، وبعضهم مات في الأوحال، وبعضهم هلك من الندامة والحسرة والغصة. وأما من بقي على شاطىء البحر فمات جوعاً، وأما من وصل إلى المركب مثقلا بما اخذه، فشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها، وقد ضيق عليه مكانه، فلم يلبث ان ذبلت ما اخذه من الأزهار، وعفنت الثمار، وكمدت الوان الأحجار، فظهر نتن رائحتها،

فتأذى من نتن رائحتها ولم يقدر على القائها في البحر لصيرورتها جزءاً من بدنه، وقد أثر فيه ما أكل منها، ولم ينته إلى الوطن إلا بعد احاطة الأمراض والأسقام عليه لأجل ما لم ينفك عنه من النتن، فبلغ إليه سقيما مدنفاً، فبقي على سقمه ابداً، أو مات بعد مدة. واما من رجع إلى المركب بعد تضيق المكان، فما فاته إلا سعةالمحل، فتأذى بضيق المكان مدة، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح، ومن رجع إليه اولا ووجد المكان الأوسع فلم يتأذ من شيء اصلاً ووصل إلى الوطن سالماً. فهذا مثال اصناف أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم وطنهم الحقيقي، وغفلتهم عن عاقبة امرهم. وما اقبح بالعاقل البصير ان تغره بأحجار الأرض وهشيم النبت، مع مفارقته عند الموت وصيرورته كلاً ووبالا عليه.

فصل

(عاقبة حب الدنيا وبغضها)

اعلم انه لا يبلغ مع العبد عند الموت إلا صفاء القلب، أعني طهارته عن ادناس الدنيا وحبه لله وانسه بذكره، وصفاء القلب وطهارته لا يحصل إلا بالكف عن شهوات الدنيا، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة، والمعرفة لا تحصل إلا بدوام الفكرة، والانس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله والمواظبة عليه، وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت، وهي الباقيات الصالحات.

أما طهارة القلب عن ادناس الدنيا، فهي الجنة بين العبد وبين عذاب الله، كما ورد في الخبر: «ان اعمال العبد تناضل عنه، فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه وإذا جاء من قبل يديه جاءت الصدقة تدفع عنه...» الحديث.

وأما الحب والأنس، فهما يوصلان العبد إلى لذة المشاهدة واللقاء. وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت إلى ان يدخل الجنة، فيصير القبر روضة من رياض

الجنة، وكيف لايصل صاحب الصفات الثلاث بعد موته غاية البهجة ونهاية اللذة بمشاهدة جمال الحق، ولا يكون القبر عليه روضة من الرياض الخلد، ولم يكن له إلا محبوب واحد، وكانت العوائق تعوقه عن الانس بدوام ذكره ومطالعة جماله، وبالموت ارتفعت العوائق وافلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه، فقدم عليه مسروراً سالماً من الموانع آمنا من الفراق؟ وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبا ولم يكن له محبوب إلا الدنيا، وقد غصبت منه وحيل بينه وبينها، وسدّت عليه طرق الحيلة في الرجوع اليه؟ وليس الموت عدماً، إنما هو فراق لمحاب الدنيا وقدوم على الله، فإذن سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث، وهي: الذكر، والفكر، والعمل الذي يفطمه عن شهوات الدنيا ويبغض إليه ملاذها ويقطعه عنها.وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن، وصحة البدن لا تنال إلا بالقوت والملبس والمسكن، ويحتاج كل واحد إلى اسباب، فالقدر الذي لابدّ منه من هذه الثلاثة إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من ابناء الدنيا وكانت الدنيا في حقه مزرعة الآخرة. وإن اخذ ذلك على قصد التنعم وحظ النفس صار من ابناء الدنيا والراغبين في حظوظها. إلا أن الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الله في الآخرة، وسمّي ذلك حراماً وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلى ويعرضه لطول الحساب، ويسمى ذلك حلالاً. والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضاً عذاب، فمن نوقش في الحساب عذب، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «في حلالها حساب وفي حرامها عقاب». بل لو لم يكن الحساب، لكان ما يفوت عن الدرجات العلى في الجنة وما يرد على القلب من التحسر على تفويتها بحظوظ حقيرة خسيسة لا بقاء لها، هو أيضاً عذاب.

ويرشدك إلى ذلك حالك في الدنيا إذا نظرت إلى أقرانك، وقد سبقوك إلى السعادات الدنيوية، كيف ينقطع قلبك عليها حسرات، مع علمك بأنها سعادات

متصرمة لا بقاء لها، ومنغصة بكدورات لا صفاء لها، فما حالك في فوات سعادات لا يحيط الوصف بعظمتها وتنقطع الأذهان والدهور دون غايتها؟ وكل من تنعم في الدنيا، ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو بشربة ماء بارد، فهو ينقص من حظه في الآخرة، والتعرض لجواب السؤال فيه ذل، وحذر، وخوف، وخطر، وخجل، وانكسار، ومشقة، وانتظار، وكل ذلك من نقصان الحظ.

فالدنيا ـ قليلها وكثيرها وحلالها وحرامها ـ ملعونة، إلا ما أعان على تقوى الله، فان ذلك القدر ليس من الدنيا، وكل من كانت معرفته أقوى واتم كان حذره من نعيم الدنيا أشد وأعظم، حتى أن عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام ثم رمى به، اذ تمثل له ابليس وقال: رغبت في الدنيا. وحتى أن سليمان عليه السلام في ملكه كان يطعم الناس من لذائذ الأطعمة وهو يأكل خبز الشعير، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتحاناً وشدة، فان الصبر من لذيذ الأطعمة مع وجودها أشد. ولذا زوى الله تعالى الدنيا على نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فكان يطوى اياماً، وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع، ولهذا سلط الله المحن والبلاء على الأنبياء والأولياء، ثم الأمثل فالأمثل في درجات العلى. كل ذلك نظراً لهم وامتنانا عليهم، ليتوفر من الآخرة حظهم، كما يمنع الوالد المشفق ولده لذائذ الفواكه والأطعمة ويلزمه الفصد والحجامة، شفقة عليه وحباً له لا بخلاً به عليه. وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فليس من الدنيا.

ثم الأشياء على أقسام ثلاثة:

(الأول) ما لا يتصور أن يكون لله، بل من الدنيا صورة ومعنى، وهى انواع المعاصى والمحظورات واصناف التنعم بالمباحات، وهى الدنيا المحضة المذمومة على الاطلاق.

(الثانى) ما صورته من الدنيا، كالأكل والنوم والنكاح وأمثالها، ويمكن أن يجعل

معناه لله، فإنه يمكن أن يكون المقصود منه حظ النفس، فيكون معناه كصورته أيضاً من الدنيا، ويمكن أن يكون المقصود منه الاستعانة على التقوى، فهو لله بمعناه وان كانت صورته صورة الدنيا، قال رسول الله ﷺ: «من طلب من الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقى الله وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر».

(الثالثة) ما صورته لله، ويمكن أن يجعل معناه من الدنيا بالقصد، وهو ترك الشهوات، وتحصيل العلم، وعمل الطاعات والعبادات. فهذه الثلاث إذا لم يكن لها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهى لله صورة ومعنى، ولم تكن من الدنيا أصلا، وان كان الغرض منها حفظ المال والحمية والاشتهار بالزهد والورع وطلب القبول بين الخلق باظهار المعرفة صار من الدنيا معنى وان كان يظن بصورته أنه لله.

ومنها:

حب المال

وهو من شعب حب الدنيا، إذ حب الدنيا يتناول حب كل حظ عاجل، والمال بعض اجزاء الدنيا، كما ان الجاه بعضها، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها، وتشفى الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها، والكبر وطلب العلو بعضها.

وبالجملة: لها أبعاض كثيرة يجمعها كل ما للانسان فيه حظ عاجل، فآفات الدنيا كثيرة الشعب والارجاء، واسعة الأرجاء والاكناف، ولكن أعظم آفاتها المتعلقة بالقوة الشهوية هو (المال)، اذ كل ذى روح محتاج إليه ولا غناء له عنه، فإن فقد حصل الفقر الذي يكاد أن يكون كفراً، وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسرا، فهو لا يخلو من فوائد وآفات، وفوائده من المنجيات وآفاته من المهلكات، وتمييز خيرها وشرها من المشكلات، إذ من فقده تحصل صفة الفقر، ومن وجوده

تحصل صفة الغناء، وهما حالتان يحصل بهما الامتحان.

ثم (للفاقد) حالتان: القناعة، والحرص. واحداهما محمودة والأخرى مذمومة. و(للحريص) حالتان: تشمر للحرف والصنائع مع اليأس عن الخلق، وطمع بما في ايديهم. واحدى الحالتين شر من الأخرى. و(للواجد) حالتان: امساك، وانفاق. واحدهما مذموم والآخر ممدوح. و(للمنفق) حالتان: اسراف، واقتصاد. والأول مذموم والثاني ممدوح. وهذه امور متشابهة لا بد أولا من تمييزها، ثم الأخذ بمحمودها والترك لمذمومها، حتى تحصل النجاة من غوائل المال وفتنتها. ومن هنا قال بعض الأكابر: الدرهم عقرب، فان لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فانه إن لدغك قتلك سمه. وقيل وما رقيته؟ قال: أخذه من حله، ووضعه في حقه.

فصل

(ذم المال)

الكتاب والسنة متظاهران في ذم المال وكراهة حبه، قال الله سبحانه:

﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾(١). وقال: **﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾**(٢). وقال: **﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾** الآية(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «حب المال والشرف ينبتان النفاق، كما ينبت الماء البقل». وقال ﷺ: «ماذئبان ضاريان ارسلا في زريبة غنم باكثر فساداً من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم»، وقال: «شر امتى الأغنياء». وقال ﷺ: «يقول الله

---

(١) المنافقون، الآية: ٩.

(٢) الانفال، الآية: ٢٨.

(٣) الكهف، الآية: ٤٦.

تعالى: يا ابن آدم! مالي، مالي! وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟!» وقال ﷺ: «أخلاء ابن آدم ثلاثة: واحد يتبعه إلى قبض روحه وهو ماله، وواحد يتبعه إلى قبره وهو أهله، وواحد يتبعه إلى محشره وهو عمله». وقال ﷺ: «يجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه، كلما يكفأ به الصراط قال له ماله: امض وقد أديت حق الله فى. ثم يجاء بصاحب الدنيا الذي لم يطع الله فيها وماله بين كفيه، كلما يكفأ به الصراط قال ماله: ويلك! ألا أديت حق الله فى؟... فما يزال كذلك حتى يدعو بالثبور والويل». وقال ﷺ: «إن الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم، وهما مهلكاكم». وقال ﷺ: «لكل أمة عجل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم». وقال ﷺ: «يؤتى برجل يوم القيامة، وقد جمع مالا من حرام وانفقه في حرام، فيقال: اذهبوا به إلى النار. ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وانفقه في حرام، فيقال: اذهبوا به إلى النار. ويؤتى برجل قد جمع مالا من حرام وانفقه في حلال، فيقال: اذهبوا به إلى النار. ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وانفقه في حلال، فيقال له: قف لعلك قصرت في طلب هذا بشيء مما فرضت عليك من صلاة لم تصلها لوقتها، وفرطت في شيء من ركوعها وسجودها ووضوئها، فيقول: لا يا رب! كسبت من حلال وانفقت في حلال، ولم اضيع شيئاً مما فرضت، فيقال: لعلك اختلت في هذا المال في شيء من مركب أو ثوب باهيت به، فيقول: لا يا رب! لم اختل ولم أباه في شيء، فيقال: لعلك منعت حق أحد أمرتك أن تعطيه من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فيقول: لا يا رب! لم اضيع حق احد أمرتنى أن اعطيه. فيجيء اولئك فيخاصمونه، فيقولون: يا رب اعطيته واغنيته وجعلته بين اظهرنا وامرته أن يعطينا، فان كان قد اعطاهم وما ضيع من ذلك شيئاً من الفرائض ولم يختل في شيء، فيقال: قف الآن هات شكر نعمة أنعمتها عليك من أكلة أو شربة أو لقمة أو لذة... فلا يزال يسأل».

فليت شعرى ـ يا اخى ـ ان الرجل الذي فعل في الحلال، وأدى الفرائض بحدودها، وقام بالحقوق كلها، إذا حوسب بهذه المحاسبة، فكيف يكون حال امثالنا الغرقى في فتن الدنيا وتخاليطها، وشبهاتها وشهواتها وزينتها، فيالها من مصيبة ما أفظعها، ورزية ما أجلها، وحسرة ما أعظمها! لا ندرى ما تفعل بنا الدنيا غداً في الموقف عندى يدي الجبار.

ولخوف هذا الخطر قال بعض الصحابة: «ما يسرنى ان اكتسب كل يوم الف دينار من حلال وانفقها في طاعة الله، ولم يشغلنى الكسب عن صلاة الجماعة»، قالوا له: ولم ذلك رحمك الله؟ قال: «لأنى غنى عن مقامى يوم القيامة، فيقول الله: عبدى من أين اكتسبت وفي أى شيء انفقت؟».

فينبغي لكل مؤمن تقى ألا يتلبس بالدنيا، فيرضى بالكفاف، وإن كان معه فضل فليقدمه لنفسه، إذ لو بقى بعده لكان له مفاسد وآفات. روى: «أنه قال رجل: يا رسول الله، مالى لا أحب الموت؟ فقال: هل معك من مال؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: قدم مالك أمامك فان قلب المؤمن مع ماله، إن قدمه احب أن يلحقه، وإن خلفه احب ان يتخلف معه». ووضع أمير المؤمنين عليه السلام درهما على كفه، ثم قال: «أما انك مالم تخرج عنى لا تنفعنى». وروى: «ان اول ما ضرب الدينار والدرهم رفعهما ابليس، ثم وضعهما على جبهته، ثم قبلهما وقال: من احبكما فهو عبدى حقاً». وقال عيسى عليه السلام: «لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا، فان بريق أموالهم يذهب بنور ايمانكم». وقال بعض الأكابر: «مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته»، قيل: وما هما؟ قال: «يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله».

ثم جميع ما ورد في ذم الغنى ومدح الفقر ـ كما يأتى بعضه ـ، وجميع ما ورد في ذم الدنيا ـ كما تقدم بعضه ـ يتناول ذم المال، لأنه أعظم اركان الدنيا.

فصل

(الجمع بين ذم المال ومدحه)

اعلم أنه كما ورد ذم المال في الآيات والأخبار ورد مدحه فيهما أيضاً، وقد سماه الله خيراً في مواضع، فقال:

﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ...﴾[1]. وقال في مقام الامتنان: ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح». وكل ماجاء في ثواب الصدقة، والضيافة، والسخاء، والحج، وغير ذلك مما لا يمكن الوصول إليه إلا بالمال، فهو ثناء عليه.

ووجه الجمع بين الظواهر المادحة والذامة هو: أن المال قد يكون وسيلة إلى مقصود صحيح هو السعادة الاخروية، إذ الوسائل اليها في الدنيا ثلاث، وهي: الفضائل النفسية، والفضائل البدنية، والفضائل الخارجية التي عمدتها المال. وقد يكون وسيلة إلى مقاصد فاسدة، وهي المقاصد الصادّة عن السعادة الأخروية والحياة الأبدية، والصادة سبيل العلم والعمل. فهو اذن محمود ومذموم بالاضافة إلى المقصودين. فالظواهر الذامة محمولة على صورة كونه وسيلة إلى مقاصد فاسدة، والمادحة على صورة كونه وسيلة إلى مقاصد صحيحة. ولما كانت الطبائع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله، وكان المال مسهلاً لها وآلة اليها، عظم الخطر في ما يزيد على قدر الكفاية، فاستعاذ طوائف الأنبياء والأولياء من شره، حتى قال نبينا ﷺ: «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً». وقال ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً».

---

(١) البقرة، الآية: ١٨٠.

(٢) نوح، الآية: ١٢.

فصل

(غوائل المال وفوائده)

قد ظهر مما ذكر: أن المال مثل حية فيها سم وترياق، فغوائله سمه، وفوائده ترياقه، فمن عرفهما أمكنه أن يحترز من شره ويستدر منه خيره.

ولبيان ذلك نقول: إن غوائله اما دنيوية أو دينية:

والدنيوية : هي ما يقاسيه أرباب الأموال: من الخوف، والحزن، والهم، والغم، وتفرق الخاطر، وسوء العيش، والتعب في كسب الأموال وحفظها، ودفع الحساد وكيد الظالمين، وغير ذلك.

والدينية : ثلاثة انواع:

اولها ـ اداؤه إلى المعصية. إذ المال من الوسائل إلى المعاصى، ونوع من القدرة المحركة لداعيتها. فإذا استشعرها الانسان من نفسه، انبعثت الداعية، واقتحم في المعاصى، وارتكب أنواع الفجور. ومهما كان آيساً عن القدرة لم يتحرك داعية اليها. إذ العجز قد يحول بين المرء وبين المعصية، ومن العصمة ألا يقدر، وأما مع القدرة، فإن اقتحم ما يشتهيه هلك ، وإن صبر وقع في شدة. إذ الصبر مع القدرة أشد، وفتنة السرّاء من فتنة الضراء أعظم.

وثانيها ـ أداؤه إلى التنعم في المباحات. فإن الغالب أن صاحب المال يتنعم بالدنيا ويمرن عليه نفسه، فيصير التنعم محبوباً عنده مألوفاً، بحيث لا يصبر عنه، ويجره البعض منه الى البعض. وإذا اشتد إلفه به وصار عادة له، ربما لم يقدر عليه من الحلال، فيقتحم في الشبهات ويخوض في المحرمات: من الخيانة، والظلم، والغضب، والرياء، والكذب، والنفاق، والمداهنة، وسائر الأخلاق المهلكة، والأشغال الردية، لينتظم أمر دنياه ويتيسر له تنعمه. وما أقل لصاحب الثروة والمال ألا يصير التنعم مألوفاً له، إذ متى يقدر أن يقنع بخبز الشعير ولبس الخشن وترك لذيذ

الأطعمة بأسرها، فإنما ذلك شأن نادر من أولى النفوس القوية القدسية، كسليمان بن داود عليه السلام وأمثاله. على أن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس، ومن احتاج إلى الناس فلابد أن ينافقهم ويسخط الله في طلب رضاهم، فإن سلم من الآفة الأولى، أعني مباشرة المحرمات، فلا يسلم من هذه أصلا. ومن الحاجة إلى الناس تثور العداوة والصداقة، ويحصل الحقد، والحسد، والكبر، والرياء، والكذب، والغيبة، والبهتان، والنميمة، وسائر معاصى القلب واللسان، وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه واصلاحه.

وثالثها ـ وهو الذي لا ينفك عنه أحد من أرباب الأموال: وهو أنه يلهيه اصلاح ماله وحفظه عن ذكر الله تعالى، وكل ما يشغل العبد عن الله تعالى فهو خسران ووبال. ولذا قال روح الله عليه السلام: «في المال ثلاث آفات، ان يأخذه من غير حله»، فقيل: إن أخذه من حله؟ قال: «يضعه في غير حقه»، فقيل: إن وضعه في حقه؟ فقال: «يشغله اصلاحه عن الله». وهذا هو الداء العضال، إذ أصل العبادات وروحها وحقيقتها هو الذكر والفكر في جلال الله تعالى، وذلك بستدعى قلباً فارغاً. وصاحب الضيعة يصبح ويمسى متفكراً في خصومة الفلاح ومحاسبته وخيانته، ومنازعة الشركاء وخصومتهم في الماء والحدود، وخصومة أعوان السلطان في الخراج، وخصومة الاجراء في التقصير في العمارة وغير ذلك. وصاحب التجارة يكون متفكراً في خيانة الشركاء وانفرادهم بالربح وتقصيرهم في العمل وتضييعهم المال، ويكون غالباً في بلاد الغربة متفرق الهم محزون القلب من كساد ما يصحبه من مال التجارة. وكذلك صاحب المواشى وغيره من أرباب أصناف الأموال. وأبعدها عن كثرة الشغل النقد المكنون تحت الأرض، وصاحبه أيضاً لا يزال متفكراً متردداً فيما يصرف اليه، وفي كيفية حفظه، وفي الخوف ممن يعثر عليه، وفي دفع طمع الخلق منه. وبالجملة اودية افكار أهل الدنيا لا نهاية لها، والذى ليس معه إلا قوت يومه أو سنته، ولا يطلب

أزيد من ذلك، فهو في سلامة من جميع ذلك.

وأما فوائده : فهى أيضاً دنيوية ودينية:

أما الدنيوية : فهى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة: من الخلاص من ذل السؤال، وحقارة الفقر، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق، وكثرة الاخوان والاصدقاء والاعوان، وحصول الوقار والكرامة في القلوب.

وأما الدينية : فثلاثة انواع:

اولها ـ أن ينفقه على نفسه في عبادة، كالحج والجهاد، أو فيما يقوى على العبادة، كالمطعم والملبس والمسكن.

وثانيها ـ أن يصرفه إلى اشخاص معينة: كالصدقة، والمروة، ووقاية العرض، واجرة الاستخدام. وأما الصدقة بانواعها، فلا يحصى ثوابها، وربما نشير إلى فضيلتها في موضعها. وأما المروة، ونعنى بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة أو هدية أو إعانة وما يجرى مجراها مما يكتسب به الاخوان والاصدقاء ويجلب به صفة الجود والسخاء، إذ لا يتصف بالجود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل الفتوة والمروة، فلا ريب في كونه مما يعظم ثوابه. فقد وردت اخبار كثيرة في الهدايا والضيافات واطعام الطعام، من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها. وأما وقاية العرض، ونعنى بها بذل المال لدفع ثلب السفهاء، وهجو الشعراء، وقطع ألسنة الفاحشين والمغتابين، ومنع شر الظالمين وامثال ذلك، فهو أيضاً من الفوائد الدينية. قال رسول الله ﷺ: «ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة». وأما اجرة الاستخدام، فلا ريب في اعانته على أمور الدين، إذا الأعمال التي يحتاج اليها الانسان لتهيئة اسبابه كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين، ومن لا مال له يحتاج أن يتولى بنفسه جميع الاعمال التي يحتاج اليها في الدنيا، حتى نسخ الكتاب الذي يفتقر اليه،

وكلما يتصور أن يقوم به الغير فتضييع الوقت فيه خسران وندامة.

وثالثها ـ أن يصرفه إلى غير معين يحصل به خير عام، وهى الخيرات الجارية: من بناء المساجد، والمدارس، والقناطر، والرباطات، ونصب الخشبات في الطرق، واجراء القنوات، ونسخ المصاحف والكتب العلمية، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات المؤبدة، الدائرة بعد الموت، المستجلبة ببركة أدعية الصالحين إلى اوقات متمادية.

فصل
(الأمور المنجية من غوائل المال)

من أراد النجاة من غوائل المال، فليحافظ على امور:

الأول ـ أن يعرف مقصود المال وباعث خلقه وعلة الاحتياج اليه، حتى لا يكتسب ولا يحفظ إلا قدر حاجته.

الثانى ـ أن يراعى جهة دخله، فيجتنب الحرام والمشتبه، والجهات المكروهة القادحة في المروة والحرية، كالهدايا المشوبة بالرشوة، والسؤال الذي فيه الانكسار والذلة.

الثالث ـ أن يراعى جهة الخرج، ويقتصد في الانفاق، غير مبذر ولا مقتر . قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[1].

وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «ما عال من اقتصد». ثم للاقتصاد في المطعم والملبس والمسكن درجات ثلاث: أدنى وأوسط وأعلى، وربما كان الميل إلى الأوّل أحرى

---

(١) الفرقان، الآية: ٦٧.

وأولى، ليدخل في زمرة المخفين يوم القيامة.

الرابع ـأن يضع ما اكتسبه من حله في حقه، ولا يضعه في غير حقه، فإن الاثم في الاخذ من غير حله والوضع في غير حقه سواء.

الخامس ـأن يصلح نيته في الأخذ والترك والانفاق والامساك، فيأخذ ما يأخذ استعانة به على ما خلق لأجله، ويترك ما يترك زهداً فيه واستحقاراً له واجتناباً عن وزره وثقله: وإذا فعل ذلك لم يضره وجوده. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لو أن رجلا أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله فهو زاهد، ولو ترك الجميع ولم يرد به وجه الله فليس بزاهد».

فينبغى لكل مؤمن أن يكون باعث جميع افعاله التقرب إلى الله ليصير الجميع عبادة. فإن أبعد الأفعال عن العبادة الأكل والوقاع وقضاء الحاجة، ويصير بالقصد عبادة. فمن أخذ من المال ما يحتاج إليه في طريق الدين، وبذل ما فضل منه على اخوانه المؤمنين، فهو الذي أخذ من حية المال ترياقها، واتقى سمها، فلا تضره كثرة المال. إلا أنه لا يتأتى ذلك إلا لمن كثر علمه واستحكمت في الدين قدمه. والعامى إذ يشتبه به في الاستكثار من المال، فشأنه شأن الصبى الذي يرى المعزم الحاذق يأخذ بالحية ويتصرف بها ليأخذ ترياقها، فيقتدى به ويأخذها مستحسناً صورتها وشكلها ومستليناً جلدها فتقتله في الحال. إلا أن قتيل الحية يدرى أنه قتيل، وقتيل المال قد لا يعرف ذلك. وكما يمتنع أن يتشبه الأعمى بالبصير في التخطى قلل الجبال واطراف البحار والطرق المشوكة، فيمتنع أن يشتبه العامى الجاهل بالعالم الكامل في الاستكثار من المال.

وصل

(الزهد)

ضد حب الدنيا والرغبة اليها هو (الزهد)، وهو ألا يريد الدنيا بقلبه، ويتركها بجوارحه، إلا بقدر ضرورة بدنه. وبعبارة اخرى: هو الإعراض من متاع الدنيا وطيباتها، من الأموال والمناصب وسائر ما يزول بالموت. وبتقرير آخر: هو الرغبة عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة، أو عن غير الله، عدولاً إلى الله، وهو الدرجة العليا. فمن رغب عن كل ما سوى الله حتى الفراديس، ولم يحب إلا الله، فهو الزاهد المطلق. ومن رغب عن حظوظ الدنيا خوفا من النار أو طمعاً في نعيم الجنة، من الحور والقصور والفواكه والأنهار، فهو أيضاً زاهد، ولكنه دون الأول. ومن ترك بعض حظوظ الدنيا دون بعض، كالذى يترك المال دون الجاه، أو يترك التوسع في الأكل دون التجمل في الزينة، لا يستحق اسم الزاهد مطلقاً.

وبما ذكر يظهر: أن الزهد إنما يتحقق إذا تمكن من نيل الدنيا وتركها، وكان باعث الترك هو حقارة المرغوب عنه وخساسته، أعنى الدنيا بالاضافة إلى المرغوب إليه وهو الله والدار الآخرة. فلو كان الترك لعدم قدرته عليها، أو لغرض غير الله تعالى وغير الدار الآخرة، من حسن الذكر، واستمالة القلوب، أو الاشتهار بالفتوة والسخاء، أو الاستثقال لما في حفظ الأموال من المشقة والعناء، أو امثال ذلك، لم يكن من الزهد أصلا.

فصل

(مدح الزهد)

الزهد أحد منازل الدين وأعلى مقامات السالكين. قال الله سبحانه:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ... وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾[١].

فنسب الزهد إلى العلماء، ووصف أهله بالعلم، وهو غاية المدح. وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[٢].

وقال: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[٣].

وقال رسول‌الله ﷺ: «من اصبح وهمه الدنيا، شتت الله عليه أمره، وفرّق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له. ومن أصبح وهمه الآخرة، جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة». وقال ﷺ «إذا رأيتم العبد قد أعطى صمتاً وزهداً في الدنيا فاقتربوا منه، فانه يلقى الحكمة». وقال ﷺ: «من أراد أن يؤتيه الله علماً بغير تعلم، وهدى بغير هداية، فليزهد في الدنيا». وقال ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في ايدى الناس يحبك الناس» وقال ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام: «يا علي، من عرضت له دنياه وآخرته فاختار الآخرة وترك الدنيا فله الجنة، ومن اختار الدنيا استخفافا بآخرته فله النار». وقال ﷺ: «سيكون بعدى قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر، ولا الغنى إلا بالفخر والبخل، ولا المحبة إلا باتباع الهوى. ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم، فصبر على الفقر وهو يقدر على الغناء، وصبر للبغضاء وهو يقدرعلى المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز، لا يريد بذلك إلا وجه الله، أعطاه الله ثواب خمسين صدّيقاً». وقال ﷺ: ـ بعد ما سئل عن معنى شرح الصدر للاسلام ـ: «ان النور إذا دخل القلب انشرح له وانفسح، قيل: يا رسول الله، وهل لذلك من علامة؟

---

(١) القصص، الآية: ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) طه، الآية: ١٣١.

(٣) الشورى، الآية: ٢٠.

قال: «نعم! التجافي عن دار الغرور، والانابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله». وقال ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء»، قالوا: إنا لنستحيى منه تعالى، قال: «فليس كذلك، تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون». وروى: «أنه قدم عليه بعض الوفود. وقالوا: إنا مؤمنون. قال: وما علامة ايمانكم؟ فذكروا الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضى بمواقع القضاء، وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالاعداء. فقال ﷺ: إن كنتم كذلك، فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون»، فجعل الزهد من مكملات ايمانهم. وقال ﷺ: «من جاء بلا إله إلا الله، لا يخلط معها غيرها، وجبت له الجنة»، وفسر (غيرها) بحب الدنيا وطلبها. وقال ﷺ: «من زهد في الدنيا، ادخل الله الحكمة قلبه، فأنطق بها لسانه، وعرفه داء الدنيا ودواءها، وأخرجه منه سالماً إلى دار السلام». وروى: «أن بعض زوجاته بكت مما رأت به من الجوع، وقالت له: يا رسول الله، ألا تستطعم الله فيطمعك؟ فقال: والذى نفسى بيده! لو سألت ربى أن يجرى معى جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض، ولكنى اخترت جوع الدنيا على شبعها، وفقر الدنيا على غنائها، وحزن الدنيا على فرحها. إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد، إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض لى إلا أن يكلفنى مثل ما كلفهم، فقال:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾(١).

والله مالى بدّ من طاعته! وإنى والله لأصبرن كما صبروا بجهدى ولا قوة إلا بالله!». وقال ﷺ: «لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون ألا يعرف أحب إليه من أن يعرف، وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته». وقال ﷺ «إذا أراد الله بعبد

(١) الاحقاف، الآية: ٣٥.

خيراً، زهده في الدنيا، ورغبه في الآخر، وبصره بعيوب نفسه». وقال ﷺ: «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات، ومن خاف من النار لهىٰ عن الشهوات، ومن ترقب الموت ترك اللذات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات». وقال ﷺ: «إن ربى عز وجل عرض علي أن يجعل لى بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً. فأما اليوم الذي أجوع فيه فاتضرع اليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك واثنى عليك». وروى: «أنه ﷺ: خرج ذات يوم يمشى ومعه جبرئيل، فصعد على الصفا، فقال له رسول الله ﷺ: يا جبرئيل، والذى بعثك بالحق! ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق فلم يتم كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته، فقال رسول الله ﷺ: أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال: لا! ولكن هذا اسرافيل عليه السلام قد نزل اليك حين سمع كلامك. فأتاه اسرافيل، فقال: إن الله عز وجل سمع ما ذكرت، فبعثنى بمفاتيح الأرض، وأمرنى أن اعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة فعلت، وإن شئت نبياً ملكاً، وإن شئت نبياً عبداً. فأومأ إليه جبرئيل أن تواضع لله. فقال: «نبياً عبداً، ثلاثاً». وقال ﷺ: «قال الله تعالى: إن من اغبط أوليائى عندى رجلاً حفيف الحال ذا حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه بالغيب، وكان غامضاً في الناس، جعل رزقه كفافا فصبر عليه، عجلت منيته فقل تراثه وقل بواكيه»(١). وعن علي بن الحسين ـ صلوات الله عليهما ـ قال: «مر رسول الله ﷺ براعى ابل، فبعث يستسقيه، فقال: أما ما في ضروعها فصبوح الحى، وأما في آنيتنا فغبوقهم. فقال رسول الله ﷺ: أللهم كثر ماله وولده. ثم مر براعى غنم، فبعث إليه يستسقيه، فحلب له ما في ضروعها واكفأ ما في انائه في اناء رسول الله ﷺ، وبعث إليه بشاة، وقال: هذا ما عندنا، وإن أحببت أن

---

(١) صححنا الحديث على (الكافى): باب الكفاف. قال في (الوافي): الحفيف ـ بالمهملة ـ: العيش السوء وقلة المال. والغامض: الخامل الذليل.

نزيدك زدناك، قال رسول الله ﷺ: اللهم ارزقه الكفاف. فقال له بعض اصحابه: يا رسول الله دعوت للذى ردك بدعاء عامتنا نحبه، ودعوت للذى أسعفك بحاجتك بدعاء كلنا نكرهه. فقال رسول الله ﷺ: إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. اللهم ارزق محمداً وآل محمد الكفاف»[١]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس ثلاثة: زاهد، وصابر، وراغب. فاما الزاهد، فقد خرجت الأحزان والأفراح من قلبه، فلا يفرح بشيء من الدنيا ولا يأسى على شيء منها فاته، فهو مستريح. وأما الصابر، فانه يتمناها بقلبه، فإذا نال منها ألجم نفسه عنها بسوء عاقبتها وشناءتها، ولو اطلعت على قلبه لعجبت من عفته وتواضعه وحزمه. وأما الراغب، فلا يبالى من أين جاءته، من حلها أو حرامها، ولا يبالى ما دنس فيها عرضه وأهلك نفسه واذهب مروته، فهم في غمرته يعمهون ويضطربون». وقال عليه السلام: «إن من أعون الأخلاق على الدين الزهد في الدنيا». وقال عليه السلام: «من جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن النار مهربا: عرف الله فاطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الدنيا فتركها، وعرف الآخرة فطلبها، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الحق فاتبعه». وقال عليه السلام: «من اشتاق الجنة سارع إلى الخيرات، ومن خاف النار لهىٰ عن الشهوات، ومن ترقب الموت ترك اللذات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات». وقال عليه السلام: «إن علامة الراغب في ثواب الآخرة زهده في عاجل زهرة الدنيا، أما إن زهد الزاهد في هذه الدنيا لا ينقصه مما قسم الله عز وجل له فيها وإن زهد. وإن حرص الحريص على عاجل زهرة الدنيا لا يزيده فيها وإن حرص. فالمغبون من حرم حظه من الآخرة[٢]. وقال علي بن الحسين عليهما السلام: «ما من عمل بعد معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله ﷺ أفضل من بغض الدنيا...

---

(١) صححنا الحديث على ما في (اصول الكافى): باب الكفاف.

(٢) صححنا الحديث على (الكافى): باب ذم الدنيا.

الحديث»[١]. وقال الباقر عليه السلام: «أكثر ذكر الموت، فانه لم يكثر انسان ذكر الموت إلا زهد في الدنيا». وقال عليه السلام: «قال الله تعالى: وعزتى وجلالى وعظمتي وبهائى وعلو ارتفاعى! لا يؤثر عبد مؤمن هواى على هواه في شيء من أمر الدنيا، إلا جعلت غناه في نفسه، وهمته في آخرته، وضمنت السماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء تجارة كل تاجر». وقال عليه السلام: «اعظم الناس قدراً من لا يناول الدنيا في يد من كانت. فمن كرمت عليه نفسه صغرت الدنيا في عينيه، ومن هانت عليه نفسه كبرت الدنيا في عينيه». وقال الصادق عليه السلام: «جعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا». وقال عليه السلام: «ما كان شيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من ان يظل خائفاً جائعاً في الله تعالى». وقال عليه السلام: «إذا أراد الله بعبد خيراً، زهده في الدنيا، وفقهه في الدين، وبصره عيوبها. ومن أوتيهن فقد أوتى خير الدنيا والآخرة». وقال عليه السلام: «لم يطلب أحد الحق بباب أفضل من الزهد في الدنيا، وهو ضد لما طلب اعداء الحق، قلت: جعلت فداك، مماذا؟ قال: «من الرغبة فيها»، وقال: «ألا من صبار كريم؟ فانما هي أيام قلائل! ألا إنه حرام عليكم أن تجدوا طعم الايمان حتى تزهدوا في الدنيا[٢]. وقال عليه السلام: «الزهد مفتاح باب الآخرة والبراءة من النار، وهو تركك كل شيء يشغلك عن الله من غير تأسف على فوتها ولا إعجاب في تركها، ولا انتظار فرج منها ولا طلب محمدة عليها، ولا عوض منها، بل يرى فوتها راحة وكونها آفة ويكون أبداً هاربا من الآفة معتصما بالراحة، والزاهد الذي يختار الآخرة على الدنيا والذل على العز والجهد على الراحة والجوع على الشبع وعافية الآجل على محبة العاجل والذكر على الغفلة، وتكون نفسه في الدنيا وقلبه في الآخرة»، وقال الرضا عليه السلام: «من أصبح وأمسى معافي في بدنه، آمناً في سربه، عنده قوت يومه فكأنما خيرت له الدنيا».

---

(١) الحديث مروى في (اصول الكافى): باب ذم الدنيا. وقد مضى ذكره في صفحة ٣٠٦.

(٢) صححنا الحديث على (الكافى): باب ذم الدنيا.

وكفى للزهد فضيلة ومدحاً أنه اعرف صفات الانبياء والأولياء، ولم يبعث نبي إلا به، ولو لم يتوقف التقرب إلى الله والنجاة في دار الآخرة عليه، لما ضيق عظماء نوع الانسان واعرف الناس بحقيقة الحال على انفسهم في فطامها عن شهوات الدنيا ولذاتها.

فانظر إلى كليم الله موسى عليه السلام كيف كان غالب قوته نبت الأرض واوراق الأشجار وكان ضعف بدنه من كثرة رياضته، بحيث ترى الخضرة من صفاق بطنه، كما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة. ثم انظر إلى روح اله عليه السلام كيف يلبس الشعر ويأكل الشجر، ولم يكن له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدخر لغد، اينما يدركه المساء نام، وقال له الحواريون يوماً: «يا نبي الله لو أمرتنا أن نبني بيتاً تعبد الله فيه»، قال: «اذهبوا فابنوا بيتاً على الماء» فقالوا: كيف يستقيم بنيان على الماء؟ قال: «فكيف تستقيم عبادة على حب الدنيا»، وروى: «أنه اشتد به يوماً المطر والرعد والبرق، فجعل يطلب بيتاً يلجأ اليه، فرفعت إليه خيمة من بعيد فأتاها فإذا فيها امرأة فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل فاتاه فإذا فيه اسد، فوضع يده عليه وقال: «إلهي جعلت لكل شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى»، فاوحى الله اليه: «مأواك في مستقر من رحمتي، لأزوجنك يوم القيامة الف حوراء خلقتها بيدي، ولأطعمنك في عرسك أربعة آلاف عام، يوم منها كعمر الدنيا، ولآمرن مناديا ينادي أين الزهاد في الدنيا، زوروا عرس الزاهد عيسى بن مريم».

ثم انظر إلى يحيى بن زكريا، حيث يلبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللمس فسألته أمه أن يلبس مكانها جبة من صوف ففعل، فأوحى الله اليه: «يا يحيى آثرت علي الدنيا»، فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه.

ثم افتح بصيرتك وتأمل في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وزهده في الدنيا، فإنه لبث

في النبوة ما لبث، ولم يشبع هو وأهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية، ولم يشبعوا عشية إلا جاعوا غدوة، ولم يشبع من التمر هو وأهل بيته حتى فتح الله عليهم خيبر، وقرب إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع، فشق ذلك عليه حتى تغير لونه، فأمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على الأرض، وكان ينام على عباءة مثنية فثنوها له ليلة أربع طاقات فنام عليها، فلما استيقظ قال منعتمونى قيام الليلة هذه بهذه العباءة اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها، وكان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة. وروى: «أن امرأة من بني ظفر صنعت له ﷺ كساءين ازاراً ورداء وبعثت إليه باحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك».

وشدة زهد علي عليه السلام وتركه الدنيا أشهر من أن يحتاج إلى بيان، وكذا من بعده من الأئمة الراشدين والاصحاب والتابعين وغيرهم من أكابر الدين والسلف الصالحين، حتى كان أحدهم يعيش خمسين سنة وستين لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئاً ولا أمر من في بيته بصنعة طعام، فعلى اطرافهم يقومون ووجوهم على الأرض يفترشون تجرى دموعهم على خدودهم ويناجون ربهم في فكاك رقابهم من النار.

وقد حكى أن بعض الخلفاء أرسل إلى بعضهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها فشق ذلك على أهله، فقال أتدرون؟ ما مثلى ومثلكم إلا كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها فلما هرمت ذبحوها لينتفعوا بجلدها، فكذلك أنتم أردتم ذبحى على كبر سنى فموتوا جوعا خير لكم من أن تذبحونى. وقد بلغ بعضهم من الزهد بحيث يطلب لقيام الليل موضعاً لا يصيبه نسيم الاسحار خيفة من الاستراحة به. وكان لبعضهم حب مكسور، فيه ماؤه، لا يرفعه من الشمس ويشرب الماء الحار ويقول من

وجد لذة الماء البارد يشق عليه مفارقة الدنيا.

فياحبيبى أفق من سكر الهوى واعرف المضادة التي بين الآخرة والدنيا، واقتد بالواقفين على جلية الحال والمطلعين على حقيقة المآل في المواظبة على الزهد والتقوى وفطام النفس عن لذائذ الدنيا، فإن ذلك وإن كان شاقاً فمدته قريبة، والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأييد لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين انفسهم بسياسة الشرع المبين المعتصمين بعروة اليقين بما وعد الله في الآخرة لعباده الزاهدين.

فصل

(اعتبارات الزهد ودرجاته)

إعلم ان للزهد اعتبارات تتحقق له بكل اعتبار درجات:

(الأول) اعتبار نفسه اى من حيث نفس الترك للدنيا، وبهذا الاعتبار له درجات ثلاث: **(الأولى)** أن يزهد في الدنيا مع ميله اليها وحبه لها بان يكف نفسه عنها بالمجاهدة والمشقة، وهذا هو التزهد. **(الثانية)** أن يترك الدنيا طوعاً وسهولة من دون ميل اليها لاستحقاره إياها بالاضافة إلى ما يطمع فيه من لذات الآخرة، وهذا كالذى يترك درهماً لأجل درهمين معاوضة فانه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى قليل انتظار، ومثله ربما اعجب بنفسه وبزهده لاحتمال أن يظن بنفسه، أنه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه. **(الثالثة)** وهى أعلى الدرجات أن يترك الدنيا طوعاً وشوقاً ولا يرى انه ترك شيئاً، إذ عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خنفساء وأخذ ياقوتة صافية حمراء، فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً وسبب هذا الترك كمال المعرفة، فان العارف على يقين بأن الدنيا بالاضافة إلى الله ونعيم الآخرة أخس من خنفساء بالنظر إلى ياقوتة، هذا الزاهد في أمن من خطر الالتفات إلى الدنيا،

كما أن تارك الخنفساء بالياقوتة في أمن من طلب الاقالة في البيع.

وقد ذكر أرباب القلوب من أهل المعرفة أن مثل تارك الدنيا بالآخرة مثل من منعه عن باب الملك كلب يكون في بابه فالقى إليه لقمة خبز نالها من موائد الملك فشغله بنفسه ودخل الباب ونال غاية القرب من الملك حتى نفذ أمره في جميع مملكته، أفترى أنه يرى لنفسه عوضاً عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلب في مقابلة ما يناله مع كون هذه اللقمة أيضاً من الملك. فالشيطان كلب على باب الله يمنع الناس من الدخول، مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلها فلذتها في حال المضغ وتنقضى على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثقله في المعدة ثم ينتهى إلى النتن والقذر ويحتاج إلى اخراجه، فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت اليها. ولا ريب في نسبة الدنيا لكل شخص أعنى ما يسلم له منها وإن عمر ألف سنة بالاضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالاضافة إلى ملك الدنيا، إذ لا نسبة للمتناهى إلى غير المتناهى، والدنيا متناهية، ولو كانت تتمادى الف الف سنة صافية عن كل كدورة لكان لا نسبة لها إلى الأبد، فكيف ومدة العمر قصيرة ولذاتها مكدرة غير صافية فأى نسبة لها إلى نعيم الأبد.

(الثانى) اعتبار المرغوب عنه أعنى ما يترك وبهذا الاعتبار له خمس درجات.

(الأولى) أن يترك المحرمات وهو الزهد في الحرام، ويسمى زهد فرض.

(الثانية) أن يترك المشتبهات أيضاً وهو الزهد في الشبهة، ويسمى زهد سلامة.

(الثالثة) أن يزهد في الزائد عن قدر الحاجة من الحلال أيضاً ولا يزهد في التمتع بالقدر الضرورى من المطعم والملبس والمسكن واثاثه والمنكح وما هو وسيلة اليها من المال والجاه، والى هذه الدرجات كلاً أو بعضاً أشار مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «كونوا على قبول العمل أشد عناية منكم على العمل، الزهد

فى الدنيا قصر الأمل وشكر كل نعمة والورع عن كل ما حرم الله عز وجل»[١] ومولانا الصادق عليه السلام بقوله: «الزهد في الدنيا ليس باضاعة المال ولا تحريم الحلال بل الزهد في الدنيا ألا تكون بما في يدك أوثق بما في يد الله عز وجل»[٢] وهذا مع ما يأتى بعده هوالزهد في الحلال، ويسمى زهد ثقل.

(الرابعة) أن يترك جميع ما للنفس فيه تمتع ويزهد فيه ولو في قدر الضرورة، لا بمعنى ترك هذا القدر بالمرة، إذ ذلك متعذر، بل تركه من حيث التمتع به وإن ارتكبه اضطراراً من قبيل أكل الميتة مع الاكراه له باطناً، وهذا يتناول ترك جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرئاسة والمال والجاه وغيرها، والى هذه الدرجة إشارة الصادق عليه السلام بقوله: (الزاهد في الدنيا الذي يترك حلالها مخافة حسابه ويترك حرامها مخافة عذابه) واليها يرجع قول أمير المؤمنين عليه السلام: (الزهد كله بين كلمتين من القران قرآن قال الله سبحانه:

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَـٰكُمْ﴾[٣].

فمن لم يأس على الماضى ولم يفرح بالآتى فقد أخذ الزهد بطرفيه»[٤] وقوله عليه السلام: (الزهد في الدنيا ثلاثة أحرف: زاء وهاء ودال أما الزاء فترك الزينة وأما الهاء فترك الهوى وأما الدال فترك الدنيا».

(الخامسة) أن يترك جميع ما سوى الله ويزهد فيه حتى في بدنه ونفسه أيضاً بحيث كان ما يصحبه ويرتكبه في الدنيا إلجاء وإكراهاً من دون استلذاذ وتمتع به، والى هذه الدرجة أشار مولانا الصادق عليه السلام في كلامه المنقول سابقاً (ص ٣٢٩) حيث

---

(١) صححنا الحديث على ما في البحار، الجزء الثانى من المجلد الخامس عشر في باب الزهد ص ١٠١.

(٢) صححنا الحديث على ما في سفينة البحار ج ١ ص ٥٦٨.

(٣) الحديد، الآية: ٢٣.

(٤) هذا الحديث مروى في البحار، الجزء الثانى من المجلد الخامس عشر في باب الزهد، ص ١٠٢.

قال: «الزهد مفتاح باب الآخرة والبراءة من النار وهو تركك كل شيء يشغلك عن الله من غير تأسف على فوتها ولا اعجاب في تركها ولا انتظار فرج منها ولا طلب محمدة عليها ولا عوض منها بل يرى فوتها راحة وكونها آفة» إلى آخر الحديث(١).

ثم الالتفات إلى بعض ما سوى الله والاشتغال به ضروري، كضرورة الأكل واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وأمثال ذلك، لا ينافي هذه المرتبة من الزهد، إذ معنى الانصراف من الدنيا إلى الله تعالى إنما هو الاقبال بكل القلب إليه تعالى ذكراً وفكراً، وهذا لا يتصور بدون البقاء ولا بقاء إلا بضرورات المعيشة، فمتى اقتصر من الدنيا عليها قصداً لدفع المهلكات عن البدن والاستعانة بالبدن على العبادة وسائر ما يقربه إلى الله لم يكن مشتغلا بغير الله، إذ ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه، فالمشتغل بعلف دابته في طريق الحج ليس معرضاً عن الحج، ولكن ينبغي أن يكون البدن في طريق الله مثل الدابة في طريق الحج، فكما أن قصدك من تهيئة ما تحتاج إليه دابتك دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك دون تنعمها، فكذلك ينبغي أن يكون قصدك من الأكل والشرب واللباس والسكنى صيانة بدنك عما يهلك من الجوع والعطش والحر والبرد فتقتصر على قدر الضرورة وتقصد به التقوى على طاعة الله دون التلذذ والتنعم، وذلك لا ينافي الزهد بل هو شرطه، ثم ترتب التلذذ على ذلك لا يضرك إذا لم يكن مقصوداً بالذات لك فان الانسان قد يستريح في قيام الليل بنسيم الأسحار وصوت الطيور وهذا لا يضر بعبادته إذا لم يقصد طلب موضع خاص لهذه الاستراحة، على انه لا لذة حقيقة في الأكل والشرب واللباس وإنما تندفع بها آلام الجوع والعطش والحر والبرد.

ثم لا يخفى أن الفضول من أمور الدنيا من المطعم والمشرب والملبس

---

(١) صححنا الحديث هنا وهناك على ما في البحار، الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر في باب الزهد، ص ١٠٠ والحديث منقول فيه عن مصباح الشريعة الذي تقدم ذكره، ص ١١٨، ٢١٨.

والمسكن وأثاثه والمنكح والمال والجاه ينبغي تركها والزهد فيها إذ الأخذ بما لا يحتاج إليه ينافي الزهد. (وأما) غير الفضول مما يحتاج إليه الانسان ويكون مهماً له من الأمور الثمانية، فينبغي ألا يترك الزهد فيها، إذ ما هو المهم الضروری يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته فينبغي ألا يترك الزهد فيه ايضاً.

ومقتضى غاية الزهد في أن يقتصر من القوت على قوت يومه وليلته فان كان عنده أزيد من ذلك فليبذله على بعض المستحقين، فان اقتصر من جنسه على خبز الشعير فهو نهاية الزهد في القوت، إلا أن أكل خبز الحنطة في بعض الأحيان بل أكل أدام واحد في بعض الأوقات إذا لم يكن من اللذائذ الشديدة من أطعمة المتنعمين من أهل الدنيا لا ينافي الزهد، وربما لم يكن اكل اللحم في بعض الاحيان منافياً له. ويقتصر من (اللباس) بعد كونه من القطن أو الصوف على ما يستر الأعضاء ويحفظها من الحر والبرد، ولا بأس بكونه اثنين ليلبس الآخر عند غسل احدهما. ومن (المسكن) على ما يحفظ نفسه وأهله من الحر والبرد. ومن (اثاثه) أعنى الفرش والظرف والقدر والكوز وامثال ذلك، ما يدفع حاجته من غير تعد إلى ما يمكن زوال ضرورته بدونه. ومن (المنكح) على ما تنكسر به سورة شبقه ويحفظه عن النظر والوساوس الشهوية المانعة عن الحضور في العبادات.

ومن (المال) على ما يقضى به حاجة يومه بليلته فان كان كاسباً فإذا اكتسب حاجة يومه فليترك كسبه ويشتغل بأمر الدين، وإن كانت له ضيعة ولم يكن له مدخل آخر يمكن أن يصل إليه كل يوم قدر حاجته فيه، فالظاهر عدم خروجه عن الزهد بامساك قدر ما يكفى لسد رمقه بسنة واحدة، بشرط ان يتصدق بكل ما يفضل من كفاية نفقته. وربما قيل إن مثله من ضعفاء الزهاد، بمعنى أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات العالية والدرجات الرفيعة لا يناله، وإن صدق عليه كونه زاهداً، إذ مثله ليس له قوة اليقين، لأن صاحب اليقين الواقعى إذا كان له قوت يومه

لا يدخر شيئاً لغده، ومن شرط التوكل في الزهد فلا يكون هذا من الزهاد عنده. وهذا غاية الزهد في الأمور المذكورة، وعليه جرت طوائف الانبياء وزمرة الأوصياء ومن بعدهم من السلف الأتقياء. والحق أن حكم الزهد فيها يختلف باختلاف الأشخاص والأوقات فان أمر المتفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل، ومن قصر جميع همه على تحصيل العلم والعمل ولم يقدر على كسب، حاله يخالف حال أهل الكسب، وكذا في بعض الأوقات وفي بعض الأماكن يمكن تحصيل قدر الحاجة في كل يوم وفي بعض آخر منهما لا يمكن ذلك، فاللائق لكل أحد أن يلاحظ حاله ووقته ومكانه ويتأمل في أن الأصلح بامر آخرته والأعون على تحصيل ما خلق لأجله إمساك أى قدر من المال وصرف أى قدر وجنس من القوت، بحيث لو كان أقل منه لم يتمكن من تحصيل ما يقربه إلى ربه فيأخذ به ويترك الزائد، فان بعد صحة النية وخلوص القصد في ذلك لا يخرج به عن الزهد الواقعى وان تصور الاكتفاء بأقل من ذلك مع ايجابه لفقد ما هو أهم في تكميل النفس.

وأما (الجاه) فقد تقدم أن القدر الضرورى منه في أمر المعيشة كتحصيل منزلة في قلب خادمه ليخدمه، وفي قلب السلطان ليدفع الاشرار عنه، لا بأس به، فالظاهر عدم منافاة هذا القدر للزهد، وقال بعض العلماء: (هذا القدر وان لم يكن به بأس الا أنه يتمادى إلى هاوية لا عمق لها ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه) وانما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضرر أو لخلاص من ظلم: اما النفع فيغنى عنه المال فان من يخدم باجرة يخدم وان لم يكن لمستأجره عنده قدر، وانما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير اجرة، ومعلوم أن من أراد أن يخدم بغير اجرة فهو من الظالمين فكيف يكون من الزاهدين. وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل العدل فيها وأن يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم الا بمحل له في القلوب أو محل له عند السلطان. وقدر الحاجة فيه

لا ينضبط لا سيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب، والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك، بل حق الزاهد ألا يسعى لطالب المحل في القلوب أصلا، فان اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين. وأما التوهمات والتقديرات التي تخرج إلى الزيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهى أوهام كاذبة، إذ من طلب الجاه أيضاً لم يخل عن أذى في بعض الاوقات فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه، فاذن طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه اصلا واليسير منه داع إلى كثير وضراوته اشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره، نعم ما اعطاه الله لبعض عبيده من دون سعيه في طلبه لنشر دينه أو لاتصافه ببعض الكمالات المختصة لحصول منزلة له في القلوب، فليس به بأس ولا ينافي الزهد، فان جاه رسول الله ﷺ كان أوسع الجاه مع كونه أزهد الناس.

والحق كما تقدم أن الجاه كالمال في نفى البأس من قدر يضطر إليه الانسان إذا وقع في زمان أو بلد توقف أمر معيشته عليه فالقدر الضرورى منهما غير محذور وغير مناف للزهد، والزائد على الحاجة سم قاتل، فلا ينبغى أن ينسب المقتصر على الضرورة إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدين، لأنه من شرطه والشرط من جملة المشروط. ويدل عليه ما روى أن ابراهيم عليه السلام اصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرض شيئاً فلم يقرضه، فرجع مهموما، فاوحى الله تعالى اليه: (لو سألت خليلك لأعطاك)، فقال يا رب: (عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها)، فاوحى الله اليه: (ليس الحاجة من الدنيا) ويدل عليه أيضاً كلام الصادق عليه السلام مع سفيان الثورى كما أو رده بطوله شيخنا الأقدم رحمه الله في جامعه الكافى.

فإذن قدر الحاجة من الدين وما وراءه وبال في الآخرة، بل في الدنيا أيضاً، ويعرف ذلك بالتأمل في احوال الأغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال

وجمعه وحفظه وتحمل الذل فيه، وغاية سعادته أن يتركه لورثته، فيأكلونه وهم أعداؤه، أو يستعينون به على المعصية، فيكون معيناً لهم عليها، ولذلك شبه جامع الدنيا وتابع الشهوات بدود القز، لا يزال ينسج على نفسه حتى يقتلها، ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصاً فيموت ويهلك بسبب العمل الذي عمله بنفسه كما قيل في ذلك:

ألم تر أن المرء طول حياته معنى بأمر لا يزال يعالجه
كدود كدود القز ينسج دائماً ويهلك غماً وسط ما هو ناسجه

فكل مكب على الدنيا متبع للشهوات لا يزال يقيد نفسه بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها، إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين شهواته دفعة، فتبقى السلاسل من قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها، وهي تجاذبه إلى الدنيا، ومخالب ملك الموت قد تعلقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة فأهون أحواله عند الموت أن يكون مثل شخص ينشر بالمناشير ويفصل أحد جانبه عن الآخر. فهذا أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرات نزوله في أسفل السافلين ومنعه عن أعلى عليين وجوار رب العالمين. فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله، وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم، إذ النار لكل محجوب معدة،كما قال الله تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾[1].

ولما انكشف لأرباب القلوب أن العبد يهلك نفسه باتباع الهوى والخوض في الدنيا إهلاك دود القز نفسه، رفضوا الدنيا بالكلية. فنسأل الله تعالى أن يقرر في قلوبنا ما نفث في روع حبيبه ﷺ، حيث أوحى اليه: «أحبب ما أحببت، فانك مفارقه».

(الثالث) اعتبار المرغوب فيه: أعني ما يترك لأجله. وله بهذا الاعتبار ثلاث

(١) المطففين، الآية: ١٥ـ١٦.

درجات. الأولى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار وسائر عذاب الآخرة، وهذا زهد الخائفين. الثانية: أن يكون ثواب الله ونعيم الجنة، وهذا زهد الراجين. الثالثة: وهى الدرجة العليا: ألا تكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت إلى الآلام ليقصد منها الخلاص، ولا إلى اللذات ليقصد نيلها، بل كان مستغرق الهم بالله، وهذا زهد العارفين، لأنه لا يحب الله خاصة إلا من عرفه بصفاته الكمالية. فكما أن من عرف الدينار والدرهم، وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما، لم يحب إلا الدينار. كذلك من عرف الله، وعرف لذة النظر الى وجهه الكريم، وعرف أن الجمع بين تلك اللذة ولذة التنعم بالحور العين والنظر إلى القصور وخضرة الاشجار غير ممكن، فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره.

وقال بعض العرفاء: ولا تظنن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم، بل تلك اللذة بالاضافة إلى لذة نعيم الجنة، كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق، بالاضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به. والطالبون لنعيم الجنة، عند أهل المعرفة وأرباب القلوب، كالصبى الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك، وذلك لقصوره عن ادراك لذة الملك، لا لأن اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق.

تتميم
(الزهد الحقيقى)

لا تظنن أن كل من يترك مال الدنيا أنه زاهد، فان ترك المال واظهار التضييق والخشونة في المأكل والملبس سهل على من أحب المدح بالزهد.فكم من الرهبان

والمرائين تركوا مال الدنيا وروضوا[١] انفسهم كل يوم على قدر قليل من القوت، واكتفوا من المسكن بأى موضع اتفق لهم، وكان غرضهم من ذلك أن يعرفهم الناس بالزهد ويمدحهم عليه، فهم تركوا المال لنيل الجاه. فالزهد الحقيقى ترك المال والجاه، بل جميع حظوظ النفس من الدنيا. وعلامة ذلك استواء الغنى والفقر والذم والمدح والذل والعز لأجل غلبة الأنس بالله، إذ ما لم يغلب على القلب الأنس بالله والحب له لم يخرج عنه حب الدنيا بكليته. إذ محبة الله ومحبة الدنيا في القلب كالماء والهواء في القدح، فإذا دخل احدهما خرج الآخر، فكلاهما لا يجتمعان ولا يرتفعان أيضاً. فالقلب المملوء من حب الدنيا يكون خالياً عن حب الله، كما ان القلب المشغول بحب الله وأنسه فارغ عن حب الدنيا، وبقدر ما يقدر مايخرج أحدهما يدخل الآخر وبالعكس.

ومنها:

الغنى

وهو وجود كل ما يحتاج إليه من الأموال، وهذا أقل مراتبه، وفوق ذلك مراتب لا تحصى، حتى ينتهى إلى جمع اكثر أموال الدنيا، كما اتفق لبعض الملوك.

ثم (الغنى) إما أن يكون بحيث يسعى في طلب المال وجمعه ويتعب في تحصيله ويكره خروجه عن يده ويتأذى به، وهذا غنى حريص. أو يكون بحيث لا يتعب ولا يسعى في تحصيله، إلا أنه لما أتاه أخذه وفرح به، مع تأذيه بفقده وكراهته له، وهذا أيضاً لا يخلو عن الحرص لحزنه بفقده. أو يكون بحيث لا يتعب في طلبه ولا يرغب فيه رغبة يفرح بحصول ويتأذى بفقده، ولكن لما أتاه رضى به: إما

(١) في بعض النسخ (ردوا)، وفي بعض آخر (رودوا). والظاهر أن الصحيح ما اثبتناه.

مع تساوى وجوده وعدمه أو مع كون وجوده أحب إليه من عدمه، ومثله الغنى الراضى والقانع.

وأيضاً الغنى إما أن يكون جميع ماله حلالا، أو يكون بعضه أو كله حراماً.

وأيضاً إما يمسكه غاية الامساك، بحيث لا يؤدى شيئاً من حقوقه الواجبة والمستحبة، أو ينفقه في مصارفه اللائقة. وللانفاق مراتب شتى: ادناها أن يودى الحقوق الواجبة، واعلاها أن يبذل كلما يزيد عن أقل مراتب الغنى، بحيث لو تعدى عنه يسيراً صار فقيراً.

فصل

(ذم الغنى)

الغنى الحاصل من الحلال، مع بذل ما يفضل عن أقل مرتبته في المصارف اللائقة ومساواة وجوده وعدمه عند صاحبه، سالم من الآفات والأخطار. وغير ذلك من أقسامه لا يخلو عن آفة أو خطر، وحبه بعض أفراد حب الدنيا، بل هو راجع إلى حب المال بعينه. فيدل على ذمه ما ورد في ذمهما. وقد ورد في ذمه بخصوصه بعض الأيات والأخبار، قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ. أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[١].

وقيل لرسول الله ﷺ: ايّ امتك أشرّ؟ قال: «الأغنياء». وقال ﷺ لبلال: «ألق الله فقيراً، ولا تلقه غنياً». وقال ﷺ: «يدخل فقراء امتى الجنة قبل اغنيائهم بخمسمائة عام». وقال ﷺ: «اطلعت على الجنة، فرأيت اكثر أهلها الفقراء. واطلعت على النار، فرأيت اكثر أهلها الأغنياء». وفي طريق: «فقلت: اين الأغنياء؟

---

(١) العلق، الآية: ٦ ـ ٧.

فقال: حسبهم الجد». وأوحى الله تعالى إلى موسى: «يا موسى، إذا رأيت الفقر مقبلا، فقل: مرحباً بشعار الصالحين. وإذا رأيت الغنى مقبلا، فقل: ذنب عجلت عقوبته». وروى: «أنه ما من يوم إلا وملك ينادي من تحت العرش: يا ابن آدم، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك». وقال عيسى عليه السلام: «بشدة يدخل الغنى الجنة».

وصل

(الفقر)

ضد الغنى (الفقر). وهو فقد ما يحتاج اليه. ولا يسمى فقد ما لا حاجة إليه فقراً. فان عمم ما يحتاج إليه ولم يخص بالمال، لكان كل موجود ممكن محتاجا، لاحتياجه إلى دوام الوجود وغيره من الحاجات المستفادة من الله سبحانه، وانحصر الغنى بواحد واجب لذاته ومفيد لوجود غيره من الموجودات، أعنى الله سبحانه. فهو الغنى المطلق، وسائر الأشياء الموجودة فقراء محتاجون. وقد أشير إلى هذا الحصر في الكتاب الالهى بقوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾[1].

وإن خص بالمال لم يكن كل الناس فقراء، بل من فقد المال الذي هو محتاج إليه كان فقيراً بالاضافة اليه، والفقر بهذا المعنى هو الذي نريد بيانه هنا.

فصل

(اختلاف أحوال الفقراء)

(الفقير) إما أن يكون راغباً في المال محباً له، بحيث لو وجد إليه سبيلاً لطلبه،

---

(١) محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الآية: ٣٨.

ولو بالتعب والمشقة، وإنما ترك طلبه لعجزه منه، ويسمى هذا فقيراً (حريصاً).

أو يكون وجود المال أحب إليه من عدمه، ولكن لم يبلغ حبه له حداً يبعثه على طلبه، بل إن أتاه بلا طلب أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى سعى في طلبه لم يشتغل به، ويسمى هذا فقيراً (قانعاً).

أو يكون بحيث لا يحبه ولا يرغب فيه، ويكره وجوده ويتأذى به، ولو أتاه هرب منه، مبغضاً له ومحترزاً عن شره، ويسمى هذا فقيراً (زاهداً). فاعراضه عنه وعدم سعيه في محافظته وضبطه لو وجده، إن كان لخوف العقاب فهو (فقر الخائفين). وإن كان لشوق الثواب فهو (فقر الراجين). وإن كان لعدم التفاته اللازم لاقباله على الله تعالى بشراشره من دون غرض دنيوى أو اخروى فهو (فقر العارفين).

أو يكون بحيث لا يحبه حباً يفرح بحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه، بل يستوى عنده وجوده وعدمه، فلا يفرح بحصوله ولا يتأذى بفقده، بل كان راضياً بالحالتين على السواء، وغنياً عن دخوله وبقائه وخروجه من يده، من غير خوف من الاحتياج إذا فقد، كالحريص والقانع، ولا حذار من شره واضراره إذا وجد كالزاهد. فمثله لو كانت اموال الدنيا باسرها في يده لم تضره، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله لا في يد نفسه، فلا تفريق بين أن تكون في يده أو في يد غيره، فيكون بحيث يستوى عنده المال والهواء المخلوق في الجو، فكما ان كثرة الهواء في جواره لا يؤذيه، ولا يكون قلبه مشغولا بالفرار عنه ولا يبغضه، بل يستنشق منه بقدر الضرورة، ولا يبخل به على احد، فكذلك كثرة المال لا يؤذيه ولا يشغله قلبه، ويرى نفسه وغيره فيه على السواء في المالكية.

ومثله ينبغى أن يسمى (مستغنياً راضياً)، لاستغنائه عنه وجوداً وعدماً، ورضائه بالحالتين من دون تفاوت، ومرتبته فوق الزاهد، إذ غاية درجة الزهد كمال الأبرار، وصاحب هذه المرتبة من المقربين، فالزهد في حقه نقصان، إذ حسنات

الأبرار سيئات المقربين. والسر فيه: أن الزاهد كاره للدنيا، فهو مشغول بالدنيا، كما أن الراغب فيها مشغول بها، والشغل بما سوى الله حجاب عن الله، سواء كان بالحب أو بالبغض. فكل ما سوى الله، كالرقيب الحاضر في مجلس جمع العاشق والمعشوق. فكما أن التفات قلب العاشق إلى الرقيب وبغضه وكراهته حضوره نقص في العشق، فكذلك التفات قلب العبد إلى غير الله تعالى وبغضه وكراهته نقصان في الحب والأنس، كما أن التفاته بالحب نقص فيهما. إذ كما لا يجتمع في قلب واحد حبان في حالة واحدة، فكذلك لا يجتمع فيه حب وبغض في حالة واحدة. فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها، وإن كان الثانى اسوأ حالا من الآخر. إذ المشغول بحبها غافل في غفلته، سالك في طريق البعد، والمشغول ببغضها غافل، وهو في غفلته سالك في طريق القرب، فيحتمل زوال غفلته وتبدلها بالشهود، فالكمال مرتقب له، إذ بغض الدنيا مظنة توصل العبد إلى الله.

وهرب الانبياء والأولياء من المال، وفرارهم عنه، وترجيحهم فقده على وجوده ـكما اشير إليه في بعض الأخبار والآثار ـ: إما نزول منهم إلى درجة الضعفاء ليقتدوا بهم في الترك، إذ الكمال في حقهم حب الترك وبغض الوجود، لأن مع وجوده يتعذر في حقهم استواء وجوده وفقده وكونه عندهم كماء البحر، فلو لم يظهر الأنبياء النفار والكراهة من المال ويقتدى الضعفاء بهم في الأخذ لهلكوا. فمثل النبى كمثل المعزم الحاذق، يفر بين يدى أولاده من الحية، لا لضعفه عن أخذها، بل لعلمه بأنه لو اخذها لأخذها أولاده أيضاً إذا رأوها، وهلكوا، فالسير بسيرة الضعفاء صفة الانبياء والاوصياء. أو غير الهرب والنفار اللازمين للبغض والكراهة وخوف الاشتغال به، بل كان نفارهم منه كنفارهم من الماء، على معنى أنهم شربوا منه بقدر حاجتهم، وتركوا الباقى في الشطوط والأنهار للمحتاجين، من غير اشتغال قلوبهم بحبه وبغضه. ألا ترى أنه قد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله وخلفائه، فأخذوها ووضعوها في

مواضعها، من غير هرب منه وبغض له، وذلك لاستواء المال والماء والحجر والذهب عندهم.

ثم تسمية صاحب هذه المرتبة بالفقير والمستغنى لا يوجب التنافى، إذ إطلاق الفقير عليه لمعرفته بكونه محتاجاً إليه تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقرّبها، فانه أحق باسم العبد من الغافلين، وإن كان عاماً للخلق. ثم كل مرتبة من المراتب المذكورة للفقر، ما عدا الأخيرة، أعم من أن يكون بالغاً حد الاضطرار، بأن يكون ما فقده من المال مضطراً اليه، كالجائع الفاقد للخبز والعارى الفاقد للثوب، أم لا.

وأنت، بعد ما فهمت اشتراك الفقر بين المعانى المذكورة، لم يشكل عليك الجمع بين ما ورد في مدح الفقر ـ كما يأتى ـ وبين ما ورد في ذمه، كقوله ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً»، وقوله ﷺ: «الفقر الموت الأكبر». وقول أمير المؤمنين عليه السلام: «من ابتلى بالفقر فقد ابتلى بأربع خصال: بالضعف في يقينه، والنقصان في عقله، والرقة في دينه، وقلة الحياء في وجهه. فنعوذ بالله من الفقر!».

فصل
(مراتب الفقر ومدحه)

قد عرفت أن بعض مراتب الفقر راجع إلى الزهد، وبعضها إلى ما هو فوقه، أعنى الرضى والاستغناء، وبعضها إلى القناعة. ففضيلة هذه المراتب ظاهرة، والأخبار الوارده في فضيلة الزهد والرضى والقناعة تدل على فضيلة المراتب المذكورة من الفقر. وأما المرتبة الأولى المتضمنة للحرص، فهو أيضاً لا يخلو عن فضيلة بالنظر إلى الغنى المتضمن له والأخبار الواردة في مدح الفقر تتناول بعمومها

جميع مراتبه، قال الله سبحانه:

﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾[١]. وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ...﴾ الآية[٢].

ساق الله سبحانه الكلام في معرض المدح، وقدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار، وفيه دلالة جلية على مدح الفقر[٣] وقال رسول الله ﷺ: «خير هذه الأمة فقراؤها، وأسرعها تصعداً في الجنة ضعفاؤها». وقال ﷺ: «اللهم احيني مسكيناً وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين». وقال ﷺ: «إن لي حرفتين اثنتين، فمن أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني: الفقر والجهاد». وقال ﷺ: «الفقر أزين للمؤمنين من العذار الحسن على خدّ الفرس». وسئل عن الفقر، فقال: «خزانة من خزائن الله». وسئل عنه ثانياً، فقال: «كرامة من الله». وسئل عنه ثالثاً، فقال: «شيء لا يعطيه إلا نبياً مرسلا أو مؤمناً كريماً على الله». وقال ﷺ: «إن في الجنة غرفة من ياقوتة حمراء، ينظر اليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء، لا يدخل فيها إلا نبي فقير أو مؤمن فقير». وقال: «يوم فقراء امتي يوم القيامة وثيابهم خضر، وشعورهم منسوجة بالدر والياقوت، وبايديهم قضبان من نور يخطبون على المنابر، فيمر عليهم الأنبياء، فيقولون: هؤلاء من الملائكة، وتقول الملائكة: هؤلاء من الانبياء. فيقولون: نحن لا ملائكة ولا انبياء! بل من فقراء أمة محمد ﷺ، فيقولون: بم نلتم هذه الكرامة؟ فيقولون: لم تكن أعمالنا شديدة، ولم نصم الدهر، ولم نقم الليل، ولكن أقمنا على الصلوات الخمس، وإذا سمعنا ذكر

---

(١) الحشر، الآية: ٨.

(٢) البقرة، الآية: ٢٧٣.

(٣) قال المحقق (الفيض) في (احياء الاحياء): «لا دلالة في الآيتين على مدح الفقر، وانما سيقتا لبيان ان مصرف المال انما هم الفقراء المتصفون بهذه الصفات».

محمد فاضت دموعنا على خدودنا». وقال ﷺ: «كلمنى ربى فقال: يا محمد، إذا احببت عبداً، اجعل له ثلاثة اشياء: قلبه حزيناً، وبدنه سقيما، ويده خالية من حطام الدنيا. وإذا أبغضت عبداً، اجعل له ثلاثة اشياء: قلبه مسروراً، وبدنه صحيحاً، ويده مملوة من حطام الدنيا». وقال ﷺ: «الناس كلهم مشتاقون إلى الجنة، والجنة مشتاقة إلى الفقراء». وقال ﷺ: «الفقر فخرى». وقال ﷺ: «تحفة المؤمن في الدنيا الفقر». وقال ﷺ: «يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الأخ إلى أخيه في الدنيا، فيقول: وعزتى وجلالى! ما زويت الدنيا عنك لهوانك على، ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة. اخرج يا عبدى إلى هذه الصفوف، فمن أطعمك في أو كساك في يريد بذلك وجهى، فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق، فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به، ويدخله الجنة». وقال ﷺ: «أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادى، فان لهم دولة»، قالوا: يا رسول الله، ومادولتهم؟ قال: «إذا كان يوم القيامة، قيل لهم: انظروا إلى من اطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً، فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة». وقال ﷺ: «ألا اخبركم بملوك أهل الجنة؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره». ودخل ﷺ على رجل فقير، ولم ير له شيئاً، فقال: «لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم». وقال ﷺ: «إذا أبغض الناس فقراءهم، وأظهروا عمارة الدنيا، وتكالبوا على جمع الدراهم والدنانير، رماهم الله بأربع خصال: بالقحط من الزمان، والجور من السلطان، والجناية من ولاة الحكام، والشوكة من الأعداء»(١).

وورد من طريق أهل البيت عليهم السلام: «إن الله تعالى إذا أحب عبداً ابتلاه، فإذا أحبه

(١) هذه الاخبار كلها عامية، فصححناها على (احياء العلوم)، و(احياء الاحياء).

الحب البالغ اقتناه. قيل: وما اقتناه؟ قال: لم يترك له أهلا ولا مالاً». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «وكل الرزق بالحمق، ووكل الحرمان بالعقل، ووكل البلاء بالصبر». وقال الباقر عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة، أمر الله تعالى منادياً ينادى بين يديه: اين الفقراء؟ فيقوم عنق من الناس كثير، فيقول: عبادى! فيقولون: لبيك ربنا! فيقول: إنى لَنْ أفقركم لهون بكم علي، ولكن إنما اخترتم لمثل هذا اليوم. تصفحوا وجوه الناس، فمن صنع إليكم معروفاً لم يصنعه إلا في فكافوه عنى بالجنة». وقال الصادق عليه السلام: «لولا إلحاح المؤمنين على الله في طلب الرزق، لنقلهم من الحال التي هم فيها إلى حال أضيق منها». وقال عليه السلام: «ليس لمصاص[1] شيعتنا في دولة الباطل إلا القوت، شرقوا إن شئتم أو غربوا، لن ترزقوا إلا القوت». وقال عليه السلام: «ما كان من ولد آدم مؤمن إلا فقيراً ولا كافر إلا غنياً، حتى جاء ابراهيم عليه السلام، فقال:

﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2].

فصير الله في هؤلاء أموالا وحاجة». وقال عليه السلام: «إن فقراء المؤمنين يتقلبون في رياض الجنة قبل اغنيائهم بأربعين خريفاً»، ثم قال: «سأضرب لك مثل ذلك: انما مثل ذلك مثل سفينتين مر بهما على عاشر، فنظر في أحداهما فلم يرفيها شيئاً، فقال: اسربوها. ونظر في الاخرى، فإذا هي موقرة، فقال: احبسوها». وفي بعض الأخبار: فسر الخريف بألف عام، والعام بألف سنة. وعلى هذا، فيكون المراد من أربعين خريفاً اربعين ألف ألف عام. وقال الصادق عليه السلام: «المصائب منح من الله، والفقر مخزون عند الله»: أى المصائب عطايا من الله يعطيها عباده، والفقر من جملتها مخزون عنده عزيز لا يعطيه إلا من خصه بمزيد العناية. وقال عليه السلام: «إن الله عز وجل يلتفت يوم القيامة إلى فقراء المؤمنين شبيهاً بالمعتذر اليهم، فيقول: وعزتى وجلالى!

---

(١) المصاص: خالص كل شيء. قاله الجوهرى.

(٢) الممتحنة، الآية: ٥.

ما أفقرتكم في الدنيا من هوان بكم علي، ولترون ما أصنع بكم اليوم، فمن زود منكم في دار الدنيا معروفاً فخدوا بيده فأدخلوه الجنة»، قال: «فيقول رجل منهم: يا رب، إن أهل الدنيا تنافسوا في دنياهم، فنكحوا النساء، ولبسوا الثياب اللينة، وأكلوا الطعام، وسكنوا الدور، وركبوا المشهور من الدواب. فأعطنى مثل ما أعطيتهم. فيقول تبارك وتعالى: لك ولكل عبد منكم مثل ما أعطيت أهل الدنيا منذ كانت الدنيا إلى أن انقضت الدنيا سبعون ضعفاً». وقال عليه السلام: «إن الله جل ثناؤه ليعتذر إلى عبده المؤمن المحوج في الدنيا كما يعتذر الأخ إلى أخيه، فيقول: وعزتى وجلالى! ما أحوجتك في الدنيا من هوان كان بك علي، فارفع هذا السجف، فانظر إلى ما عوضتك من الدنيا. قال: فيرفع، فيقول: ما ضرنى ما منعتنى ما عوضتنى».وقال عليه السلام: «إذ كان يوم القيامة قام عنق من الناس حتى يأتوا باب الجنة، فيضربوا باب الجنة، فيقال لهم: من انتم؟ فيقولون: نحن الفقراء، فيقال لهم: اقبلوا الحساب، فيقولون: ما اعطيتمونا شيئاً تحاسبونا عليه، فيقول الله عز وجل: صدقوا، ادخلوا الجنة». وقال ـ لبعض اصحابه ـ: «أما تدخل للسوق؟ أما ترى الفاكهة تباع والشيء مما تشتهيه؟ فقلت: بلى! فقال: أما إن لك بكل ما تراه فلا تقدر على شراه حسنة». وقال الكاظم عليه السلام «إن الله عز وجل يقول: إنى لم اغن الغنى لكرامة به علي، ولم أفقر الفقير، لهوان به علي، وهو مما ابتليت به الأغنياء بالفقراء، ولولا الفقراء لم يستوجب الأغنياء الجنة»[1]. وقال عليه السلام: «إن الأنبياء وأولاد الأنبياء واتباع الأنبياء خصوا بثلاث خصال: السقم في الأبدان، وخوف السلطان، والفقر». وقال الرضا عليه السلام: «من لقى فقيراً مسلماً وسلم عليه خلاف سلامه على الغنى، لقى الله يوم القيامة وهو عليه غضبان». وقال عليه السلام: «الفقر شين عند الناس وزين عند الله يوم القيامة». وقال موسى عليه السلام في بعض مناجاته: «إلهى، من

---

(١) صححنا اغلب الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام في هذا الفصل على (الكافى): باب الفقر. وعلى (سفينة البحار): ٢ / ٣٧٧ وعلى (احياء الأحياء): كتاب الفقر.

أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك؟ فقال: كل فقير». وقال عيسى عليه السلام: «إن أحب الأسامي إلي أن يقال، يا مسكين». وقال بعض الصحابة: «ملعون من أكرم الغني وأهان الفقير». وقال لقمان لابنه: «لا تحقرن أحداً لخلقان ثيابه، فان ربك وربه واحد».

ومما يدل على فضيلة الفقر، إذا كان مع الرضى أو القناعة أو الصبر أو الصدق أو الستر، قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا معشر الفقراء: اعطوا الله الرضى من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم، فان لم تفعلوا فلا ثواب لكم». وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ان احب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضي عن الله تعالى». وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً». وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ فتقول الملائكة: من هم يا ربنا؟ فيقول: فقراء المسلمين القانعين بعطائي الراضين بقدري، ادخلوهم الجنة. فيدخلونها، ويأكلون ويشربون، والناس في الحساب يترددون». وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من أحد، غني ولا فقير، إلا ود يوم القيامة انه كان أوتي قوتا في الدنيا» وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «طوبى للمساكين بالصبر! وهم الذين يرون ملكوت السماوات والأرض». وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من جاع أو احتاج، فكتمه عن الناس وأفشاه إلى الله تعالى، كان حقاً على الله أن يرزقه رزق السنة من الحلال». وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «إن لكل شيء مفتاحاً، ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصابرين، وهم جلساء الله يوم القيامة». وماروي: «ان الله أوحى إلى اسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي. قال: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون». وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين عليه السلام: «يا علي، إن الله جعل الفقر أمانة عند خلقه، فمن ستره أعطاه الله تعالى مثل أجر الصائم القائم، ومن أفشاه إلى من يقدر على قضاء حاجته فلم يفعل فقد قتله أما إنه ما قتله بسيف ولا رمح ولكنه قتله بما نكأ من قلبه».

ثم لا ريب في أن كل من لم يجد القوت من التعفف وستر احتياجه هذا وصبر ورضي يكون داخلا تحت هذه الأخبار وتثبت له الفضيلة التي وردت فيها، ولا ريب

في أن هذه صفة لا توجد في الف الف واحد.

وأما الفقير الحريص الذي يظهر فقره ويجزع معه، فظاهر بعض الأخبار وإن تناوله، إلا أن الظاهر خروجه منها كما أو مأت إليه بعض الأخبار المذكورة وَ إن كان أحسن حالا من الغنى الذى مثله في الحرص.

فصل
(الموازنة بين الفقر والغنى)

لا ريب في أن الفقر مع الصبر والقناعة وقصد الفراغ أفضل من الغنى مع الحرص والامساك، كما لا ريب في أن الغنى مع الانفاق وقصد الاستعانة على العبادة أفضل من الفقر مع الحرص والجزع، وإنما وقع الشك في الترجيح بين الفقر والغنى في مواضع:

(الأول) في الترجيح بين الفقر مع الصبر، والقناعة والغنى مع الانفاق، وقصد الاستعانة على العبادة، فقال قوم إن الأول أفضل، لما روى: «أن رسول الله ﷺ قال لاصحابه: أي الناس خير؟ فقالوا: موسر من المال يعطى حق الله تعالى من نفسه وماله، فقال: نعم الرجل هذا وليس به المراد، قالوا فمن خير الناس يا رسول الله؟ فقال: فقير يعطى جهده»، وما روى: «أن الفقراء بعثوا رسولا إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني رسول الفقراء اليك، فقال: مرحباً بك وبمن جئت من عندهم، جئت من عند قوم أحبهم، فقال: قالوا إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا نقدر عليه، ويعتمرون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم، فقال النبى ﷺ: بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء: أما (الأولى) فان في الجنة غرفا ينظر اليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء، لا يدخلها إلا نبى فقير، أو شهيد فقير، أو مؤمن فقير، (والثانية)

يدخل الفقراء الجنة قبل الاغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام. (والثالثة) إذا قال الغني: سبحان الله والحمدلله ولا إله إلا الله والله اكبر، وقال الفقير مثل ذلك، لم يلحق الغني بالفقير وإن انفق فيها عشرة آلاف درهم، وكذلك اعمال البر كلها، فرجع اليهم، فقالوا رضينا».

وقال آخرون: الثاني أفضل، لأن الغنى من صفات الربوبية، والفقر من لوازم العبودية، ووصف الحق أفضل من وصف العبد.

(واجيب عنه) بأن غنى الواجب سبحانه ليس بالاسباب والاغراض، وغنى العبد بهما، إذ هو غنى بوجود المال ومفتقر إلى بقائه، فأنى يكون الغنى الذي يتصف العبد به من أوصاف الربوبية، نعم الغنى بمعنى الاستغناء من وجود المال وعدمه جميعاً بأن يستوي كلاهما عنده يشبه أوصاف الحق، إلا أنك قد عرفت أنه نوع من الفقر، وبأن التكبر من أوصاف الربوبية، فينبغي أن يكون أفضل من التواضع، مع ان الأمر ليس كذلك، بل الحق أن الافضل للعبد إنما هو صفات العبودية كالخوف والرجاء، إذ صفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها، ولذلك قال الله سبحانه: «والعظمة ازاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما قصمته». وعلى هذا فالفقر أفضل من الغنى.

والحق أن ترجيح واحد من صفات الربوبية وصفات العبودية على الآخر للعبد على الاطلاق غير صحيح، إذ كما ينتقض ترجيح الأولى على الثانية بالتكبر ينتقض العكس بالعلم والمعرفة والجهل والغفلة، فان العلم من صفات الربوبية، والجهل من صفات العبودية، مع أن الأول أفضل من الثاني ضرورة.

والحق أن الأفضل من الفقر والغنى ما لا يشغل العبد عن الله، فإن كان الفقر يشغله فالغنى أولى به، وإن كان الغنى يشغله عن الله فالفقر أولى به، وذلك لأن الغنى ليس محذوراً بعينه، بل لكونه عائقاً عن الوصول إلى الله، والفقر ليس مطلوباً لذاته،

بل لعدم كونه عائقاً عن الله، وليس مانعية الأول وعدم مانعية الثانى كلياً، إذ رب فقير يشغله الفقر عن المقصد، وكم من غنى لا يصرفه الغنى عنه، اذ الشاغل ليس إلا حب الدنيا، لمضادته حب الله تعالى، والمحبّ للشيء مشغول به، سواء كان في وصاله أو في فراقه. فاذن فضل الفقير والغنى بحسب تعلق قلبهما بالمال وجوداً وعدماً، فان تساويا فيه تساوت درجتهما وإن تفاوتا فيه فأيهما أقل تعلقاً درجته أعلى وأفضل، بل مع وجود تعلق لهما وتساويهما فيه يكون وجود قدر الحاجة من المال أفضل من فقده، إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة والطاعة. ومع عدم تعلق قلبهما أصلا بحيث يستوى عندهما وجود المال وعدمه كان المال عندهما كهواء الجو وماء البحر ـ وبالجملة حصلت لهما المرتبة الأخيرة من الفقر، أعنى الاستغناء والرضا ـ كان الواجد أفضل من الفاقد، لاستوائهما في عدم الالتفات اليه، ومزية الواجد باستفادة ادعية الفقراء والمساكين.

ثم الحكم بانقطاع القلب رأساً عن المال وجوداً وعدماً إنما يتصور في الشاذ النادر الذي لا يسمح الدهر بمثله إلا بعد ازمنة متطاولة، وقلوب جل الناس غير خالية عن حب المال والتعلق به. فتفصيل القول بافضلية من هو اقل تعلقاً بالمال، استواء درجتهما مع استوائهما في التعلق، ومزية الواجد على الفاقد مع انقطاع قلبهما بالكلية عنه مزلة الأقدام وموضع الغرور، إذ الغنى ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال ويكون حبه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به، وانما يشعر به إذا فقده، فما عدا الأنبياء والأولياء وشرذمة قليلة من أكابر الأتقياء لو ظنوا انقطاعهم عن الدنيا إذا جربوا انفسهم باخراج المال من أيديهم يظهر لهم أنهم مغرورون وليس لهم تمام الانقطاع عن الدنيا، وإذا كان ذلك محالا أو بعيداً فليطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الناس وافضل، لإنه عن الخطر أبعد، إذ فتنة السراء من فتنة الضراء اشد، وعلاقة الفقير وانسه بالدنيا غالباً اضعف، وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب أذكاره وعبادته، اذ

حركات اللسان والجوارح ليست مرادة لاعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور وتأثيرها في إثارة الأنسان في قلب فارغ عن غير المذكور اشد من تأثيرها في قلب مشغول، ولهذا وردت الأخبار مطلقة في فضل الفقر على الغنى، وفي فضل الفقراء على الأغنياء.

(الثاني) في الترجيح بين الفقر مع الحرص والجزع، والغنى مع الحرص والامساك. والتحقيق فيه أن مطلوب الفقير إن كان ما لا بد منه في المعيشة وكان حرصه في تحصيل هذا القدر دون الزائد منه وكان قصده الاستعانة به على الدين، وكذا كان حرص الغنى وامساكه في هذا القدر بهذا القصد، فحال الوجود افضل لأن الفقد يصده عن امور الدين لاضطراره في طلب القوت، وهو اولى بالتفضيل إذا كان قصد الغنى ذلك وكان مطلوب الفقير فوق الحاجة، أو قدر الحاجة، او قدر الحاجة بدون قصد الاستعانة به إلى امر الدين. وان كان مطلوب كل منها فوق الحاجة، أو لم يكن قصدهما الاستعانة به على امر الدين، فالفقد اصلح وأفضل، لانهما استويا في الحرص وحب المال، وفي عدم قصد الاستعانة به على الدين، لكنهما افترقا في ان الواجد يتأكد حب الدنيا في قلبه، ويطمئن اليها لأنسه بها، والفاقد يتجافي قلبه عنه اضطراراً، أو تكون الدنيا عنده كالسجن الذي يطلب الخلاص منه. وهو أولى وأحرى بالتفضيل، إذا كان قصد الفقير ذلك وكان قصد الغنى فوق الحاجة، أو قدر الحاجة بدون الاستعانة به على امر الدين.

(الثالث) في الترجيح بين فقير حريص متكالب على الدنيا ليس له هم سواه، وغنى هو دونه في الحرص على حفظ المال، وتفجعه بفقد المال لو فقده أقل من تفجع الفقير بفقده، والظاهر حينئذ كون الفقير اسوأ حالا، إذ البعد عن الله بقدر قوة التفجع بفقد المال، والقرب بقدر ضعف التفجع به.

فصل

(ما ينبغي للفقير)

ينبغي للفقير ألا يكون كارهاً للفقر من حيث إنه فعل الله ومن حيث انه فقر، بل يكون راضياً به طالباً له فرحانا به لعلمه بغوائل الغنى، وأن يكون متوكلا في باطنه على الله، واثقاً به في اتيان قدر ضرورته، ويكون قانعاً به، كارهاً للزيادة عليه، منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في ايديهم، وغير حريص على اكتساب المال كيف كان، وأن يكون صابراً شاكراً على فقره، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن لله عقوبات بالفقر، ومثوبات بالفقر، فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه، ويطيع به ربه، ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره، ومن علاماته إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه، ويعصى ربه بترك طاعته، ويكثر الشكاية، ويتسخط بالقضاء». وهذا يدل على أن كل فقير ليس مثابا على فقره، بل من يرضى بفقره، ويفرح به، ويقنع بالكفاف، ويقصر الأمل، وان لم يرض به وتشوف إلى الكثرة وطول الأمل، وفاته عز القناعة، وتدنس بذل الحرص والطمع، وجره الحرص والطمع الى مساوىء الاخلاق، وارتكاب المنكرات الخارقة للمروات حبط أجره وكان آثماً قلبه.

وينبغي أن يظهر التعفف ويستر الفقر ويستر أنه يستر، وألا يخالط الأغنياء، ولا يرغب في مجالستهم، ولا يتواضع لهم لاجل غناهم بل يتكبر عليهم. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما احسن تواضع الغنى للفقير رغبة في ثواب الله، واحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله». وألا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للاغنياء، وطمعاً بما في ايديهم، ولا يفتر بسبب فقره عن عبادة الله، ويبذل قليل ما يفضل عنه، فان ذلك جهد المقل، وفضله اكثر من أموال كثيرة يبذلها الغنى، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «درهم من الصدقة افضل عند الله من مائة الف دينار»، قيل وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «أخرج رجل من عرض ماله مائة الف دينار يتصدق بها، وأخرج رجل درهما من

درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب مائة الف دينار»، وينبغى ألا يدخر ازيد من قدر الحاجة، فإن لم يدخر اكثر من قوت يومه وليلته فهو من الصديقين، وإن لم يدخر اكثر من قوت اربعين يوما كان من المتقين، وإن لم يدخر اكثر من قوت سنة ـ وهو الفضل المشترك بين الفقر والغنى ـ كان من الصالحين، ولو زاد عليه خرج عن زمرة الفقراء.

فصل
(وظيفة الفقراء)

ما يعطى الفقير بغير سؤاله: إن كان (حراماً أو شبهة) وجب عليه رده والاجتناب عنه، وإن كان (حلالاً)، فان كان (هدية) استحب قبوله تأسياً برسول الله ﷺ إن لم تكن فيه منة، ولو كانت فيه منة فالأولى تركه. وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئاً يقول له اتركه عندك، وانظر إن كنت انا بعد قبوله في قلبك أفضل منى قبل القبول فاخبرنى حتى آخذه وإلا فلا، وعلامة ذلك أن يشق على المعطى رده، ويفرح بالقبول، ويرى المنة على نفسه في قبوله، وإن كان (صدقة أو زكاة) أو غير ذلك مما يكون للثواب المحض فينبغى أن ينظر في استحقاقه لذلك فان كان من أهله قبله وإلا رده، وإن كان المعطى أعطاه لوصف يعلمه فيه كعلم أو ورع أو كونه علوياً، ولو لم يكن له هذا الاختصاص لنفر طبعه، ولما تقرب إلى الله باعطائه، ولم يكن له باطناً كذلك فأخذه حرام، وإن لم يكن هدية ولا صدقة بل اعطاه للشهرة والرياء والسمعة فينبغى أن يرد عليه ولا يقبله، والا كان معيناً له على غرضه الفاسد، والاعانة على الإثم اثم.

فصل

(موارد قبول العطاء وردها)

ما يعطى الفقير ان كان محتاجاً إليه ولم يكن أزيد من حاجته فالأفضل له الأخذ إذا سلم من الآفات المذكورة، قال رسول الله ﷺ:«ما المعطى من سعة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجاً»، وقال ﷺ: «من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فانما هو رزق ساقه الله إليه فلا يرده»، وان كان زائداً على قدر حاجته فليرد الزائد إن كان طالباً طريق الآخرة، إذ الزيادة على قدر الحاجة انما يأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله اليك ماذا تعمل فيه، وقدر الحاجة يأتيك رفقاً بك، فأنت في اخذ قدر الحاجة مثاب، وفيما زاد عليه إما عاص أو متعرض للحساب، قال رسول الله ﷺ: «لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يوارى عورته، وبيت يسكنه، فمازاد فهو حساب»، فلا ينبغى لطالب السعادة أن يأخذ الأزيد من قدر الحاجة، إذ النفس إذا رخصت في نقض العزم والعهد ألفت به، و ردها بعد الالف والعادة مشكل.

والحاصل أن أخذ قدر الحاجة راجح لكونه مما لا بد منه، وايجابه ثواب المعطى، ولذلك لما أمر موسى بن عمران ﷺ بأن يفطر عند بنى اسرائيل قال: إلهى ما بالى فرقت رزقى على أيدى بنى اسرائيل يغدينى هذا يوما ويعشينى هذا ليلة، فأوحى الله اليه: «هكذا أصنع بأوليائى أجرى ارزاقهم على ايدى البطالين من عبادى ليؤجروا فيهم». فلا ينبغى أن يرى المعطى إلا من حيث انه مسخر مأجور.

وأما أخذ الزيادة على قدر الحاجة فليس مما ينبغى، من كان حاله التكفل بامور الفقراء والانفاق عليهم، لما في طبعه من البذل والسخاء، والرفق والعطاء، فيجوز له أخذ الزيادة ليبذلها على المستحقين، ولكن يلزم ان يبادر إلى الصرف اليهم ولا ينبغى أن يدخر، إذ في امساكه ولو في يوم واحد أو ليلة واحدة فتنة واختبار، فربما مالت

النفس إلى الامساك ويصير وبالا عليها، وقد نقل أن جماعة تصدوا لخدمة الفقراء، والتكفل لأحوالهم فخدعتهم النفس الأمارة باعانة الشيطان فاتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال، والتنعم في المطعم والمشرب، وانجر أمرهم إلى الهلاك.

فصل

(لا يجوز السؤال من غير حاجة)

ينبغي للمؤمن ألا يسأل الناس من غير حاجة اضطر اليها، بل يستعف عن السؤال ما استطاع، لأنه فقر معجل، وحساب طويل يوم القيامة. والأصل فيه التحريم لتضمنه الشكوى من الله، واذلال السائل نفسه عند غير الله، وايذاء المسؤل غالباً، إذ ربما لم تسمح نفسه بالبذل عن طيب القلب، وبعد السؤال ألجأه الحياء أو الرياء اليه، ومعلوم أن الاعطاء استحياء أو رياء لئلا ينقص جاهه عند الناس بنسبتهم إياه إلى البخل لا يكون له حلية شرعاً.

ولتضمنه هذه المفاسد ورد في الشريعة المنع منه، قال رسول الله ﷺ: «مسألة الناس من الفواحش»، وقال ﷺ: «من سأل عن ظهر غنى فانما يستكثر من جمر جهنم، ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع ليس عليه لحم». وقال ﷺ: «من سأل الناس وعنده قوت ثلاثة أيام لقى الله يوم يلقاه وليس على وجهه لحم»[(١)]. وقال ﷺ: «ما من عبد فتح على نفسه باباً من المسألة إلا فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر». وقال: «إن المسألة لا تحل إلا لفقر مدقع أو غرم مفظع». وقال: «السؤال عن ظهر غنى صداع في الرأس، وداء في البطن». وقال: «من سأل الناس أموالهم تكثراً فانما هي جمرة فليستقل منه أو ليستكثر».

(١) روى هذا الحديث عينه عن الصادق عليه السلام (الوسائل كتاب الزكاة ابواب الصدقة الباب ٣٢ الحديث ٥).

وروى: «أنه جاءت فخذ من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه فرد عليهم السلام، فقالوا يا رسول الله ان لنا اليك حاجة فقال: (هاتوا حاجتكم) فقالوا إنها حاجة عظيمة فقال: (هاتوها ما هي) قالوا: تضمن لنا على ربك الجنة، فنكس رأسه، ثم نكت[1] في الأرض، ثم رفع رأسه فقال: (أفعل ذلك بكم على ألا تسألوا أحداً شيئاً)، فكان الرجل منهم يكون في السفر فيسقط سوطه، فيكره أن يقول لانسان ناولنيه فراراً من المسألة وينزل فيأخذه، ويكون على المائدة ويكون بعض الجلساء أقرب إلى الماء منه فلا يقول ناولني حتى يقوم فيشرب»[2]. وبايع ﷺ قوماً على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة، ثم قال لهم خفية: «لا تسألوا الناس شيئاً»، فكان بعد ذلك تقع المحفرة من يد احدهم فينزل لها ولا يقول لأحد ناولنيها. وكان ﷺ يأمر غالباً بالتعفف عن السؤال، ويقول: «من سألنا أعطيناه، ومن استغنى اغناه الله، ومن لم يسألنا فهو أحب الينا». وقال: «وما قل من السؤال فهو خير» قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال: «ومنى». وقال: لو أن أحدكم أخذ حبلاً فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيبيعها ويكف بها وجهه، خير من أن يسأل».

وقال سيد الساجدين عليه السلام: «ضمنت على ربى أنه لا يسأل أحد أحداً من غير حاجة إلا اضطرته المسألة يوماً إلى أن يسأل من حاجة». ونظر عليه السلام يوم عرفة إلى رجال ونساء يسألون، فقال: «هؤلاء شرار خلق الله، الناس مقبلون على الله وهم مقبلون على الناس». وقال الباقر عليه السلام: «أقسم بالله وهو حق مافتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر»، وقال الصادق عليه السلام: «طلب الحوائج إلى الناس

---

(١) نكت الارض بقضيب أو باصبعه ضربها به حال التفكر فاكثر فيها.

(٢) صححنا الحديث على الوسائل (كتاب الزكاة ابواب الصدقة الباب ٣٣ الحديث ٤) وهو يرويه عن الكافي.

استلاب[١] للعزو مذهبة للحياء، واليأس مما في أيدى الناس عز للمؤمن في دينه، والطمع هو الفقر الحاضر». وقال الصادق عليه السلام: «لو يعلم السائل ما عليه من الوزر ما سأل أحد أحداً، ولو يعلم المسؤل ما عليه إذا منع ما منع أحد أحداً». وقال: «من سأل من غير حاجة فكأنما يأكل الجمر».

ثم المنع والتحريم إنما هو في السؤال بدون الاضطرار، وأما مع الحاجة والاضطرار فلا ريب في جوازه، وقد وردت به الرخصة، قال الله سبحانه:

﴿وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تردوا السائل ولو بشق تمرة». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لولا أن السائل يكذب ما قدس من ورده» وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «للسائل حق وإن جاء على الفرس» وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تردوا السائل ولو بظلف محترق»[٣]. ولو كان السؤال مطلقاً حراماً لما أجاز الله ورسوله إعانة العاصى على معصيته.

ثم الحاجة المجوزة للسؤال: ما بلغت حد الاضطرار، كسؤال الجائع الخائف على نفسه بالموت أو المرض لو لم يصل إليه قوت، وسؤال العارى الذي بدنه مكشوف ويخاف من الحر والبرد ـ أو لم تبلغ اليه، وهى إما حاجة (مهمة) كالاحتياج إلى الجبة في الشتاء بحيث لولاها لتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهى إلى حد الضرورة، والاحتياج إلى الكرى مع القدرة على المشى مع المشقة، أو حاجة (خفيفة) كالاحتياج إلى الأدام مع وجود الخبز ـ فالظاهر جواز السؤال في جميع ذلك (مع رجحانه في الأول، وإباحته في الثانى، ومرجوحيته في الثالث)، بشرط إخلائه عن

---

(١) الاستلاب بمعنى السلب، وهو من باب الافتعال.

(٢) الضحى، الآية: ١٠.

(٣) صححنا اكثر الاحاديث هنا على ما في سفينة البحار الجزء الأول ص ٥٨٥ وكتاب الزكاة من الوسائل ابواب الصدقة باب ٣٣ ـ ٣٧ واحياء الاحياء في كتاب الفقر.

المحذورات المذكورة، أعنى الشكوى والذل والإيذاء، وتندفع هذه المحذورات بأن يظهر حاجته تعريضاً بعد تقديم الشكر لله، واظهار الاستغناء عن الخلق عند بعض الأصدقاء أو الأسخياء، إذ السؤال من الصديق لا يوجب الاذلال، والسخى لا يتأذى بالسؤال بل يفرح به.

ثم ما ذكر إنما هو في السؤال للاحتياج إليه بعد النسبة لما يحتاج إليه في الحال، وأما السؤال لما يحتاج إليه في الاستقبال، فان كان يحتاج إليه بعد السنة فهو حرام قطعاً، وإن كان يحتاج إليه قبلها، سواء كان بعد اربعين يوماً من يومه أو خمسين أو اقل أو اكثر، فان امكنه السؤال عند بلوغ وقت الحاجة فلا يحل له السؤال، وإن علم بأنه لا يتمكن من السؤال عنده فهو جائز مع الكراهة والمرجوحية، وكلما كان تراخى الحاجة عَن يومه اكثر كانت الكراهة اشدّ. ثم معرفة درجات الحاجة وضعفها وشدتها والوقت الذي يحتاج فيه موكول إلى العبد ومنوط باجتهاده ونظره لنفسه بينه وبين الله، فليعمل به بعد استغناء قلبه على ما يقتضيه سلوك طريق الآخرة، وكلما كان يقينه اقوى، وثقته بمجيء الرزق أتم، وقناعته بقوت الوقت اظهر، فدرجته عند الله أعلى.

فيا حبيبى، لا تهبط نفسك من أوج التوكل والاعتماد على الله إلى حضيض الخوف والاضطراب في مجيء رزقك، ولا تصغ إلى تخويف الشيطان، فانه يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، وكن مطمئنا بوعد ربك، إذ قال:

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾(١).

واسمع قول نبيك ﷺ حيثَ قال: «لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقتم كما ترزق الطيور، تغدوا خماصاً وتروح بطاناً».

ومنها:

---

(١) البقرة، الآية: ٢٦٨.

الحرص

وهو معنى راتب في النفس، باعث على جميع ما لا يحتاج إليه ولا يفيده من الأموال، من دون أن ينتهي إلى حد يكتفى به، وهو أقوى شعب حب الدنيا واشهر انواعه. ولا ريب في كونه ملكة مهلكة وصفة مضلة، بل بادية مظلمة الأرجاء والأطراف، وهاوية غير متناهية الأعماق والأكناف، من وقع فيها ضل وباد، ومن سقط فيها هلك وما عاد. والتجربة والاعتبار والأخبار والآثار متظاهرة على أن الحريص لا ينتهي إلى حد يقف دونه، بل لايزال يخوض في غمرات الدنيا إلى أن يغرق، وتطرحه ارض إلى أرض حتى يهلك. قال رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب، لابتغى وراء هما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب». وقال ﷺ: «منهومان لا يشبعان: منهوم العلم، ومنهوم المال». وقال ﷺ «يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان: الحرص، وطول الأمل». وقال ابو جعفر الباقر عليه السلام: «مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القز، كلما ازدادت على نفسها لفا كان أبعد لها من الخروج، حتى تموت غماً». وقال الصادق عليه السلام: «إن فيما نزل به الوحى من السماء: لو أن لابن آدم واديين يسيلان ذهباً وفضة لابتغى لهما ثالثاً. يا ابن آدم، إنما بطنك بحر من البحور وواد من الأودية، لا يملأه شيء إلا التراب». وقال بعض الأكابر: «من عجيب أمر الانسان، انه لو نودى بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع اكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع وتوقع الزوال». ثم ما ورد من الأخبار في ذمه اكثر من أن تحصى، ولا حاجة إلى ايرادها لاشتهارها. وقال الباقر عليه السلام: «رب حريص على أمر قد شقى به حين أتاه، ورب كاره لأمر قد سعد به حين أتاه». وأى خسران أشد من أن يسعى الانسان في طلب به هلاكه؟ وأى تأمل في أن كلما يحرص عليه الانسان من اموال الدنيا يكون مهلكاً له؟!

وصل

(القناعة)

ضد الحرص (القناعة). وهي ملكة للنفس: توجب الاكتفاء بقدر الحاجة والضرورة من المال، من دون سعي وتعب في طلب الزائد عنه، وهي صفة فاضلة يتوقف عليها كسب سائر الفضائل، وعدمها يؤدي بالعبد إلى مساوىء الأخلاق والرذائل، وهي المظنة للوصول إلى المقصد، واعظم الوسائل لتحصيل سعادة الأبد، إذ من قنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس، ويقتصر على أقله قدراً أو أخسه نوعاً، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره، ولا يشغل قلبه بالزائد عن ذلك، كان فارغ البال مجتمع الهم، فيتمكن من الاشتغال بأمر الدين وسلوك طريق الآخرة، ومن فاتته القناعة، وتدنس بالحرص والطمع وطول الأمل، وخاض في غمرات الدنيا، تفرق قلبه وتشتت أمره. فكيف يمكنه التشمر لتحصيل أمر الدين والوصول إلى درجات المتقين؟ ولذلك ورد في مدح القناعة ما ورد من الأخبار، قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن هدى للاسلام، وكان عيشه كفافاً به!». وقال: «ما من أحد، من غنى ولا فقير، إلا ود يوم القيامة أنه كان اوتى قوتاً في الدنيا». وقال ﷺ: «أيها الناس، اجملوا في الطلب، فانه ليس للعبد إلا ما كتب له في الدنيا، ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له في الدنيا وهي راغمة». وقال ﷺ: «نفث روح القدس في روعي: أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها. فاتقوا الله واجملوا في الطلب». وقال ﷺ: «كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قانعاً تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً». وفي الخبر القدسي: «يا ابن آدم، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت، فإذا أنا اعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك، فانا اليك محسن». وروى: «ان موسى سأل ربه تعالى، وقال: أى عبادك أغنى؟ قال: اقنعهم لما اعطيته». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ابن آدم، إن كنت تريد من الدنيا ما

يكفيك، فان ايسر ما فيها يكفيك، وإن كنت إنما تريد ما لا يكفيك، فان كل ما فيها لا يكفيك». وقال ابو جعفر الباقر عليه السلام: «إياك أن تطمح بصرك إلى من هو فوقك، فكفى بما قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَا أَوْلَـٰدُهُمْ﴾[١]. وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢].

فان دخلك من ذلك شيء، فاذكر عيش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فانما كان قوته الشعير، وحلواه التمر، ووقوده السعف إذا وجده»[٣]. وقال: «من قنع بما رزقه الله فهو من اغنى الناس». وقال الصادق عليه السلام: «من رضى من الله باليسير من المعاش رضي الله عنه باليسير من العمل». وقال: «مكتوب في التوراة: ابن آدم، كن كيف شئت كما تدين تدان، من رضى من الله بالقليل من الرزق قبل الله منه اليسير من العمل، ومن رضى باليسير من الحلال خفت مؤنته وزكت مكسبته وخرج من حد الفجور». وقال: «إن الله عز وجل يقول: يحزن عبدى المؤمن ان قترت عليه، وذلك أقرب له منى، ويفرح عبدى المؤمن إن وسعت عليه، وذلك أبعد له منى». وقال: «كلما ازداد العبد ايماناً ازداد ضيقاً في معيشته». والأخبار الواردة في فضيلة القناعة اكثر من ان تحصى، وما أوردناه كاف لأهل البصيرة.

---

(١) التوبة، الآية: ٥٥.

(٢) طه، الآية: ١٣١.

(٣) صححنا الحديث وما قبله على ما في (الكافى): باب القناعة، وكذا الحديثين المذكورين بعده. إلا أن هذا الحديث مروى في (الكافى) عن ابى جعفر عليه السلام. وروى في (الوسائل) عن كتاب الزهد، في أبواب جهاد النفس من كتاب الجهاد: الباب ٦١ الحديث ١١، ما يقرب من عبارة هذا الحديث عن ابى عبدالله عليه السلام.

فصل

(علاج الحرص)

طريق المعالجة في إزالة الحرص وتحصيل القناعة: أن يتذكر أولا ما في القناعة من المدح والشرافة، وعز النفس وفضيلة الحرية، وما في الحرص من الذم والمهانة، وتحمل الذلة ومتابعة الشهوة. ويعرف أن من لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن، فهو قليل العقل ناقص الايمان. ثم يتذكر ما في جمع المال من الآفات الدنيوية والعقوبات الأخروية، ويكثر التأمل فيما مضى عليه عظماء الخلق وأعز اصنافهم، أعنى الأنبياء والأوصياء ومن سار بسير تهم من السلف الأتقياء، من صبرهم على القليل، وقناعتهم باليسير، وفيما يجرى عليه الكفار من الهندواليهود والنصارى وأراذل الناس واغنيائهم وأمثالهم، ومن التنعم وجمع المال الكثير. وبعد هذا التأمل لا أظنه يشك في أن الاقتداء بأعز الخلائق أحسن من الاقتداء بأراذلهم، بل المتأمل يعرف ان الحريص المتكالب على لذات الدنيا خارج عن افق الانسانية، وداخل في جريدة البهائم، إذ الحرص على شهوات البطن والفرج من لوازم البهيمية، واحرص الناس على الشهوات لا يبلغ رتبة البهائم في ذلك. فما من حريص على التنعم في البطن إلا والحمار اكثر أكلاً منه، وما من حريص على الجماع إلا والخنزير أشد نزواً منه. فظهر ان الحريص في مرتبة الخنزير والحمير واليهود والهندو، والقانع لا يساهمه في الرتبة إلا الأنبياء والأولياء. وبعد التأمل في جميع ماذكر، يتم العلاج العلمى، وبه تسهل ازالة الحرص واكتساب القناعة. فليبادر إلى العلاج العملى، وهو العمل بالاقتصاد في أمر المعيشة، ليسد ابواب الخرج ما أمكن، ورد النفس إلى ما لا بد منه. فان من كثر خرجه واتسع انفاقه، لم تمكنه القناعة، فان كان وحده، اكتفى بثوب خشن، ويقنع بأى طعام كان، ويقلل من الأدام ما أمكنه، وهكذا الحال في سائر ما يضطر إليه ويوطن نفسه عليه. وان كان له عيال رد كل واحد منهم إلى هذا القدر. وإذا بنى أمره

على الاقتصاد، لم يحتج إلى كثير جهد وإن كان معيلا. قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد»[١]. وقال ﷺ: «ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغناء والفقر، والعدل في الرضا والغضب». وقال: «التدبير نصف المعيشة». وقال: «من اقتصد أغناه الله، ومن بذر أفقره الله». وقال: «الاقتصاد، وحسن الصمت، والهدى الصالح، جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «القصد مثراة والسرف متواة»[٢]. وقال السجاد عليه السلام: «لينفق الرجل بالقصد وبلغة الكفاف، ويقدم منه الفضل لآخرته، فان ذلك أبقى للنعمة، وأقرب إلى المزيد من الله تعالى، وانفع في العافية». وقال الصادق عليه السلام: «إن القصد أمر يحبه الله، وأن السرف أمر يبغضه الله، حتى طرحك النواة، فانها تصلح لشيء، وحتى صبك فضل شرابك»[٣]. وقال عليه السلام: «ضمنت لمن اقتصد ألا يفتقر». وقال عليه السلام: «إن السرف يورث الفقر، وان القصد يورث الغناء». والأخبار في مدح الاقتصاد أكثر من ان تحصى.

ثم إذا تيسرت له المعيشة في الحال، فلا ينبغي أن يكون مضطربا لأجل الاستقبال، ويعتمد على فضل الله ووعده بأن الرزق الذي قدر له يأتيه وإن لم يكن حريصاً ولا مضطربا لأجله ولا يعلم لنفسه مدخلا يأتي رزقه منه. وقال الله تعالى:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[٤]. وقال: **﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾**[٥].

---

(١) روى في (سفينة البحار): ٢ / ٤٣١، عن أمير المؤمنين عليه السلام مثل هذا الحديث هكذا: «ما عال امرؤ اقتصد». وكذا في (بحار الانوار): ٢ مج ١٥ / ١٩٩.

(٢) صححنا الحديث على ما في (الوافي): ٥ / ٢٩٥، قال فيه: «كلاهما بكسر الميم. اسم آلة من الثروة. والتوى ـ بالمثناة ـ بمعنى الهلاك والتلف».

(٣) صححنا الحديث على ما في (الوافي): ٥ / ٢٤٥.

(٤) هود، الآية: ٦.

(٥) الطلاق، الآية: ٢ ـ ٣.

وقال رسول الله ﷺ: «أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب».

ثم ينبغي ألاّ ينظر إلى من هو فوقه، بل ينظر إلى من هو دونه في التنعم وفي مال الدنيا، فإن الشيطان يصرف نظره في أمر الدنيا إلى من هو فوقه، ويقول: لم تفتر عن طلب الدنيا وارباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس؟ ويصرف نظره في امر الدين إلى من هو دونه، ويقول: لم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك ولا يخاف الله؟ قال أبوذر ﵁: «أوصاني خليلي رسول الله أن انظر إلى من هو دوني، لا إلى من هو فوقي في الدنيا». وقال ﷺ: «إذا نظر احدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه».

ومنها:

الطمع

وهو التوقع من الناس في أموالهم، وهو ايضاً من شعب حب الدنيا ومن انواعه، ومن الرذائل المهلكة. قال رسول الله ﷺ: «اياك والطمع، فانه الفقر الحاضر». وقال أمير المؤمنين ﵇: «استغن عمن شئت تكن نظيره، وارغب إلى من شئت تكن اسيره، واحسن إلى من شئت تكن أميره». وقال الباقر ﵇: «بئس العبد عبد له طمع يقوده، وبئس العبد عبد له رغبة تذله». وقيل للصادق ﵇: ما الذي يثبت الايمان في العبد؟ قال: «الورع، والذى يخرجه منه الطمع»[1]. والأخبار في ذم الطمع كثيرة، وكفى به ذماً أن كل طامع يكون ذليلا مهيناً عند الناس، وأن وثوقه بالناس واعتماده

(١) صححنا الحديث على (الكافى) في باب الطمع كما اثبتناه، لكن في (سفينة البحار: ٢ / ٩٣، رواه عن الصادق ﵇ هكذا: «قال: قلت: ما الذي يثبت الايمان في قلب العبد؟ قال: الذي يثبته فيه الورع، والذى يخرجه منه الطمع».

عليهم اكثر من وثوقه بالله، إذ لو كان اعتماده على الله أكثر من اعتماده على الناس لم يكن نظره اليهم، بل لم يطمع من أحد شيئاً إلا من الله سبحانه.

وصل

(الاستغناء عن الناس)

ضد الطمع هو (الاستغناء عن الناس). وهو من الفضائل الموجبة لتقرب العبد إلى الله سبحانه، إذ من استغنى بالله عن غير الله أحبه الله. والأخبار الآمرة بالاتصاف به والمادحة له كثيرة. قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العروض، إنما الغنى غنى النفس». وقال لأعرابي طلب منه موعظة: «إذا صليت فصل صلاة مودع، ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غداً، واجمع اليأس عما في أيدى الناس». وقال ﷺ: «عليك باليأس عما في ايدى الناس، فإنه الغنى الحاضر». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، فيكون افتقارك اليهم في لين كلامك وحسن بشرك، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزك». وقال سيد الساجدين عليه السلام: «رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عما في ايدى الناس، ومن لم يرج الناس في شيء، ورد أمره إلى الله تعالى في جميع أموره، استجاب الله تعالى له في كل شيء». وقال الباقر عليه السلام: «سخاء المرء عما في ايدى الناس اكثر من سخاء النفس والبذل، ومروة الصبر في حال الفاقة والحاجة والتعفف والغنى اكثر من مروة الاعطاء، وخير المال الثقة بالله واليأس مما في ايدى الناس». وقال عليه السلام: «اليأس مما في ايدى الناس عز المؤمن في دينه». وقال الصادق عليه السلام: «شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس». وقال عليه السلام: «شيعتنا منْ لا يسئلُ النّاس ولو مات جوعًا» وقال عليه السلام: «ثلاث هن فخر المؤمن وزينته في الدنيا والآخرة: الصلاة في آخر الليل، ويأسه مما في أيدى الناس، وولايته للامام من آل محمد عليهم السلام».

وقال عليه السلام: «إذا أراد أحدكم ألا يسأل ربه شيئاً إلا اعطاه، فلييأس من الناس كلهم، ولا يكون له رجاء إلا عند الله، فإذا علم الله ذلك من قلبه، لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه»[١]. ثم طريق العلاج في قطع الطمع وكسب الاستغناء قريب مما ذكر في علاج إزالة الحرص وتحصيل القناعة، فتذكر.

ومنها:

البخل

وهو الامساك حيث ينبغي البذل، كما أن الاسراف هو البذل حيث ينبغي الامساك، وكلاهما مذمومان، والمحمود هو الوسط، وهو الجود والسخاء، إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وآله إلا بالسخاء، وقيل له:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[٣].

فالجود وسط بين الاقتار والاسراف، وبين البسط والقبض، وهو تقدير البذل والامساك بقدر الواجب اللائق. ولا يكفى في تحقق الجود والسخاء أن يفعل ذلك بالجوارح ما لم يكن قلبه طيباً غير منازع له فيه. فان بذل في محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يضايرها فهو متسخ وليس بسخي، بل ينبغى ألا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له، وهو صرفه إلى ما يجب أو ينبغى صرفه اليه.

---

(١) صححنا الحديث هنا ـ ابتداء من الحديث المروى عن علي عليه السلام على (الكافى): باب الاستغناء عن الناس. و(الوسائل): كتاب الزكاة، ابواب الصدقة، الباب ٣٧.

(٢) الاسراء، الآية: ٢٩.

(٣) الفرقان، الآية: ٦٧.

فصل

(ذم البخل)

البخل من ثمرات حب الدنيا ونتائجه، وهو من خبائث الصفات ورذائل الأخلاق. ولذا ورد في ذمه ما ورد من الآيات والأخبار. قال الله سبحانه:

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ...﴾[١]

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والشح، فانه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم». وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة بخيل، ولا خب، ولا خائن، ولا سيء، الملكة». وقال ﷺ: «البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار. وجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل، وأدوى الداء البخل»[٣]. وقال ﷺ: «الموبقات ثلاث: شح مطاع، وهو متبع، واعجاب المرء بنفسه». وقال ﷺ: «إن الله يبغض الشيخ الزاني، والبخيل المنان، والمعيل المختال». وقال ﷺ: «إياكم والشح، فانما هلك من كان قبلكم بالشح، امرهم بالكذب فكذبوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[٤]. وقال ﷺ: «البخل شجرة تنبت في النار، فلا يلج النار إلا بخيل». وقال: «خلق البخل من مقته، وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة الزقوم، ودلى بعض أغصانها إلى

---

(١) النساء، الآية: ٣٧.

(٢) آل عمران، الآية: ١٨٠.

(٣) الاحاديث كلها عامية، صححناها على (احياء العلوم) و(احياء الاحياء).

(٤) صححنا الحديث على (البحار): ج ٣ من المجلد الخامس عشر ص ١٤٣، وكذا الحديث المتقدم.

الدنيا، فمن تعلق بغصن منها أدخله النار. ألا إن البخل من الكفر، والكفر في النار». وقتل في الجهاد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فبكته باكية، وقالت: واشهيداه! فقال النبي ﷺ: «ما يدريك انه شهيد؟ فلعله كان يتكلم بمالا يعنيه، أو يبخل بما لا ينقصه». وقال ﷺ: «إن الله يبغض البخيل في حياته، والسخي عند موته». وقال ﷺ: «السخي الجهول أحب إلى الله عز وجل من العابد البخيل». وقال: «الشح والايمان لا يجتمعان في قلب واحد». وقال أيضاً: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق». وقال ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلا ولا جبانا». وقال ﷺ: «يقول قائلكم: الشحيح أعذر من الظالم. وأى ظلم أظلم عند الله من الشح؟ حلف الله بعزته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل». وقال: «اللهم إني أعوذ بك من البخل!». وروى: «أنه ﷺ كان يطوف بالبيت، فإذا رجل متعلق باستار الكعبة وهو يقول: بحرمة هذا البيت إلا غفرت لى ذنبى! قال رسول الله ﷺ: وما ذنبك؟ صفه لى. قال: هو أعظم من أن أصفه لك. قال: ويحك! ذنبك أعظم أم الأرضون؟ قال: بل ذنبى يا رسول الله. قال ﷺ: ويحك! ذنبك أعظم أم الجبال؟ قال: بل ذنبى يا رسول الله. قال ﷺ: فذنبك أعظم أم البحار؟ قال: بل ذنبى يا رسول الله. قال ﷺ: فذنبك أعظم أم السماوات؟ قال: بل ذنبى يا رسول الله. قال: ذنبك أعظم أم العرش؟ قال: بل ذنبى يا رسول الله. قال: ذنبك أعظم أم الله؟ قال: بل الله أعظم وأعلى وأجل. قال: ويحك! اتّصف لى ذنبك. قال: يا رسول الله، إنى رجل ذوثروة من المال، وأن السائل ليأتينى ليسألنى فكمانما يستقبلنى بشعلة من النار. فقال رسول الله ﷺ: اليك عنى! لا تحرقنى بنارك! فوالذى بعثنى بالهداية والكرامة، لو قمت بين الركن والمقام، ثم صليت الفى الف عام، وبكيت حتى تجرى من دموعك الانهار وتسقى بها الاشجار، ثم مت وأنت لئيم، لأكبك الله في النار! ويحك! أما علمت أن الله يقول:

﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾[١].

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؟![٢]».

وقال أمير المومنين عليه السلام: «سيأتي على الناس زمان عضوض، يعض المؤمن على ما في يديه، ولم يؤمر بذلك». قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَنسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[٣].

وروى: «أنه ما من صباح إلا وقد وكل الله تعالى ملكين يناديان: اللهم اجعل لكل ممسك تلفاً، ولكل منفق خلفاً!». والأخبار في ذم البخل اكثر من أن تحصى، مع أن تضمنه للمفاسد الدنيوية والأخروية مما يحكم به الوجدان ولا يحتاج إلى دليل وبرهان، حتى أن النظر إلى البخيل يقسى القلب، ومن كان له صفاء سريرة، يكرب قلبه ويظلم من ملاقاته، وقد قيل: (أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه).

وصل

(السخاء)

ضد البخل (السخاء). وقد عرفت معناه، وهو من ثمرة الزهد، كما أن البخل من ثمرة حب الدنيا. فينبغي لكل سالك لطريق الآخرة أن يكون حاله القناعة إن لم يكن له مال، والسخاء واصطناع المعروف إن كان له مال. ولا ريب في كون الجود والسخاء من شرائف الصفات ومعالي الأخلاق، وهو أصل من أصول النجاة، وأشهر أوصاف النبيين، وأعرف أخلاق المرسلين. وما ورد في مدحه خارج عن حد الاحصاء، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «السخاء شجرة من شجر الجنة، أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن

---

(١) محمد، الآية: ٣٨.

(٢) الحشر، الآية: ٩. التغابن، الآية: ١٦.

(٣) البقرة، الآية: ٢٣٧.

أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة». وقال ﷺ: «إن السخاء من الإيمان، و الايمان في الجنة». وقال ﷺ: «السخاء شجرة تنبت في الجنة، فلا يلج الجنة إلا سخي». وقال ﷺ: «قال الله سبحانه: إن هذا دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق، فاكرموه بهما ما استطعتم». وقال ﷺ: «ما جعل الله أولياءه إلا على السخاء وحسن الخلق». وقال ﷺ: «إن من موجبات المغفرة: بذل الطعام، وافشاء السلام، وحسن الكلام». وقال ﷺ «إن السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار». وقال ﷺ: «تجافوا عن ذنب السخي، فان الله آخذ بيده كلما عثر». وقال ﷺ: «طعام الجواد دواء، وطعام البخيل داء»(١). وقال ﷺ: «أفضل الأعمال: الصبر والسماحة». وقال ﷺ: «خلقان يحبهما الله وهما: حسن الخلق، والسخاء». وقال ﷺ: «إن الله جواد يحب الجود، ويحب معالي الاخلاق، ويكره سفاسفها». وقال ﷺ: «الرزق إلى مطعم الطعام اسرع من السكين إلى ذروة البعير، وان الله تعالى ليباهي بمطعم الطعام الملائكة عليهم السلام». وقال ﷺ: «إن لله عباداً يخصهم بالنعم لمنافع العباد، فمن بخل بتلك المنافع عن العباد، نقلها الله عنه وحولها إلى غيره». وقال ﷺ: «الجنة دار الأسخياء». وقال ﷺ: «لشاب سخي مرهق في الذنوب، أحب إلى الله من شيخ عابد بخيل»(٢). وقال ﷺ: «اصنع المعروف إلى من هو أهله والى من ليس بأهله، فان اصبت أهله فقد أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله». وقال ﷺ: «إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام، ولكن دخلوها بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للمسلمين». وقال ﷺ: «إن الله عزوجل جعل للمعروف وجوهاً من خلقه، حبب اليهم المعروف وحبب اليهم فعاله،

---

(١) (البحار): ٢ مج ١٥ / ٢٢١، باب السخاء والسماحة.

(٢) صححنا الحديث على (البحار) في الموضع المتقدم: (الشحيح) بدل (البخيل).

ووجه طلاب المعروف اليهم ويسر عليهم إعطاءه، كما ييسر الغيث إلى البلدة الجدبة فيحييها ويحيى بها أهلها». وقال ﷺ: «السخى محبب في السماوات ومحبب في الأرضين، خلق من طينة عذبة، وخلق ماء عينيه من ماء الكوثر، والبخيل مبغض في السماوات مبغض في الأرضين، خلق من طينة سبخة، وخلق ماء عينيه من ماء العوسج». وقال ﷺ: «إن أفضل الناس إيماناً أبسطهم كفاً». وقال ﷺ: «يؤتى يوم القيامة برجل، فيقال: احتج. فيقول: يا رب، خلقتنى وهديتنى، وأوسعت علي فلم أزل اوسع على خلقك، وأنشر عليهم لكى تنشر علي هذا اليوم رحمتك وتيسره. فيقول الرب تعالى ذكره: صدق عبدى، أدخلوه الجنة». وروى: «أنه أتى النبى ﷺ وفد من اليمن، وفيهم رجل كان أعظمهم كلاماً وأشدهم استقصاء في محاجة النبى ﷺ فغضب النبى حتى التوى عرق الغضب بين عينيه، وتربد وجهه وأطرق إلى الأرض، فأتاه جبرئيل عليه السلام فقال: ربك، يقرئك السلام،ويقول لك: هذا رجل سخى يطعم الطعام، فسكن عن النبى ﷺ الغضب، ورفع رأسه، وقال: لولا ان جبرئيل أخبرنى عن الله عز وجل أنك سخى تطعم الطعام لشرّدت بك، وجعلتك حديثاً لمن خلفك! فقال له الرجل: ان ربك يحب السخاء؟ فقال: نعم! فقال: إنى أشهد ألا إله إلا الله، وانك رسول الله، والذى بعثك بالحق، لا رددت عن مالى أحدا!»(١)، وقال ﷺ: «كل معروف صدقة، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة، وما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة، وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها». وقال ﷺ: «كل معروف صدقة، والدال على الخير كفاعله، والله تعالى يحب اغاثة اللهفان». وروى: «أنه أوحى الله إلى موسى عليه السلام: لا تقتل السامرى، فإنه سخى»(٢). وقال عيسى عليه السلام: «استكثروا من

---

(١) صححنا الحديث على (سفينة البحار)، ١ / ٦٠٧، وعلى (الوافى): ٥ / ٢٩٣، في باب الجود والبخل. لكن بينهما اختلاف يسير، فرجحنا تصحيح الحديث على ما في (السفينة).

(٢) الروايات كلها عامية، صححناها على احياء العلوم: ٣ / ٢١٠.

شيء لا تأكله النار»، قيل: وما هو؟ قال: «المعروف». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ومن يبسط يده بالمعروف إذا وجده، يخلف الله له ما انفق في دنياه، ويضاعف له في آخرته»[١]. وقال الباقر عليه السلام: «إن الشمس لتطلع ومعها اربعة أملاك: ملك ينادى: يا صاحب الخير أتم وابشر، وملك ينادى: يا صاحب الشر انزع واقصر، وملك ينادى: اعط منفقاً خلفاً وآت ممسكا تلفاً، وملك ينضج الأرض بالماء، ولولا ذلك اشتعلت الأرض». وقال الصادق عليه السلام لبعض جلسائه: «ألا اخبرك بشيء تقرب به من الله وتقرب من الجنة وتباعد من النار؟»، فقال: بلى. فقال: «عليك بالسخاء». وقال: «خياركم سمحاؤكم، وشراركم بخلاؤكم. ومن خالص الايمان: البر بالاخوان والسعى في حوائجهم، وأن البار بالاخوان ليحبه الرحمن، وفي ذلك مرغمة للشيطان، وتزحزح عن النيران ودخول الجنان». وقال الكاظم عليه السلام: «السخى الحسن الخلق في كنف الله، لا يستخلى الله منه حتى يدخله الجنة. وما بعث الله نبياً ولا وصياً إلا سخياً، ولاكان أحد من الصالحين إلا سخياً، وما زال أبى يوصينى بالسخاء حتى مضى».

فصل

(معرفة ما يجب أن يبذل)

لعلك تقول: إنك قلت: السخاء هو الوسط بين الاقتار والاسراف، وهو صرف المال إلى ما يجب أو ينبغى صرفه اليه، وهذا غير كاف لمعرفة حد السخاء، لتوقفه على معرفة ما يجب أو ينبغى، وهو عندنا مبهم.

قلنا: ما يجب أو ينبغى يتناول الواجب واللائق بحسب الشرع والمروة والعادة. فالسخى هو الذي يؤدى واجب الشرع وواجب المروة والعادة جميعاً، فإن منع

---

(١) صححنا الحديث على (الوافى): ٥ / ٢٩٤، باب الجود و البخل.

واحداً منها فهو بخيل، وإن كان الذي يمنع واجب الشرع أبخل. ثم ما يجب بذله شرعاً مضبوط معين، من الزكاة والخمس وغيرهما من أطيب ماله أو وسطه دون الخبيث منه، والانفاق على أهله وعياله على قدر احتياجهم. فمن أدى جميع ذلك فقد أدى الواجب الشرعى، ويستحق اسم السخى شرعاً، إذا كان الأداء بطيبة من قلبه، من دون أن يشق عليه، إذ لو شق عليه ذلك كان بخيلا بالطبع ومتسخياً بالتكلف. وأما ما يجب مروة وعادة، فهو ترك المضايقة في بذل ما يستقبح المضايقة فيه عرفاً وعادة، وهو يختلف في الأحوال والاشخاص، فتستقبح من الغنى المضايقة مالا يستقبح من الفقير، ومع الأهل والأقارب ما لا يستقبح مع الأجانب، ومع الجار ما لا يستقبح من البعيد، وفي الضيافة ما لا يستقبح أقل منه في المبايعة والمعاملة، ويستقبح من المضايقة في الأطعمة ما لا يستقبح في غيرها. وبالجملة: يختلف ذلك بما فيه المضايقة من ضيافة أو معاملة، وبما فيه المضايقة من طعام أو ثوب أو فرش أو غير ذلك، وبمن معه المضايقة من صديق أو قريب أو جار أو أجنبى أو بعيد، وبمن منه المضايقة من غنى أو فقير أو أمير أو رعية أو عالم أو جاهل أو صبى أو كامل. فالسخى هو الذي لا يمنع حيث ينبغى ألا يمنع شرعاً أو مروة أو عادة، والبخيل من يمنع شيئاً مما ينبغى ألا يمنع شرعاً أو مروة أو عادة. ولا يمكن التنصيص على مقدار ذلك فلعل حد البخل هو امساك المال لغرض وذلك الغرض أهم من حفظ المال، وفي مقابله الجود والسخاء.

ثم من يؤدى الواجب ويحفظ العادة والمروة، ولكن له مال كثير قد جمعه، لا يصرفه إلى المحتاجين ولا ينفقه في الصدقات المستحبة ليكون له عدة على نوائب الزمان، وإن لم يكن بخيلاً عند عوام الخلق، ولكنه بخيل عند أهل الفطانة والكياسة. إذ التبرى عن البخل والاتصاف بصفة الجود والسخاء لا يتحقق عندهم ما لم يبذل زيادة على قدر واجب الشرع وواجب المروة والعادة اللائقة به، لطلب

الفضيلة والثواب، ونيل الدرجات في الآخرة. وتختلف هذه الزيادة باختلاف مقدار ماله، وباختلاف حاجة المحتاجين وصلاحهم وورعهم. فاتصافه بالجود، بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير، وتختلف درجات ذلك. فاصطناع المعروف أمر وراء ما توجبه العادة والمروة، وهو الجود بشرط أن يكون عن طيبة من النفس، ولا يكون لأجل غرض، من خدمة أو مدح وثناء. إذ من يبذل المال بعوض المدح والثناء أو غيره فليس بجواد، بل هو بياع يشترى المدح بماله، لكون المدح ألذ عنده من المال.

فالجود هو بذل الشيء عن طيبة من القلب من غير غرض، وهذا وإن كان حقيقة، إلا أنه لا يتصور في غير حق الله، إذ ما من انسان يبذل الشيء إلا لغرض، لكن إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة، ورفع الدرجات، واكتساب فضيلة الجود، وتطهير النفس عن رذيلة البخل، سمى جواداً، وإن كان غرضه شيئاً من الأمورالدنيوية لم يسم جواداً.

تنبيه

(الايثار)

أرفع درجات الجود والسخاء (الايثار)، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة اليه. قال الله سبحانه في معرض الثناء على أهل الايثار:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «أيما امرؤ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه، غفرله».

وكان الايثار من شعار رسول الله ﷺ، ولقد قالت بعض زوجاته: «إنه ﷺ ما

(١) الحشر، الآية: ٩.

شبع ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا، ولو شئنا لشبعنا، ولكنا كنا نوثر على أنفسنا». وروى: «أن موسى بن عمران قال: يا رب، أرنى بعض درجات محمد وامته. قال: ياموسى، إنك لن تطيق ذلك، لكنى اريك منزلة من منازله، جليلة عظيمة، فضلته بها عليك وعلى جميع خلقى. قال[1]: فكشف له عن ملكوت السماوات، فنظر إلى منزلة كادت أن تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله، فقال: يا رب، بماذا بلغ به إلى هذه الكرامة؟ قال تعالى: بخلق اختصصته به من بينهم، وهو الايثار يا موسى، لا يأتينى أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحييت من محاسبته، وبوأته من جنتى حيث يشاء». وسئل الصادق عليه السلام: «أى الصدقة أفضل؟ قال: عليه السلام: جهد المقل. أما سمعت قول الله عز وجل: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟». وإيثار علي عليه السلام غيره في جميع أوقات عمره مشهور، وفي الكتب مسطور. ولقد آثر حياة رسول الله صلى الله عليه وآله على حياته ليلة المبيت، فباهى الله به الملائكة، وأنزل فيه:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللهِ﴾[2].

ولقد كان الخواص من شيعته والمقتدون به في سنته وسيرته، يجتهدون في المحافظة

على هذه الفضيلة مهما أمكن.

فصل
(علاج مرض البخل)

علاج مرض البخل يتم بعلم وعمل. والعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود، والعمل يرجع إلى البذل على سبيل التكلف إلى أن يصير طبعاً له. فكل طالب

---

(١) أى الراوى.

(٢) البقرة، الآية: ٢٠٧.

لازالة البخل وكسب الجود ينبغي أن يكثر التأمل في اخبار ذم البخل ومدح السخاء، وما توعد الله به على البخل من العذاب العظيم، ويكثر التأمل في أحوال البخلاء وفي نفرة الطبع عنهم، حتى يعرف بنور المعرفة أن البذل خير له من الامساك في الدنيا والآخرة. ثم يكلف نفسه على البذل ومفارقة المال، ولا يزال يفعل ذلك إلى أن يهيج رغبته في البذل، وكلما تحركت الرغبة ينبغي ان يجتنب الخاطر الأول ولا يتوقف، لأن الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويوسوسه بانواع الوساوس الصادة عن البذل.

ولو كان مرض البخل مزمناً غير مندفع بما مر، فمن معالجاته أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالجود، فيبذل على قصد الرياء، حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في الاشتهار بصفة الجود، فيكون قد زال عن نفسه رذيلة البخل واكتسب خبث الرياء، ولكن يتعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه، ويكون طلب الشهرة والاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال، كما يسلى الصبى عند فطامه عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها، لا لكون اللعب مطلوبا بذاته، بل لينتقل من الثدى إليه ثم ينتقل عنه إلى غيره. فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلط بعضها على بعض حتى يندفع الجميع، فتسلط الشهوة على الغضب حتى تكسر سورته بها، ويسلط الغضب على الشهوة حتى تكسر رعونتها به. وقد جرت سنة الله بدفع المؤذيات والمهلكات بعضها ببعض، إلى أن يندفع الجميع، سواء كانت من الصفات المؤذية أو من الاشخاص المؤذية من الظلمة والأشرار، ألا ترى انه يسلط الظالمين والأشرار بعضهم على بعض إلى أن يهلك الجميع؟

ومثال ذلك ـ كما قيل ـ: أن الميت تستحيل جميع اجزائه دوداً، ثم يأكل بعض الديدان بعضاً، إلى أن يرجع إلى اثنين قويين، ثم لا يزالان يتقابلان ويتعارضان، إلى أن يغلب احدهما الآخر فيأكله ويسمن به، ثم لا يزال يبقى وحده جائعاً إلى أن يموت. فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعض على بعضها حتى

يقمعها، فيجعل الأضعف قوتا للاقوى، إلى أن لا تبقى إلا واحدة. ثم تقع العناية بمحوها واذابتها بالمجاهدة، وهو منع القوت منها، أى عدم العمل بمقتضاها، فانها تقتضى لا محالة آثاراً، فإذا خولفت خمدت وماتت. مثلا البخل يقتضى إمساك المال، فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد والمشقة مرة بعد أخرى، ماتت صفة البخل وصارت صفة البذل طبعاً، وسقط التعب والمشقة فيه.

ثم العمدة في علاجه أن يقطع سببه، وسببه حب المال، وسبب حب المال: إما حب الشهوات التي يتوقف الوصول اليها على المال مع طول الأمل، إذ لو لم يكن له طول أمل وعلم أنه يموت بعد أيام قلائل ربما لم يبخل بماله، أو ادخاره وابقاؤه لأولاده، فانه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه، فيمسك المال لاجلهم، أو حبه عين المال من حيث إنه مال فيحب، فان بعض الناس من المشايخ والمعمرين يكون له من المال ما يكفيه لغاية ما يتصور من بقية عمره، وتزيد معه اموال كثيرة، ولا ولد له ليحتاط لأجله، مع ذلك لا تسمح نفسه باخراج مثل الزكاة ومداواة نفسه عند المرض، بل هو محب الدنانير، عاشق لها، يتلذذ بوجودها في يده، مع علمه بأنه عن قريب يموت، فتضيع أو تأخذها اعداؤه، ومع ذلك لا تسمح نفسه بأن يأكل منها أو يتصدق ببعضها. وهذا مرض عسر العلاج، لا سيما في كبر السن، إذ حينئذ يكون المرض مزمناً والطبيعة المدافعة له قاصرة والبدن ضعيفاً. ومثله مثل من عشق شخصاً فاحب رسوله، ثم نسى محبوبه واشتغل برسوله. فان الدنانير رسول مبلغ إلى الحاجات، وهى محبوبة من هذة الحيثية، لامن حيث أنها دنانير، فمن نسى الحاجات وصارت الدنانير محبوبة عنده في نفسها، فهو في غاية الضلالة والخسران، بل من رأى بين الفاضل منها عن قدر الحاجة وبين الحجر فرقا، فهو في غاية الجهل.

ثم لما كان الطريق في قطع سبب كل علة أن يواظب على ضد هذا السبب، فيعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر، ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر

الموت والنظر في موت الاقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم، ويعالج التفات القلب إلى الأولاد بأن الذي خلقهم خلق ارزاقهم، وكم من ولد لم يرث مالا من أبيه وحاله أحسن ممن ورث، وبأن يعلم أن ولده إن كان تقياً صالحاً فيكفيه الله، وإن كان فاسقاً فيستعين بماله على المعصية وترجع مظلمته عليه، ويعالج حب المال من حيث أنه مال، بأن يتفكر في مقاصد المال وأنه لماذا خلق، فلا يحفظ منه إلا بقدر حاجته، ويبذل الباقي على المستحقين ليبقى له ثوابه في الآخرة.

تذنيب

اعلم أن بذل الأموال وانفاقها المترتب على صفة الجود والسخاء يتناول اموراً: بعضها واجب، وبعضها مندوب. وقد ورد في فضيلة كل منها بخصوصه أخبار، فلا بد لنا أن نشير الى ذلك تأكيداً لبيان فضل السخاء، والى بعض ما لها من الآداب والدقائق الباطنة، ونحيل ما لها من الأحكام والشروط الظاهرة إلى كتب الفقه، فنقول:

اما الأمور الواجبة، فأولها:

الزكاة

والآيات والأخبار الواردة في ذم تاركها ومدح فاعلها كثيرة. قال الله سبحانه: **﴿فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾**[1]. وقال تعالى: **﴿ٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**[2].

ومعنى الانفاق في سبيل الله اخراج الزكاة، وكما ورد عن أهل البيت عليهم السلام، وأجمع عليه المفسرون. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا منعت الزكاة منعت الأرض

(١) الحج، الآية: ٧٨. المجادلة، الآية: ١٣.

(٢) التوبة، الآية: ٣٤.

بركاتها». وقال الباقر عليه السلام: «إن الله عز وجل قرن الزكاة بالصلاة، قال:

﴿فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾(١).

فمن أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلم يقم الصلاة». وقال الصادق عليه السلام: «ما من ذي مال ذهب أو فضة يمنع زكاة ماله، إلا حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر، وسلط عليه شجاعاً اقرع يريده وهو يحيد عنه، فإذا رأى أنه لا يتخلص منه، أمكنه من يده، فقضمها كما يقضم الفحل، ثم يصير طوقا في عنقه، وذلك قول الله تعالى:

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾(٢).

وما من ذي مال إبل أو غنم أو بقر يمنع زكاة ماله، إلا حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر، تطأه كل ذات ظلف بظلفها، وتنهشه كل ذات ناب بنابها، وما من ذي مال نخل أو كرم أو زرع يمنع زكاتها، إلا طوقه الله تعالى ريعة ارضه إلى سبع أرضين إلى يوم القيامة»(٣). وقال عليه السلام: «ما فرض الله على هذه الأمة شيئاً أشد عليهم من الزكاة، وفيها تهلك عامتهم». وقال: من منع قيراطاً من الزكاة، فليس بمؤمن ولا مسلم، وهو قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾(٤).

وقال عليه السلام: «إنما وضعت الزكاة اختباراً للاغنياء، ومعونة للفقراء. ولو أن الناس ادوا زكاة اموالهم، ما بقي مسلم فقيراً محتاجا، ولاستغنى بما فرض الله له. وان الناس

---

(١) الحج، الآية: ٧٨. المجادلة، الآية: ١٣.

(٢) آل عمران، الآية: ١٨٠.

(٣) قال في (الوافي): ٦ / ٢٤١، باب الزكاة: «بيان (القاع): الأرض السهلة المطمئنة. و(القرقر): الأرض المستوية اللينة. و(الشجاع) ـ بالضم والكسر ـ: الحية، أو الذكر منها، أو ضرب منها. و(الفحل) ـ بالمهملة ـ: الذكر من كل حيوان، ومن الابل خاصة، وهوا المراد هنا. (الريع) ـ بكسر الراء وفتحها ـ: المرتفع من الأرض».

(٤) المؤمنون، الآية: ٩٩ ـ ١٠٠.

ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء، وحقيق على الله أن يمنع رحمته ممن منع حق الله في ماله. واقسم بالذى خلق الخلق وبسط الرزق: أنه ما ضاع مال في بر ولا بحر إلا بترك الزكاة. وما صيد صيد في بر ولا بحر إلا بتركه التسبيح في ذلك اليوم، وإن أحب الناس إلى الله تعالى أسخاهم كفاً، وأسخى الناس من أدى زكاة ماله، ولم يبخل على المؤمنين بما افترض الله لهم في ماله». وقال عليه السلام: «إن الزكاة ليس يحمد بها صاحبها، وإنما هو شيء ظاهر حقن بها دمه وسمى بها مسلماً، ولو لم يؤدها لم تقبل له صلاة»[(١)]. والأخبار في فضل الزكاة وذم تاركها اكثر من أن تحصى، وما ذكرناه كاف لايقاظ الطالبين.

فصل

(سر وجوب الزكاة، وفضيلة سائر الانفاقات)

السر في ايجاب الزكاة، بل فضيلة مطلق انفاق المال، ثلاثة أمور:

الأول ـ أن التوحيد العام ألا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد، إذ المحبة لا تقبل الشركة، والتوحيد باللسان قليل الجدوى، وانما تمتحن درجة الحب بمفارقة سائر المحاب، والأموال محبوبة عند الناس، لأنها آلة تمتعهم بالدنيا، ولاجلها يأنسون بهذا العالم، ويخافون من الموت ويتوحشون منه، مع أن فيه لقاء المحبوب، فامتحنوا في صدق دعواهم الحب التام لله تعالى بمفارقتهم عن بعض محابهم، أعنى المال، ولذلك قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[(٢)].

ولفهم هذا السر في بذل الأموال، انقسم الناس بحسب درجاتهم في التوحيد

---

(١) صححنا الاحاديث كلها على (الوافى): ٦ / ٢٤١ ـ ٢٤٢، باب الزكاة.

(٢) التوبة، الآية: ١١١.

والمحبة ثلاثة أقسام: (قسم) صدقوا التوحيد ووفوا بعهده، ولم يجعلوا قلوبهم إلا محلا لحب واحد. فنزلوا عن جميع أموالهم، ولم يدخروا شيئاً من الدرهم والدينار وغيرهما من أنواع المال، ولم يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم، حتى قيل لبعضهم: كم يجب من الزكاة في مائتى درهم؟ فقال: أما على العوام ـ بحكم الشرع ـ فخمسة دراهم، وأما نحن، فيجب علينا بذل الجميع. وسئل الصادق عليه السلام: «في كم تجب الزكاة من المال؟ فقال: أما الزكاة الظاهرة ففى كل الف خمسة وعشرون، وأما الباطنة، فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج إليه منك». و(قسم) درجتهم دون هذا، وهم الذين أمسكوا أموالهم، ولكنهم راقبوا مواقيت الحاجات ومراسم الخيرات، ويكون قصدهم من الامساك الانفاق على قدر الحاجة، دون التنعم، وصرف الفاضل عن قدر الحاجة إلى وجوه البر. وهؤلاء لا يقتصرون على اعطاء مجرد ما يجب عليهم من الزكاة والخمس، بل يؤدون جميع انواع البر والمعروف أو اكثرها. و(قسم) اقتصروا على اداء الواجب، فلا يزيدون عليه ولا ينقصون منه. وهو أدون الدرجات وأقل المراتب، وهو درجة العوام الراغبين إلى المال، لجهلهم بحقيقته وفائدته، وضعف حبهم للآخرة.

الثانى ـ تطهير النفس عن رذيلة البخل، فانه من المهلكات ـ كما تقدم ـ وإنما تزول هذه الرذيلة ببذل المال مرة بعد أخرى حتى يتعود، إذ حب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته، حتى يصير ذلك اعتياداً. وعلى هذا، فالانفاق يطهر صاحبه من خبث البخل المهلك، وإنما طهارته بقدر بذله، وبقدر فرحه باخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى.

الثالث ـ شكر النعمة، فان لله سبحانه على عبده نعمة في نفسه ونعمة في ماله. فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن، والمالية شكر لنعمة المال. وما أقبح بالغنى المسلم أن ينظر الى فقير مسلم، وقد ضيق الرزق عليه واحوج اليه، ثم لا تسمح نفسه

بأن يؤدى شكر الله تعالى على اغنائه عن السؤال، واحواج غيره اليه، باعطاء عشر أو ربع عشر من ماله.

فصل
(الحث على التعجيل في الاعطاء)

ينبغي للمعطى المنفق، عند ظهور داعية الخير من باطنه، أن يغتنم الفرصة، ويسارع إلى الامتثال، تعجيلاً لادخال السرور في قلوب الفقراء، وحذراً عن عوائق الزمان المانعة عن الخيرات، وعلماً بأن في التأخير آفات، وتنبهاً بأن انبعاث داعية الخير لمة الملك، وقلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن، فما اسرع تقلبه، والشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر، وله لمة عقيب لمة الملك، وصوناً للفقراء عن الاضطرار إلى السؤال، إذ ورد: ان الاعطاء معه مكافاة لوجهه المبذول وثمن لما أخذ منه، وليس بمعروف. وروى: «أن أمير المؤمنين عليه السلام بعث إلى رجل بخمسة أو ساق من تمر البغيبغة، وكان الرجل ممن ترجى نوافله، ويؤمل نائله ورفده، وكان لا يسأل علياً ولا غيره شيئاً. فقال رجل لأمير المؤمنين عليه السلام: والله ما سألك فلان شيئاً! ولقد كان يجزيه من الخمسة أو ساق وسق واحد. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: لاكثر الله في المؤمنين ضربك! أعطى أنا، وتبخل أنت! لله أنت! إذا أنا لم أعط الذي يرجونى إلا من بعد المسألة، ثم أعطيه بعد المسألة، فلم اعطه إلا ثمن ما أخذت منه، وذلك لأنى عرضته أن يبذل لى وجهه الذي يعفره في التراب لربى وربه عز وجل عند تعبده له وطلب حوائجه اليه. فمن فعل هذا بأخيه المسلم، وقد عرف أنه موضع لصلته ومعروفه، فلم يصدق الله في دعائه، حيث يتمنى له

الجنة بلسانه، ويبخل عليه بالحطام من ماله»[١]. ثم ينبغي أن يعين لأداء صدقته وقتاً فاضلاً، كيوم الغدير وشهر ذى الحجة، (لا) سيما العشرة الأولى، أو شهر رمضان، (لا) سيما العشرة الأخيرة. وقد ورد أن رسول الله ﷺ كان أجود الخلق، وكان في رمضان كالريح المرسلة، لا يمسك فيه شيئاً.

فصل

(فضيلة اعلان الصدقة الواجبة)

الصدقة الواجبة، أعنى الزكاة، اعلانها أفضل من اسرارها -إن كان في اظهارها ترغيب للناس في الاقتداء، وأمن من تطرق الرياء، ولم يكن الفقير بحيث يستحيى من أخذها علانية. قال الصادق عليه السلام: «كلما فرض الله عليك، فاعلانه أفضل من إسراره، وكلما كان تطوعاً فاسراره أفضل من اعلانه، ولو أن رجلاً حمل زكاة ماله على عاتقه علانية، كان ذلك حسناً جميلاً». وقال في قوله تعالى:

﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[٢]:

«هى ما سوى الزكاة، فان الزكاة علانية غير سرّ». فلو دخل في نفسه الرياء مع الاظهار، أو كان الفقير يستحيى من اخذها علانية، كان الاسرار بها أفضل: أما الأول: فظاهر، وأما الثاني: فلما روى: «انه قيل لأبى جعفر الباقر عليه السلام: الرجل من اصحابنا يستحيى من أن يأخذ من الزكاة، فاعطيه من الزكاة ولا اسمى له انها من الزكاة. فقال: اعطه ولا تسم له، ولا تذل المؤمن».

وبالجملة: الاعلان كما يتصور فيه فائدة الترغيب، يتطرق إليه محذور الرياء

(١) صححنا الحديث على (الوافى): ٦ / ٢٨٦، باب آداب الاعطاء. قال: (البغيبغة) ضيعة بالمدينة، و(النوافل): العطايا، و(لله انت!): أى كن لله وانصفنى في القول.

(٢) البقرة، الآية: ٢٧١.

والمن والأذى، وذلك يختلف بالأحوال والأشخاص. فبالنظر إلى بعض الأحوال والأشخاص، يكون الاعلان أفضل، وبالنظر إلى بعض آخر، يكون الاسرار أفضل. فلابد لكل منفق أن يلاحظ حاله ووقته، ويقابل الفائدة بالمحذور، ويختار ما هو الأفضل. ومن عرف الفوائد والغوائل، ولم ينظر بعين الشهوة، اتضح له ما هو الأولى والأليق.

فصل

(ذم المن والأذى في الصدقة)

ينبغي للمتصدق أن يجتنب عن المن والأذى. قال الله سبحانه:

﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَـٰتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾[1]. وقال: **﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾**[2].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى كره لي ست خصال، وكرهتهن للاوصياء من ولدى واتباعهم من بعدى: العبث في الصلاة، والرفث في الصوم، والمن بعد الصدقة، وإتيان المساجد جنباً، والتطلع في الوفد، والضحك بين القبور».

و(المن): أن يرى نفسه محسناً. ومن ثمراتها الظاهرة: الاظهار بالانفاق، والتحدث به، وطلب المكافاة منه، بالشكر والخدمة والتعظيم، والمتابعة في الأمور. و(الأذى): التعيير، والتوبيخ، والاستخفاف، والاستخدام، والقول السيء، وتقطيب الوجه، وهتك الستر. ثم معرفة الأذى ظاهرة وكذا معرفة الثمرات الظاهرة للمن. واما المن الباطني، اى رؤية نفسه محسناً، فيعرف بأن يكون استبعاده من خيانة القابض بعد العطاء اكثر من استبعاده منه قبله.

---

(١) البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٢) البقرة، الآية: ٢٦٣.

وعلاج المن: أن يعرف أن المحسن هو الفقير القابض لايصاله الثواب والانجاء من العذاب، وكونه نائباً عن الله تعالى وكون ما يعطيه حقاً من الله سبحانه، أحال عليه الفقير انجازاً لما وعده من الرزق. وعلاج الأذى: أن يعرف أن سببه استكثار العطاء وكراهية إنفاق المال والتكبر على الفقير القابض برؤية نفسه خيراً منه، لغنائه واحتياجه، وجميع ذلك جهل وحماقة. اما استكثاره العطاء، فلأن ما اعطاه بالنظر إلى ما يطلبه لأجله من رضا الله وثواب الآخرة في غاية القلة والخسة، وكيف يستعظم العاقل بذل خسيس فان إذا اخذ في مقابله، خطيراً باقياً. واما استحقاره الفقير، فلما تقدم من فضل الفقير على الغنى، فكيف يرى نفسه خيراً منه؟ وكفى للفقير فضلاً: أن الله سبحانه جعل الغنى مسخراً له، بأن يكتسب المال بالجهد والتعب، ويسعى في حفظه، ويسلمه إلى الفقير بقدر حاجته، ويكف عنه الفاضل الذي يضره لو سلمه اليه. فالغنى يخدم الفقير في طلب المال، مع كون ما يحمد منه للفقير، وكون ما يذم منه، من تحمل المشاق وتقلد المظالم وحراسة الفضلات إلى أن يموت فتأكله الأعداء، على الغنى.

وبالجملة: العاقل، بعد التأمل، يعلم أن ما يعطيه قليل في مقابلة ما يأخذه، وأن الفقير محسن اليه. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ومن علم أن ما صنع إنما صنع إلى نفسه، لم يستبطىء الناس في شكرهم، ولم يستزدهم في مودتهم، فلا تلتمس من غيرك شكر ما أتيت إلى نفسك ووقيت به عرضك، واعلم أن الطالب اليك لحاجة لم يكرم وجهه عن وجهك، فاكرم وجهك عن رده»[1]. وينبغي للمحترز عن المن والأذى أن يتواضع ويتخضع للفقير عند اعطائه، بأن يضع الصدقة لديه، ويمثل قائماً بين يديه، أو يبسط كفه ليأخذ الفقير، وتكون يد الفقير هي العليا.

---

(١) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٩٠، كتاب الزكاة، باب ٥٧ المعروف وفضله.

فصل

(ما ينبغي للمعطى)

ومما ينبغي للمعطى أن يستصغر العطية ليعظم عند الله، وإن استعظمها صغرت عند الله، قال الصادق عليه السلام: «رأيت المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال: تصغيره، وتستيره، وتعجيله. فأنت إذا صغرته عظمته عند من تصنعه اليه، وإذا سترته تممته، وإذا عجلته هنأته، وإن كان غير ذلك محقته ونكدته»[١]. واستعظام العطاء غير المن والأذى، إذ الصرف إلى عمارة المسجد ومثله يتأتى فيه الاستعظام، ولا يتأتى فيه المن والأذى، وأن يعطى الأجود والأحب والأبعد عن الشبهة، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإخراج غير الجيد سوء أدب بالنسبة إلى الله، إذ إمساك الجيد لنفسه وأهله، وانفاق الرديء في سبيل الله، يوجب ايثار غير الله وترجيحه عليه، ولو فعل هذا لضيف وقدم إليه ارذأ طعام في البيت لانكسر قلبه ووغر به صدره.

هذا إذا كان نظره إلى الله بأن يتصدق لوجه الله، من غير ملاحظة عوض لنفسه في دار الآخرة، وان كان نظره إلى نفسه وثوابه في الآخرة، فلا ريب في أن العاقل لايؤثر غيره على نفسه، وليس له من ماله إلا ما تصدق فأبقى، وأكل فأفنى. ولعظم فائدة انفاق الأجود الأحب، وقبح انفاق الرديء الأخس، قال الله تعالى:

﴿أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِأَخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾[٢]:

أي لا تأخذونه إلا مع كراهية وحياء، وهو معنى الاغماض، وما هذا شأنه عندكم فلا تؤثروا به ربكم. وقال سبحانه:

---

(١) صححنا الحديث على (الوافى): ٦ / ٢٩٠، كتاب الزكاة، باب آداب المعروف.

(٢) البقرة، الآية: ٢٦٧.

﴿لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ!﴾[١]. وقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾[٢].

وفي الخبر: «سبق درهم مائة الف درهم». وذلك بأن يخرجه الانسان وهو من أحل ماله وأجوده، فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبذل، وقد يخرج مائة الف درهم مما يكره من ماله، فيدل على أنه ليس يؤثر الله بشيء مما يحبه.

ومما ينبغى له أن يغنى الفقير إذا قدر، ففى الخبر إذا أعطيته فأغنه، وأن يقبل يده بعد الاعطاء، لأنه يقع في يد الله تعالى اولاً. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا ناولتم السائل فليرد الذى ناوله يده إلى فيه فيقبلها، فان الله عز وجل يأخذ الصدقات». وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «ما تقع صدقة المؤمن في يد السائل حتى تقع في يد الله»، ثم تلا هذه الآية:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ؟﴾[٣].

وقال الصادق عليه السلام: «إن الله تعالى يقول: ما من شيء إلا وقد وكلت به من يقبضه غيرى، إلا الصدقة، فإنى اتلقفها بيدى تلقفاً، حتى أن الرجل ليتصدق بالتمر أو بشق تمرة، فاربيها له كما يربى الرجل فلوه وفصيله، فتأتى يوم القيامة وهى مثل أحد وأعظم من أحد»[٤]. وأن يلتمس الدعاء من الفقير، لأن دعاءه يستجاب فيه، كما روى: «أن علي بن الحسين عليه السلام كان يقول للخادم: امسك قليلاً حتى يدعو، فإن دعوة السائل الفقير لا ترد». وإنه عليه السلام كان يأمر الخادم إذا اعطى السائل، أن يأمره أن يدعو بالخير. وعن أحدهما عليهما السلام: «إذا اعطيتموهم فلقنوهم الدعاء، فإنه يستجاب لهم

(١) آل عمران، الآية: ٩٢.

(٢) النحل، الآية: ٦٢.

(٣) التوبة، الآية: ١٠٤.

(٤) صححنا الحديث على (الوافى): ٦ / ٢٦٢، باب فضل الصدقة.

فيكم، ولا يستجاب لهم في انفسهم». وما قيل من أن أرباب القلوب لا يتوقعون الدعاء من القابض، لانه شبيه المكافاة، وكانوا يقابلون الدعاء بمثله، ولو ارسلوا معروفاً إلى فقير، قالوا للرسول احفظ ما يدعو به ليردوا عليه مثل قوله، خلاف طريقة ائمتنا الراشدين عليهم السلام، فلا اعتبار به عندنا.

ومما ينبغي له أيضاً أن يصرف الصدقات إلى من يكثر بإعطائه الأجر، كأهل الورع والعلم، وأرباب التقوى والصدق، والكاملين في الايمان والتشيع. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يأكل طعامك إلا تقى». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اطعموا طعامكم الأتقياء». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أضف بطعامك من تحبه في الله». ولكن يرفعهم من الزكاة الواجبة والصدقات لأنها أوساخ الاموال، ويوسع عليهم بالهدايا والصلاة، ففي الخبر: «مستحقوا الزكاة المستضعفون من شيعة محمد وآله: الذين لم تقو بصائرهم، وأما من قويت بصيرته وحسنت بالولاية لأوليائهم والبراءة من أعدائهم معرفته، فذاك أخوكم في الدين، امس بكم رحماً من الآباء والامهات المخالفين، فلا تعطوه زكاة ولا صدقة، فان موالينا وشيعتنا منا كالجسد الواحد، تحرم على جماعتنا الزكاة والصدقة. وليكن ما تعطونه اخوانكم المستبصرين البر، وارفعوهم عن الزكاة والصدقات، ونزهوهم عن أن تصبوا عليهم أو ساخكم. أيحب أحدكم أن يغسل وسخ بدنه ثم يصبه على أخيه المؤمن؟ إن وسخ الذنوب أعظم من وسخ البدن، فلا توسخوا إخوانكم...» الحديث.

ولا ينبغي أن يصرف إلى من نظره إلى الوسائط، بل ينبغي الصرف إلى من بلغ مقام التوحيد، ويرى النعمة من الله ولا ينظر إلى الوسائط. إذ من لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث أنهم وسائط، فغير خال من نوع من الشرك الخفي. قال الصادق عليه السلام في قول الله تعالى:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(١):

«هو قول الرجل: لولا فلان لهلكت! ولولا فلان لما أصبت كذا! ولولا فلان لضاع عيالى! ألا ترى أنه قد جعل الله شريكا في ملكه، يرزقه أو يدفع عنه؟»، فقال الراوى: يجوز أن يقال: لولا أن الله من علي بفلان لهلكت؟ قال «نعم! لا بأس بهذا». ومن أهل المزية والاختصاص بالبذل اليه، من كان مستتراً ساتراً للحاجة، كائناً من أهل المروة، متغشياً في جلباب التجمل، محصوراً في سبيل الله، محبوساً في طريق الآخرة بعيلة أو مرض أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب أو سبب آخر من الأسباب، والأولى من الكل الأقارب وأولو الأرحام من أهل الاحتياج، فان الانفاق عليهم صدقة وصلة. وفي صلة الرحم من الثواب مالا يخفى، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لإن أصل أخاً من اخوانى بدرهم، أحب إلي من ان اتصدق بعشرين درهماً، ولإن أصله بعشرين درهماً أحب إلي من أن أتصدق بمائة درهم، ولإن أصله بمائة درهم أحب إلي من ان أعتق رقبة». وفي خبر آخر: «لا صدقة وذورحم محتاج، الصدقة بعشرة والقرض بثمانية عشر، وصلة الاخوان بعشرين، وصلة الرحم باربعة وعشرين». وفي الخبر: «إن أفضل الصدقات والصلاة الانفاق على ذى الرحم الكاشح»: يعنى المبغض، وكأنه لمخالفة الهوى وصدوره عن الخلوص والتقوى.

فصل

(ما ينبغي للفقراء في أخذ الصدقة)

ينبغى للفقير الآخذ أن يعلم أن الله تعالى أوجب صرف المال إليه ليكفى مهمته، فيتجرد للعبادة والاستعداد للموت، فينبغى أن يتأهب لذلك ولا يصرفه عنه

(١) يوسف، الآية: ١٠٦.

فضول الدنيا، ويشكر الله على ذلك، ويشكر المعطى، فيدعوله ويثنى عليه مع رؤية النعمة من الله سبحانه، قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله». وقال الصادق عليه السلام: «لعن الله قاطعي سبيل المعروف قيل: وما قاطعوا سبل المعروف؟ قال: الرجل يصنع إليه المعروف فيكفره فيمنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره»[1]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «من صنع بمثل ما صنع إليه فانما كافاه، ومن ضعفه كان شكوراً، ومن شكر كان كريماً».

وينبغي له ايضاً أن يستر عيوب صاحب العطاء ولا يذمه ولا يحقره، ولا يعيره بالمنع إذا منع، ويفخم عند نفسه وعند الناس اعطاءه، بحيث لا يخرجه عن كونه واسطة، لئلا يكون مشركا، وأن يتوقى مواقع الحرمة والريبة والشبهة في أصله ومقداره، فلا يأخذ من لا يحل ماله أو يشتبه، كعمال السلاطين والجنود ومن أكثر كسبه من الحرام، ولا الزيادة على قدر الحاجة، ولا يسأل على رؤس الملأ ممن يستحي الرد، وأن يتورع العالم والمتقى من أخذ الزكاة والصدقات ما لم يضطر اليها، تنزيهاً لنفسه عن الأوساخ، وأن يستر الأخذ بنية أنه ابقى لستر المروة والتعفف، واصون لنفسه عن الاهانة والاذلال، وأعون للمعطى على الاخفاء والاسرار، واسلم لقلوب الناس من الحسد وسوء الظن، أو يظهره بنية الاخلاص والصدق، واظهار المسكنة والعبودية، والتبرى عن الكبر، وتلبيس الحال وإقامة سيئة الشكر أو غير ذلك. فانه يختلف باختلاف النيات والأشخاص والاحوال، ولكل امرىء ما نوى، وكل مراقب للاحوال عارف بالفوائد والمفاسد، يمكنه الأخذ بالانفع الارجح.

---

(١) صححنا الحديث على (الكافي): ٤ / ٣٣، كتاب الزكاة، باب من كفر المعروف. ط طهران ١٣٧٧ هـ

تتميم
(زكاة الأبدان)

اعلم أنه كما في المال زكاة فكذلك للبدن زكاة، وهو نقصه ليزيد الخير والبركة لصاحبه. وهذا النقص إما أن يكون اختياراً، بأن يصرف في الطاعة ويمنع عن المعصية، أو اضطراراً، بأن يصاب بمرض وآفة. قال رسول الله ﷺ يوماً لاصحابه: «ملعون كل مال لا يزكى، ملعون كل جسد لا يزكى، ولو في كل اربعين يوماً مرة. قيل له: يار رسول الله، أما زكاة المال فقد عرفناها، فما زكاة الأجساد؟ قال ﷺ: أن يصاب بآفة». فتغيرت وجوه الذين سمعوا منه ذلك فلما رآهم قد تغيرت الوانهم، قال: «هل تدرون ما عنيت بقولي؟ فقالوا: لا يا رسول الله! قال: إن الرجل يخدش الخدشة، وينكب النكبة، ويعثر العثرة، ويمرض المرضة، ويشاك الشوكة، وما أشبه هذا...»، حتى ذكر في حديثه اختلاج العين. وقال ﷺ: «لكل شيء زكاة، وزكاة الأبدان الصيام». وقال الصادق عليه السلام: «على كل جزء من اجزائك زكاة واجبة لله عز وجل، بل على كل منبت شعر من شعرك، بل على كل لحظة من لحاظك زكاة. فزكاة العين: النظرة بالعبرة[1] والغض عن الشهوات وما يضاهيها. وزكاة الاذن: استماع العلم والحكمة والقرآن، وفوائد الدين من الموعظة والنصيحة، وما فيه نجاتك، وبالاعراض عما هو ضده من الكذب والغيبة واشباههما. وزكاة اللسان: النصح للمسلمين، والتيقظ للغافلين، وكثرة التسبيح والذكر وغيرها. وزكاة اليد: البذل والعطاء والسخاء بما أنعم الله عليك به، وتحريكها بكتابة العلم ومنافع ينتفع بها المسلمون في طاعة الله تعالى، والقبض عن الشر. وزكاة الرجل: السعي في حقوق الله، من زيارة الصالحين، ومجالس الذكر، واصلاح الناس، وصلة الارحام، والجهاد،

(١) في نسخ (جامع السعادات): «النظر بالعبر»، ولعله الأولى.

وما فيه صلاح قلبك وسلامة دينك»[١].

وثانيها:

الخمس

وقد فرضه الله تعالى على عباده صوناً لذرية نبيه ﷺ عن الافتقار، وتنزيهاً لهم عن الصدقات التي هي أو ساخ الناس، فقال سبحانه:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

والمستفاد من الآية: أن مانع الخمس لا ايمان له. وقال أمير المؤمنين عليه السلام «هلك الناس في بطونهم وفروجهم، لأنهم لا يؤدون الينا حقنا». ولا ريب في عظم الثواب والأجر في أدائه وإيصاله إلى أهله، وكيف لا وهو إعانة ذرية الرسول ﷺ وقضاء حوائجهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «حقت شفاعتى لمن أعان ذريتى بيده ولسانه وماله»[٣]. وقال ﷺ: «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتى، والقاضى لهم حوائجهم، والساعى لهم في امورهم عندما اضطروا اليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه». وقال ﷺ: «من اصطنع إلى احد من أهل بيتى يداً، كافيته يوم القيامة». وعن الصادق عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة، نادى مناد: أيها الخلائق، انصتوا، فإن محمداً يكلمكم. فتنصت الخلائق، فيقوم النبى ﷺ فيقول: يا معشر الخلائق، من

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ٢٢، وفيه اختلاف كثير عن نسخ (جامع السعادات) بما لم يخرج عن المعنى.

(٢) الانفال، الآية: ٤١.

(٣) صححنا هذا الحديث على (جامع الاخبار): الباب ٢، الفصل ٦.

كانت له عندى يدٌ أو منة أو معروف فليقم حتى أكافيه. فيقولون: بآبائنا وامهاتنا! وأى يد وأى منة وأى معروف لنا؟! بل اليد والمنة والمعروف لله ولرسوله على جميع الخلائق. فيقول لهم: بلى! من آوى احداً من أهل بيتى، أو برهم، أو كساهم من عرى، أو اشبع جائعهم، فليقم حتى اكافيه. فيقوم اناس قد فعلوا ذلك، فيأتى النداء من عند الله: يا محمد، يا حبيبى، قد جعلت مكافاتهم اليك، فأسكنهم من الجنة حيث شئت. قال: فيسكنهم في الوسيلة حيث لا يحجبون عن محمد وأهل بيته - صلوات الله عليهم -»[١]. وقد ظهر مما تقدم بعض ما تعلق به من الأسرار والآداب والشرائط الباطنة.

وينبغى أن يكون معطيه في غاية الحذر عن استعظامه وعن المن والأذى، وأن يكون في غاية التخضع والتواضع للذرية العلوية عند اعطائه إياهم، ويعلم أنه عبد من عباد الله، اعطاه مولاه نبذاً من امواله، ثم امره بأن يوصل قليلاً منها إلى ذرية نبيه ﷺ، وجعل له أيضاً في مقابلة هذا الايصال زيادة المال في الدنيا وعظيم الأجر والثواب في العقبى. فما أقبح بالعاقل - مع ذلك - أن يستعظم ما يعطيه، ويمن على أولاد نبيه ﷺ.

وثالثها:

الانفاق على الاهل والعيال

والتوسع عليهم، وهو أيضاً من الواجبات، على النحو المقرر في كتب الفقه. وما ورد في مدحه وعظم أجره أكثر من أن يحصى، قال رسول الله ﷺ: «الكاد على

---

(١) صححنا الاحاديث الثلاثة الاخيرة على (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف، ابواب الأمر بالمعروف، الباب ١٧.

عياله كالمجاهد في سبيل الله»[١]. وقال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله». وقال ﷺ: «المؤمن يأكل بشهوة أهله، والمنافق يأكل اهله بشهوته»[٢]. وقال: «أفضل الصدقة صدقة عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى، ولا يلوم الله على الكفاف»[٣]. وقال ﷺ: «دينار أنفقته على أهلك، ودينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، وأعظمها أجراً الدينار الذى انفقته على أهلك».وقال ﷺ: «ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة، وأن الرجل ليؤجر في رفع اللقمة إلى فم امرأته». وقال ﷺ: «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة». وقال ﷺ: «من كانت له ثلاث بنات، فانفق عليهن وأحسن اليهن حتى يغنيهن الله عنه، أوجب الله تعالى له الجنة، إلا أن يعمل عملا لا يغفرالله له». وقال ﷺ يوما لاصحابه: «تصدقوا. فقال رجل: إن عندى ديناراً. قال: انفقه على نفسك. فقال: إن عندى آخر قال: انفقه على زوجتك. قال: إن عندى آخر، قال: انفقه على ولدك. قال: إن عندى آخر. قال: انفقه على خادمك. قال: إن عندى آخر. قال ﷺ: أنت أبصر به»[٤]. وقال ﷺ: «ملعون ملعون من القى كله على الناس! ملعون ملعون من ضيع من يعوله!»، وقال ﷺ ـ لأمير المؤمنين عليه السلام ـ بعد ما رآه في البيت ينقى العدس، وفاطمة عليها السلام جالسة عند القدر: «اسمع منى يا أبا الحسن، وما أقول إلا من أمر ربى: ما من رجل يعين امرأته في بيتها، إلا كان له بكل شعرة على بدنه

---

(١) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب التجارة، ابواب مقدماتها، الباب ٢٢. وروى الحديث في (المستدرك) عن (غوالى اللئالى).

(٢) صححنا الحديث على الوسائل: كتاب النكاح، ابواب النفقات، الباب ٢١. وكذا الحديث الآتي: «ملعون ملعون...».

(٣) صححنا الحديث على (الوافى): ٦ / ٢٨٩، وهو بمضمونه من المشهورات التي يرويها العامة والخاصة.

(٤) صححنا الحديث على (احياء العلوم): ١ / ٢٠٣.

عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله من الثواب مثل ما اعطاه الصابرين وداود النبى ويعقوب وعيسى عليهم السلام. يا علي، من كان في خدمة العيال في البيت ولم يأنف، كتب الله اسمه في ديوان الشهداء، وكتب له بكل يوم وليلة ثواب الف شهيد، وكتب له بكل قدم ثواب حجة وعمرة، وأعطاه الله بكل عرق في جسده مدينة في الجنة. يا علي، ساعة في خدمة البيت خير من عبادة الف سنة، والف حجة، والف عمرة، وخيرمن عتق الف رقبة، والف غزوة، والف مريض عاده، والف جمعة، والف جنازة، والف جائع يشبعهم، والف عار يكسوهم، والف فرس يوجهه في سبيل الله، وخير له من الف دينار يتصدق على المساكين، وخير له من أن يقرأ التوارة والانجيل والزبور والفرقان، ومن الف أسيرة اشتراها فأعتقها، وخير له من الف بدنة يعطى للمساكين، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى مكانه في الجنة. يا علي، من لم يأنف من خدمة العيال دخل الجنة بغير حساب. يا علي، خدمة العيال كفارة للكبائر، وتطفىء غضب الرب، ومهور حور العين، وتزيد في الحسنات والدرجات. يا علي، لا يخدم العيال إلا صديق أو شهيد، أو رجل يريد الله به خير الدنيا والآخرة»(١).

وقال السجاد عليه السلام: «أرضاكم عند الله أسبغكم على عياله». وقال عليه السلام: «لئن أدخل السوق، ومعى دراهم ابتاع لعيالى لحماً، وقد قرموا(٢) اليه، أحب إلي من أن أعتق نسمة». وقال الصادق عليه السلام: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعوله». وقال عليه السلام: «من سعادة الرجل أن يكون القيم على عياله». وقال الكاظم عليه السلام: «إن عيال الرجل اسراؤه،

---

(١) صححنا الحديث على (جامع الاخبار): الباب ٨ الفصل ٣، طبع بمبئ سنة ١٣٣٨. ولم نعثر على الحديث في الكتب المعتبرة. إلا انه في (مستدرك الوسائل) نقله عن (جامع الأخبار) نفسه في ابواب مقدمات التجارة: الباب ١٧.

(٢) قال في (الوافى): ٦ / ٢٨٨، باب التوسيع على العيال، في شرح هذا الحديث: «القرم: شدة شهوة اللحم».

فمن انعم الله عليه نعمة فليوسع على اسرائه، فإن لم يفعل أو شك ان تزول النعمة». وقال ابوالحسن الرضا عليه السلام: «ينبغي للرجل ان يوسع على عياله لئلا يتمنوا موته». وقال عليه السلام: «صاحب النعمة يجب عليه التوسعة على عياله»[1]. والأخبار الواردة في ثواب الانفاق على العيال وخدمتهم والتوسع عليهم مما لا تعد كثرة. وما ذكرناه كاف لا يقاظ أهل الاستبصار.

فصل

(ما ينبغي في الانفاق على العيال)

ينبغي لطالب الأجر والثواب في إنفاق العيال: أن يقصد في كده وسعبه في تحصيل النفقة وفي انفاقه وجه الله وثواب الآخرة، إذ لا ثواب بدون القربة، وأن يجتنب عن تحصيل الحرام والشبهة، ولا يدخل على عياله إلا الحلال، إذ أخذ الحرام وانفاقه أعظم الذنوب وأشد المعاصي، وأن يقصد في التحصيل والانفاق، فليحترز عن الاقتار لئلا يضيع عياله، وعن الاسراف لئلا يضيع عمره في طلب المال، فيكون من الخاسرين الهالكين. قال الله سبحانه:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[2]. وقال: **﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾**[3]. وقال: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾**[4].

---

(١) صححنا الأحاديث، ابتداء من الرواية عن السجاد، على (الوسائل): كتاب النكاح، ابواب النفقات، الباب ٢٠ و ٢١.

(٢) الأعراف، الآية: ٣١.

(٣) الاسراء، الآية: ٢٩.

(٤) الفرقان، الآية: ٦٧.

وعن الصادق عليه السلام: «أنه تلا هذه الآية: (والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً)، فأخذ قبضة من حصى وقبضها بيده، فقال: هذا الاقتار الذي ذكره الله في كتابه. ثم أخذ قبضة اخرى، فأرخى كفه كلها، ثم قال: هذا الاسراف. ثم اخذ قبضة أخرى، فأرخى بعضها وامسك بعضها، وقال: هذا القوام»[1]. وينبغي ألا يستأثر نفسه أو بعض عياله بمأكول طيب، ولا يطعم سائرهم منه، فان ذلك يوغر الصدر ويبعد عن المعاشرة بالمعروف، إلا أن يضطر اليه، لمرض أو ضعف أو غير ذلك. وينبغي ألا يصف عندهم طعاماً ليس يريد إطعامهم إياه، وأن يقعد عياله كلهم على مائدة عند الأكل، فقد روى: «ان الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون في جماعة».

وأما الامور المستحبة من الانفاق، الداخلة تحت السخاء، فأولها:

صدقة التطوع

وفضلها عظيم، وفوائدها الدنيوية والاخروية كثيرة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تصدقوا ولو بتمرة، فانها تسد من الجائع، وتطفيء الخطيئة، كما يطفيء الماء النار». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيباً، إلا كان الله آخذها بيمينه، فيربيها له كما يربى أحدكم فصيله، حتى تبلغ التمرة مثل أحد». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «كل امرىء في ضل صدقته، حتى يقضى بين الناس». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أرض القيامة نار، ما خلا ظل المؤمن، فان صدقته تظله». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا إله إلا

---

(١) صححنا الحديث على (الوافى): ٦، ٢٩٦. باب فضل القصد بين الاسراف والتقتير.

هو، ليدفع بالصدقة الداء والدبيلة: والحرق والغرق، والهدم والجنون...» وعد سبعين باباً من الشر. وقال ﷺ: «صدقة السر تطفيء غضب الرب عز وجل»[١]. وقال ﷺ: «إذا أطرقكم سائل ذكر بالليل فلا تردوه».

وفائدة التخصيص بالذكر والليل: أن من يسألك ليلاً في صورة الانسان، يحتمل أن يكون ملكاً أتاك للامتحان، كما روى: «أنه سبحانه أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام، وقال: يا موسى، أكرم السائل ببذل يسير أو برد جميل، إنه يأتيك من ليس بإنس ولا جان، بل ملائكة من ملائكة الرحمن، يبلونك فيما خولتك، ويسألونك فيما نولتك، فانظر كيف أنت صانع يا ابن عمران». ولذلك حث رسول الله ﷺ على عدم رد السائل، وقال: «اعط السائل ولو على ظهر فرس». وقال ﷺ: «لا تقطعوا على السائل مسألته، فلولا أن المساكين يكذبون ما أفلح من ردهم». وقال الباقر عليه السلام: «البر والصدقة ينفيان الفقر، ويزيدان في العمر، ويدفعان عن صاحبهما سبعين ميتة سوء». وقال الصادق عليه السلام: «داووا مرضاكم بالصدقة، وادفعوا البلاء بالدعاء، واستنزلوا الرزق بالصدقة، فانها تفك من بين لحى سبعمائه شيطان، وليس شيء أثقل على الشيطان من الصدقة على المؤمن، وهى تقع في يد الرب تعالى قبل ان تقع في يد العبد». وقال عليه السلام: «الصدقة باليد تقى ميتة السوء، وتدفع سبعين نوعاً من البلاء، وتفك عن لحى سبعين شيطاناً كلهم يأمره ألا يفعل». وقال عليه السلام: «يستحب للمريض أن يعطى السائل بيده، ويأمره ان يدعوله». وقال عليه السلام «باكروا بالصدقة، فان البلاء لا يتخطاها، ومن تصدق بصدقة أول النهار دفع الله عنه شرما ينزل من السماء في ذلك اليوم، فان تصدق اول الليل دفع الله شر ما ينزل من السماء في تلك الليلة». وكان عليه السلام إذا أعتم ـ أى صلى العتمة ـ وذهب من الليل شطره، أخذ جراباً فيه خبز

(١) الأخبار النبوية المذكورة في هذا الفصل اغلبها عامية صححنا ها على (احياء العلوم): ج ١، بيان فضيلة الصدقة.

ولحم ودراهم، فحمله على عنقه، ثم ذهب به إلى أهل الحاجة من أهل المدينة، فقسمه فيهم ولا يعرفونه، فلما مضى أبو عبدالله عليه السلام، فقدوا ذلك، فعلموا أنه كان أبا عبدالله عليه السلام. وسئل عليه السلام عن السائل يسأل ولا يدرى ما هو، فقال: «اعط من أوقع في قلبك الرحمة». وقال عليه السلام في السؤال: «اطعموا ثلاثة، وإن شئتم أن تزدادوا فازدادوا، وإلا فقد أديتم حق يومكم». وقال عليه السلام في الرجل يعطى غيره الدراهم يقسمها، قال: «يجرى له من الأجر مثل ما يجرى للمعطى، ولا ينقص من اجره شيئاً. ولو أن المعروف جرى على سبعين يد، لأوجروا كلهم من غير أن ينقص من أجر صاحبه شيء» وقد وردت اخبار كثيرة في فضل تصدق الماء وثوابه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أول ما يبدأ به في الآخرة صدقة الماء، يعنى في الأجر». وقال أبو جعفر عليه السلام: «إن الله تعالى يحب إبراد الكبد الحراء، ومن سقى الماء كبداً حراء، من بهيمة وغيرها، أظله الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله». وقال الصادق عليه السلام: «من سقى الماء في موضع يوجد فيه الماء، كان كمن أعتق رقبة، ومن سقى الماء في موضع لا يوجد فيه الماء، كان كمن أحيى نفساً، ومن أحيى نفساً فكأنما أحيى الناس جميعاً».

(تنبيه): سئل رسول الله صلى الله عليه وآله: «أي الصدقة افضل؟ قال: أن تتصدق وانت صحيح شحيح، تأمل البقاء وتخشى الفاقة، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا».

فصل

(فضيلة الاسرار في الصدقة المندوبة)

لا كلام في أن الإسرار في الصدقة المندوبة افضل من اظهارها للمعطى في اعطائها، ويدل عليه قول الصادق عليه السلام: «الصدقة في السر والله افضل من الصدقة في

العلانية»[(١)]. وقوله عليه السلام: «كلما فرض الله عليك، فإعلانه افضل من اسراره، وكلما كان تطوعاً، فاسراره افضل من اعلانه».

وانما الكلام في أن الأفضل للآخذ في أخذها، أن يأخذها سراً أو علانية. فقيل: الأفضل له أخذها، سرّاً لانه ابقى للتعفف وستر المروة، واسلم لقلوب الناس والسنتهم من الحسد وسوء الظن والغيبة، وعون للمعطى على اسرار العمل، وقد علمت افضلية السر على الجهر في الاعطاء، وأصون لنفسه عن الاذلال والاهانة، وأخلص من شوب شركة الحضار، فان المستفاد من الاخبار: أن الحضار شركاء من اهدى له في الهدية. والظاهر ان الصدقة مثلها إذا كان الحضار من أهلها. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من اهدى له هدية وعنده قوم، فهم شركاؤه فيها». وقال الباقر عليه السلام: «جلساء الرجل شركاؤه في الهدية». وقال عليه السلام «إذا اهدى للرجل هدية من طعام، وعنده قوم، فهم شركاؤه في الهدية: الفاكهة أو غيرها». وقيل: الأفضل اخذها علانية، والتحدث بها، لتنقية الكبر والرياء، وتلبيس الحال، وايجابه الاخلاص والصدق، وإقامة منة الشكر وإسقاط الجاه والمنزلة، وإظهار العبودية والمسكنة، مع أن العارف ينبغي ألا ينظر إلا إلى الله، والسر والعلانية في حقه واحد، فاختلاف الحال شرك في التوحيد.

والحق أن الحكم بأفضلية أحدهما على الاطلاق غير صحيح، إذ تختلف فضيلة كل منهما باختلاف النيات، وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص.

فينبغي لطالب السعادة أن يراقب نفسه، ويلاحظ حاله ووقته، ويرى أن أي الحالتين من السر والجهر بالنظر إليه أقرب إلى الخلوص والقربة، وأبعد من الرياء والتلبيس وسائر الآفات، فيختار ذلك، ولا يتدلى بحبل الغرور، ولا ينخدع بتلبيس الطبع ومكر الشيطان. مثلا إذا كان طبعه مائلاً إلى الاسرار، ورأى أن باعث هذا الميل

---

(١) صححنا أغلب هذه الاخبار المروية عن أهل البيت عليهم السلام فى هذا المقام على (الوافى): ٦/ ٢٨٢، ٢٨٤ باب فضل الصدقة وباب فضل صدقة السر.

حفظ الجاه والمنزلة، وخوف سقوط القدر من أعين الناس، ونظر الخلق إليه بعين الازدراء، والى المعطى كونه منعماً محسناً اليه، أو خوف ألا يعطيه الناس بعد ذلك لعلمهم بما أخذه، فلينتقل عن الاسرار ويأخذها علانية، إذ لو ابقى نفسه على ما استكن فيها من الداء الدفين، وعمل بمقتضاها، صار هالكاً. وإن كان طبعه مائلاً إلى الاسرار، وايقن بأن باعث الميل اليه: إبقاء التعفف، وستر المروة، وصيانة الناس عن الحسد، وسوءالظن والغيبة، ولم يكن باعثه شيء من المفاسد المذكورة، فالأولى أن يأخذها سراً. ويعرف ذلك بأن يكون تألمه بانكشاف أخذه للصدقة كتألمه بانكشاف صدقة أخذها بعض اقرانه واخوانه المؤمنين، فانه إن كان طالباً لبقاء السر واعانة المعطى على الاسرار، وصيانة العلم عن الابتذال، وحفظ الناس عن الحسد والغيبةوسوء الظن، فينبغى أن يكون طالباً لها في صدقة أخيه أيضاً، إذ يحصل ما يحذر منه: من هتك الستر، وابتذال العلم، ووقوع الناس في الغيبة والحسد بانكشاف صدقة أخيه أيضاً. فان كان انكشاف صدقته اثقل عليه من انكشاف صدقة غيره، فتقديره الحذر من هذه المعانى تلبيس من النفس ومكر من الشيطان. وإذا كان طبعه مائلا إلى الاظهار، ووجد منه أن باعث هذا الميل هو التطيب لقلب المعطى، والإستحثاث له على مثله، والإظهار للغير بأنه من المبالغين في الشكر، حتى يرغبوا في الاحسان اليه، فليتنبه أن هذا الداء من الداء الدفين الذي يهلكه لو لم يعالجه، فليترك اخذها جهراً والتحدث بها، وينتقل إلى الأخذ خفية. وإن تيقن من نفسه بأن الباعث هو إقامة السنة في الشكر، والتحدث بالنعمة، واسقاط الجاه والمنزلة، واظهار العبودية والمسكنة، أو غير ذلك من المقاصد الصحيحة، من دون تطرق شيء من المفاسد المذكورة، فالاظهار افضل، ويعرف ذلك بأن تميل نفسه إلى الشكر، حيث لا ينتهى الخبر إلى المطعى ولا إلى من يرغب في عطائه، وبين يدى جماعة يعلم أنهم يكرهون إظهار العطية، ويرغبون في اخفائها، وعادتهم ألا يعطوها إلا من يخفيها

ولا يتحدَّثُ بها ولا يشكر عليها. ثم إذا جزم بكون الباعث إقامة السنة في الشكر، فينبغي أن يغفل عن قضاء حق المعطى، فينظر أنه إن كان ممن يحب الشكر والنشر فيخفى الأخذ ولا يشكر، لأن قضاء حقه ألا ينصره على الاثم، وإن كان ممن لا يحب الشكر ولا يطلب النشر، فالأولى ان يشكره ويظهر صدقته.

وينبغي لكل من يراعى قلبه أن يلاحظ هذه الدقائق ولا يهملها، إذ إعمال الجوارح مع اهمالها ضحكة للشيطان وشماتة له، لكثرة التعب فيها مع عدم تصور نفع لها، والعلم بهذه الدقائق وملاحظتها هو العلم الذي ورد فيه أن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة، إذ بهذا العلم تحيى عبادة العمر، وبالجهل به تموت عبادة العمر.

وثانيها:

الهدية

وهى ما يعطى ويرسل إلى أخيه المسلم، فقيراً كان أم غنياً، طلباً للاستيناس، وتأكيداً للصحبة والتودد. وهو مندوب إليه من الشرع، ومع سلامة القصد والنية يكون عبادة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تحابوا تهادوا، فانها تذهب بالضغائن». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو أهدى إلي ذراع لقبلت». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لان اهدى لأخى المسلم هدية أحب إلي من أن أتصدق بمثلها». وقال عليه السلام: «من تكرمة الرجل لأخيه المسلم، أن يقبل تحفته وأن يتحفه بما عنده، ولا يتكلف له شيئاً».

وثالثها:

الضيافة

وثوابها جزيل، وأجرها جميل، وفضلها عظيم، وثمرها جسيم. قال رسول

الله ﷺ: «لا خير فيمن لا يضيف». ومر ﷺ برجل له إبل وبقر كثير، فلم يضفه، ومر بامرأة لها شويهات، فذبحت له، فقال ﷺ: «انظروا اليهما، فانما هذه الأخلاق بيد الله عز وجل، فمن شاء أن يمنحه خلقاً حسناً فعل». وقال ﷺ: «الضيف إذا جاء فنزل بالقوم، جاء برزقه معه من السماء، فإذا أكل غفر الله لهم بنزوله». وقال: «ما من ضيف حلّ بقوم إلا ورزقه في حجره». وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه». وقال ﷺ: «لا تزال امتى بخير: ما تحابوا، وأدوا الأمانة، واجتنبوا الحرام، وأقرأوا الضيف، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة فإذا لم يفعلوا ذلك ابتلوا بالقحط والسنين». وقال ﷺ: «إذا أراد الله بقوم خيراً أهدى لهم هدية. قالوا: وما تلك الهدية؟ قال: الضيف ينزل برزقه، ويرتحل بذنوب أهل البيت». وقال ﷺ: «كل بيت لا يدخل فيه الضيف لا تدخله الملائكة». وقال ﷺ: «الضيف دليل الجنة». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما من مؤمن يحب الضيف إلا ويقوم من قبره ووجهه كالقمر ليلة البدر، فينظر أهل الجمع، فيقولون: ما هذا إلا نبى مرسل! فيقول ملك: هذا مؤمن يحب الضيف ويكرم الضيف، ولا سبيل له إلا أن يدخل الجنة». وقال عليه السلام: «ما من مؤمن يسمع بهمس الضيف وفرح بذلك، إلا غفرت له خطاياه، وإن كانت مطبقة بين السماء والأرض». وبكى عليه السلام يوماً، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «لم يأتنى ضيف منذ سبعة أيام، اخاف أن يكون الله قد أهاننى». وعن محمد بن قيس عن ابى عبدالله عليه السلام، قال: «ذكر اصحابنا قوماً، فقلت: والله ما اتغدّى ولا اتعشى إلا ومعى منهم اثنان أو ثلاثة أو أقل أو اكثر، فقال عليه السلام: فضلهم عليك اكثر من فضلك عليهم. قلت: جعلت فداك !كيف ذا وانا أطعمهم طعامى، وانفق عليهم من مالى، ويخدمهم خادمى؟ فقال: إذا دخلوا عليك دخلوا من الله بالرزق الكثير، وإذا خرجوا خرجوا بالمغفرة لك». وكان ابراهيم الخليل عليه السلام إذا أراد أن يأكل، خرج ميلاً أو ميلين يلتمس من يتغدى معه، وكان يكنى (ابا الضيفان).

وجميع الأخبار الواردة في فضيلة إطعام المؤمن وسعيه تدل على فضيلة الضيافة، كقوله ﷺ بعد سؤاله عن الحج المبرور: «هو إطعام الطعام وطيب الكلام». وقال ﷺ: «من أطعم ثلاثة نفر من المسلمين اطعمه الله من ثلاث جنان في ملكوت السماوات: الفردوس، وجنة عدن، وطوبى شجرة تخرج في جنة عدن غرسها ربنا بيده». وقول الصادق عليه السلام «من أشبع مؤمناً وجبت له الجنة». وقوله عليه السلام: «من اطعم مؤمناً حتى يشبعه، لم يدر أحد من خلق الله ماله من الأجر في الآخرة، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، إلا الله رب العالمين». وسئل ﷺ: «ما الايمان؟ فقال:إطعام الطعام، وبذل السلام». وقال: «إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، يسكنها من أمتي من أطاب الكلام، واطعم الطعام، وافشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام». وقال ﷺ «من أحب الأعمال إلى الله تعالى: إشباع جوعة المؤمن، وتنفيس كربته، وقضاء دينه». وقال ﷺ: «إن الله يحب الاطعام في الله، ويحب الذي يطعم الطعام في الله، والبركة في بيته اسرع من الشفرة في سنام البعير». وقال ﷺ: «خيركم من أطعم الطعام». وقال ﷺ: «من أطعم الطعام أخاه المؤمن حتى يشبعه، وسقاه حتى يرويه، بعده الله من النارسبع خنادق، ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام». وفي الخبر: «ان الله تعالى يقول للعبد في القيامة: يا ابن آدم، خفت فلم تطعمني. فيقول: كيف اطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: جاع أخوك فلم تطعمه، ولو اطعمته كنت اطعمتني». وقال ﷺ: «من سقى مؤمناً من ظمأ، سقاه الله من الرحيق المختوم». وقال ﷺ: «من سقى مؤمناً شربة من ماء من حيث يقدر على الماء، أعطاه الله بكل شربة سبعين الف حسنة، وإن سقاه من حيث لا يقدر على الماء، فكأنما اعتق عشر رقاب من ولد اسماعيل»[1].

---

(١) صححنا احاديث هذا الفصل على (البحار): ٤ مج ١٥ / ١١٠، باب اطعام المؤمن و٢٤٢ ـ ٢٤٤: باب

فصل

(ما ينبغى أن يقصد في الضيافة)

ينبغى أن يقصد في ضيافته التقرب إلى الله، والتسنن بسنة رسول الله، واستمالة قلوب الاخوان، وادخال السرور على قلوب المؤمنين، ولا يقصد به الرياء والمفاخرة والمباهاة، وإلا ضاع عمله، وأن يدعو الفقراء والأتقياء، وإن كان في ضيافة الأغنياء ومطلق الناس فضيلة أيضاً. وينبغى ألا يهمل في ضيافة الأقارب والجيران، إذ اهمالهم قطع رحم وايحاش، وألا يدعو من يعلم أنه تشق عليه الاجابة. وينبغى أن يعجل في إحضار الطعام، لأنه من إكرام الضيف، وقد ورد: «أن العجلة من الشيطان، إلا في خمسة أشياء، فإنها من سنة رسول الله ﷺ: اطعام الضيف، وتجهيز البيت، وتزويج البكر، وقضاء الدين، والتوبة من الذنوب». وأن يحضر من الطعام قدر الكفاية، إذ القليل عنه نقص في المروة، والزيادة عليه تضييع، وان يسعى في إكرام الضعيف: من طلاقة الوجه، وطيب الكلام معه عند دخوله وخروجه وعلى المائدة، والخروج معه إلى باب الدار إذا خرج، قال رسول الله ﷺ: «إن من سنة الضيف أن يشيعه إلى باب الدار». ومما ينبغى له ألا يستخدم الضيف، قال الباقر عليه السلام: «من الجفاء استخدام الضيف». وكان عند الرضا عليه السلام ضيف، فكان يوماً في بعض الحوائج، فنهاه عن ذلك، وقام بنفسه إلى تلك الحاجة، وقال: «نهى رسول الله ﷺ عن أن يستخدم الضيف».

فصل

(آداب الضيافة)

ينبغى لكل مؤمن أن يجيب دعوة أخيه إلى الضيافة، من غير أن يفرق بين

⇐ آداب الضيف. وعلى (الكافي): باب اطعام المؤمن. وعلى (الوسائل): في آداب المائدة من كتاب الاطعمة والاشربة.

الغنى والفقير، بل يكون أسرع اجابة إلى دعوة الفقير، وألا يمنعه بعد المسافة عن الاجابة إذا امكن احتمالها عادة. قال رسول الله ﷺ: «أوصى الشاهد من أمتى والغائب، أن يجيب دعوة المسلم ولو على خمسة أميال، ولا يمنعه صوم التطوع عن الاجابة، بل يحضر، فإن علم سرور أخيه بالافطار فليفطر، ويحتسب في إفطاره أفضل ما يحتسب في صومه». وقال الصادق عليه السلام: «من دخل على أخيه وهو صائم، فأفطر عنده ولم يعلمه بصوم فيمن عليه، كتب الله له صوم سنة، وان علم أنه متكلف ولا يسر بافطاره فليتعلل».

وينبغى ألا يقصد بالاجابة قضاء شهوة البطن، ليدخل عمله في أمور الدنيا، بل ينوى الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، وإكرام اخيه المؤمن، ليكون في عمله مطيعاً لله مثابا في الآخرة، وأن يحترز عن الاجابة إذا كان الداعى من الظلمة أو الفساق، أو كانت ضيافته للفخر والمباهاة، ومن كان طعامه حراماً أو شبهة، أو لم يكن موضعه أو بساطه المفروش حلالاً، أو كان في الموضع شيء من المنكرات، كإناء فضة، أو تصوير حيوان على سقف أو حائط، أو أحد آلات اللهو من المزامير وأمثالها، أو التشاغل بشيء من اللهو واللعب والهزل، فكل ذلك مما يمنع الاجابة، ويوجب تحريمها أو كراهيتها. قال الصادق عليه السلام: «لا ينبغى للمؤمن أن يجلس مجلساً يعصى الله تعالى فيه ولا يقدر على تغييره. ومن ابتلى بحضور طعام ظالم إكراهاً وتقية، فليقلل الأكل، ولا يأكل أطايب الأطعمة».

وينبغى للضيف ـ أيضاً ـ إذا دخل الدار ألا يصدر، ولا يقصد أحسن الأماكن، بل يتواضع ويرضى بالدون من المجلس، وإن أشار إليه صاحب الدار بموضع فلا يخالفه ويجلس فيه، وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع أو الانحطاط، وألا يجلس في مقابله باب حجرة النسوان، ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام، فإنه دليل الشره وخسة النفس، وأن يخص بالتحية والسلام أولاً من يقرب منه.

وينبغي لمن دعي إلى الضيافة ألا يطول الانتظار عليهم، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد.

ورابعها:

الحق المعلوم وحق الحصاد والجذاذ

والمراد من الأول: ما يعرضه الرجل ويقدره في ماله، من قليل أو كثير، غير الصدقات الواجبة، يعطيه محتاجاً أو يصل به رحمه. والمراد بالثاني: ما يعطى به إلى الفقراء من الضغث بعد الضغث: أي القبضة بعد القبضة من الزرع يوم حصاده، ومن الحفنة بعد الحفنة: أي ملء الكف من التمر أو الحنطة أو غيرهما من الثمار والفواكه والحبوبات عند قطعها وتصفيتها. وهذان النوعان من الانفاق معدودان في صدقة التطوع، وقد وردت بخصوصهما اخبار كثيرة لشدة استحبابهما. قال الصادق عليه السلام: «إن الله فرض للفقراء في اموال الأغنياء فريضة لا يحمدون إلا بأدائها، وهي الزكاة، بها حقنوا دماءهم، وبها سموا مسلمين، ولكن الله تعالى فرض في أموال الأغنياء حقوقاً غير الزكاة، فقال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾[1].

والحق المعلوم غير الزكاة، وهو شيء يفرضه الرجل على نفسه في ماله، يجب عليه أن يفرضه على قدر طاقته وسعة ماله، فيؤدى الذي فرض على نفسه إن شاء كل يوم، جمعة وإن شاء كل جمعة وإن شاء في كل شهر»[2]. وقال عليه السلام: «الحق المعلوم ليس من الزكاة، هو الشيء تخرجه من مالك، إن شئت كل جمعة، وإن شئتَ كل شهر، ولكل ذى فضل فضله، وقول الله تعالى: (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير

(١) المعارج، الآية: ٢٤

(٢) صححنا الحديث على (الوافى): ٦ / ٢٨١، باب جملة ما يجب في المال من الحقوق.

لكم)، فليس من الزكاة، والماعون ليس من الزكاة، وهو المعروف تصنعه والقرض تقرضه ومتاع البيت تعيره، وصلة قرابتك ليس من الزكاة. وقال الله تعالى: (والذين في اموالهم حق معلوم)، فالحق المعلوم غير الزكاة، وهو شيء يفرضه الرجل على نفسه انه في ماله ونفسه، ويجب له أن يفرضه على قدر طاقته ووسعه»[١]. وقال عليه السلام: «وإن عليكم في أموالكم غير الزكاة. فقلت: اصلحك الله، وما علينا في اموالنا غير الزكاه؟ فقال: سبحان الله! أما تسمع قول الله تعالى؟ يقول في كتابه:

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[٢].

قال: قلت: فماذا الحق المعلوم الذي علينا؟ قال: هو والله الشيء يعلمه الرجل في ماله، يعطيه في اليوم أو في الجمعة أو الشهر، قل أو كثر غير أنه يدوم عليه»[٣]. وقال عليه السلام في قول الله تعالى: (في أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم): «هو الرجل يؤتيه الله الثروة من المال، فيخرج منه الألف والألفين والثلاثة آلاف والأقل والاكثر، فيصل به رحمه، ويحمل به الكل عن قومه». وقال عليه السلام: «في الزرع حقان: حق تؤخذ به، وحق تعطيه. قلت: وما الذي أؤخذ به وما الذي أعطيه؟ قال: أما الذي تؤخذ به، فالعشر ونصف العشر، وأما الذي تعطيه، فقول الله:

﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[٤].

يعني من حصدك الشيء ثم الشيء ـ ولا اعلمه إلا قال الضغث ثم الضغث ـ

---

(١) نفس المصدر: باب جملة ما يجب فيه الزكاة. (الوسائل): ٢ / ٧، باب الحقوق في المال سوى الزكاة.

(٢) المعارج، الآية: ٢٤، ٢٥.

(٣) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٨١، باب جملة ما يجب في المال من الحقوق وعلى (الوسائل): ٢ / ٧ باب جملة ما يجب فيه الزكاة.

(٤) الانعام، الآية: ١٤١.

حتى تفرغ»[١]. وقال عليه السلام: «لا تصرم بالليل، ولا تحصد بالليل، ولا تضح بالليل، ولا تبذر بالليل. فإنك إن فعلت ذلك لم يأتك القانع والمعتر. فقلت: وما القانع والمعتر؟ فقال: القانع: الذي يقنع بما أعطيته، والمعتر: الذي يمر بك فيسألك. وإن حصدت بالليل لم يأتك السؤال، وهو قول الله تعالى: (وآتوا حقه يوم حصاده) عند الحصاد، يعنى القبضة بعد القبضة إذا حصدته، فإذا خرج فالحفنة بعد الحفنة، وكذلك عند الصرام، وكذلك عند البذر. ولا تبذر بالليل، لأنك تعطى من البذر كما تعطى من الحصاد». وقال الباقر عليه السلام في قول الله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده): «هذا من الصدقة، يعطى المسكين القبضة بعد القبضة، ومن الجذاذ الحفنة بعد الحفنة، حتى يفرغ». وفي مضمون هذه الأخبار اخبار كثيرة أخر.

وخامسها:

القرض

وهو أيضاً من ثمرات السخاء، لأن السخي تسمح نفسه بأن يقرض أخاه المحتاج بعض أمواله إلى حين استطاعته، كما تسمح نفسه بأن يبذل عليه أصل ماله، والبخيل يشق عليه ذلك. وثواب القرض عظيم، وفضله جسيم. قال الباقر عليه السلام «من أقرض رجلاً قرضاً إلى ميسرة، كان ماله في زكاة، وكان هو في الصلاة مع الملائكة حتى يقبضه». وقال الصادق عليه السلام: «مكتوب على باب الجنة: الصدقة بعشرة، والقرض بثمانية عشر». وقال عليه السلام: «ما من مؤمن أقرض مؤمناً يلتمس به وجه الله، إلا حسب الله له أجره بحساب الصدقة، حتى يرجع ماله اليه، يعنى اعطاه الله في كل آن اجر صدقة، ذلك لأن له قضاءه في كل آن، فلما لم يفعل فكانما أعطاه ثانياً وثالثاً وهلم

---

(١) صححنا الحديث على (الوافى): ٦ / ٢٨٢. وعلى (فروع الكافى): كتاب الزكاة، باب الحصاد والجذاذ وكذا ما بعده.

جرا، إلى أن يقبضه». وقال عليه السلام: «لا تمانعوا قرض الخمير والخبز واقتباس النار، فإنه يجلب الرزق على أهل البيت مع ما فيه من مكارم الأخلاق». وقال: «لا تمانعوا قرض الخمير والخبز، فإن منعهما يورث الفقر»[١].

وسادسها:

انظار المعسر والتحليل

وهو أيضاً من أفراد البذل المترتب على السخاء، وقد ورد في فضله اخبار كثيرة، قال الصادق عليه السلام: «من أراد أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فلينظر معسراً، أو يدع له من حقه». وقال عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في يوم حار - وحنا كفه -: من أحب أن يستظل من فور جهنم؟ - قالها ثلاث مرات - فقال الناس في كل مرة: نحن يا رسول الله. فقال: من أنظر غريماً أو ترك المعسر» وقال عليه السلام: «صعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنبر ذات يوم، فحمد الله واثنى عليه، وصلى على انبيائه، ثم قال: ايها الناس، ليبلغ الشاهد الغائب منكم، ألا ومن انظر معسراً كان له على الله في كل يوم ثواب صدقة بمثل ماله، حتى يستوفيه». وقيل له عليه السلام: «إن لعبد الرحمن بن سبابة ديناً على رجل قد مات، وقد كلمناه ان يحلله فأبى، فقال: ويحه! أما يعلم أن له بكل درهم عشرة إذا حلله، وإن لم يحلله فإنما هو درهم بدرهم؟»[٢]. وفي معناها اخبار كثيرة اخر.

وسابعها:

بذل الكسوة والسكنى ونحوهما

غير ما ذكر من وجوه الاعانة بالمسلم، كبذل الكسوة والسكنى، وحمله على

---

(١) صححنا الاحاديث الواردة في هذا المقام على (الوافي): ٦/ ٢٩٢، باب القرض.

(٢) صححنا جميع الاحاديث الواردة في هذا المقام على (الوافي): ٦/ ٢٩٢، باب انظار المعسر والتحليل. وعلى (فروع الكافي): باب انظار المعسر، كتاب الزكاة.

الدابة، واعطائه الماعون واعارته المتاع وسائر ما يحتاج اليـه، واطـراق الفـحل وغـير ذلك، فإن جميع ذلك من ثمرات السخاء، ومنعها من نتائج البـخل. وفـي كـل واحـد منها فضيلة وثواب: وورد في فضيلة كل منها اخبار.

ومما يدل على مدح كسوة المؤمن، قول الباقر عليه السلام: «لإن أحـج حـجة أحب إلي من ان اعتق رقبة ورقبة ورقبة (حتى انتهى إلى عشرة)، ومثلها ومثلها (حتى انتهى إلى سبعين). ولإن اعول أهل بيت من المسلمين، اشبع جوعتهم، واكسو عورتهم، واكف وجوههم عن الناس، أحب إلي من ان احج حجة وحـجة (حـتى انـتهى إلى عشـرة)، وعشر مثلها ومثلها (حتى انتهى إلى سبعين)»[١]. وقال الصـادق عليه السلام: «مـن كسـا أخـاه كسوة شتاء أو صيف، كان حقاً على الله أن يكسوه من ثياب الجنة، وأن يهون عليه من سكرات الموت، وأن يوسع عليه فـي قـبره، وأن يـلقى المـلائكة إذا خـرج مـن قـبره بالبشرى. وهو قول الله عز وجل في كتابه:

﴿وَتَتَلَقَّيهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٢].

وقال: «من كسا أحداً من فقراء المسلمين ثوبا مـن عـرى، أو اعـانه بشـيء مـما يقويه على معيشته، وكل الله عز وجل به سبعة آلاف ملك من المـلائكة، يسـتغفرون لكل ذنب عمله، الى أن ينفخ في الصور»[٣].

وثامنها:

ما يبذل لوقاية العرض والنفس

ما يبذل لوقاية العرض، وحفظ الحرمة، ورفع شر الاشرار وظـلم الظـلمة. فـإن

(١) صححنا الحديث على (الوافى): ٦ / ٢٨٢، باب فضل الصدقة.

(٢) الأنبياء، الآية: ١٠٣.

(٣) صححنا الاحاديث الواردة في هذا المقام على (الكافى): باب من كسا مؤمناً.

السخى لا يقصرفي شيء من ذلك، والبخيل ربما منع بخله عن ذلك، فيهتك عرضه ويذهب حرمته. وفي بعض الأخبار دلالة على أن البذل لذلك صدقة. وتقدم أن ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة، وكذا بذل ما تقتضيه المروة والعادة من ثمرات الجود والسخاء، ومن منعه كان بخيلا.

وتاسعها:

ما ينفق في المنافع العامة

والخيرات الجارية، من بناء المساجد والمدارس والربط والقناطير، واجراء القنوات، وأمثال ذلك مما يبقى أثره على مر الدهور، ويصل نفعه وثوابه إلى صاحبه في كل وقت إلى يوم النشور. ولا يخفى ثواب ذلك. والأخبار الواردة في مدحه وفضيلته أكثر من أن تحصى، ولا حاجة إلى ذكرها لاشتهارها بين الناس.

تنبيه

(الفرق بين الانفاق والبر والمعروف)

اعلم أن لفظ الانفاق والمعروف والبر يتناول جميع ما تقدم من الانفاقات الواجبة والمستحبة. والفرق بينها: أن الانفاق خاص بالمال، والمعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والاحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع من فعل وترك، وهو من الصفات الغالبة، اى أمر معروف بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه، والغالب في الأخبار ارادة ما يتعلق بالمال من معانيه. والبر كالمعروف في شموله لجميع أعمال الخير في الأصل، وانصراف اطلاقه غالباً في الأخبار إلى ما يتعلق بالمال من وجوه الانفاقات المتقدمة بأسرها، وربما خص بما سوى الصدقة منها، لما ورد: أن البر والصدقة ينفيان الفقر ويزيدان في العمر. والظاهر أن مبنى الخبر

على ذكر الخاص بعد العام، فلا وجه للتخصيص. ثم الصدقة تتناول جميع ما تقدم من وجوه الانفاق، سوى المروة. وعلى أي تقدير، لا ريب في أن ما ورد من الآيات والأخبار في فضيلة مطلق الانفاق والمعروف والبر يدل على فضيلة كل واحد مما تقدم من وجوه الانفاق، كقوله سبحانه:

﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ﴾[1]. وقوله: **﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾**[2]. وقوله: **﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ...﴾** الآية[3]. وقوله: **﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ...﴾** الآية[4]. وقوله: **﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾**[5]. وقوله: **﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ...﴾** الآية[6]. وقوله: **﴿ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[7].

وقول رسول الله ﷺ: «أول من يدخل الجنة المعروف وأهله، وأول من يرد علي الحوض». وقوله ﷺ: «إن البركة أسرع إلى البيت الذي يمتار فيه المعروف من الشفرة في سنام الجزور، أو من السيل إلى منتهاه». وقول الباقر عليه السلام: «إن من أحب عباد الله إلى الله، لمن حبب إليه المعروف وحبب إليه فعاله». وقول الصادق عليه السلام: «إن

(١) البقرة، الآية: ٢٦٧.

(٢) البقرة، الآية: ٢٧٢.

(٣) البقرة، الآية: ١٧٧.

(٤) البقرة، الآية: ٢١٥.

(٥) البقرة، الآية: ٢٥٤.

(٦) البقرة، الآية: ٢٦١.

(٧) البقرة، الآية: ٢٦٢.

من بقاء المسلمين وبقاء الإسلام أن تصير الأموال عند من يعرف فيها الحق ويصنع المعروف، وإن من فناء الاسلام وفناء المسلمين أن تصير الاموال في ايدى من لا يعرف فيها الحق ولا يصنع فيها المعروف». وقوله عليه السلام: «رأيت المعروف كاسمه، وليس شيء أفضل من المعروف إلا ثوابه». وقوله عليه السلام مخاطباً لزرارة: «ثلاثة إن تعلمهن المؤمن كانت زيادة في عمره وبقاء لنعمه عليه. فقلت: وما هن؟ فقال: تطويله في ركوعه وسجوده في صلاته، وتطويله لجلوسه على طعامه إذا أطعم على مائدته، واصطناعه المعروف إلى أهله». وقوله عليه السلام «أقيلوا لأهل المعروف عثراتهم، واغفروا لهم، فإن كف الله عليهم هكذا ـ وأومأ بيده كأنه يظلل بها شيئاً». وقوله عليه السلام: «صنائع المعروف تقى مصارع السوء». وقال عليه السلام: «إن للجنة باباً يقال له المعروف، لا يدخله إلا أهل المعروف وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»: يعنى كما أنهم يصنعون المعروف في الدنيا كذلك يصنعونه في الآخرة، يهبون حسناتهم لمن شاؤا، كما قال الصادق عليه السلام في خبر آخر: «يقال لهم في الآخرة: إن ذنوبكم قد غفرت لكم، فهبوا حسناتكم لمن شئتم وادخلوا الجنة». وقال عليه السلام: «قال اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: يا رسول الله، فداك آباؤنا وامهاتنا! إن اصحاب المعروف في الدنيا عرفوا بمعروفهم، فبم يعرفون في الآخرة؟ فقال صلى الله عليه وآله: إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة، أمر ريحاً عبقة طيبة فلصقت بأهل المعروف، فلا يمر أحد منهم بملأ من أهل الجنة إلا وجدوا ريحه، فقالوا: هذا من أهل المعروف»[1].

ومنها ـ أى من رذائل القوة الشهوية ـ:

---

(١) صححنا الاحاديث الواردة هنا على (الوافى): ٦ / ٢٨٩ ـ ٢٩٠. وعلى (الوسائل) ٢: كتاب الأمر بالمعروف، ابواب فعل المعروف، الباب ١ ـ ٦.

طلب الحرام

وعدم الاجتناب عنه. ولا ريب في كونه مترتباً على حب الدنيا والحرص عليها، وهو اعظم المهلكات، به هلك اكثر من هلك، وجل الناس حرموا عن السعادة لاجله، ومنعوا عن توفيق الوصول إلى الله بسببه. ومن تأمل يعلم أن اكل الحرام اعظم الحجب للعبد من نيل درجة الأبرار، وأقوى الموانع له عن الوصول إلى عالم الأنوار، وهو موجب لظلمة القلب وكدرته، وهو الباعث لخبثه وغفلته، هو العلة العظمى لخسران النفس وهلاكها، وهو السبب الأقوى لضلالتها وخباثتها، هو الذي أنساها عهود الحمى، وهو الذي أهواها في مهاوى الضلالة والردى، وما للقلب المتكون من الحرام والاستعداد لفيوضات عالم القدس! وأنى للنطفة الحاصلة منه والوصول إلى مراتب الأنس! وكيف يدخل النور والضياء في قلب أظلمته أدخنة المحرمات ؟! وكيف تحصل الطهارة والصفاء لنفس اخبثتها قذارات المشتبهات؟!

ولأمر ما حذر عنه اصحاب الشرع وأمناء الوحى غاية التحذير، وزجروا منه أشد الزجر. قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملك على بيت المقدس، ينادى كل ليلة: من أكل حراماً لم يقبل منه صرف ولا عدل»: أى لا نافلة ولا فريضة. وقال ﷺ: «من لم يبال من أين اكتسب المال، لم يبال الله من أين ادخله النار». وقال ﷺ: «كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به». وقال ﷺ: «من أصاب مالاً من مأثم، فوصل به رحماً أو تصدق به أو أنفقه في سبيل الله، جمع الله ذلك جمعاً، ثم أدخله في النار». وقال ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتى من بعدى هذه المكاسب الحرام، والشهوة الخفية، والربا». وقال ﷺ: «من اكتسب مالاً من الحرام، فإن تصدق به لم يقبل منه، وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار»[١]. وقال الصادق عليه السلام: «إذا اكتسب

(١) هذه النبويات ـ عدا الخامس ـ مذكورة في (احياء العلوم): ٢ / ٨١ وصححناها عليه. اما الخامس، فقد رواه في (الوسائل) عن (الكافى): كتاب التجارة، ابواب ما يكتسب منه، الباب ١، الحديث ١.

الرجل مالاً من غير حله، ثم حج فلبى، نودى: لا لبيك ولا سعديك! وإن كان من حله، نودى: لبيك وسعديك!»(١). وقال عليه السلام: «كسب الحرام يبين في الذرية». وقال عليه السلام في قوله تعالى:

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾(٢):

«ان كانت أعمالهم أشد بياضاً من القباطي، فيقول الله عز وجل لها: كوني هباء. وذلك أنهم كانوا إذا شرع لهم الحرام أخذوه»(٣). وقال الكاظم عليه السلام: «إن الحرام لا ينمى، وإن نمى لم يبارك فيه، وإن انفقه لم يؤجر عليه، وما خلفه كان زاده إلى النار». وفي بعض الأخبار: «أن العبد ليوقف عند الميزان، وله من الحسنات أمثال الجبال، فيسأل عن رعاية عياله والقيام بهم، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم انفقه، حتى تفنى تلك المطالبات كل أعماله، فلا تبقى له حسنة. فتنادى الملائكة: هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا، وارتهن اليوم باعماله». وورد: «أن اهل الرجل وأولاده يتعلقون به يوم القيامة، فيوقفونه بين يدى الله تعالى، ويقولون: يا ربنا، خذ لنا بحقنا منه، فانه ما علمنا ما نجهل، وكان يطعمنا من الحرام ونحن لا نعلم. فيقتص لهم منه»(٤).

---

(١) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب التجارة، ابواب ما يكتسب به، باب عدم جواز الانفاق من الكسب الحرام، الحديث ٣. وفي نسخ (جامع السعادات): «إذا كسب».

(٢) الفرقان، الآية: ٢٣.

(٣) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب التجارة، ابواب ما يكتسب به، الباب ١، الحديث ٦. وكذا ما قبله في هذا الباب، الحديث ٣.

(٤) هذان الخبران الاخيران لم نعثر لهما على مستند. وقد ذكرهما في (احياء العلوم): ٣ / ٣٠، فقال عن الأول: «وفي الخبر»، وعن الثاني: «ويقال».

فصل

(عزة تحصيل الحلال)

ينبغي لطالب النجاة أن يفر من الحرام فراره من الأسد، ويحترز منه احترازه من الحية السوداء، بل أشد. وأنى يمكنه ذلك في أمثال زماننا الذي لم يبق فيه من الحلال إلا الماء الفرات والحشيش النابت في ارض الموات، وما عداه قد أخبثته الأيدى العادية، وأفسدته المعاملات الفاسدة! ما من درهم إلا وقد غصب من أهله مرة بعد أولى، وما من دينار إلا وقد خرج من ايدى من أخذه قهراً كرة غب أولى، جل المياه والأراضى من أهلها مغصوبة، وأنى يمكن القطع بحلية الأقوات واكثر المواشى والحيوانات من أهلها منهوبة، فأنى يتأتى الجزم بحلية اللحوم والألبان والدسوم. فهيهات ذلك هيهات! ما من تاجر إلا ومعاملته مع الظالمين، وما من ذى عمل إلا وهو مخالط للجائرين من عمال السلاطين.

وبالجملة: الحلال في امثال زماننا مفقود، والسبيل دون الوصول إليه مسدود. ولعمرى! أن فقده آفة عم في الدين ضررها، ونار استطار في الخلق شررها. والظاهر أن اكثر الأعصار كان حالها كذلك. ولذلك قال الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «المؤمن يأكل في الدنيا بمنزلة المضطر». وقال رجل للكاظم عليه السلام: «ادع الله جل وعز أن يرزقنى الحلال، فقال: أتدرى ما الحلال؟ قال: الكسب الطيب. فقال: كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: الحلال قوت المصطفين ولكن قل: أسالك من رزقك الواسع». ومع ذلك كله، لا ينبغى للمؤمن أن ييأس من تحصيل الحلال، ويترك الفرق والفصل بين الأموال، فان الله سبحانه أجل وأعظم من أن يكلف عباده بأكل الحلال ويسد عنهم طريق تحصيله.

فصل
(أنواع الأموال)

اعلم أن الأموال على أقسام ثلاثة: حلال بين، وحرام بين، وشبهات بينهما. ولكل منها درجات، فان الحرام وإن كان كله خبيثاً، إلا أن بعضه أخبث من بعض، فان مايؤخذ بالمعاملة الفاسدة مع التراضي ليس في الحرمة كمال اليتيم الذي يؤخذ قهراً. وكذا الحلال وإن كان كله طيباً، إلا أن بعضه أطيب من بعض. والشبهة كلها مكروهة، ولكن بعضها أشد كراهة من بعض. وكما أن الطبيب يحكم على كل حلوا بالحرارة، ولكن يقول بعضه حار في الدرجة الأولى، وبعضه في الثانية، وبعضه في الثالثة، وبعضه في الرابعة، فكذلك الحرام بعضه خبيث في الدرجة الأولى، وبعضه في الثانية، وبعضه في الثالثة، وبعضه في الرابعة. وكذلك درجات الحلال في الصفاء والطيبة، ودرجات الشبهة في الكراهة.

ثم الحرام إما يحرم لعينه، كالكلب والخنزير والتراب وغيرها من المحرمات العينية، أو لصفة حادثة فيه، كالخمر لاسكاره، والطعام المسموم لسميته، أو لخلل في جهة اثبات اليد عليه. وله أقسام غير محصورة، كالمأخوذ بالظلم والقهر والغصب والسرقة والخيانة في الأمانة وغيرها، والغش والتلبيس والرشوة، وبالبخس في الوزن والكيل، وبإحدى المعاملات الفاسدة، من الربا والصرف والاحتكار، وغير ذلك مما هو مذكور في كتب الفقه. وقد نهى الله سبحانه عن جميع ذلك في آيات كثيرة، كقوله تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾(١). وقوله: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا**...الآية﴾(٢). وعن خصوص الربا بقوله: **﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ**

---

(١) البقرة، الآية: ١٨٨.

(٢) النساء، الآية: ١٠.

مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، ثم قال: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ثم قال: ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾[١]، ثم قال: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[٢].

جعل أكل الربا في أول الأمر مؤدياً إلى محاربة الله، وفي آخره متعرضاً للنار. وقد ورد الذم الشديد على كل واحد منها بخصوصه في أخبار كثيرة، وهى في كتب الأخبار والفقه مذكورة، وتفصيل جميع المحرمات موكولٌ إلى كتب الفقه، وليس هنا موضع بيانه، فليرجع فيه إلى كتب الفقهاء.

الفرق بين الرشوة والهدية

وربما يتوهم الاشتباه في بعض الموارد بين الرشوة والهدية، فلنشر إلى جلية الحال فيهما، فنقول: ههنا صور:

الأولى ـ أن يسلم أو يرسل مالاً إلى بعض الاخوان طلباً للاستئناس، وتأكيداً للصحبة والتودد. وقد عرفت كونه هدية وحلالاً، سواء قصد به الثواب في الآخرة والتقرب إلى الله تعالى أيضاً، أو لم يقصد به الثواب، بل قصد مجرد الاستئناس والتودد.

الثانية ـ أن يقصد بالبذل عوض مالي معين في العاجل، كأن يهدى الفقير إلى الغنى أو الغنى إلى الغنى شيئاً طمعاً في عوض أكثر أو مساو من ماله. وهذا أيضاً نوع هدية، وحقيقته ترجع إلى هبة بشرط العوض، وإذا وفي بما (يطمع فيه)[٣] من العوض فلا ريب في حليته. قال الصادق عليه السلام: «الربا رباءان: ربا يؤكل، وربا لا يؤكل.

(١) البقرة، الآية: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٢) البقرة، الآية: ٢٧٥.

(٣) في النسخ: «يطعمه»، فرجحنا ما اثبتناه.

فاما الذي يؤكل فهديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها، فـذلك الربـا الذي يؤكل، وهو قول الله تعالى:

﴿وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ ٱللَّهِ﴾[١].

وأما الذي لايؤكل، فهو الذي نـهى الله عـز وجـل عـنه، وأوعـد عـليه النـار»[٢].

وعنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الهدية على ثلاثة وجوه: هدية مكـافأة، وهـدية مصانعة وهدية لله عز وجل»[٣]. وفي بعض الأخبار نوع إشعار بالحل، وإن لم يتحقق الوفاء بما (يطمع فيه)[٤] من العوض، كخبر اسحق بن عمار عـن الصـادق عليه السلام: «قـال: قلت له عليه السلام: الرجل الفقير يهدى إلي الهدية، يتعرض لما عـندى، فآخـذها ولا أعـطيه شيئاً أيحل لي؟ قال نعم! هي لك حلال، ولكن لا تدع أن تـعطيه»[٥]. وهـل يـحل مـع إعطائه العوض المطموع فيه إذا لم يكن من ماله بل كان من الأموال التي اعطته الناس ليصرف إلى الفقراء من الزكوات والأخماس وسائر وجوه البر، والظاهر الحل إذا كان المهدى من أهل الاستحقاق والمهدى له مـعطياً إيـاه، وإن لم يكـن ليـهدى له شـيئاً. وفيه تأمل، كما يظهر بعد ذلك.

الثالثة ـ أن يقصد به الاعانة بعمل معين، كـالمحتاج إلى السـلطان أو ذى شـوكة يهدى إلى وكيلهما، أو من له مكانة عندهما، فينظر إلى ذلك العمل، فـإن كـان حـراماً، كالسعى في تنجز إدرار حرام أو ظـلم انسـان أو غـير ذلك، أو واجـباً، كـدفع ظـلم أو استخلاص حق ينحصر الدفع والاستخلاص به، أو شـهادة مـعينة، أو حكـم شـرعى

(١) الروم، الآية: ٣٩.

(٢) صححناه على (الوسائل): كتاب التجارة، ابواب الربا، الباب ٣، الحديث ١.

(٣) صححنا على (الوسائل): كتاب التجارة، ابواب ما يكتسب به، الباب ١١٩، الحديث ١.

(٤) في النسخ: «يطمعه».

(٥) صححناه على (الوسائل): كتاب التجارة، ابواب ما يكتسب به، الباب ١١٩، الحديث ٢.

يجب عليه، أو أمثال ذلك، فهو رشوة محرمة يحرم أخذها، وإن كان العمل مباحاً لا حراماً ولا واجباً. فان كان فيه تعب، بحيث جاز الاستئجار عليه، فاما يأخذه حلال وجار مجرى الجعالة، كأن يقول: أوصل هذه الفضة إلى السلطان، ولك دينار. أو اقترح على فلان أن يعينني على كذا أو يعطيني كذا، وتوقف تنجز غرضه على تعب أو كلام طويل، فما يأخذه في جميع ذلك مباح، إذا كان الغرض مشروعاً مباحاً، وهو مثل ما يأخذه وكيل القاضي للخصومة بين يديه، بشرط ألا يتعدى من الحق. وإن لم يكن العمل مما فيه تعب، بل كان مثل كلمة أو فعلة لا تعب فيها أصلا، ولكن كانت تلك الكلمة أو تلك الفعلة من مثله مفيدة، لكونه ذا منزلة، كقوله للبواب لا تغلق دونه باب السلطان، فقال بعض العلماء: الآخذ على هذا حرام، إذ لم يثبت في الشرع جواز ذلك. ويقرب من هذا أخذ الطبيب العوض على كلمة واحدة ينبه بها على دواء يتفرد بمعرفته. وفيه نظر، إذ الظاهر جواز هذا الأخذ مع مشروعية الغرض وعدم كونه واجباً عليه.

الرابعة ـ أن يطلب به حصول التودد والمحبة، ولكن لا من حيث إنه تودد فقط، بل ليتوصل بجاهه إلى اغراض ينحصر جنسها وإن لم ينحصر عينها، وكان بحيث لولا جاهه لكان لا يهدى اليه، فان كان جاهه لأجل علم أو ورع أو نسب فالأمر فيه أخف والظاهر كون الأخذ حينئذ مكروهاً، لأنه هدية في الظاهر مع كونه مشابهاً للرشوة. وإن كان لأجل ولاية تولاها، من قضاء أو حكومة أو ولاية صدقة أو وقف أو جباية مال أو غير ذلك من الاعمال السلطانية، فالظاهر كون ما يأخذه حراماً لو كان بحيث لا يهدى إليه لولا تلك الولاية، لأنه رشوة عرضت في معرض الهدية، إذ القصد بها في الحال طلب التقرب والمحبة، ولكن لأمر ينحصر في جنسه، لظهور أن ما يمكن التوصل إليه بالولايات ماذا، قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية، والقتل بالموعظة، يقتل البريء لتوعظ به العامة».

وروى: «أنه ﷺ بعث والياً على صدقات الأزد، فلما جاء أمسك بعض ما معه، وقال: هذا لكم وهذا لي هدية. فقال ﷺ: ألا جلست في بيت ابيك وبيت امك حتى تأتيك هدية إن كنت صادقاً! ثم قال: مالي استعمل الرجل منكم، فيقول: هذه لكم وهذه هدية لي، ألا جلس في بيت أمه ليهدى له! والذى نفسى بيده! لا يأخذ منكم أحد شيئاً بغير حقه إلا أتى الله بحمله، ولا يأتين أحدكم يوم القيامة ببعير له رغاء، أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر... ثم رفع يديه حتى رأوا بياض ابطيه، وقال: اللهم هل بلغت؟»(١).

وعلى هذا، فينبغى لكل وال أو حاكم وقاض وغيرهم من عمال السلاطين، أن يقدر نفسه في بيت ابيه وامه معزولا بلا شغل، فما كان يعطى حينئذ يجوز له أن يأخذه في ولايته أيضاً، وما لا يعطى مع عزله ويعطى لولايته يحرم أخذه، وما أشكل عليه من عطايا اصدقائه فهو شبهة، وطريق الاحتياط فيها واضح.

وصل

(الورع عن الحرام)

ضد عدم الاجتناب عن الحرام التنزه والاحتياط عنه، وهو الورع بأحد اطلاقيه. فإن الورع قد يفسر بملكة التنزه والاجتناب عن مال الحرام أكلاً وطلباً وأخذاً واستعمالاً، وقد يفسر بكف النفس عن مطلق المعاصى ومنعها عما لا ينبغى. فعلى الأول يكون ضداً لعدم الاجتناب عن المال الحرام، ويكون من رذائل قوة الشهوة، وعلى الثانى يكون ضداً لملكة الولوع على مطلق المعصية، ويكون من رذائل القوة الغضبية والشهوية جميعاً.

---

(١) صححنا هذين النبويين على ما في (احياء العلوم): ٢ / ١٣٧.

ثم الظاهر ان التقوى مرادفة للورع، فإن لها ايضاً تفسيرين: احدهما: الاتقاء عن الأموال المحرمة، وقد اطلقت التقوى في بعض الأخبار على هذا المعنى. وثانيهما: ملكة الاتقاء عن مطلق المعاصي، خوفاً من سخط الله وطلباً لرضاه. فعلى الأول يكون ضداً لعدم التنزه عن المال الحرام ورذيلة لقوة الشهوة، وعلى الثاني يكون ضداً لملكة ارتكاب المعاصي ورذيلة للقوتين معاً.

ثم اللازم على طريقتنا ان يذكر الورع والتقوى بالتفسير الأول هنا، وبالتفسير الثاني في المقام الرابع الذي نذكر فيه ما يتعلق بالقوتين أو بالثلاث من الرذائل والفضائل. إلا انا نذكر ما ورد في فضيلتهما هنا، لدلالة ما ورد في فضيلتهما بالتفسير الثاني على فضيلتهما بالتفسير الأول أيضاً، ولعدم فائدة في استئناف عنوان على حدة لمطلق المعصية وذكر ما ورد في ذمها، ثم تذييلها بضدها الذي هو الورع والتقوى بتفسير يهما العام. إذ بعد ذكر جميع الأجناس والانواع والاصناف من المعاصي والطاعات، بأحكامها ولوازمها وذمها ومدحها، لا فائدة لاستئناف ذكر مطلق المعصية، أو الطاعة، إذ لا يتعلق بهما غرض سوى ذكر ما ورد في ذم مطلق المعصية، وماورد في مدح مطلق الطاعة، وهذا امر ظاهر لا حاجة إليه في كتب الاخلاق. نعم، نشير إلى مطلق العصيان وضده، أعنى الورع والتقوى بالمعنى الأعم، إجمالاً، ضبطاً للأنواع والأقسام.

فصل

(مدح الورع)

الورع والتقوى عن الحرام أعظم المنجيات، وعمدة ما ينال به إلى السعادات ورفع الدرجات. قال رسول الله ﷺ: «خير دينكم الورع». وقال ﷺ: «من لقى الله سبحانه ورعاً، أعطاه الله ثواب الاسلام كله». وفي بعض الكتب السماوية: «وأما

الورعون، فاني استحيي أن أحاسبهم». وقال الباقر عليه السلام: «إن أشد العبادة الورع». وقال عليه السلام: «ما شيعتنا إلا من اتقى الله واطاعه، فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة. أحب العباد إلى الله تعالى واكرمهم عليه أبقاهم واعملهم بطاعته». وقال الصادق عليه السلام: «أوصيك بتقوى الله والورع والاجتهاد، واعلم أنه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه». وقال: «اتقوا الله وصونوا دينكم بالورع». وقال عليه السلام: «عليكم بالورع، فانه لا ينال ما عند الله إلا بالورع». وقال عليه السلام: «إن الله ضمن لمن اتقاه، أن يحوله عما يكره إلى ما يحب، ويرزقه من حيث لا يحتسب». وقال عليه السلام: «إن قليل العمل مع التقوى خير من كثير بلا تقوى». وقال عليه السلام: «ما نقل الله عبداً من ذل المعاصي إلى عز التقوى، إلا أغناه من غير مال، وأعزه من غير عشيرة، وآنسه من غير بشر». وقال عليه السلام: «إنما اصحابي من اشتد ورعه، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه: هؤلاء أصحابي». وقال عليه السلام: «ألا وإن من اتباع امرنا وارادته الورع، فتزينوا به يرحمكم الله، وكيدوا أعداءنا به ينعشكم الله». وقال عليه السلام: «اعينونا بالورع، فان من لقي الله تعالى منكم بالورع، كان له عند الله فرجاً. إن الله عز وجل يقول:

﴿وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا﴾[1].

فمنا النبي، ومنا الصديق والشهداء والصالحون». وقال أبو جعفر عليه السلام: «قال الله عز وجل: يابن آدم، اجتنب ما حرم عليك، تكن من أورع الناس». وسئل الصادق عليه السلام عن الورع من الناس، فقال: «الذي يتورع عن محارم الله عز وجل»[2].

ولكون طلب الحرام وعدم الاجتناب عنه باعثاً للهلاك وتوقف النجاة والسعادة

---

(١) النساء، الآية: ٦٩.

(٢) صححنا الاحاديث الواردة في هذا الفصل على الكافي باب الطاعة والتقوى، وباب الورع. وعلى (البحار): ٢ مج ١٥/ ٩٦ـ ٩٨ باب الطاعة والتقوى، وباب الورع واجتناب الشبهات.

في الآخرة على الورع عن المحرمات، مع افتقار الناس في الدنيا إلى المطاعم والملابس، ورد في فضيلة كسب الحلال ومدحه ما ورد.

قال رسول الله ﷺ: «طلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة». وقال ﷺ: «من بات كالاً من طلب الحلال، بات مغفوراً له». وقال ﷺ: «العبادة سبعون جزأ، أفضلها طلب الحلال». وقال ﷺ: «العبادة عشرة اجزاء تسعة اجزائه في طلب الحلال». وقال ﷺ: «من أكل من كد يده، مر على الصراط كالبرق الخاطف». وقال ﷺ: «من أكل من كد يده، نظر الله إليه بالرحمة، ثم لا يعذبه ابداً». وقال ﷺ: «من أكل من كد يده حلالا، فتح الله له ابواب الجنة، يدخل من أيها شاء». وقال ﷺ: «من أكل من كد يده، كان يوم القيامة في عداد الأنبياء، ويأخذ ثواب الأنبياء». وقال ﷺ: «من طلب الدنيا استعفافا عن الناس وسعياً على أهله وتعطفاً على جاره، لقى الله عز وجل يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر»[1]. وكان ﷺ إذا نظر إلى الرجل وأعجبه، قال: «هل له حرفة؟ فان قال: لا، قال: سقط من عيني. قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: لأن المؤمن إذا لم تكن له حرفة يعيش بدينه». وقال ﷺ: «من سعى على عياله من حله، فهو كالمجاهد في سبيل الله». وقال ﷺ: «من طلب الدنيا حلالاً في عفاف، كان في درجة الشهداء». وقال ﷺ: «من أكل الحلال أربعين يوماً، نور الله قلبه، وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه». وطلب منه ﷺ بعض الصحابة أن يجعله الله تعالى مستجاب الدعوة، فقال له: «أطب طعمتك تستجب دعوتك». وقال الصادق عليه السلام: «اقرؤا من لقيتم من اصحابكم السلام، وقولوا لهم: إن فلان بن فلان يقرؤكم السلام، وقولوا لهم: عليكم بتقوى الله عز وجل، وما ينال به ما عند الله، إني والله ما آمركم إلا بما نأمر به أنفسنا،

---

(١) صححنا اكثر الأحاديث المذكورة هنا على الوسائل: كتاب التجارة، ابواب مقدماتها، الباب ٤. وعلى فروع الكافي: كتاب المعيشة، باب الحث على الطلب والتعرض للرزق.

فعليكم بالجد والاجتهاد، وإذا صليتم الصبح وانصرفتم، فبكروا في طلب الرزق، واطلبوا الحلال، فان الله عز وجل سيرزقكم ويعينكم عليه»(١).

فصل

(مداخل الحلال)

إعلم أن مداخل الحلال خمسة:

الأول ـ ما لا يوخذ من مالك، كنيل المعادن، وإحياء الموات، والاصطياد، والاحتطاب، والاحتشاش، والاستقاء من الشطوط والأنهار. وهذا حلال بشرط عدم صيرورته مختصاً بذى حرمة من الناس، وتفصيل ذلك موكولٌ إلى كتاب احياء الموات.

الثانى ـ ما يؤخذ قهراً ممن لا حرمة له، وهو الفىء، والغنيمة، وسائر أموال الكفار المحاربين. وذلك حلال للمسلمين بالشروط المقررة في كتاب الغنائم والجزية.

الثالث ـ ما ينتقل إليه بالرضى من غير عوض، من حى أو ميت، كالهبة، والميراث، والوصية، والصدقات. وهذا حلال بشرط أن يكون المنقول منه اكتسبه من مداخل الحلال، وبضمن سائر الشروط المقررة في كتاب الهبات والفرايض والوصايا والصدقات.

الرابع ـ ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة، وذلك حلال بالشرائط والآداب المقررة في فن المعاملات من الفقه، من البيع، والسلم، والاجارة، والصلح، والشركة، والمضاربة، والمزارعة والمساقاة، والحوالة، والضمان، والكتابة، والخلع، والصداق، وغير ذلك

(١) صححنا الحديث على الوسائل: كتاب التجارة، في الباب المتقدم.

من المعاوضات.

الخامس ـ ما يحصل من الزارعة ومنافع الحيوانات. وهو حلال إذا كان الأرض والبذر والماء والحيوانات حلالاً بأحد الوجوه المتقدمة.

فهذه مداخل الحلال، فينبغي لطالب النجاة أن يكون ما يكتسبه من المال من أحد هذه المداخل، بعد فتوى الفقيه العدل بحصول شرائط الحلية.

فصل
(درجات الورع)

قسم بعض العلماء الورع والتقوى عن الحرام على اربع درجات:

الأولى ـ ورع العدول: وهو الاجتناب عن كل ما يلزم الفسق باقتحامه، وتسقط به العدالة، ويثبت به العصيان والتعرض للنار، وهو الورع عن كل ما يحرمه فتوى المجتهدين.

الثانية ـ ورع الصالحين: وهو الاجتناب من الشبهات أيضاً.

الثالثة ـ الورع عما يخاف اداؤه إلى محرم أو شبهة ايضاً، وإن لم يكن في نفسه حراماً ولا شبهة، فهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس.

الرابعة ـ ورع الصديقين: وهو الاجتناب عن كل ما ليس لله، ويتناول لغير الله، وغير نيته التقوى على عبادته وإن كان حلالاً صرفاً لا يخاف اداؤه إلى حرام أو شبهة. والصديقون الذين هذه درجتهم هم الموحدون المتجردون عن حظوظ انفسهم، المتفردون لله تعالى بالقصد، الراؤن كل ما ليس لله تعالى حراماً، العاملون بقوله سبحانه:

﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1].

---

(١) الانعام، الآية: ٩١.

تتميم

قال الصادق عليه السلام: «التقوى على ثلاثة أوجه: تقوى من خوف النار والعقاب، وهو ترك الحرام، وهو تقوى العام. وتقوى من الله، وهو ترك الشبهات فضلا عن الحرام، وهو تقوى الخاص. وتقوى في الله، وهو ترك الحلال فضلا عن الشبهة»[1].

والى هذه المراتب الثلاث أشير في الكتاب الإلهي بقوله:

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا ٱتَّقَوا وَّ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا وَّ ءَامَنُوا ثُمَّ ٱتَّقَوا وَّ أَحْسَنُوا وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

الغدر والخيانة

في المال أو العرض أو الجاه. ويدخل تحته الذهاب بحقوق الناس خفية، وحبسها من غير عسر، وبالبخس في الوزن والكيل، وبالغش بما يخفى، وغير ذلك من التدليسات المموهة والتلبيسات المحرمة. وجميع ذلك من خباثة القوة الشهوية ورذائلها، ومن الرذائل المهلكة وخبائثها. وقد وردت في ذم الخيانة وبأقسامها أخبار كثيرة، وجميع ما يدل على ذم الذهاب بحقوق الناس وأخذ أموالهم بدون رضاهم يدل على ذمها.

وضد الخيانة (الأمانة)، وقد وردت في مدحها وعظم فوائدها اخبار كثيرة، كقول الصادق عليه السلام: «إن الله عز وجل لم يبعث نبياً إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البر والفاجر». وقوله عليه السلام: «لا تغتروا بصلاتهم ولا بصيامهم، فان الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم بصدق الحديث وأداء

---

(١) هذا مقتبس من (مصباح الشريعة): الباب ٨٣ وفيه تقديم وتأخير في مراتب التقوى عما هنا ولم يتبين لنا وجه صحة التعبير: تقوى العام وتقوى الخاص، فاثبتناه كما وجدناه.

(٢) المائدة، الآية: ٩٣.

الأمانة»[١]. وقوله عليه السلام: «انظر ما بلغ به علي عليه السلام عند رسول الله صلى الله عليه وآله فالزمه، فإن علياً عليه السلام إنما بلغ ما بلغ به عند رسول الله صلى الله عليه وآله بصدق الحديث وأداء الامانة»[٢]. وقوله عليه السلام: «ثلاث لا عذر فيها لأحد، أداء الامانة إلى البر والفاجر، والوفاء بالعهد إلى البر والفاجر، وبر الوالدين، برين كانا أو فاجرين»[٣]. وقوله عليه السلام: «كان أبى يقول: اربع من كن فيه كمل ايمانه وإن كان من قرنه إلى قدمه ذنوباً لم ينقصه ذلك، وهي: الصدق، وأداء الأمانة، والحياء، وحسن الخلق»[٤]. وقوله عليه السلام: «أهل الأرض مرحومون ما يخافون وأدوا الأمانة وعملوا بالحق». وقيل له عليه السلام: «إن امرأة بالمدينة كان الناس يضعون عندها الجوارى فيصلحن، ومع ذلك ما رأينا مثل ما صب عليها من الرزق. فقال: إنها صدقت الحديث وأدت الأمانة، وذلك يجلب الرزق»[٥]. والأخبار في فضيلة الامانة كثيرة. ولقد قال لقمان: «ما بلغت إلى ما بلغت إليه من الحكمة، إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة». فمن تأمل في ذم الخيانة وايجابها الفضيحة والعار في الدنيا والعذاب والنار في الآخرة، وفي فضيلة الأمانة وأدائها إلى خيرالدنيا وسعادة الاخرة، سهل عليه ترك الخيانة والاتصاف بالأمانة.

---

(١) في نسخ جامع السعادات والبحار والوسائل: «عند صدق الحديث...». ورجحنا نسخة الكافي.

(٢) صححنا هذه الاحاديث الثلاثة على البحار: ٢ مج ١٥ / ١٢٣ ـ ١٢٤، باب الصدق ولزوم أداء الأمانة. وعلى الكافي: باب الصدق واداء الأمانة. وعلى الوسائل: ک ب الوديعة الباب ١.

(٣) روى في الكافي باب بر الوالدين ـ:هذا الحديث عن ابى جعفر عليه السلام وجاء فيه: «ثلاث لم يجعل الله عز وجل لأحد فيهن رخصة...»، ولكن في الوسائل ـكتاب الوديعة الباب ٢ الطبعة الحجرية ـ رواه عن الكافي كما في المتن.

(٤) روى في الكافي باب حسن الخلق ـ هذا الحديث عن الصادق عليه السلام، وليس فيه «كان ابى يقول».

(٥) صححنا الحديث على الوسائل: كتاب الوديعة، الباب ١. وهو يرويه عن الكافي.

انواع الفجور

من الزنا، واللواط، وشرب الخمر، والاشتغال بالملاهى، واستعمال آلاتها، من العود، والمزمار، والرباب، والدف، وامثالها. فإن كل ذلك من رذائل القوة الشهوية. وكذا لبس الذهب والحرير للرجال. وقد وردت في ذم كل واحد منهما بخصوصه اخبار كثيرة، ولا حاجة إلى ذكرها، لشيوعها واشتهارها.

ومنها:

الخوض في الباطل

وهو التكلم في المعاصى والفجور وحكايتها، كحكايات أحوال النساء، ومجالس الخمر، ومقامات الفساق، وتنعم الأغنياء، وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة واحوالهم المكروهة وأمثال ذلك. فكل ذلك من رداءة القوة الشهوية وخبائثها.

ثم لما كانت أنواع الباطل غير محصورة لكثرتها، فالخوض فيه أيضاً كذلك، وتكون له انواع غير متناهية، ولا يفتح باب كلام إلا وينتهى إلى واحد منها، فلا خلاص منه إلا بأقتصار الكلام على قدر الحاجة من مهمات الدين والدنيا. وربما وقعت من الرجل من انواع الخوض في الباطل كلمة تهلكه وهو مستحقر لها، فإن أكثر الخوض في الباطل حرام، ولذا قال رسول الله ﷺ: «اعظم الناس خطايا يوم القيامة اكثرهم خوضاً في الباطل». وإليه الاشارة بقوله تعالى:

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾[1]. وقوله تعالى: **﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾**[2].

---

(١) المدثر، الآية: ٤٥.

(٢) النساء، الآية: ١٤٠.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما يظن ان تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة»(١). وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «اكثر الناس ذنوباً يوم القيامة، اكثرهم كلاماً في معصية الله». وكان رجل من الأنصار يمر على مجلس الخائضين في الباطل، فيقول لهم: «توضؤا، فإن بعض ما تقولون شر من الحدث».

ثم الخوض في الباطل هو ذكر محظورات سبق وجودها بمجرد شهوة النفس، من دون حاجة داعية اليه، فلا مدخلية له بمثل الغيبة والنميمة والفحش والمراء والجدال وأمثالها، ويدخل فيه الخوض في حكايات البدع والمذاهب الفاسدة، فإن الحديث عنهاخوض في الباطل، وورد النهى عنه.

ومنها:

التكلم بما لايعنى أو بالفضول

والمراد بالأول: التكلم بما لا فائدة فيه أصلاً، لا في الدين ولا في الدنيا، والثانى -أعنى فضول الكلام -: أعم منه، إذ يتناول الخوض في ما لا يعنى والزيادة في ما يعنى على قدر الحاجة. فان من يعنيه أمر ويتمكن من تقريره وتأديته وتأدية مقصوده بكلمة واحدة، ومع ذلك ذكر كلمتين، فالثانية فضول، أى فضل على الحاجة. ولا ريب في أن التكلم بما لا يعنى وبالفضول مذموم، وإن لم يكن فيه إثم، وهو ناش عن رداءة القوة الشهوية، إذ الباعث عليه ليس إلا مجرد تشهى النفس وهواها.

(١) صححناه على كنز العمال: ٢ / ١١٢.

والسر في ذمه: أنه يوجب تضييع الوقت، والمنع من الذكر والفكر وربما يبنى لأجل تهليله أو تسبيحه قصر في الجنة، وربما ينفح من نفحات رحمة الله عند الفكرة ما يعظم جدواه. فمن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز، فأخذ بدله مدرة لا ينتفع بها، كان خاسراً. فمن ترك ذكر الله والفكر في عجائب قدرته، واشتغل بمباح لا يعنيه، وإن لم يأثم، إلا أنه قد خسر، حيث فاته الربح العظيم بذكر الله وفكره. فان رأس مال العبد أوقاته، ومهما صرفها إلى مالا يعنيه، ولم يدخر بها ثواباً في الآخرة، فقد ضيع رأس ماله. على أن الغالب تأدية الخوض في ما لا يعنى وفي الفضول إلى الخوض في الباطل، وربما أدى إلى الكذب بالزيادة والنقصان. ولذا ورد في ذمه ما ورد، وقد روى: «أنه استشهد يوم احد غلام من أصحاب النبى ﷺ ووجد على بطنه حجر مربوط من الجوع، فمسحت امه التراب عن وجهه، وقالت: هنيئاً لك الجنة يا بنى! فقال النبى ﷺ: وما يدريك؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضره؟». وورد أيضاً: «أن رسول الله ﷺ قال لبعض اصحابه ـ وهو مريض ـ: ابشر. فقالت امه: هنيئاً لك الجنة! فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك؟ لعله قال ما لا يعنيه أو منع مالا يعنيه؟»: يعنى إنما تتهنأ الجنة لمن لا يحاسب، ومن يتكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه، وإن كان كلامه مباحاً، فلا تتهنأ له الجنة مع المناقشة في الحساب، فانه نوع من العذاب. وروى: «أنه تكلم رجل عند النبى ﷺ فأكثر، فقال له النبى: كم دون لسانك من حجاب؟ فقال: شفتاى واسنانى. فقال: أفما كان في ذلك ما يرد كلامك؟». وفي رواية أخرى: «أنه قال ذلك في رجل أثنى عليه، فاستهتر في الكلام، ثم قال: ما أوتى رجل شراً من فضل لسانه». وروى: «أنه قدم رهط من بنى عامر على رسول الله ﷺ، فشرعوا بالمدح والثناء عليه. فقال ﷺ: قولوا قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان!»[1].

(١) صححنا احاديث الباب كلها على (احياء العلوم): ٣/٩٣ ـ ٩٩، و على (كنز العمال): ٢ / ١٣٠، ١٨٤.

ومراده ﷺ: أن اللسان إذا اطلق الثناء، ولو بالصدق، فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها. وقال بعض الصحابة: «إن الرجل ليكلمنى بالكلام وجوابه أشهى الي من الماء البارد على الظمآن، فاتركه خيفة أن يكون فضولاً». وقال بعض الأكابر: «من كثر كلامه كثر كذبه». وقال بعضهم: «يهلك الناس في خصلتين: فضول المال، وفضول الكلام».

فصل

(حد التكلم بما لايعنى)

التكلم بما لا يعنى وبالفضول لا تنحصر انواعه وأقسامه، لعدم تناهيها وإنما حده أن تتكلم بما لو سكت عنه لم تأثم، ولم تتضرر في شيء مما يتعلق بك، ولم يعطل شيء من أمورك. مثاله: أن تحكى مع قوم اسفارك، وما رأيت فيها من جبال وأنهار، وما وقع لک من الوقايع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم. فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تتضرر، ولا يتصور فيها فائدة دينية ولا دنيوية لأحد، فإذا بالغت في الاجتهاد حتى لا تمتزج بحكايتك زيادة ونقصان، ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة، ولا اغتياب شخص ولا مذمة شيء مما خلقه الله، فانك مع ذلك كله مضيع وقتك.

ثم كما إن التكلم بما لا يعنيك مذموم، كذلك سؤالك غيرك عما لا يعنيك مذموم، بل هو أشد ذماً، لأنك بالسؤال مضيع وقتك، وقد الجأت أيضاً صاحبك بالجواب إلى تضييع وقته. وهذا إذا كان الشيء مما لا يتطرق إلى السؤال عنه آفة، ولو كان في جوابه آفة ـ كما هو الشأن في اكثر الأسئلة عما لا يعنيك ـ كنت آثماً عاصياً. مثلاً: لو سألت غيرك عن عبادته، فتقول: هل أنت صائم؟ فان قال: نعم، كان مظهراً

عبادته، فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل الرياء سقطت عبادته ـ على الأقل ـ من دون عبادة السر، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات، وإن قال: لا، كان كاذباً، وإن سكت، كان مستحقراً إياك وتأذيت به، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى تعب وجهد فيه. فقد عرضته بالسؤال إما للرياء والكذب، أو للاستحقار، أو التعب في حيلة الدفع.

وكذلك سؤالك عن كل ما يخفى ويستحيى من اظهاره، أو عما يحتمل أن يكون في إظهاره مانع، كان يحدث به أحد غيرك، فتسأله وتقول: ماذا تقول؟ وفيم أنتم؟ وكأن ترى انساناً في الطريق فتقول: من أين؟ إذ ربما يمنع مانع من اظهار مقصوده. ومن هذا القبيل سؤالك غيرك: لم أنت ضعيف؟ أو ما هذا الضعف أو الهزال الذي حدث بك؟ أو أي مرض فيك؟ وامثال ذلك. وأشد من ذلك ان تخوف مريضاً بشدة مرضه، وتقول: ما اشد مرضك وما اسوأ حالك! فإن جميع ذلك وامثالها، مع كونها من فضول الكلام والخوض في مالا يعنى، يتضمن إثماً وايذاء. وليس من مجرد التكلم بما لا يعنى والفضول، وإنما مجرد ما لا يعنى مالا يتصور فيه ايذاء وكسر خاطر واستحياء من الجواب، كما روى: «أن لقمان دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع، ولم يكن يراها قبل ذلك، فجعل يتعجب مما يرى. فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته الحكمة، فأمسك نفسه ولم يسأله. فلما فرغ داود، قام ولبسها، وقال: نعم الدرع للحرب! فقال لقمان: «الصمت حكم وقليل فاعله». وهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وإيقاع في رياء أو كذب، فهو مما لا يعنى، وتركه من حسن الاسلام.

فصل
(علاج الخوض فيما لايعنى)

سبب الخوض في ما لا يعنى وفي فضول الكلام: إما الحرص على معرفة ما لا حاجة اليه، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد، أو ترجية الوقت بحكايات احوال لافائدة فيها، وكل ذلك من رداءة قوة الشهوة. وعلاج ذلك من حيث العلم: أن يتذكر ذمه كما مر، ومدح ضده، أعنى الصمت، وتركه ـ كما يأتى ـ ويعلم أن الموت بين يديه، وأنه مسؤل عن كل كلمة، وأن أنفاسه رأس ماله، وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين، فاهماله وتضييعه خسران، ومن حيث العمل أن يعتزل عن الناس مهما امكن، ويلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه ليتعود لسانه ترك ما لا يعنيه، وأن يقدم التأمل والتروى على كل كلام يريد أن يتكلم به، فان كان فيه فائدة دينية أو دنيوية تكلم به وإلا تركه. وكان بعضهم يضع في فمه حجراً، خوفاً من التكلم بالفضول وما لا يعنيه.

فصل
(الصمت)

ضد التكلم بما لا يعنيه وبالفضول تركها، إما بالصمت أو بالتكلم فيما يعنيه مما يتعلق بدينه أو دنياه. وفوائد الصمت ومدحه يأتى في موضعه. وقد وردت أخبار في المدح على خصوص ترك ما لا يعنى وفضول الكلام، كقول النبى ﷺ: «من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه». وقوله ﷺ: «طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه، وأنفق الفضل من ماله!». وانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك، فامسكوا فضل المال واطلقوا فضل اللسان. وروى: «أنه ﷺ قال ذات يوم: إن اول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة. فلما دخل هذا الرجل، قالوا له: اخبرنا بأوثق عملك في

نفسك ترجو به. فقال: انى رجل ضعيف العمل، وأوثق ما ارجو الله به سلامة الصدر وترك مالا يعنيني». وقال ﷺ لأبى ذر: «ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان. قال: بلى يا رسول الله. قال: هو الصمت، وحسن الخلق، وترك ما لا يعنيك». قال ابن عباس: «خمس هن أحسن من الدراهم المونقة: لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر. ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً، فانه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت. ولا تمار حليما ولاسفيهاً، فإن الحليم يغلبك بصمته، وإن السفيه يؤذيك بمنطقه. واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به، واعفه مما تحب أن يعفيك منه. واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالاحسان مأخوذ بالاحترام»[١]. وقيل للقمان: ما حكمتك؟ قال: «لا أسأل عما كفيت، ولا أتكلف ما لا يعنيني». وما ورد في فضيلة ترك الفضول وما لا يعنى في اخبار الحجج عليهم السلام وكلمات الأكابر من الحكماء والعرفاء اكثر من أن تحصى، وما ذكرناه كاف لأهل الاستبصار.

(١) ذكر هذه الرواية عن ابن عباس في (احياء العلوم): ٣ / ٩٧. وفيه اختلاف كثير عما هنا، ولم يحصل لنا تحققها على مصدر آخر. والأحاديث النبوية هنا رواها في (احياء العلوم) ايضاً في الموقع المذكور.

فهرس الجزء الأول من (جامع السعادات)

الباب الثاني: في بيان أقسام الأخلاقي وتفصيل القول فيها

الباب الثالث: في طريق حفظ اعتدال الأخلاق المحمودة واستحصالها بازالة نقائضها المذمومة

المقام الأول: في معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلة

المقام الثانى: فيما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج

المقام الثالث: فيما يتعلق بالقوة الشهوية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج